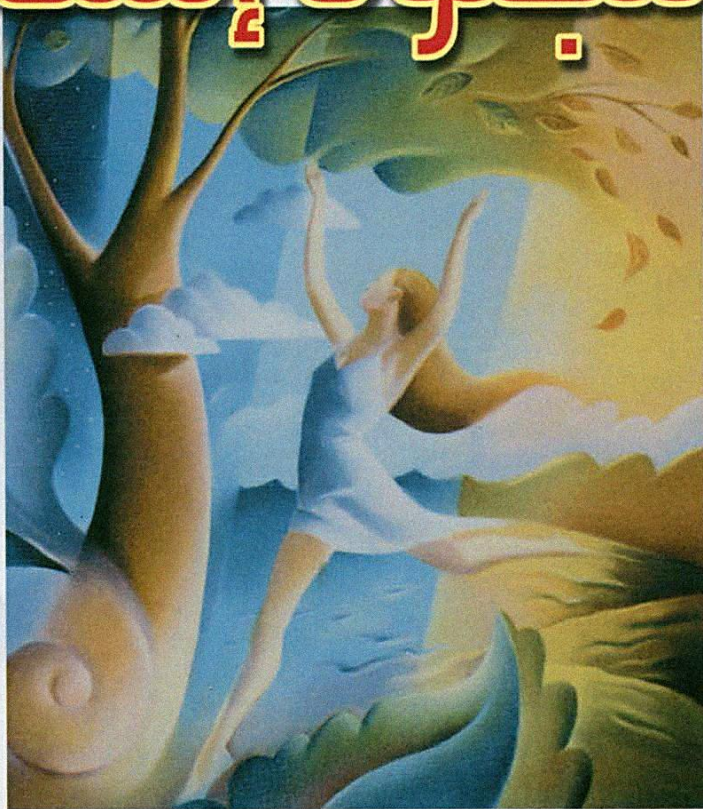


لويس آراغون

مجنونون النساء



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
المتحدة
بي. سي. الجندوب

جنون ایسا

- مجنون إلسا
- لويس أراغون
- الطبعة الثالثة ٢٠٠٧
- جميع الحقوق محفوظة
- دار الجندي للنشر والتوزيع
- سورية - دمشق - ص. ب: ٣٣٤١٨
- هاتف: ٠٠٩٦٣/١١/٣٣١٧٠١٩
- فاكس: ٠٠٩٦٣/١١/٣٣١٧٠٠٨

أراغون

مجنون إلسا

ترجمة

د. سامي الجندي

كلمة شكر

ليست كلمة شكر من دار الجندي فقط للأستاذ ياسين رفاعية، الذي احتفظ لأكثر من عشرين عاماً بالمقدمة التي لم تنشر وإنما هي شكر من كل من يؤمن بالكلمة المبدعة وبالأدب الرفيع وبالجهد المضني الذي بذله المرحوم سامي الجندي في ترجمة هذا الإبداع.

الناشر

المقدمة التي لم تنشر

ياسين رفاعية

كان لرحيل الدكتور سامي الجندي وقع حزن وأسى ليس في الوسط الثقافي وحسب بل أيضاً في الوسط السياسي والاجتماعي العام.

وهو - إن صح القول - آخر العمالقة في الإبداع الأدبي في سورية، تميز بقصصه القصيرة ورواياته وحتى كتبه السياسية بروح ورؤية مختلفة عن توجهات رفاقه وزملائه. وكان كتاب «عرب ويهود» الذي قدم له الملك حسين ونشر في أوائل السبعينات يكاد يكون استشرافاً للمستقبل، فما يحدث الآن من محاولات للسلام بين العرب وإسرائيل تنبأ به الجندي في ذلك الكتاب والذي سبب له مشاكل كثيرة في ذلك الوقت.

كان سياسياً لامعاً وكاتباً وطيباً، لكن ما سببى منه بعد رحيله إبداعه الأدبي في روايات منها «صديقي الياس» الذي كتب عنه أكثر من مرة أنه «صديقي اليأس وليس الياس» إضافة إلى «كسرة خبز» و «أحداث في المنفى» وآخر أعماله «رواية سليمان» (١٩٩٤).

وفي ترجمات فائقة الروعة مثل ترجمة «مجنون إلسا» لأراجون التي اعتبرت أفضل الترجمات، ونشرت «دار الكلمة للنشر» في بيروت الكتاب بطبعه أنيقة، في (٤٢٠) صفحة من القطع الكبير، ثم «مائة عام من العزلة» لماركيز و «رامة الشحاذ» لاستورياس. إضافة إلى عشرات الدراسات الفكرية والسياسية.

في حياته ما تغير في تواضعه الجم وخلقته الكريم لا وهو في السلطة «وزيراً للثقافة - ووزيراً للإعلام - ومكلفاً بتشكيل الوزارة» ولا وهو في الغربة. ولا وهو طبيب أسنان كان يعالج أسنان الرفاق بدون أجر. هكذا طوى أوراقه ومضى ليوارى في بلدته السلمية التي يعتبر إسمها الأدبي أكبر بكثير من حجمها الجغرافي ومنها جاءت أسرة سامي الجندي التي

كانت كلها أدباً وشعراً ونقداً فأشقاء سامي هم: الناقد انعام الجندي والشاعر علي الجندي والقصاص عاصم الجندي. أما الأخ الرابع خالد فاتجه إيجاباً آخر. ومنها أيضاً عمهم الشاعر الساخر أحمد الجندي الذي رحل قبل عامين أو أكثر. ومن هذه البلدة شعراء وكتاب انطلقوا إلى الأفق العربي مثل الشعراء محمد الماغوط وسليمان عواد واسماعيل عامود وغيرهم.

كل هؤلاء احتضنهم سامي الجندي وهو في السلطة وهو خارجها. كان سامي الجندي قبل ثورة الثامن من آذار (مارس) قد خرج من سجن الانفصال معطوباً يعاني أوجاعاً مبرحة في الظهر. وكان يومذاك يكتب إفتاحية جريدة «بردى» السورية التي كان يصدرها المرحوم منير الريس، كان يدخل علي في مكتب الجريدة التي كنت أداوم فيها ليلاً محرراً لصفحتها الثقافية ويجلس إلى طرف طاولتي ويكتب الإفتاحية. ثم نتسامر في أمور كثيرة. وذات يوم، أذكر أنه كان يوم خميس ٧ آذار (مارس) سألني أين أحيط بدلاتي. قلت له : عند خياط أرمني أتعامل معه بالتقسيط. أدفع له كل شهر 25 ليرة إلى أن أسدد ثمنها..

فقال لي: هل تأخذني إليه.. بدلاتي إهزأت، وأنا بحاجة لبدة أو إثنين. وتواعدنا على لقاء يوم الإثنين.

قامت ثورة آذار صباح الجمعة في الثامن منه. ويوم الإثنين كان سامي الجندي قد أصبح وزيراً للثقافة، وأنا أحد موظفيه لأنني كنت في ذلك الحين سكرتيراً أيضاً لتحرير مجلة «المعرفة» التي كان المرحوم فؤاد الشايب يرأس تحريرها وتصدر عن الوزارة نفسها. وكان علينا أن ندخل على الوزير الجديد لتهنئته بالمنصب. وما ان دخلت على مكتبه مع فؤاد الشايب والأمين العام للوزارة وجمهرة من الموظفين، حتى صاح بي: شو... ياسين.. نحن على موعد. ثم التفت الى الجميع وقال: أنا متفق مع ياسين للذهاب إلى الخياط لتفصيل بدلتين. ثم نظر نحوي وقال: أما زلت كفيلاً لي... وضحكنا. وكانت هذه اللفتة الجميلة دعماً لي إلى حين، حيث جاء وزير آخر كان علي خلاف مع سامي وأخرجني من الوزارة. وكان هذا مؤشراً لأن أنطلق إلى المدى الأوسع.

وظللت على صلة مستمرة مع سامي الجندي وخصوصاً عندما إنتقل إلى بيروت.. وعانينا معاً مأساة الحرب الأهلية انتهت بتدمير بيته كاملاً. وكنا نتزاور بدون انقطاع كلما كانت الحرب أقل صحباً. وكان يحلو له دائماً أن يقرأ علي ما كتبه.

وذاذ يوم كان منهمكاً بترجمة أراجون، ويوم انتهى من «مجنون إلسا» أعد للكتاب مقدمة، والتقينا فقرأها عليّ فقلت له:

- هل تسمح دكتور في أن أقول شيئاً

قال :

- تفضل

قلت:

- ما بتزعل

قال:

- أبدأ

قلت له:

- بلا المقدمة.. أترك الكتاب كما هو أفضل.. إن عملك هذا كافي وحده ليشير إلى الجهد الذي بذلته.

وافق فوراً، وترك المقدمة عندي في البيت، التي ظلت بين أوراقنا إلى يومنا هذا، وعندما أهداني كتاب «مجنون إلسا» مطبوعاً، وضعت أوراق المقدمة بين صفحاته ولما بلغني نبأ الوفاة المفجع.. تذكرت المقدمة، فأخرجتها لأقدمها للقارئ وها هي بين يديه بخط سامي الجندي رحمه الله.

١٩٩٦/٣/١٢

العشق طريق أراغون في حربه من أجل العرب

وددت لو أذع هذا الكتاب بدون مقدمة، ان ادفعه «عاري الرأس» للقراء، كما يقول أراجون عن احدى قصائده في هذا الديوان: غير أن الناشر أراد غير ذلك.

وكيف أحيط بصفحات قليلة، بشاعر التحولات الكبرى، البحث الطويل، عن الطريق التي ينبغي على الإنسان أن يسلكها في هذا العصر، حتى إذا اكتشف إحدى حقايقه، تمسك بها ومدّها بأجنحة من الخيال فوضعها في إيمان مطلق وعنيد وطفولي. في ملأ بعيد وخفي منير وزينها بألف لون وخط حتى لقد ظن بعض النقاد أنه يتصنع القلق. خلافاته مع الحزب الشيوعي كانت في أساسها تقديم هذا الحزب ما يظنه مصلحة السياسية على بعض القضايا التي اعتبرها أراجون مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالقضية، وبخاصة الجمالي منها:

عشقه لإلسا ظنناه مجبولاً بالرياء.. غير أن حزنه بعد غروب إلسا لم يدع شكاً لاحد. مثل نشره صورة ستالين لبيكاسو في مجلة «الأدب الفرنسية» التي كان مديراً لها. كان تشبّه نوعاً من تمسك المشرف على الفرق، بأول ما ينجيه من عواصف بحر الحياة، يجد سلامته وأمله، ولذلك اعطى فنه لما يؤمن به.

انتسابه للدائنية ومن ثم السريالية، كان إنضماماً إلى فئة نائرة ضد كل من سبقها، فوضوية لا تؤمن إلا بما بعدها : طموح ينجيه من العذاب الذي كابته طفولته.

لقد وسم المجتمع أيامه الأولى بالحيرة والخوف، كانت ترهبه نظرات الحدب عليه المليئة بنوع من الإحتقار يدركه ولا يدركه. لم يعرف أباه.. كلمة اب كانت سرّاً عنده

مغلفاً بألف تلميح، وكذلك كلمات خال وخالة وأم وجد.. كلمات الإنسانية الأولى التي تفأفئ بها الشفاه وتمنح الحياة الدفء، كان معناها مختلطاً على أراجون.

في الفترة التي ذهب فيها جده الى الجزائر بحثاً عن الثورة، ثم منها الى اسطنبول حيث اختفت اخباره ولد أراجون ولادة غير شرعية.. وبعد رضاع إمتد ثلاثة عشر شهراً استردته أمه، على أنه أخوها.

حين عاد الجد إلى فرنسا، لم يعترف بحفيده وتكرر لابنته التي فتحت نزلاً، ثم عملت خياطة فيما افتتح هو ناديا للقفار اثرى منه... غير أنه، لما أغلقت الحكومة النوادي، وصادرت ممتلكاتها وسجنت - إلا من فرّ من أصحابها - جاء ابنته مستجيراً، كي تعطيه ما يمكنه من الفرار إلى سويسرا، وما كان لديها الا ما تحويه «مطمورة» لويس.

وظل أراجون لا يعرف شيئاً، الا الظنون فأمه تارة أخته وأخرى خالته، وخالته تارة أخته وتارة أمه.. الى أن قدرت أمه أنه بات من حقه أن يعرف من هو.. حينئذ اكتشف عاره، وحزر كل التلميح و التلويح ومجانية بعض الكلمات امامه، وكل ما أحاط به من هوان يحرق قلبه.

تبين أنه مطرود من علائق الانسان بالانسان، وان امه مدانه باجمل ما وضعت: الشاعر الذي ينقلب نحيبه الداخلي الى فرح إنساني.. مبدع القوافي التي تغنيها الجماهير.. الفتى الجميل الساحر الوجه والطبع، حتى بعد ان قطع الثمانين.

هو نفسه كان يخجل (مما سلف من أمره) خجلاً دفعة الى محاولة الإنتحار مرتين، قبل إلساء، حين اكتشفها فعرف العشق، ادرك انه هو الآخر ثمرة عشق وله. انه حرام.. بقاءه معها كان بداية تاريخه الحقيقي.. لم تكن امرأة عنده فحسب كانت تفسيراً جديداً للحياة والأشياء. عندها اطمأن او كاد، اليها خلد في توجيه شراعه على محيط حياته المتقلب.. هي الذي أنقذته من الموت.. كانت الزوجة والرفيقة والأم، وهي التي جعلته يعيش حياته في إقدام وتحذّر..

لقد أحبها فاتحد بها، ومن خلالها رأي مجتمع المستقبل.. آمن أن غاية الاشتراكية هي مجتمع سعيد نواته الاساسية اتحاد زوجين عاشقين، كأنما فرض نفسه النموذج والهدف.. كأنما اختار عشقه لكل الطامحين بعالم أفضل.. وعنده لا يناضل غير العشاق. هو نفسه، وضع حياته رهناً بنضال الجماهير عبر السا هي التي دلته على الدروب التي

تستحق ان يعيش عليها الانسان او ان يموت من أجلها.. ترى أمن أجل ذلك ما انفك يؤكد في السنوات الأخيرة ان حياته لا معنى لها بعد إلسا كان يرفض أي مقال ينشر عنه، ما لم يشر إلى أن نبع إلهامه هو إلسا، فالشاعر عنده ليس شيئاً دون وحي امرأة.

لكننا حينما نقرأ دواوينه فيها نجد مشغولاً بها وحدها كأنما ينسحب الى فترة ما من المعركة، يتزود من حبة لها الى موقعة جديدة على الدرب الطويل.. الا في مجنون إلسا فقد إتحدت في هذا القصيد كل معانيه الكبرى. فقد كان العشق دليله والشعر سنامه في حربه من أجل العرب. كان أراجون وجد حقيقته الكبرى، هو نفسه يؤكد انه لم يكتب شيئاً قبل هذا الجنون كانت يقظته على أخذ ما كتبه إبان ثورة الجزائر.

حين اندلعت هذه الثورة انقسم الفرنسيون فئات كثيرة المعنى - واعني هنا اليساريين الحقيقيين - رأوا فيها فعلاً وطنياً مشروعاً ضدّ وجه فرنسا الامبريالي، الذي ليس وجهها كما كانوا يعتقدون، بل لا يمكن أن يكون وجهاً لأي شعب من شعوب العالم.. إنه وجه المصالح وتجار الدم. لذلك أيدها وخاضوا معارك المظاهرات والبيانات والمرافعات الحقوقية. ورأى بعض فيها حرباً تستنزف أبنائهم دون أن تكون دفاعاً عن أرض الوطن فرفضوها.

وبعض رأى أنها يجب أن تصبح أرضاً فرنسية وأن شعبها لا يستحقها وأشارو إلى نموذج عنه هو العامل الجزائري البائس، ومكنس الطرقات الباريسية.

ووقف أراجون وحده فريقاً.. البعض الأهم في معركة احرار فرنسا من أجل حرية شعب الجزائر، بل حريات الشعوب جميعاً، عكف خارج المظاهرات والاحتجاجات على تاريخ شعبنا وأدبه، فكنا نحن مفاجآتة الكبرى.

كأنه أراد ان يجلو عن عمالنا المهاجرين إلى فرنسا عار البؤس وان يقدمهم على حقيقتهم فرساناً دون فقر. ومن يرد إعتبار الانسان للانسان غير شاعر؟

كان حتى عثر علينا في بطون الكتب من دون انتساب صحيح انه في الحزب الشيوعي الفرنسي يناضل في حقوقه، لكن عشقه الفريد لم يجد له مكاناً في مكاتبه أو بين نظرياته، لقد وجد رفاقه الحقيقيين في صحرائنا، اولئك الذين ما عشق مثلهم احد. فانتسب اليهم وظل منهم، بريئاً مثلهم، نشيده على شفته.

وأخذ معه إلسا إلى دياره الجديدة كي يدلها أصلها الذي تسلسلت منه فأصل إسمها

غريب على الغرب انه مشتق من عزه وهذه من العزى.. لقد اتحد بشعبنا من اعمق اتحاد،
فهو يرى ان التعبير عن العشق لم يكتمل عبر التاريخ فلا بد له من لغة جديدة هي لغة
تسلسل من الزواج بين الفرنسية والعربية.

سامي الجندي

قسمت ثمرة حياتي
قسمين توأمين
كما يتأشبه الصمت والصوت لدى الأصم
فخذ الحكمة أو اختر الجنون

مقدمة الطبعة الأولى

أدع هذا الكتاب دون تقديم. أدفعه للقارئ «عاري الرأس»، لأن كل وسيط بينه وبين القارئ يظل غريباً عليهما مهما تفنن في طريقة التدخل.

أدعه كما هو، فخير النشيد ما كان عارياً حتى القلب.

سامي...

[١]

غرناطة

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة
فإن لم تكن لي فرصة فجبان

معاوية بن أبي سفيان

البداية كانت خطأ لغوياً بالفرنسية . الله أعلم لماذا تحوي مكتبتي مجموعة من جريدة مينيستريل الموسيقية التي عمدت منذ سنة ١٨٣٣ ، كل أحد إلى نشر أغنية « رومانس » لم تطبع من قبل وهي في مجلدات ضخمة تعيق المكان لم أقرأها بل تصفحتها أحياناً . ربما كنت ضائعاً حين عدت إليها سنة ١٩٦٠ فوقعت عيناى على إحدى الأغاني التي كتبها السيد فيكتور لوكونت ، الذي لا أعرف عنه شيئاً ، ووضعت موسيقاها الأنسة بولين دوشانج صديقة مارسيلين ديورد - فللور ، وما كان هذا كله ليستوقفني وانما العنوان : عشية سقوط غرناطة ، والسبب هوس داخل حياتي كلها كنتك الأحلام العائدة ، الأحلام التي تحملها مرة ثانية فترجع بنا إلى بيت ما رأيناه أبداً ، عالم ليلى ، بأزهاره وأنواره ، وعلائق بين بشر لا صلة بينهم وبين من حولنا من بشر اليقظة ، كل ما فيه مختلف ، الاحساسات ، والمراتب ، الفلسفة أو الدين ، والرموز ، والعادات ، والثياب . . . مع ذلك نجدها جميعاً بعد شهور وأحياناً بعد سنوات من الغياب ، حقيقة صارخة ، حتى ليصح أن نتساءل . هه ، المقعد الذي كان هنا في آخر مرة ، ليس موجوداً ، أو نقول لشخص : لقد كبرت يا صديقي . . . غرناطة ، غرناطة الأيام الأخيرة ، غرناطة التي حاصرها الملكان الكاثوليكيان ، مرت ، ولا أدري أين في المرة الأولى ، ربما في جريدة أطفال ، في حلمي ، وما كانت غرناطة تلك إلا كما أغلقت الكتب الرومانتيكية تبدو كاتدرائيات ، أو زوجان مذهبان تحت الجرس الزجاجي القائم على ساعة جدار :

قبل أن أعدو إلى حيث يدعوني البوق
تعالى إلى قلبي ، لأن العاشق الوفي ،
يحمل له دائماً السعادة
وداع جميلته ،
يحمل دائماً له السعادة .

لم يكن هذا باب أحلامي وكنت أغلقت ، معتكر المزاج ، ذلك السقر الضخم بجلده الهولاندي الذي طبعته دار بوسيلج ١٢ شارع كرواسان مونمارتر ، لولا أنني في بيت الأغنية الأول استوقفني نغم وتر ارتضى ، نشاز في اللحظة الأولى . لم أدرك أين موقعه .

. . . عشية سقطت غرناطة
قال فارس لجميلته . . .

لم كانت هكذا عظيمة مرارة البيت الأول على الأذن كما في الفم ؟ عشية سقطت

غرناطة . . . أعدته مرات ثلاثاً أو أربعاً قبل أن أتملّ من السر الذي يكمن في خطأ بياني . الصحيح أن نقول عشية اليوم وليس عشية . . . من طلاق الكلمات هذا ، من الأدغام اللغوي أنامي الشعور بغرابة قصيدة الناظم ، كأنها بديع أبولينيري^(١) يكمن جماله في الغلط نفسه . هنا كان مفتاح الأحلام ، ونهدت أعيد عشية سقطت غرناطة . . . عشية سقطت غرناطة . . . حتى تفتح الألحاح الآلي في عن نوع من أغنية ظننت للوهلة الأولى أنها أتتني من صورة شبيهة بها . ١٣ حزيران المشؤوم . سمعت قبل أن ينقطع التيار ، وأنا في بيت في « المين » نبأ سقوط باريس . . . بل ربما كان ذلك « وداعاً ما للعالم » . . . وأخيراً قبضت على نفسي في سرقة موصوفة لبيت من أغنية . لقد انتهكت قفلاً فريداً فوجدت مزلاجه طوع بناني . . . عشية سقطت غرناطة . . . كان في الأغنية ، عندي ، سرّ آخر : أقحمتي الكلمات درباً لم يكن في بالي ، توحدت وملك هذه المدينة السحرية ، هذا الأبوعبدالله الذي أدري جيداً كيف أنسرب إلى أحلامي ، لكن هل كنت أستطيع وفي أية مرآة ، أن أراني في ملامحه ، ويخيل لي أن صورته الشوهاء هي من فعل الشعر الاسباني ، والأزجال الموريسكية^(٢) ، والخرافة العدوة ؟ هملت مضحك ، يوريك الفقيرة هي عنده عالم كبير ، نعم أعرف من أين جاءني في البدء ، كيف صعد على خشبة مسرحي الداخلي . منذ سنة مناولتي الأولى حفظت هذه الجمل ، كأنها نصّ من تعاليم الهراطقة ، من كتاب : هدية غريبة قدّمتها لي مدرسة سان بير في نويي!

ان سقوط غرناطة شهير كسقوط طروادة : الأغنية التي تدفع للتأوه تثبت في ذاكرة الناس حين تسليهم كما تشدهم التراجيديا آل ريو تشيكو^(٣) ، الملك أبو عبدالله الصغير ، الجبان ، الخائن ، القاتل ، نراه وقد حجبتة إلى نصفه أعصان وردة الغار المائلة التي نجا بنفسه من تحتها في اليوم الذي كان يلاقي جنده ، شجعاناً ، الموت من أجل قضيته . وانا لنأسى له وندفع عنه لأنه لقب بالزغبي ، أي السبيء الحظ ، ولأنه ولد تحت نجم نحس . كان ينظر إلى الباب الذي ترك منه الحمراء وقد طلب منحة ملكية ، أن يُسدّ إلى الأبد ، ونزل الطريق الذي يمرّ حدّ كنيسة القديس - انطونان - العجوز - وكان شاده كي يفر من معسكر المسيحيين دون أن يلتقي بعربة ، ويرى أن هذا الملك الصغير الحقيق قد ذاق ملذات ليس مثلها أحكمت تعلقه بالحياة .

وما انتبهت إلا بعد زمن لطبيعة مصادر باريس ، وأتتني الفكرة أن الملك المغلوب هو دائماً جبان وخائن عندما يكتب الغالب التاريخ . ولما زرت موريس باريس في العشرينات وأبدت له هذه الملاحظة ، نظر إليّ مستغرباً وربما ظاناً بأن في روحاً شريفة ، من ألمانيا التي عفونا عنها ، من أمير ما من آل هوها نروليرن التزمت بالدفاع عنه أو بارسفال الذي لا يخلو من شبه بالملك - الولد ، وقد امتاح باريس منه من أجل (نظرة على البرية في الدم واللذة والموت) وتمتم وكأنه لا يكلمني وإنما يكلم تمثال وجه باسكال القابع أمامه : « هذه هي المرة الأولى التي ألتقي فيها بمن يدافع عن أبي عبدالله » . وهذا ليس جواباً . والحق أنني انتظرت أربعين عاماً حتى أكون هذا المدافع عنه . . . وهكذا كان عندي مؤلف « عاشق الأرواح » ما كان لوسيان دوساموزات عند ويلاند .

(١) نسبة إلى الشاعر الفرنسي بول أبولينير .

(٢) المسلمون الذين أصبحوا كئالكة .

(٣) سنك الطفل ، بالاسبانية .

وذلك لما ترجم له رسالة الهجاء عن حياة وموت بيريجرينوس وتعلّ ويلاند من صورة الرجل حتى لدخله الشك بحقيقتها وبدأ يفكر أن أعمال الموصوف التي ليم عليها تبدو هكذا شنيعة لأن اللاتين يجهلون دوافعه . وبحث عن هذه الدوافع عند قدامى المؤلفين مساء كله وبعض الليل ، حتى آل إلى الكرى : عندها زاره في نومه بيريجرينوس بورته وروى له قصته ، فكتبها ويلاند لدى استيقظ . . لم أسعد بمثل هذا في بحثي عن أبي عبدالله . كان ينسل وراء عوسجه الذي من ورد الغار . تلك الأزهار العربية التي جاءت من أرض نجد ، منذ الزمن الاسلامي السالف لسقوط القسطنطينية ، إلى الشبال وآسيا عبر فارس ، وخلل جمر افريقيا حتى الأندلس التي تسيل فيها مياه الثلج . وما كان أبو عبدالله في تصحيح معرفتي عنه ما كان عليه بيريجرينوس عند ويلاند . لقد ضللت في غابة الاسلام بحثاً عنه من بغداد إلى الاسكندرية ، في أعماق رمال الطوارق ، في أقصى غرب الجزر الاسلامية وما وجدت إلا ما يكذب ما روي لنا عنه .

وما كنت لأصحح وأنا ماضٍ في سبيل معرفتي عن الملك - الولد وحده فانا أمت بالتقاليد والمعرفة والأفكار السابقة إلى العالم المسيحي : وعلى هذا ما استطعت الوصول إلى عالم الاسلام بالطريق المباشرة ، أي الدراسة والسفر .

كان دليلي الحلم وحده كأولئك الذين نزلوا إلى الجحيم ، أورقة^(١) ، أو دانتة . .

ومضى الزمن ، عبرت بي سنون كاملة لم يطف بي فيها حلم غرناطة . وأدركت مع بياض الشعر أيّ دوار ينطوي عليه عدم الاهتمام والعمل دون انتباه للزمن الضائع . وعندما نزن ما يبقى لنا وهو قليل ، من غث الاختيار وسمينه ، على هذه الأرض نعرف جيداً ما يعنيه ضياع الزمن . زمننا ، ونقولها ، دون أن نرتجف .

هذا وليست كل الأحلام أحلام غمض العميون . كنت في غرناطة في آخر خريف ١٩٢٦ في الوقت الذي يتجلّد فيه الهواء .

كانت غرناطة البيديكر^(٢) وواشنطن اريفنج^(٣) : تقع مدينة غرناطة في وسط المملكة ، تحميها وهي في حوض السيريرا فنادا سلسلة جبال تعممها الثلوج . . . يا له ما أسعده ! كانت الحمراء التي أسلمها الاسبان للاهمال ، له وحده كي يكتب : غزو غرناطة . . . أما أنا فقد قضيت فيها أياماً ثلاثة وليلة في الساكرومونت في مغارة الفجر (والهواء الجليدي الأتي من سلسلة الجبال المعمة بالثلج يدفني دفناً غريباً للتفكير باسمه العربي الشلير أو جبل الشمس^(٤) ، ثم سافرت متعللاً بالرجوع ، لكن التاريخ هو الذي يشاء لنا ولما عدت إلى اسبانيا كان جبين غرناطة ملطخاً بدم فريديريكو . وحيث سقط جارسيا لوركا كان غازٍ آخر عاد من افريقيا مع الفرسان

(١) باليونانية أورفيوس .

(٢) كتيّ ألماني واضع الدليل السياحي فسمي باسمه .

(٣) شاعر أمريكي اشتهر بما كتب عن غرناطة .

(٤) والحق أن العرب كانوا يسمونه جبل شلير الساج أو جبل الشمس والثلج ، لقد ذهب الشمس معهم وبقي الثلج للمسيحين .

العرب يدفع من كان مثلي عن الدخول . كان ذلك حينما عاودني اسم المدينة القرمزية من سبيل أخرى .

لماذا نبدع لأنفسنا بلاداً خرافية ما دامت تغدو منفي قلوبنا ؟ كل ما أسكرني في ماضي كل الذي أدت له رأسي أكان موسيقي أم رسماً أم بطولة أم شعراً يبدو لي إذا التفت إلى وراء وكأنه يجري إلي من كل ناحية ، يلتقي في كي بيذر ، ويغصب أرضاً وحيدة ، فيجني منها حصاد حياتي ويعدّ غذاء عشقي . فاجزر وتشايكوفسكي ، شكسبير ورامبو . . . فيرمير ودولاكروا . . . والرجل ليس سوى آلة أعدت ليدي امرأة . وهو عند النساء ما نحتته فهذبته الآلام والأحلام بعد أن كان بهيمة . .

ما كان ذلك صدفة بل لقاء . كان ينبغي أن يجيء اليوم الذي أسمع فيه من المرأة الوحيدة التي أحببت ، أودّ أن أقول الوحيدة التي كان يمكن أن أحب ، أغنية من أرضها البعيدة ، والعجيب فيها أنها ممثلة من غرناطة :

Гренада Гренада Гренада мол...

قصيدة ميكائيل سفيتلوف عرفتها من السا ، أصغيت ، بناء على رغبة السا ، إلى مؤلفها وهو يقرؤها ، وكنت أجهل لغته ، فما سمعت إلا لازمة من غرناطة . . . وهذه القصيدة التي تختلط فيها المهاري العربية بالخيل القوزاقية ، الحرب المقدسة بالحرب الأهلية ، وأوكرانيا بالاندلس . . . غدت فيما بعد روح رواية السا التي يدوم فيها ألم القرن العشرين العظيم ، وما انتزع من رجال ونساء من أوطانهم وصوت الاحساس الجديد ، وكأنه غزو حديث ، صوت البروليتاريا الدولية فتمنحها اسمها الكبير الدامي . . . على هذه القصيدة بُنيت « موعد الغرباء » وأنا الذي أعرف ثمن مثل هذه الرواية ، فلا منلوحه لي من أن أقرأ فيها قدرنا المشترك ، ونداء غرناطة الخفي ، والمعنى الذي ينتظم حياتنا ، ولغز حلمينا ، وقد اتحدنا . . .

غرناطة يا حبيبتى ، غرناطة يا غرناطة . . .

وأقول لكم أنني ما كنت أحلم بها طويلاً إلى هذا الحد لولا أنني وجدت ، أن قد ارتبطت بها تلك التي ما كانت حياتي من دونها غير رمل جفّ . وقد تكون وافقتي الضرورة من كتابها الذي صدر عام ١٩٥٦ ، كي أكتب نوعاً من قصيد تلتقي فيه تتعاقق وتمتزوج ثم تغصب أفكار خفية ، وموسيقى داخلية ، حملتها في طوال حياتي ، وكانت جيمعاً تهيب بي أن أضعها تفتتح . وهل كانت غرناطة قبل السا غير حنين لا يختلف عن سواه ؟ كل بذرة بحاجة إلى الأرض والشمس كي تزهر . وهكذا انبثقت غرناطة من أرض أحلامي تحت نور المرأة التي فاهت باسمها . . . وأما الذين يقولون تلك صنعة أو يظنون أن دخولها هنا في القصيدة ، في صوت عجوز وجنونه ، ليس سوى لعبة مسرحية وأولئك الذين لا يرون إلا بلاغة في قصيدة شيخ غرناطة ، الذي كان في عمري غير بعض شهور ، وهي صدى جامي في المجنون وليلى التي أنجزها قبل سقوط غرناطة بثمانية أعوام وقد بلغ السبعين شتاء ، أما الذين يذهبون إلى أن هذه القصة وهم ، ماذا تريدون أن أقول لهم ؟ أما اللاتمون على أنني مزجت النثر بالشعر وأشكالا هجنية في اللغة ليست هذه ولا تلك من بديع الكلمة ، فهل أعلمهم أن الشعر العربي هو في الغالب توضيح لنص ثري أو رسالة في الشعر ،

تورد فيها الأمثلة والأشعار ؟ وأن الفرنسية مثل العربية قادرة على أن تستجيب لكل الحالات الوسط التي يتميز بها بيت الشعر العامي ، ومنها النثر المحكم بالمعنى الذي يراذ في الحديث عن الموسيقى ، ومثله السجع العربي الذي أتى به القرآن . إلى الذين يقرؤون مجنون السافيتمسكون بالخرف أقول اذهبوا مع أبي عبدالله كي تصغوا في الليل إلى تلميذ ابن رشد . . . أو أذكركم بكلمات شاتوبريان في بداية « حكاية آخر بني سراج » التي يشرح فيها لماذا لم ينشر كتابه حين كتبه : كانت مقاومة الاسبانين لبونابرت^(١) ، مقاومة أمة عزلاء لذلك الغازي الذي قهر خير جند أوروبا ، تثير حماس كل القلوب القمينة بأن يؤثر فيها التفاني العظيم والتضحيات الكبرى . كان الدخان ما يزال في خرائب سرقسطة وما كانت لتسمح الرقابة بالمديح ، الذي تكتشف فيه ، عن حق ، ما أخفيت من اهتمام بالضحايا . . . اليوم لارقابة ، والسبب أننا اتقنا وسائلها . هذا وبعد فالاسبان في أيام جويلا لا يشبهون أبداً اسبان ايزابيلا الكاثوليكية ، فالعرب منهم يزعمون فضلاً عن ذلك أنهم اسبان وما كان لشاتوبريان أن يعرف أبا عبدالله الحقيقي ولا ارفنج واشطنن ولا باريس . ومذبحة بني سراج بناء على أوامر الملك الصغير ، والتي يسميه من أجلها باريس بالقاتل ليس فيها شيء من الصحة : والمؤلفون المسلمون يقدرون أنها كانت من فعل الملك العجوز أبي الحسن أو أخيه الزغل وليست فعلة أبي عبدالله الذي كان بنو سراج سنده الرئيسي على ما شهد به أوجست مولر . والحسناء المسيحية هي التي أرت ، إلى بطل شاتوبريان نبع الماء في الحمراء الذي آلت إليه رؤوس أبناء سراج المشوهة . . . والحق أن المؤلف ما أخذ الحكاية عن « بيريز دوهيتا » الذي ما ترجم كتابه إلا بعد سنتين من زيارة الأول لغرناطة . أية أكاذيب تلك التي تكتب التاريخ ، ويبدو لي أن القرون لم تبدل في هذا الأمر شيئاً . وليست الرقابة هي التي أخرت نشر « آخر بني سراج » . وما القصة غير قناع يخفي غراماً : فقد قرأ فرانسوا رينيه دوشا توبريان المخطوطة في ميريفيل^(٢) ، عند صديقه الكسندر دو لا بورد^(٣) الذي يتعرف فيه ، ولا شك ، كل الناس في بيانكا على الراهبة ناتالي دونواي ويتبينون من الحكاية اللقاء في الأندلس الذي انتهت إليه « رحلة من باريس إلى القدس » لكن أكان حرياً به أن يرهق السيدة دوشا توبريان بأن ييوح علناً بعشقه لبيانكا ولم أمّ المسافر من تونس غرناطة ؟ سنة ١٨١٧ غرقت ناتالي في ظلام الجنون ، وانتظر رينيه ثمانية أعوام حتى أيقن من الاشفاء لها ، أي إلى ما بعد لويس الثامن عشر الذي أبقى ، دون عذر ، على الرقابة النابوليونية . . . التاريخ ، نعم انه التاريخ وغرناطة ما هي عند شاتوبريان ؟ ما هي عندي ؟

الغايات هنا هي عن عمق مني تبوح بها في يسر الكناية ، أو قد تمنح بالقارىء عما أقول لنفسي وحدها ، ولآخرين فيما بعد ، وهي عندي فيما وراء حرفية الكلمات ، ودم الأشياء . تلك الأشياء التي يذهب القرآن إلى أن معناها لا يعلمه إلا الله .

(١) كان يلح شاتوبريان على تسمية نابليون بونابرت بونابارتيه اشارة إلى منشئه الكورسيكي .

(٢) ميريفيل : مدينة فرنسية تقع في مقاطعة « اسون » .

(٣) الكسندر لا بورد عالم آثار فرنسي (١٧٧٤ - ١٨٤٢) .

أغنية بداية

قضيت كل زمني الانساني
بلا غد في الحفر
أنتظر فجراً حيران
والموت حدي قابع
أنا الملك الولد طردوه من قصره
عشية سقطت غرناطة

عشت كمعتوه
في (حمراء) الرياح الجليدية
عينان مائتتان ، شقة ، رمادية
نافورة ماء تتمم وتنكسر
مرأة من قبل جريمة
عشية سقطت غرناطة

أنا ليل تبدد
يبحث في الصبح عن أفكاره
مقامر بلا فلس
يمزق قميصه
سددوا إلى قلب مطعون
عشية سقطت غرناطة

عشية سقطت غرناطة

في البدء امتدت الحروب زمناً طويلاً لا تعدو فيه نزال الفرسان . هكذا تكبر الأسطورة ،
تولد بالنسبة لديليريو ، بطل أحد غزوة النفوس الكبيرة : كان يريد أن تأخذ كل أمكنة الحمراء من
باب الفيرا حتى باب بيفارامبلا معناها العظيم الساذج في خيال حبيته وأن تحيا أساطير السيدات
العريبات والفرسان العرب في تنايرهم الخضر وأرديتهم الحمراء ومهاميزهم الذهبية والركب

الفضية وقد امتطوا أفراساً جونا ومهاري تشمخ بعدتها وريشها . . . اننا لا نؤمن بالحرب إلا عندما تدخل بيوتنا ، لا نؤمن بالقدر إلا عندما ينشب فينا غلبه . وهناك الشعب المسالم وتمتمة تتردد كل يوم بلا هوادة في أن يعيش .

وليدُرُ حصان النوريا ، الناعورة كما يقول العرب فهو يعرف بالفاجعة عندما يخترق أحشاءه سهم طائش . وبالانتظار . . . نحن أيضاً عشنا في جهل ما يجري في البعيد تحت ألوان علمنا ، التعذيب والأطفال الذين حالوا إلى مسوخ ، فساد كل شيء والدم المراق على الضحك الشنيع . كان يبدو وكأن الأعصار ما ينبغي له أن يعود ، والعمل اللئوب حتى العمى كان يستمر ، فيخترع أعراق زهور ، ينقش لمن شاء الخلى ، ويكسر سلاميات العازف الموهوب في عزفه موسيقات رائعة . . . نظرت طويلاً عبر زجاج دكان في الباليه رويال إلى صناع يهذب جنوداً من رصاص كي يجعلها شبيهة بجند نيرويند أو جند فلوروس . .

يا ليالي الغزو بأية كلمات تلقي الفلاحون الفاليون تلك السباتك الذهبية الصغيرة ، كما استقبلني ، وأنا أطرق باب مزرعة في أيار سنة أربعين في مكان ما من تلك الناحية ، طفل صاح بأمه : الرعاع ! الرعاع ! وكيف كانت تقال هذه الكلمة في المرج ، البستان الغرناطي الكبير ، لما كانت تبدو فرسان فرديناند ؟ أو مجاهدو الزغل ؟ في دنيا الألفاظ يقاس البون بالطريق القصير التي تقطعها كي تتبدل . . . وبالزمن .

وهذا العالم الذي هو نحن وماضيه ، كل شيء يتخذ فيه مكانه الهاديء ، من القسوة ، إلى الوحشية وحرائقها ، إلى الجوع . . . فصول من التاريخ يحملها التلميذ معه بريئاً ، ثم يتوقف على دربه لما تفر العصفير . وما كان ذلك في هذا العمر وحده . يبدو لي في مجمل القول أنني سمعت ، حياتي كلها بين بيت أُمي والطاولة التي أعود عليها للمسائل التي أهملت . حتى إذا تغيرت عن هذه المدرسة وجددتني ضالاً . أقول أننا عبر القرون توأمانا ، بقال الزاوية ، وسيدات الساعة الخامسة ، وذو الأكيام المزركشة ، أصحاب المحراث أو الزريبة ، أنا نفسي ، وبكلمة الفرنسيون ، وقد صبغتنا حلاوة هي علينا وقف ، فنسينا أفاص لويس الحادي عشر والبالاتينا وجمعيات التنين . . . من ذا الذي حرق باسمنا المدارس ؟ وهل بوسعنا أن نقارن بين الحرب الاسلامية المقدسة وحربنا في الأنجو ؟ وفي حلقنا لا يستطيع لفظ الأندلس إلا أن يدور رقيقاً كخناء ترغلة . . . بعد أن ضاعت الـ (٧) الفاندالية مع الغناء العربي . . . نهدت من فم إلى شفة فتعادت الباءات والفاءات ويتحدث باريس غير واثق عن باب بيفارامبلا الذي تدعوه الخرائط الاسبانية ببيارامبلا ويلفظه الناس في يسر بيفارامبلا ، وسماه العرب بيب الرملة ، باب الرملة نكتني على كل حال لن أترجمه ببورت دولاسابليير .

رأيت لما حلمت بغرناطة ، بستاناً كبيراً ، لا أعرف من صاحبه ، ينزل من هضبة جنات العريف وعجبت لعمل البساتنة الضخم الذين يعيدون زرع البصلات كل عام : لكنه في الربيع الأول ، الذي هو عندنا شتاء ، اكتسى بملايين الزنابق من أزرق إلى وردي فأبيض أو نيلي . . . متراسة ، متراسة حتى ليجهد أوراقها أن تفتح مروحتها الخضراء ، ومن يفقد هنا خاتمه لا يجده أبداً . . . غزو من زنبق ، تنحني فيه دروب ضيقة ، لا يستطيع عاشقان أن يراها معاً .

انه بستان قصيدي ، كل ما يفتح فيه لك وحدك ، والزنبقة تنهده إليك وذكرى ودغدغة .
تلومين أنني لم أمهد الدروب لعل أرافقك فلا أكتفي بذلك . ومن أين لي أن أدفع الزركشة الملونة
الهائلة عن أن تغطي كل الأرض غير ما مهدت فجعلت مسلكاً من زليج ، من أثولبخوس ، عرضه
على قد ضيق قدمك ؟ سوف آتي بك إلى هذا الحقل المنذور ، بين باقاته العطرة ، كرقص في
روحي وأقودك وأنا أتراجع القهقري أمامك ، بين أرياف الزهر . . . يا زنبقاً كمدن كبرى
مصغرة ، أبراج وأجراس ، قلوب وألوان ، تهدر نحلا ، كأوركسترا من قبل . . .

هذا الخبز من زهر ينمق حياة تجهل أنها مهددة . مدينة سلاين وشعراء ، نجاري عربات
وتجار ، فخاريين ونساجين ، وصناع سكاكين وقرميد . . . وفي آبار الشوارع المظلمة تغني أغان ،
والبرية تفتح ذراعها لفتيان هاموا بعطورها . وفوق غرناطة ، خارج أسوارها ضجة كأنها مزاد في
سوق خيرات لا ترى .

سوق القوافي

جاء كل من في غرناطة من شعراء إلى شاطئ ماء السد كي يتنافسوا حتى مغيب الشمس
وفي هذه المدينة منهم ما لا يحصى كأنها حقل حجال
أولا يتعلم الناس فيها الشعر قبل قراءة القرآن نفسه
منذ أن ملأ هذا الشعب اسبانيا كما تمتلئ الكوب
منذ أن نسي المحاربون رائحة الناقة
الأطفال عندما تحدث أشياء مدهشة
يقفون فيرتجلون بشفة لونها مطر

مكان تحيط به أشجار ترى إلى نفسها منذ الأزل في المستنقع الأسود تراقب غوها مقلوباً
وما كانوا ليتخيلوا مكاناً مثله ملاءمة لمناقشة جوازات اللغة
والأحرف الصوتية إذا امتدت والساكنة إذا ما بينها بذكرت
وما كان الفتيان ليقولوا شيئاً خشية أن
يبين نقص في معرفتهم

وذاك الذي يقف ثم يتحدث أولاً
تأتي الكلمات فتأكل الخبز عن كتفه
يمتاع من الطير غناؤه ودوره
شفتته دائماً ربيع شجرة تفاح

الشعر للملوك لمسرّتهم ومجدهم
فانتق من الشعر ما على قدهم وضع في النهاية القافية كي تؤمنوا أنه كذلك
ثم ارسم الأمير بلون الله فتجيء صورته كمرآة
اجعل له عيناً وسبعة وذراعاً مخيفة كما ينبغي أن يراه الشعب
يصطاد النسر ويمشي إلى الأسد ومن يده تأتي كي تشرب الأيلة
واربط معرفتك وبختك بخطاه الممعة في العمر وفي الذاكرة
كن بوقاً على التهديدات إمزج دوماً بين الخرافة والتاريخ

ضع على جبين امراء غرناطة يوم صيف لا مساء له
اعرف كيف تصقل أجسامهم المتناسقة واعطهم جناح النصر
جد لهم كلمات من نار تجعل الليالي أقل طولاً وسواداً
لعل الغد يأتي فيجلس إلى أقدامهم يغني خافتاً حالماً

وتكلم الذي قاطعه مغمض العينين
أمن أجل أن يصغي لوزن داخلي
وكان حديثه جاء في بدايته من بعيد
كملك ضائع في مكان مريب

أعيدوا لي أعيدوا لي ظلام الروح وفوضى أن أكون في أعماق الصيحات الهادرة أعيدوا لي
ضجيجاً بلا هدف ومزماراً عبثاً ينتفض فيه « باليه »^(١) من ظلّ وتعشق نفسها العتمة الحريرية أه
أعيدوا لي تتممة عميقة أنسى فيها شهادة الكذب واستعباد الأشياء
هذا عندي فحسب بحر بلا شطآن وان فضلتم هوة بلا قرار يكمن فيها ما نسميه شعراً
ادعوا بالشعر ما كان نزاعاً بين الفم والريح وبلبله بين القول والصمت
وذوولا بالزمان الهزيمة المطلقة
ادعوا شعراً الصرخة التي تنتزعها مني اللذة والجملة انسحقت تحت حجر
ادعوا شعراً ما ليس بحاجة لأن يفهم وما يهيب بثورة في الأذن
أما شعرك فلا لا أدعوه أبداً شعراً

اسكتوه وتكلموا جميعاً معاً عالياً
كل له نهجه ولكل جماله
يحملون جميعاً طفلاً ميتاً لأنه غنى
ويظنون أنه يتحرك لأنهم يرتجفون
كان في الحقل مراهقون عيونهم ياقوت
ورجال من البلاط يودون لو يقبضون على الفجر أو العاصفة كي يجعلوا منها وشاحاً للملك
وأناس استنفذوا أبدأهم في صقل الكلمات حتى لقد فقدوا منذ بعيد الاحساس بالهأر مونيا
ومنهم المعجب بكل صوت يزهو فيهم
ومسافرون جلسوا بحثاً عن وحي فما وجدوا
ومعتوهون كفوا عن الاغتسال حتى لقد فقدوا الحق في الصلاة
ومغنون غلاظ ينتظرون عابراً يمنح قصائدهم باقة عتال
ونساء صيغن أطرافهن
ومجانين يقولون ما لا يفقهون

(١) سوف يجد القارئ كلمات أضعها كما هي في الأصل لأن ترجمتها قسر لا يؤدي المعنى

وقبل هؤلاء عجوز ابلاه الزمن فتأتق حتى لتخاله من صنع عنكبوت
علق على الأقوال بهذه القصيدة
من روي الرء كما يبدو لي وشعر لا ريب فيه
تبنى فيها البحر الكامل

نشيد باب البيرة

حدثني أتذكر عن جمال ذاك النهار
يوم قصفت رمحك على باب البيرة
يوم رنت إليك عيون الأسوار البعيدة
كأنها ثمار سوداء تنزف دمها في بساتين الكرز

يا لروعة المنظر الذي استقبل طرادك
كمرأة تصطفق فتندesh فيها الريح
أتذكر حدثني عن الخيل والرجال
وعن عظمة الغرور في أن تكون فتى حيويًا

الفرسان كانوا كذاهين إلى مدرسة
عليهم حلل الموت بألوان الصباح
يغنون الهوينى أغاني بلا كلمات
يرنون إلى إيذان يوم أجلهم

أتذكر حدثني عن يوم قصفت رمحك
في ظاهر غرناطة وعن الهاجس
الذي ران منه على جيشك لحظة صمت
وكلل جبينك بالشحوب لحظة
ثم ما لبثت الطبول أن تقدمت النزهة
وسابق السلوقيات النار
يوم قصفت رمحك في ظاهر غرناطة
أسقطت السماء درعها العظيم الأزرق

عندها قامت ضجة زيزان كل

يُنزَّ باللائمة ويستعيد
الصورة والموسيقى وما ليس نقياً من كلمات وضحالة التضميل
بعض افتقد لون الثياب وبعض حممة الخيل
وتألفت النساء أنه لم يأت على ذكر الحب
وعجبن لغياب قيس
المسمى بالمجنون وهو الذي يبدو في البلاد
رغم عمره آخر من يَنْظُم القَبْل
وهن يعين اليوم ولا غرو ذلك المجنون
الزري وقذف من هم أصغر عمراً القصيدة المرجوة قذف حجر على بركة ماء
هل يعلمون كم بها من دموع هل يعلمون
لماذا يخفق صدر ذلك الفارس الشاحب وهو يسممها
وهو خارج الجدل يتكلى على رمح

وماذا يعنيه هو الوزن والقافية
مفاعلتن أو مستعلنن
إنه لا يفهم غير معنى الكلمة القاسي
كما تسلّ سكين تمر تحت أهدابه
ليكن بيت الشعر خيمة شدوا حبالها كيف قدرتم إلى الأوتاد
انه يذكر شبابه كيف كان يومها يمسك من عناته بحصان
الملك الأنصاري
وقد أحاط يعسوب أسود من الروم بخيشوميه وصهيلها
أيها الجندي يا شبه صباح ما بخرت الشمس بعد نداءه
من أين أتت هذه الدموع الطويلة على وجنتك
ألم تجعل منك ست سنوات وجهاً من جلد
والحق أن هذه الأبيات ناقصة وفقيرة كراحة شحاذ على باب حانة

أعرف انها ملأى بالضعف والذكريات
والنغم في العصر الذي نحن فيه ولا شك
يدفع الموسيقين الجدد للابتسام

لكني أذكر الزمن الذي تحدث عنه
يوم كان أبو عبدالله سجيناً عند المسيحيين

لا شيء يكون تماماً مثلها يبدو في الظاهر . يظل عبر القرون محمد بن أبي الحسن بن عبدالله
الملقب بأبي عبدالله ، الملك - الولد ، آل ريوتشيكو ، لأن أمه عائشة الثغري هربته وهو في الثالثة

عشرة من الحمراء فأصبح سنة ١٤٧٦ ملكاً على وادي عرش التي نعرفها بقادش باسم محمد الحادي عشر . من الذي اذن اخترع وردة الغار ؟ يبدو لنا أن أمير المسلمين لم يوفر نفسه فقد كان في الصفوف الأولى عام ١٤٨٣ لما دعتة الحرب . أو كان بوسعه ، ولو أنه اقتيد أسيراً في معركة مكشوفة ، يرسف في أغلاله إلى بلاط ايزابيل وفرديناند ، أكان بوسعه أن يدع أهله لحيلة ووحشية الملكين الكاثوليكين ؟ استطاع أن يدرك مقومات المملكة الكاثوليكية ، هذا الدين المخيف الوجه الذي يزيد أبداً صور أوثانه . هل داخله الريب أنثذ بسلطة الملوك . . . وملكه أليس بحاجة كيا يدوم إلى نور الهلال أمام ظلمة الصليب ؟ والقرآن الذي يعلم باسمه ، فلا يفهمه ، أهو الحقيقة بعينه أم نقيض الأناجيل العدوة ؟ لأن الله لا يبيح معنى أمثاله المكنون ، وتظل آيات الكتاب الكريم مغلقة على أبي عبدالله ما دام علمها عند الله وحده .

لقد قبل ولا شك الفدية عن حرته ، ومنها ابنه الصغير ووعوداً لم يف بها ، لما عاد إلى حقيقته ، وهل هو يهودي أو مسيحي فيضع كلمته في مقام أعلى من شعبه ؟ هل بوسعه أن يعتمد على أعيان مملكته وهو يعلم أنهم يُسترون بالمال والأراضي والجواري الجميلات؟ رجوع ولم يف بوعده للكفار . . . قاتل ، وفأوض ، جهد في أن يخدع جلادي الاسلام . . . ولماذا وجب علينا أن نأخذ بصورة الدعوة القشتالية عنه ؟ انها تريده ضعيفاً وشاحباً ، طفلاً أبدياً مع انه بلغ مبلغ الرجال . ان حقيقة العدو هي الكاريكاتور ، وما عرف في المقبل سواها عن هذا الرجل . أه كم ترعيني هذه الطريقة التي تسفه ، عند أعدى أعدائي ، الوجه الانساني ! وتلك أيضاً إحدى الحقائق التي تُقدّم للشعب ، وهو يعمه في ظلماته ، ان الملك في الطرف الآخر ملامحه بشعة وروحه فظة ! أكره هذه البراهين الجسدية . ولو أنني علي أن أحتملها . أولست من معسكر ؟ وكل من فيه يطلق النار على من في المعسكر الآخر . . . أعرف أنني لا أستطيع شيئاً ضد البغض الذي يهين الانسان في الانسان ، وعواطفه ، عائلته ، وأمه إذا اقتضى الأمر . . .

أذكر قصة لا علاقة لها بما أنا في سبيله . كان ذلك ، كما بدا لي ، في آخر حرب . والحروب ، لولا حظتم ، تنتهي مرات عديدة في العالم الحديث . . . كنت من جيش مهزوم في أرض أحراني . وقطعناها من ضباب الشمال إلى شمس آخر الجنوب الحزينة . كان لا أمل أبداً . فلقد سقطت غرناطتنا نحن . كنا جنداً ضالين ، في مدينة صغيرة كراحة يد مفتوحة نحاول تنظيم القافلة . عيناً شاباً من رجالي في مكان تلتقي فيه مختلف المصفحات والعربات . تلك المدينة بنيت قبل أبي عبدالله . وتذكرت شاعراً من أولئك الذين في القرن الثاني عشر ، واسمحو لي هنا ألا أخذ بالتقويم الهجري ، زواجوا بين ما تعلموا من دروس الغناء العربي وبين الخنين الذي من عندنا . . . ولأختصر كان خفيرنا ، وهو مزروع على ملتقى الطرق ، يحرك ذراعيه كطاحون لا حيلة لها في أن تفعل شيئاً آخر وكان انقياد الفارين والكتائب المهزومة لما ابتدع من اشارات غربياً ومضحكاً . كان إذعاناً يمزقني . . .

عندها اقتربت من ذي الاشارات امرأتان عجوزان لا يعلم إلا الله كيف وصلتا على قدميهما وكلمته . أما هو فلم يهتم بها أبداً . كما لو أنها عبيتان . . . حتى ولو كان هذا ممكناً ذلك اليوم . كلمته ، عم كانتا تسألان ؟ عن طريقهما حتياً ومعلومات عن الحكومة ، وأين كانت الحكومة عند رجلي تلك الساعة . كان يحرك ذراعيه ويدور بدقته كسهم ، في غضب ، وما ذلك إلا كي يقنع

نفسه قليلاً بأهميته ، وبأنه شيء ما في العالم . . .

أسرتنا إليه ، حسب ظني ، أنها أم وأخت رئيس الوزراء ، لا عن غرور وإغماكي يهتم بهما الهتمى ولو انه ما من أمر تنتفخ له الأوداج في تلك الدقيقة ، وكان واضحاً أن المرأتين المسكينتين لم تعلميا بما جرى والابدلها من زمن تتعودان فيه على سقوط الأجماد . . . كانتا تجهلان على ما أظن أن ابنهما وأخوهما أوقفته السلطة الجديدة أو هي على وشك أن توقفه مرضاة لنوع من الفرديناند ولو أنه غير كاثوليكي جداً ، هذا الابن والأخ الذي منح العائلة كثيراً من الرضى . . . ولم أروي لكم ذلك ؟ آه نعم ، من أجل الصفقة اللانهائية . أكان لدينا أي ظل للعطف على هذا الوزير الأول الذي سقط ، والذي جسد جنون حرب باعونا فيها حتى التفاصيل ؟ تأملوا ، أتكلم حتى الآن عن هاتين السيدتين فلا أبوح باسمهما ولو أنه بين أسناني . . . ولربما لامني اللائم إذا أحسست تجاههما بغير الكياسة الساخرة . أو لا تتخلون أني في الحقيقة لم أكن على يقين أني أكن لها مثل هذا الشعور الضيق . أنا قمين بالأنا أنظر إليهما إلا بعيني الشقاء . أوه أعرف أنه كان شقاء بلادي . . . بلادي ، مثلها هو ، لدى هاتين المرأتين المتعبتين ، فما تفقهان شيئاً عن الأحداث ، وقد وضعت احدهما على الأرض كيساً صغيراً ، ثقيلاً ، ماذا فيه ؟ ربما حي أو ذكريات حياة ، أو صورة رجلها العظيم في ساعة انبهار الوطن هذه ، أين من قلبي الغضب المقدس أو هل اعترف . . لم يكن في إلا الاحترام . أنتم لا تدركون علائق الأشياء وهل تريدون من أجل هذا أن أكون أضرى على أبي عبدالله مني على بول رينو؟

*

ومرت السنون . مات أبو محمد ، فطرد هذا من غرناطة عمه ، زغلاً القاسي وقد تجرأ فادعي أنه محمد الثاني عشر ، وقاتل الغرباء من قشتاليين وكاثوليك ومشركين ومعهم زغل وقد صار حليفاً لهم . . .

لأن تسموه أبا عبدالله الصغير لا يبدل في الأمر شيئاً . هذا الأمير هو آخر ملوك غرناطة ، يعجم في فمه منذ أمد بعيد هذه الكلمة المرة ، ويمسك نومه طويلاً ، اجهاشاً فظيماً . وما كانت الألقاب لتبدل الأشياء ولئن دعوتهم غرناطة العرب باسم جرانادا الهجين ، أو أطلقتهم على النهر الذي يجري تحت قدمها فيصب في جوادا الكفير ، الوادي الكبير ، صورته القشتالية خينيل أو الفرنسية كزينيل عوضاً عن كتابته الاسلامية السنجيل أو الشنيل أو الشنيل . . . إن محمداً الحادي عشر الناصري سليل الأنصار ، صحابة الرسول ، يقبض الآن بيديه على ميراث الأندلس ويؤمن على الشعب الذي نما من كل القبائل التي كان بعضها لبعض عدواً ، وقد جاءت من افريقيا فاتترعت هذه الجنة ، حتى لترى اليوم في الجند الملكي وهم نخبة فرسان غرناطة ، جنباً إلى جنب بربر الصنهاجة وزناته ، وقد كانوا أندادا لما كانوا رحلاً ، فإذا بهم اليوم يدافعون معاً عن آخر معاقل الاسلام .

إلى محمد بن أبي الحسن بن عبدالله أمير المسلمين

تقدّم أيها الملك المقهور قدام التاريخ والأسطورة
أنت يا من اقتصرت عظمتك على الفاجعة وللقبر
وليسندل سجع الزمن الأحمر العظيم على دموعك
إليك بالوجه الذي زيفوه لك هل تراه جيلا
أهذي وجنتك أهذا جبينك في لفح سوط الاهانة
وعيناك وقد أصبحتا أبداً مقفرتين كالسماوات
أتحب شحوب النجوم هذا وملامح الطفولة تلك
هل تعرف على شفتك وكيف يرتحف فيها الوداع
وذراعك الملكيان السمران كذراعي ممثل وقد سقط عليها كمالك
وفجأة يبدو قدر الانسان الهزيل إذا تمسك به
مرقّ أمامنا قلبك وثوبك الأبيض
وليبدأ دم شعبك المراق كأنه دمك
فما أنت غير عطر حزين فاسد يتبخر
والرياح سوف تذهب بأثار ما كنت أنت
وما اسمك غير زهرة - مضغعة يمضغها ويعض عليها جندي
اسمك صار آخر أمك لا تفهمه
اسمك حتى اسم الطفولة أخذوه منك كأنه من أراضيك
اسم لذاتك الاسم الذي كان لمن أحبك من نساء
اسم مجدك المنطفىء في ذاكرة البشر
هذا الاسم الذي خلعتك منه المستقبل للأبد
كاقتراب مجداف من شاطئء جزيرة
ككرة طفل تفر على درج
كقافية تشوبها مرارة لست أدركها يا أبا عبدالله
وتر تحطم في قيثارة الليل .

جاسوس من قشتالة يعبر جبل شلير الساج ويصل إلى فوق غرناطة

يا باردة ولاهبة يا خاطئة في جسد من مرجان
يا مدينة اليهود ذات الألف والثلاثين برجاً على أسوارك الحمراء
اكتشفك وبساتين لوزك في ظل الهلال وأنا
ركبتاي دامتان ثقتني الأبر أصمّني الثلج وروحي نازفة
أجيثك يا ابنة ماحوم بمسامير تحت ردائي
وشجرة الله الحقيقي كرسالة محب غيران
هي ذي أنت تحت قدمي يا أرضاً مستحيلة تُمرغُ برتقالاً
وأني لأخشى الآن أنني أفرط في فهمي الشياطين
وأني أغراني جاذب الجحيم بأن أعود إلى الأندلس
اني غزاني فجأة عطر الردة
غرناطة يا جسداً من بنفسج وياسمين تأتيني ريمها
كما من حمامات عامة برائحة بشرية دون اسم
تلك هي شهوة الفؤاد إليك حتى لأقول لنفسي
لا بد من حريق كي تتعرف إلى شميم الخشب
لن أمتلكك لذاتي إلا بهذه الوسيلة
أنا رسول ملك بعث بي لأقول لك أنه يهواك
وأنه حرباً أم سلماً سوف يأخذك بين ذراعيه
ويشدّ عليك بين فخذه الذهبين حتى تدمى السماء
لن أروي لك حكايتي الطويلة الأسيا
ولماذا أشم الهواء إذا جرت المسالخ
ألعبوبة من أنا كيف بت لا أملك بصي
لأني خلقت حياتي ورائي الطاعة وحدها من حقي

لم يبق لي شيء من الأيام التي كانت شبابي
 لقد انقلبت القصة التي ما شرب أحد فيها حليب الأتان
 أنا ثمرة سقطت عن شجرة أنا خدين السقوط
 ملوث دام مرذول مصفر وسخ جففت من ربح الأهواء الأسود
 لعبت بسائتي ودمي أحرقت أيامي وظلي
 دفعت الأبد ثمناً لفصل من لذاتي المظلمة
 جرجرت صورة الله في الطين والحزني
 وفي كابوسي أنا الذي أعاقب نفسي
 وأقرأ في مرأتي رواية جرائمي
 صرت جلاد نفسي بت ضحيتي
 سجين ما أفعل سجين ما كنت
 كل خطوة تدفعني إلى ما هو أسوأ وما لاحق لي في رفضه
 النميمة واجبي والفساد منهجي
 أصبغ من أريد مضيعته بسواد تجديفي
 بخنا ليالي الحبيء والدم الذي أراقته يدي
 أنا جندي في هذه الحرب البشعة التي لا طريق فيها سوى الشر
 جئت إلى هنا كي أرى ضعف الأسوار وأمكنة السلاالم
 وثغرة في نفوس البشر والساعة التي ينام فيها الحرس
 يجب أن أسبر اليأس وأضرب حيث يرن الفراغ في الانسان
 من يرتجف لفقدان الثروة ومن كان بائساً
 وأن أحفز الطموح في مرعى من هم بين الناس وسط
 أن أزرع الشك في كوى الأبراج وأرشو ديدبان السرداب
 أن أبلل النجم وأقطع رقبة الصياح
 ولن تتحرك غير الخيول حركة غامضة في اسطبلاتها
 لكن دوار جمالك يأخذني وأنا أفتح نطاق أشجارك
 أخون سيدي والصليب في باحاتك التي من ظل ومرمر
 أفقد اله عمادي في ماء بساتينك البارد
 فلا يبقى منه على موسيقى قلبي غير كلمات أجنبية
 أنا كالأمير سانشول على منحدرات الشلير
 وقد حلق رأسه وبدل اسمه الاسباني باسم شنجول
 وما يعلم أحد على أية ثمرة قاتلة قد عض

ولا إذا كان حقاً باع نفسه بعدة من دوانق
 أما أنا فيفسدُ هواء أنفي بعض من استرخاء
 ظلي بات لا يتبع خطوي قلبي بارح صدري
 سيدي وإلهي أعف عني إذا فضلت عليك هذه الخمرة الرقيقة
 الكفر على لساني أتخلى عنك وأنا على ركبتني
 أرتحف كالزاني بأمه بين ذراعيها .
 لأن فعلته لا تنتهي إلا في أرض مرة
 وامتته هي عاره وشقاؤه
 أيان ذهب يلاحقه العقاب
 وأنا أسوأ ممن يلوث أرومته
 أنا الذي أخون خيانتني وأكذب على فمي
 روحي في نزاع مع يدي في مهزلة دنيئة
 يمتزج فيها الموت بالقبلة والخطيئة باللجنة
 اني لأرى منذ الآن عنق المدينة يتدحرج بين أذرعة أخرى
 ويصح على جسدها ما صح على قرطبة واشبيلية
 وكلمات القرآن تشطبها كلمات لاتينية
 وكل من شوارعها سكران دام غدا كقحبة
 يضاجعها جنود سعداء يجأرون بشتائم غريبة
 لياليهم كلها بعد الساعة فيها عطر البرتقال
 يحملون معهم كرنفالاً من آلهة عملاقة
 والكفن والقفطان والنار للكفرة
 ويقيمون أكواخهم على عتبة قصر الموحدين
 ينشرون غسيلهم كي يجف على وجه غرناطة

*

أما غرناطة فكانت مدينة تنكرت للوصايا ، وأسلمت عنانها للأغاني في اطار انطاكي النقش
 تحفر فيه دون وازع صورة الانسان في الخشب
 أما غرناطة فكانت مشرعة للأفكار الملحدة
 كانت غرناطة وفي فمها مذاق التجربة
 يقبل أهلها على دراسة الشعر أكثر من القرآن
 فلا تسمع من نافذة المدرس أحاديث النبي وإنما
 رواية ابن زيدون والغزالي
 سمعت أصوات أطفالها تردّد خرافة السماوات التي كتبها في السجن ذلك الذي طلبها منه

أمير اصفهان لما مررت في الزقاق الذي ترسم على أرضه الشمس خطأ ضيقاً من معدن استخرج
من الأنهار
معدن يدعونه هنا التبر وأجهل لماذا تلمع عندي هذه الكلمة لمعاناً لا يضاهيه كل ذهب
العالم .

تخييل السموات حسب ابن سينا

صوت المعلم	أصوات الأطفال
السماء الأولى	وصف ابن سينا السماء الأولى بأنها سماء القمر حيث المدائن التسع أهلها صغار حيويون كأسماك يغدون طيوراً إذا غادروا مطارحنا لكنهم لا يتحدثون في أغانيهم عنها لا يتحدثون عنها في أغانيهم

السماء الثانية	السماء الثانية هي سماء عطار بشرها أصغر وأبطأ محبون للفنون وأذكي فيها عشر قرى لكننا يظل عمياً علينا لماذا يدعي عطار فضة لامعة يدعي فضة لامعة
----------------	--

السماء الثالثة	السماء الثالثة على صورة مملكة اسمها الزهرة فيها المرأة ملك والرعية موكولة بالفرح العود يصدح فيها والطيبة تضحكها أما المدن فأعدّ منها ثلاثاً في ثلاث ثلاثاً في ثلاث
----------------	---

سماء الشمس

سماء الشمس هي السماء الرابعة
بشر الشمس كبار القامة جميلون
القرب منهم هو بحث عن الموت
المريخ والمشتري هما الخامسة والسادسة
زحل السابعة ونعرف ما تسوى
ما تسوى

الثامنة هي

الثامنة هي سهل قفر
البروج فيه اثنا عشر قطرا
هنا لا شيء يجري كما كنا نظن ونحن في غيره
فالكوكب يتحرك ولو بدا من بعيد ثابتاً
يظل وحيداً مع أنه كوكبة
مع أنه كوكبة

أخيراً السماء

وأخيراً السماء التاسعة التي من دون كواكب
سمها كيف شئت شمساً أم نجماً
فليس في هذا الحقل من قمح غير الملائكة
بذرها الله ثم أرسل إلينا البذور
ارادة إلهية من أجل قلوبنا المسحوقة
قلوبنا المسحوقة

هاتان الأخيرتان

هاتان الأخيرتان هما سماء المادة
تكونان في الغرب بحر الطين
أما الشرق فهو الطرف الآخر
مكان فراغ كأرض كاملة
هوأوه تلك النار التي ماؤها يغلي
ماؤها يغلي

في ما وراء ذلك

في ما وراء ذلك تكتشف شيطان
من يعيش بلا كلمة ولا ضجة
أسماك حيايا كل زهرة وكل ثمرة
الذهب والفضة الغيمة والماء الحي
في مناخ يزوره المطر
يزوره المطر

هنا ترى

هنا ترى الصور والأنواع

ولا يصني إلى أكثر من ذلك ، الرائد الفاحص هذا الشعب الذي ليس كما وصفه الرهبان على
منابرهم وهو يحس روحاً لا يدركها تخفق كفراشة ينشأها فلا يعلم إذا كان يقدر أو يجب عليه أن
يعمل على ضياعها .

وصلب وهو يمر حد تلك الزقزقة الغربية عن تراتيل جماعة المصلين الأتقياء في بلده .

وهو يجهل من يتفادى شيطان الاسلام الذي حلّ في هؤلاء الأطفال أم الجحيم الذي يحمل في
نفسه ويحمل أذنه صباءً وأنفاسه من نار وقدمه قدم ابليس .

الفندق

النساء هنا لا يتحجبن إلا لماماً ولا يُمنع دم العنقود الحلو على من يمضي عاري الرأس غير معمم وطيلسانه الخفيف على كتفه . وإذا أذن عهد صبغ الشعر فمن النظافة أن يكون بالحناء إلا إذا كلله البياض فأسمى كالغسيل .

وعلى هذا كانت رؤوس الناس في هذه الأرض حمراء ما بين عمري الحب والحكمة . هذا الشعب باقة لا تميز فيها تنوع الأزهار ينمو فيها الأس حدّ وردة شارون . إن أحداً في غرناطة لم يعلم بأن يكون نزاع بين اسما عيل واسرائيل . الغرور وحده ، لا الغضب ، كان يُملي على اليهودي اعتمام الطاقية الصفراء . كان الغنف حين قطع البحر من افريقيا سقط كهواء لا تعنوله صحراء أو ريف . شيء غريب عند هذا الرجل القادم في الصيف من اسبانيا وقد خبأ صليبه تحت حزامه ، شيء مثير له لأنه ما زایل عنه بعد دخان المحارق التي عمت منذ سنين عشر كل مملكة المصلوب . تستخدم نارها في الأعياد الشعبية . هنا لا يحرق اليهودي أمام العامة . مع ذلك عندما تكلم هذا الآتي مع الجنود في الحانات لمح في أصواتهم الافريقية الأفكار القديمة والكلمات التي تشبه سكاكين ذبح . ومن يدري فقد تكون بين العيون التي ترنو إلى روما ، والتي تقتبل مكة لغة مشتركة على أهبة اليقظة تحدها روح المذبحة .

قعد الزائر مساءً في نوع من الكارافانسيراى ، أو ما يدعون هنا فندقاً بين تجار آتين من الشرق ، وجلبين نزلوا من البشارت ، وبحارة يبحثون عن ذكريات قديمة ، في باحة حو لها أعمدة تقوم عليها طابقا شرفات ظلّ ، تعج فيها خيول ، وأبقار ، وبغال ، وصخب أسلحة وأغانى . كانت هذه الدارة في فوضاها تخلو من الصرامة القشتالية ، تدخلها ساء خططن عيونهن بالكحل ، تصطبخ عليهن الحلي اصطخاب الفضيحة . مثل الأفكار التي تدور حول خروف يقدم لأناس غيرهم العمر والأنواء . فتستمع إليها وقد اختلطت فيها الآلهة القديمة بالقرآن ، بفلسفات صقلية ومصر . وأصغى الرجل . فاضطربت روحه التي ربيت على الصمت . ووجد نفسه مقسماً بين حب الاطلاع الحاد وخوف السماء . أولم يلاحظ في قرطبة الخلفاء ، كورد وبعد أن انتزعت من الاسلام ، وقدمت إلى العذراء ، آثار موسى بن ميمون وما زالت حية منذ عهد الموحدين ؟ لقد تنقع بالاسلام هذا الفتى اليهودي كي يسلم ، ومعه الفلسفة الوثنية ارسطاطاليس وأفلاطون ، الذي يلفظ اليونانيون اسمه بلاتون . أما هنا وبعد قرنين ونصف ، فما كان يكون بحاجة لأن يقصّ شعره الأجمد ، ولا أن يدعى كذباً ديناً غريباً ، هنا في الحديث بين أرقام التجارة وقصص تجار العبيد الخليفة ، تلمس بلا عجب ، أفكاراً فيها رائحة الميمونية ، تنكر الجنة والنار .

ليس مستهجنًا أن يدخل إلى موقع مهدد ، كل هؤلاء الغرباء ، القادمين من افريقيا وآسيا ، تجار من بحر صور ، بله الفرنك أو الفرنج ، وكيف لا يمنع هذا الطمأنينة لرجل قشتالة ، وبعد فهو ليس وحيداً هنا ، لأنك تتعرف من دون حرج على مسلمين اسبان ونصارى لا يعلم أحد أية تجارة جاءت بهم ، لا يتكفرون بعد أن اختاروا الأمان فكانوا مستأمنين ، أي تحميمهم معاهدة ذمّة . والحرب لا تعني لدى الغرناطين حدوداً مغلقة . الشعوب تختلط في الأندلس . . .

أما الجاسوس فلا يرى هذا الرأي ، فهو ينظر للأمر ، في رعشة خفية ، على أنه من أمائر الخلل ودليلاً أكيداً على انهيار قريب . ويتتبع هذه الفجوة فيجد فيها طفلياً ، حياً ، يعيش على هواه ، يثيره ، هو اليهودي حين وجده يعايش علناً الأندلسيين . وعندما عبر ، رغماً أو تقريباً رغماً عنه ، عن ملاحظته لجاره ، وهو بستاني من المرج ، «لابريري» البستان العظيم الذي يقطع المملكة ويسميه القشتاليون فيجا ، وقد جاء المدينة يحمل نتاج أرضه ، أجابه هذا وهو الذي يبدو عليه أنه لا يعنيه إلا ما يجد له من مشاغل بين فلاحته أرضه الثانية والثالثة ، على دعواه أن المسافة بين المؤمنين بالمسيح والمؤمنين بمحمد أقل مما هي عليه بين أيّ منهما وبين الشعب الذي قتل ابن النجار ، وقد توقف عن مضغ ورقة أرض شوكة ، والنفت ناحية الرومي هذا الفلاح الضعيف الأسمر ككرمة بعد الفطاف وتهذج صوته على مثل ما يفعل المتحدث إلى أجنبي كي يفهم قوله :

رجل المرج يرتجل قصيدة جواباً على الأجنبي

أكان إيماني بالله الذي يعبد سيدي أو المسيح
وما أنا عنه بسادر

أو كان إيماني بقصعتي امتلأت أم فرغت . . . أتفهمني
فما من أجل البساتين العامرة بالنحل
ولا من أجل المناجم أو الفضة التي نغسلها بماء النهر
نجدنا على استعداد للموت وإنما في سبيل الأندلس
من أجل بوتقة الانسان والرقّة

هذا الكتف من لحم ودم الذي اتكئ عليه آخر النهار
من أجل رائحة الياسمين في هدأة المساء
واليهودي الذي ربي في غرناطة
أقرب إلي ولا شك

من البربري الذي يأتي عبر البحر وذقته مخيفة
ولو أنه يشبهني ، ومن القشتالي الذي في دمه من العرب أكثر مما يظن
اللقيط الذي نما على فقر الجدار كشوكة الصيفي
ونحن هنا نعيش على كل حال في علاقة حسنة مع الكلاب من أمرائنا
وأنا أعيد المهرجان اليوم الذي يدعو المستعربون عيد القديس حنا

لا أريد أن يسودني فيملك أمري بربري
 ولا أن أريق خمرى مرضاة للدين ولا
 أن يأتيني أسقف قرطبة مع ملك اسبانيا المزعوم
 فيحرق من لا يدين بدينه
 أما الأول فأقول له مكة في الجهة الأخرى
 وليذهب إلى الصحراء فيقتات منها كحجل
 وإلى هذا الملك وقد أكل خيله القراد
 لينظر إلى هزال شعبه قبل أن يغزو كرمتي
 ونحن لسنا بالذين يرتضون بصلة على رغيف أسمر
 نحن الذين اخترعنا القافية والموسيقى للآخرين ولنا
 لأننا نشارك في كل شيء من مسرة أو منفعة
 ذلك الذي يأتينا مسالماً فيجلس على أرضنا الحارة الخصبية
 وليتعلم منا كيف نطعم الشجرة ونزرع الزهرة
 وكيف أتينا من بعيد بالماء بالحيلة والناعورة
 وإذا فتحت له ابنتي ثوبها
 فلينعما معاً هكذا
 يفقد الأجنبي حتى ذاكرة كل شيء إلا الأندلس
 هكذا ينسرب فيه نور الأندلس كانسياب الجبال
 كمجد الانسان والسكر
 ربيع من دهشة بين الثلج والماء

ونفض الفلاح فجأة ، يحرك كميّه وعصاه لأن احتجاجاً صدر عن دوابه المربوطة إلى عمود
 الوسط ، وقد ترك محدّته إلى أكثر من غضب . عندها التفت جاسوس قشتالة إلى جهة يهود اجتماعوا
 فاقترب من جماعة من الحاخامين بدا عليهم أنهم يستقبلون رجلاً ارتدى الجلد والفولاذ الأسود قد
 يكون فاراً من الجيوش الكاثوليكية : وما فعل لأن طريدة النار هؤلاء لها جاذب فريد عنده وهم
 الذين يدعون اسبانيا باسم سفاراد^(١) ويزعمون أن اسم سيفيليا ، اشبيلية المسلمين ، أو ما يلقبها
 الشعراء بحمص ، هو مقلوب شيبوليث العبري ومعناه سنبله . . . السبب هو ذلك السائح الذي
 يستقبلون في الفندق والذي يظن أنه تعرف إلى ملاحه القاسية المكارة ، ولفح الشمس على يديه
 وعنقه ، والعنف في نظره . . . ما تفعل هنا ، أيهذا البحار بلا سفينة ، وفي مثل هذه الصحبة ؟
 رأيتك مرات عديدة في مرافئ ايطاليا ، في لشبونة ، وسلمنكة . . . ألسنت الذي كنت تجرّ قدمك
 بين خيل ورماح صاحبي السمو الملكييين عندما أتيا قرطبة عام ١٤٨٦ ميلاد سيدنا . . . منذ قرابة
 سنوات عشر واليهود يحرقون بأمر ملكي . أحقاً أنك من هذا الشعب الذي يأتي بالفتيات من
 الأديرة كي يزني بهن ، ويسمّ الأبار ؟ هكذا قيل لنا في القدّاس ، وأجهل أية حماية تظلللك وأيّة
 دراية جنبتك عشرين مرة أو تزيد عقاب الكفرة . ما جئت تفعل هنا تحدّق إلى خارطة للبحار على

(١) سفاراد : الاسم العبري لشبه الجزيرة الاسبانية البرتغالية . ومنه السفرديم وهم يهود شبه الجزيرة المذكورة .

ركبتك رسمت عليها ملائكة بهية ودليل الكواكب؟ إخش هذه المرة يا كولومب ، إذا عدت إلى معسكر المسيح ، الوشاية المميّنة ، ولنتته من حكاياتك عن كروية الأرض ، وما تردد من هرطقة توسكانييلي!! لقد جاوزت الحدّ ولا شك ، وبعد أن فاتك المال الكاثوليكي ، جئت تطلب من أثرياء غرناطة عوناً مراكب إلى الهند ، ذهباً ملعوناً كي تفتح رداء المحيط كزانية في وجهتك لبلاد الكفرة . أه ان ملكتنا ، هذه التاعسة ، تحلم بعونك وقد رددناها عنه مائة مرة ، لكنني حين عودتي ، سوف تعدّ لك المحرقة ! يبدو لي أنني أحتق من إجتريعات هذه الطيالس السوداء ، والرطانة الخاخامية وقد اختلطت فيها العربية بالعبرية ومن شاماي وهو يهنيء عزرا ، ويبادلته كلمات الفطير ، مرحباً بذقنك ، بيضاء أم زرقاء ، أفواه الكفر ، ثرثارو التوراة ، يوتوتون بالجيمار أو المشنا ، مرحباري مناحيم ، مرحباري ناحوم ، ربي ، ربي ، ربي داود ، بلقام ، هيلينيل ، ابن باروخ ، ابن زاخار ، أبي جابوون ، أبي ميلش ، باركييا ، عثانين ، تفتافون ، علاكون ، نعاچ تاغية ، طريدة محرقة ، أي هدف مظلم ، أيّة ثرثرة ، أيّ نقيق ، أيّة جمعجة ، أيّ سخف ، أيّة فوضى ، أيّ أغبياء ، أيّ غش ، أيّة فظاعة ، أيّة قبالة^(١) خفيّة تدبّرون مع دساس المراكب هذا ، مستثمر السبب هذا ، هذا الشيطان المعمد ، نمس البحر ، المغامر ، ذو الوجهين ، الغشاش؟

عندما أرى إلى هذا الرجل وملاحمه الضخمة ، وعينيه البارزتين ، وذقنه الهاربة ، وجلده المسفوح ، ومن يدري من أين جاء وأيان يذهب ، أذكر ذات مساء في ماديرا منذ سنوات عشر . . . أنا نفسي ما كنت أفعل في ماديرا . . . يقول أنه يتخلّى عن الجنة في سبيل ذهب « أفير » ، وأنه يبحث على الأرض فيما وراء المياه عن النجوم . . . أذكر أنني راقبته في لشبونة كان يرسم خرائط تظهر عليها قارات مجهولة ، أذكر أنه روي عنه أنه كان يبحث عن الجنة يعتقد أنه واجد « الكاتي » في اليونان كما في لقاء ماركو بولسو . . . ويبرر ألف هرطقة باسم هداية المتوحشين . . . لكن من كان يعلم أنه من قتلة المسيح؟

وحلّ المساء كبرتقالة . ومرّ في النهج بعض فتیان مرحين في ثياب بلا حشمة . يا غرناطة ، يا مدينة الاغراء ، الشرفيك عيناه جميلتان حتى لنظنه الخير . . . لكن ما كان يغني هؤلاء الفاسقون؟

أغنية العيّارين

فتيان بلون الغرور
هلة طيور وخناجر
أقدامهم سريعة كالعين

يا للحصى التي ترمون

(١) cabale تفسير اليهود للتوراة باطنياً كما كان يفعل القدامى قبلهم .

ناراً تلاحق النساء مساء
أنتم أعاصير سعادة الآخرين
يا سارقي الدجاج والثمار
يا لضحككم في العوسج
لاذهب لكم الا ما تأخذون ولا حقّ الابان تكونوا
فتوات الحارات المنطفئة
نشم فيكم دم القريب

أنتم مهارى الجحيم أيها المسعورون

ما أهمية الجدران والبشر
ما هي غير كؤوس مقلوبة
واللذة في الحفر

كل شيء أو لا شيء يا ذئاب الأرض

يا من تفضحون القوانين والنساء
سكارى بأن عمركم أقل من عشرين
أنتم يا من تُشنقون قبل الأوان

أوغاد أنتم أيها العزّاب

جدّفوا ما دامت أسنانكم بيضاء
ارموا بر وحكم على أقدامكم العارية
قاتلوا قبل أن يقتلوكم

كطريدة في زاوية نهج

اخنقوا الأشباح بين ذراعيكم
اصرخوا مات الله وأن الحب بهتان
كسروا الأيام كفش

يا أطفالا ولدوا من أجل نهاية العالم

يا فتياناً في ستر سوداء يا من قبل أن تبلغوا مبلغ الرجال قبل أن تعانوا قوة روحكم أسلمتم

إلى عنف الوجود في الأرض السكرى بالقرنفل والفرحين التي يزدهر فيها أكثر من القرنفل والفرحين فاسق مسلم على ما نصّر الاسلام أكان هذا في غرناطة أم اشيلية كما هو الأمر عن دون جوان المنكر في القرن الثالث عشر للمسيح نفس الشمس تجعل القم مشغوقاً بالقبل واللذة بلا غد والأخلاق حيلة ونصر زنديق .

لأن الفتوة عند المسلمين أو المسيحيين هي من مملكة الخديعة الساطعة وكلما ابيضت الأسنان كان صغير الذئب أقسى .

*

أي عطر فاح فجأة أية ربيع في الرمل أخرجت هؤلاء الفتيان من نفوسهم عند المغيب كان بينهم كسالى تكونت فيهم خلال مدة طويلة صورة لا تـ' م ما هي وموسيقيون يوقعون لحناً خفياً لا ينتهي

بدأوا من ساحة أو باحة وربما من نافورة ماؤها ساخر كان في الخارجين فيض من قوة فكان زحام لعوب لأن ضيق النهج ما مكنهم من أن يكون اللهو على قدّ عرض الأكتاف هذا وبعد فالإنسان يتعبه أن يحمل شبابه إلى دار الخراج حيث تتزيّن النساء من الذي اذن فتح فجأة مصاريع الأسطبل للمهاري أنظر إليهم يتزاحمون يتراخضون يضحكون يتزيّنون لغزوم بما يقع تحت أيديهم العازفون على البندور^(١) يسرون في المقدّمة كأنهم في عرس جيل وما أشبه ذلك ببداية حرب مجنونة أو رفّ طار أو ضربة جنون أو ضربة سيف

منحوا أنفسهم كل ما في ظاهر المدينة من برية ونهدوا كضائعين كي يمتلكوها

كان أفضل أن يرسلوا إلى المدرسة حيث يتعلمون تجويد الدين معاً أنظروا الآن لعان نظراتهم وأسنانهم البيضاء وسكاكينهم لماذا تبدو إذا شغلنا ممارسة الحب وكأننا نعدّ لمذبحة

والأغنية التي يتخاطفون يبدوها الأوّل فتمر للأخر ويتناوب فيها الفحش الداعر وطهارة النجوم

المسوّ ولون طبعاً عن هذا هم الملعونون على ما يسمي الناس هنا الموسيقيين بأجر

انهم لا يساوون جبل المشنقة كي يعلّقوا في الحقول فهم على استعداد لتأجير أنفسهم للمتهتكين ولأن تضييع رؤوس الناس في الرقص والأغاني

وتلك أفضل حيلة عند نشأالي الثمار والحلي والنساء هل يفكرون لحظة بأننا قيد اصبعين من ضياع الاسلام

(١) Pandore : آلة موسيقية تشبه القيثارة .

وأن زمن الحصاد الذي تموت فيه شمس المساء يرتسم فيه دم أهلهم
هل يفكرون لحظة بأن ما يتنبأ به عمق المنظر هو خفق أعلام وتلك الصلبان فوق المحارق
البعيدة

حلّ الصيف على البرية وغادر الناس القرى إلى عطر المهشيم لكن الأوغاد جاؤ وها قبلهم
متعللين أنهم مدعوون لعيد أو حفلة

كان الفلاحون طوال النهار يتوقفون عن العمل ويتجهون في ساعات الصلاة ناحية المؤذنين
الذين لا تكفي أصواتهم بترديد العظات الالهية بل تذكر أيضاً بفتح السكر فتهمل الماء في قعر
القنوات وتسقي الأرض

وهكذا تمضي على نفس الخطا طراوة الأرض والروح معاً
حتى إذا رجعوا وجدوا قرب المزارع ما يدهش له الحمار والثور في هذا الأعصار وآلاته
وضحكه

ما تفرّ منه الطاوس في خوف له ما يبرره
صعب أن يعرفوا كيف يلقون هؤلاء الفرناطين وبينهم ولا شك أنذال ما تركوا المدينة
جزافاً وغجر تلمع أفواههم وعيونهم

وقد تبعمهم بعض من صغار الباعة والشحاذين والقوادين وكلاب وراء عربة لحام

تأمل بعظمة أو أحشاء
أو مشهد حرام أو خلاعة أو وليمة أو عراق أو جريمة دامية
وبين هذا وذاك كلمة تعني معركة ومن يدري ما ينجم بعد النهب وما هو أسوأ . وفي أحيان
كثيرة تجد حدّ الشنيل بعد أن مروا من هناك رجلاً أوسعوه ضرباً ففضى على الأثر

ومهما كانت الحال يجب ألا تدعهم يقتربون من النساء لأنهم
حينها لا يعلمون ما يفعلون
كافرون بكل شيء لم يحفظوا من الدين إلا احتقار أمهاتهم ولذّة المحارب
أو لم ترهم يرمون بحجر مطرب الشوارع العجوز

المجنون الملقب قيس بن عامر النجدي الذي عنده لفظة حب تعني غير ما تعنيه لديهم

هم يبشرون بأن ندوس الزهرة بعد شم فلا تذبل أبداً
ولأن لهم ضحكة الفجر لا يعدمون فتيات
يرغمين عليهم كما على خنجر

وإذا حصلت جريمة قتل كان أهل الابن العازب مسؤولين وأوقفت الأم مع الأب .

فتاة في ناحية ما على شاطئ الشنيل

جاؤوا بأزهار
وأغانى لصوص
ونسيج ملون
النهار يفر منهم والليل يخشاهم
شفاهم أشدّ صفرة من طمبورهم
ولها طعم السعتر

في قُبلهم دم التوت
وما أن تضبط الايقاع
قدمهم حتى تخلع الحذاء

يرقصون كما يتهدون
بين ذراعي الحبيبة
حتى لترتجف الأرض

يخرج صوتهم فتظنه الروح
كأنه نصل من قراب
كأنه لهب من فؤاد

عيونهم من الأرض العربية
هؤلاء الفتيان كرعيف أسمر
سريعون في انتزاع ثيابهم

كما يخرج نهر من ضفتيه
تظنّهم من كلس حي
الماء وحده يجلوهم

يا الرهبة مساء ذي نجوم
أنتم يا من تبدون يا من تبدون
رياحيناً سوداء في حضن القمح

يا زوأناً قاسياً عند من يسكر
أن تراكم فحسب يستسلم القلب
يموت القلب إذ يراكم تحيون

الدرويش

وَألوا إلى شاطئ النهر ، كي يشربوا في حانة بحارة ولصوص ، زعموا أنها تدفع رشوة لجباة الضرائب كي تتغافل المدينة عما يجري بها ، لكنك كنت ترى فيها دائماً مندوباً لصاحب المدينة ، أي ما نسميه عميل بوليس المدينة ، يَجْمَرُ نبيذه أو يجري في الغرف وراء إحدى المتبرجات من اللاتي لا يدفعن ، كي يدفع لهن . . . واستقر الملعونون خارجاً وعزفوا في ضجة من جحيم رقصة يمثل فيها الفتيان اثنين اثنين الأبهة والاباحة . مثلوا الصيد والحرب ، واحتلال المدن وفضح النبات . كانت الخمرة ثقيلة وحلوة أخذت مأخذها من الصغار واحداً بعد الآخر . عندها برز رجل أخذ في هزله وشقائه يدور حول نفسه وذراعه ممدودتان في سرعة تبدى معها الراقصون وكأنهم ذباب طرده منشفة . بعض منهم ذهب سكره ، وبعض فقد في هذا الدوار ما بقي له من عقل . كان الراقص ، في ثوبه الذي بلون التراب وهو ينفث على سرور صدره ، قدماه عاريتان تشققتا ، رأسه حليق ، عار أعجف كمروحة ، يدور في ريح كميّه ، وتند عن تلك الطاحونة الحية تنهدات تكبر ، انسحاق بيدر ، أنين قمع يتعذب تحت حجر ، حتى الأسنان ، وغضب المفاصل . . . واندلعت فجأة منه كلمات ، ينسدل عليها نسيج الحركة ، ثم تحرق بركبة ، أو كتف ، حتى تتعري عند الأذن ، فوضوية ، مختلطة ، دائرية ، ثم تأخذ ، بقوة الفرار من مركز النطق ، معنى من دوار كماء صافية معلقة في سطل مقلوب . . .

يا كل . يا كل . يا كل . يا كلمة الله
شقاء شحوب لون ألم دموع دموع دموع
والمدينة التي شقاؤها أن يمقتها الله
تظل في شحوبها قاعدة على التلة
أبراجها تفقد لون الدم المراق في الألم والغضب
ويجلس الغريب في روعة الحجارة الوقحة
ها ها ها ذراعاي ذراعاي المسكينتان وكعباي
سحقتم عظامي خنقتم عنقي وطعنتم وجنتي
رأسي خلّيتموها للطيور على أسوار أهينت
صمت غرور النواير والنهار صار من جيس
ولا باب يصطفق أبداً في الليالي
شعبي تفرق والصفصافة تبكي تبكي

ولما انصرم سيل الجمل خل المستحيل والخدروف
زاد سرعة دورانه ضعفين بل ثلاثاً بل عشرا
وكبرق ظهرت في أطراف الكمين

من أين خرجت تلك السكاكين سريعة بين الأصابع
كأنها رعب أجنحة حمام خلست سر قوه
أو كؤوس فارغة تمتلئ أمام عيوننا خرا من وهم
وسريعاً ضرب الراقص نفسه
'طعنت اليد اليسرى الذراع الأيمن
وامتلاً الجسد جراحاً آه كيف كانت الحراب تعمل فيه في الضلوع
فلا يبطن الحركة دمه المهدور
دون أن يبدو على القافز أنه يعرف شيئاً أو يحسّ
حتى استعادت التئمة وهي لا تشعر أبداً بالجراح
سيرتها في الدوران والطاوس
إذا ضرب يغدو كمعجلة

إلهي إلهي إلهي أنا مجلود مجروح مطعون ممزق مطرود
ركبت أسداً حملني في لبدته عبر مياه بحر لا حدود لها
في اليوم الثالث امتلاً الهواء رملاً وصاحت الطيور بأنه الشاطيء
وارتميت عليك يا أرض افريقيا كما يرتمي فتى
على حبيبته الأولى فلا يدري كيف يطيل لذته
عشر سنوات وأنا أقطعك بالرجاء والغزل
بذرت فيك أغاني وصياحي
انترعت منك في عشر سنوات الدموع بقسوة نبوءتي
طلبت منك ابناءك كي أرفعهم للموت
كي أرميهم كحقل محصود على الأندلس
كي يذبحوا في الحقل كي يذبحوا في الجبال
طلبت منك عبثاً دمهم القرمزي
لأزين به غرناطة باللوان علم الاسلام
عشر سنوات تعثرت كجهشة من الاسكندرية إلى مراکش
عشر سنوات جارت بالخوف مما سيجري الآن
عندها جئت بيأسى ورفضك إلى وطني
أبحرت مثل طارق إلى الصخرة التي غطتها السعادين اليهود الذين عاقبهم الله
لكن ملك افريقية لم يعطني الثلاثة الآلاف من خيله
زعزعت بنداءاتي جبال البشارات
التي يجري فيها اليوم حكم الله القدير

أنتم يا من لا تسمعون صوت المذبحة
يا أهل المملكة « البيّنة »^(١) يا من أصمكم الله
عن كل ما ليس لذة بأصبعه وقد وضعها ثقيلة على آذانكم

سقط الصوت من جديد وانتشر وصنعت الكليات حول الفقير مطراً من أزهار
فلا يفهم أحد من جديد شيئاً مما تضطرب به فتحة شفته
من جديد هيمنت الطبول على كل شيء
وما يرى ضحك الشذاذ غير شحاذ يجهد نفسه بالدوران على محور مكسور كي يرموا له ببعض
الدرهم
واستأنت خادمت الحانة حتى يسقط أرضاً كي
يأتين بالخر وف الحار
من جديد اشتعل جمر الرجل وسقطت شرارته على السامعين تبحث عن القشّ والحريق

لا لا يا سيّدي لا تأخذ فمي
لا تولج فيه نار لسانك يا لها قبلة رابعة
تجتاحني بما لا أريد أن أوّ من به أو أسمع أو أرى لماذا
لماذا زرتني لماذا عاملتني كأنني زانية
أنظرنني في الساحة العامة أبصت
شعلتك بين الأغبياء وهم يتراجعون
لا لا يا سيّدي لا تكرهني على أن أتكلم لغتك
لا تجعلني تتردد في لعنتك
الرحمة آه إنني أحترق بالله في حلقي الرحمة
إنني أحترق صرت بنفسجياً من هذا الاجتياح الالهي أنزع
لا أتعرف إلى صوتي أنا
مسكون بانتقامك أيها السيف وأسمع في دهشتي
وجهي يقول ما لم أشأ أن أقول
دماري يخرج مني
لا لا يا سيّدي لا أقوله لا أقول
له لا أقول لا أقول أنا لا
هو
أقول آه لا تصفوا لهذا الآخر في الذي يحل

(١) Betique : اسم احدى المقاطعتين الرومانيّتين اللتين كانتا تشكلان مملكة غرناطة .

مجلي أيها البائسون أبعادوا عني بائسكم
يد الله تخنقني لا أستطيع أيها البائسون
أن أقاوم أكثر احذروا

وتدحرج المضطرب على الأرض في صياح بهائم كأنه
رعيل حيوانات خائفة تضح خيشوماً وجناحاً
زربية انقلب عاليها سافلها فرار ثيران تلسعها سياط ورفس
خيول جرّ بين عرش العربات
المهستير يا حين يدنو اللص
وما هوذا يغدو قراب الله نفسه
رداء الكلمة الوضعي وقيارتها أخذ يرتجف
يرتجف لا قبل له على المقاومة ينثني يقف يخفق يتكلم
تكلم

لقد أنذرتك يا مدينة القرمز والأرجوان
وما الطفل الذي اخترته ملكاً إلا حجر الوعيد
أثرنا الأب ضدّ ابنه والابن ضدّ أبيه
وإذ لم يكفك هذا النذير
أنفذنا إليك مرات الأمر بطرد الفاسد والملحد

لكن اليهود قبعوا على عبتك يتباهون بأن قلوبهم مطهرة وهم الذين رفضوا القتال
يوم بدر

كنت تستمعين معهم إلى الموسيقى وتقاسمينهم الثمار التي باركنا بها أرضك فيما
يمرع الطاعون والجفاف في أرض أعدائك
لكننا قلبنا نظام الأشياء لضياعك
ففنخنا في صدور الكافرين الموحدة والقسوة
ووضعنا الحديد بين أيديهم وجعلنا الرعد في عجلاتهم
فدخلوا البعيد والقريب من المواقع
رأوا ولو أنهم عمي صم طريقتنا وسمعوا صوتنا
لقد بعثنا بهم إليك فدعسوا بقدم على غرورك وعشيك
وداسوا ربياءك بالأمس حتى نفذوا إلى صلواتك
فليدخلوا بيت الخدّاء وبيت الملك

يحملون الرمح والبندقية السهم والقوس
ومن ذا يفرق بين أحشائك المبعثرة وأحشاء بنات اسرائيل
ايه لقد نسيت درس أيام الزيريين حين طردنا يوسف بن صموئيل بن نجريلا كخنزير
وباديس الذي كان أنها ملكاً على غرناطة دفع الثمن إذ استخدم ذلك الوزير
وأبناء دينه

ففتحنا وجره لرهط الصنهاجة قذفناهم ضده وهم شعبه
وقضى تحت عينيه بيد البربر أربعة آلاف يهودي بينهم يوسف في التاسع من
صفر لأربع مائة وثلاثين سنة خلت للهجرة

أعوام عددها كاف كي تعودوا إلى مزبلة اسرائيل
ألا تعلمون أن الذهب اليهودي يسلح اليوم ضدكم ذراع الروم
لكننا زينا لعدلم ومعه محارقهم التي تضم في قادش وطليلطة وقد سموها
كادس وتوليدو

فيمحى الأولون ويتنصر عليكم الثانون
لقد حللنا لهم استخدام النار لعلها تطهر الأرض ولن تنجوا أنتم من هلاك
اسرائيل

ونحن الآن بلا وازع سلاح الكافر الذي أخذنا شدته من علي نفسه

نحن في القبضة التي على أهبة أن تهشم وجوهكم
في قلب العليج الذي يلوث أمام عيونكم شرف بناتكم
حتى نذكي النار الكافرة في بيوتكم
علها تشوي في المهدي أبناء لذاتكم
ها نحن أمام الحمراء على وجه الصليب
وانظروا أنها إلى ملككم في عاره واضطرابه
ومفاتيح الحمراء يعطيها بيده إلى من بعثت بهم إليكم قدرتنا
الذين سيلقبونه بأبي عبدالله الصغير ويداعبونه كابن لهم في عار الشمس
أنتم يا من تكتبون « لا غالب إلا الله » على جبين أو ابد دواركم
اقتربت ساعتكم التي تتجسد فيها الكلمات عقابا
الساعة التي تعانون فيها حق كلمتنا ووعدنا

بلغ حدود نفسه فما يلامس الأرض يقسم خبز الله في فمه
بات لا يعلم من يتفخ فيه الكلمات
يا قدمي الملهم ليتها القدمان القافزتان المتجلدتان المسا المسا الأرض لأنه
صعب أن نرى القفزة تمتد ولا تنتهي أبداً
ولقد امتلات الكؤوس واقتسمها الفتیان
بعض يبحث عن ظل امرأة وبعض يحلم بالدم المراق
ولا يسمع أحد فكره نفسه بين الطبول والقيثارات
دوروا بخمر التمر ولنشرب من الدن
ما دامت الأقداح أقل عدداً من الطفيليين
وسقطت الدمية التي
أراني المشعوذ فجأة خيوطها
وانحنى عليه رجل قشتالة الذي
اختلط بغوغاء التابعين المكللين بالقش والغبار
بأية لغة يكلم تلك الأذن وما زال بها رنين الله
الفارسية أم البهلوية أم العربية
أكاد لا أتبين الكلمات السوداء كالسبج

قال له ألا تعرفني تحت وطأة خنجر السنين
وتجاعيد الجبين وهيروغليفية الجلد وضياع الأسنان
الألا يذكرك ما بيننا وشم الكلمات في ذراعك وذراعي
كيف تبادلنا الدم دون اعتبار لشريعتك أو شريعتي
أنظر مرة أخرى إلى رفيق الاثم يا حامد
لقد عاد الزمن الذي يلتقي فيه اليوم
جاء زمنك وزمني وزمن بوعبدل
ولسوف تشرب معي مرة أخرى خمرة المكر
ولتمت المملكة الناصرية فقد ذبلت كذبة ولادتها كزهرة قديمة
وليحق السخر بأخر أبناء الأنصار
نحن الغدر الجديد الذي ورث السلطة
وآل إليه الملك ولذة الانسان التي تمتد أبعد من نفسه
أنظر أمامك أيها الفقير المشدوه كعبد خضع لارادة سيد نجس

لقد ارتبطنا بالجحيم المقبل ونيرانه التي لها عندك طعم الجنة .

القيصرية

الشارع الذي شقوه بعرض كتفين
ينزل كحية من فضة بين الصناديق
والبسط والمحارم والأردية المخططة
خلل الصباح والنظرات والرغبات والعروض

كل سلسلة ألوان الشرق
من وردي وزعفران ومرجان وجاد وفيروز
لحن نسيج ملأ قيصرية
في شمس الشتاء تحت الخيمة الملونة

أصوات خصيان تبازر فيما بينها بالأسعار
عراك بحارة وخيالة من زناة
يهود بنجومهم يتحسسون الصوف والحريز
حرس سود يلاحقهم قوادون بعرض

وفي السوق لعبة شطرنج
غريبة انحنى فيها كل تاجر على خاتنه
والنعال يدق على قدمه الحديدية والاله
في يد الرباع وترين على الجميع نغمة
المشوي العطرة

باعة خطابات

حمالو ماء فلاسفة سلالون ومشعودون
شحاذون وسقطيون يعرضون ما عندهم
سلافيون على المناضد يبحثون عما ينقصهم

يداعبون الوجنة ويمسسون الركبة
أسرى مسيحيون من بلدان منهوبة
سودان جمعد ولصوص خييل نافارية

وأولئك اللاتي يقرقرن من دكان إلى دكان
ضحكتهن الخفيفة كلعبة طفل
وصوت الحلي إذا تحركن
يدرن بعيونهن الكحلء على الناس
نساء مصبوغة أصابعهن
في ثياب حمراء

آه من الذي لا يثيرة الجمال الارجواني
يرتدين الدم الذي يرتعش فينا
يبدو أن أصواتنا تنتزع منا على خطوطهن
يتحرك الرجل فينا وتفتح الروح

كوشاح يمانى الناسج
أول من شحب والزجاج بدا
كضم فرنه أما اللحم فمختلف
ما الذي هزه فضيع نعله

لقد رأى المجنون تعرفون من هو مجنون
السا

لا
التفت الناس جميعاً كي
يضحكوا ضحكة لأنما ينخلع العنق
لمرأى هذا المجنون المعجوز الذي يقول في الحب

يظن نفسه قيساً العامري الذي مات عشقاً في ديار نجد والذي لا شك فيه أن
البحارة الذين حملوا في سفينتهم قصيدة جامي حيرات حيث الملوك من أبناء تيمور
كانوا يجهلون أنهم عبروا المتوسط ومعهم نبتة جنون
كأولئك الذين جاءوا في متاعهم سهواً ببذور من سورية

فما يتخيلون حين زرعوها أن يأتي يوم تتأبل فيه ربيعاً عناقيد الكرز في مرج ظاهر
غرناطة

لا أدري متى جاءت إلى هنا مخطوطة مزينة بالزخارف
عن حبّ المجنون وليلى اللذين ما زال يغنيهما المنشدون
لا أدري ما كان سعرها ولا أي دكان أندلسي باعها فإذا بها وما انقضت خمس سنوات
على انتهاء الشاعر منها

تنتش حبة الجنون التي في عمق خطها فتمرع نبتة جنون في البيازين
وإذا قارىء يتوحد بعاشق ليلي
ففقد مثله اسمه واسم أبيه
فما يسميه أحد إلا مثله بالمجنون
وما فعل إلا أنه أحل اسم حبيته محل ليلي
اسم ليس من هنا ولا من المغرب أو فارس
اسم لم تغنه الركبان مساء في أرض العرب
ولو أنه شبيه ثمرة باردة في صيف قانظ
صوت من ثلج وأزهار قادم من دنيا مجهولة
أما هذا فوحده يزواج بين السماء وبحر الرمل
لا كما نظم عجوز حيرات الذي استعار من نظامي غانجا ميراثه
أي ليل العربية في دلهي وقد غناها أيضاً الأمير خسرو
أما المجنون الأندلسي فقد تجرأ على تقاليد شعرنا
وتبنى نشيد الزجل العامي الذي ابتدعه الكافر ابن باجة
لقد اختار كوئني يجهل طريق الحجر الأسود
عبادةً مثيرةً امرأةً غريبة على الاسلام
على عكس ما تقادم عليه البشر قريبة لكنها يحجبها ألف حجاب
عشق مستحيل يفيض بالجنون كما نافورة
لكنها امرأته لا امرأةً منحها لآخر
امرأة حياته وذراعيه وتظل موسيقاه الطويلة
ولم لا نحترم جنونه الغريب
الذي لا صلة بينه وبين قواعد الحب السائرة

وكانه صفة في وجوهنا جميعاً نحن الذين نعيش ناعمين مع زوجاتنا ومحظياتنا

نتقل من الأولى للثانية وفي أحيان كثيرة
نغمض العينين على عشاقهما دون مشكلة
ولهذا نضحك من هذا الرجل عندما نلتقي به في طريقنا
وهو يقبل على الشتيمة يقبض على حجر
يكاد يلقيها قبل أن يبدأ نشيد السا كمغتصب
جاحد بالتقاليد الموروثة
كفضيحة في رابعة النهار
لا تطاق لأنه ليس من شريعة تصفها بالجريمة
إلا إذا اخترعناها من أجله
إلا إذا شئنا لهذا الحب صليباً آخر
غير صليب القدمين واليدين
عفواً ما كنت أقول لكم أنه يغني
ثقيلاً كأنه يكرر نفسه
عودة الخطيئة الوقحة
كفراً يكفره وحده يزيد في بشاعته
انه لا دولاب تعذيب لأعضاء المعتوه^(١)
ولا مدقاً يكسر الجنون
ولا خيل تقطع أوصال الشعر

*

ويتبع الأطفال قوال الزجل
كما تهيج الأوراق الهواء في النهج
عيون سوداء وأقدام حافية تجري وراءه
إلى الضواحي الفقيرة وهم يقرشون فولاً أخضر
ويصمت حوله ضحكهم نقطة نقطة
أية حورة عملاقة تبدو كأنها دوماً تندف ثلجاً
على الليل في رابعة النهار وينصتون إلى أغنية
ككواكب في ثيابهم القطنية الخفيفة

عندما وصل المجنون إلى الجسر المسمى بالحورة أنشد ما لا يستهدف أحداً فعل الريح في

(١) هو دولاب التعذيب في القرون الوسطى الذي كان يوضع عليه الانسان وتشد أعضاؤه حتى تنكسر أو تحرق الخيول فيتمزق أرباعاً .

المدخنة أو ماء الطواحين في الدولاب وأقولها أنا الذي ما حاولت أن أعالج البيت الأندلسي وحيد
القافية على طريقة قصائد أبطال شارلمان الطويلة بل اهتمت بالصدى العامي هنا أكثر مما
اهتمت بزجل هناك حتى لأقول ما لا أعود له مرة أخرى أنني لم أحلم بأي من تلك التركيب
الماضية منذ أن دخلت في عالم الخيال الذي امتحت منه نغم صوتي وحلم ليلي .

ان المسافة الزمنية بين موت بابازيد وما كتبه عنه راسين ليست أطول من تلك التي بيني
وبين اللحظة التي قضى فيها لينين فليغفر لي من شاء ما دمت قيد أربعة قرون وثلاثة أرباع نسبة
في الخطأ جائزة لمن يُدلج في الديمومة .

قلت أنه وصل إلى جسر قطرة الحور التي تؤدي إلى المنتزه الذي يرتاده العشاق .

زجل قطرة الحور

هي وحدها تمتلك السماء
ولن تستطيعوا أخذها منها
هي وحدها لها قلبي
من يجرو أن ينتزعه أو يصدعه
هي وحدها تصل إلى الأحلام
التي تحيل ليالي رمادا
هي وحدها تنجو من اللهب
كما تفعل السمندل
هي وحدها تفتح روجي
لما لا يمكن سمعه
إليها وحدها ومن يدري من أين
يأتي طير صفو الزمان
هي وحدها إذا تكلمت
حديثها رحلة
هي وحدها صمتها
على جمال الظلال
هي وحدها وكل الحب
عندي أنا وجه واحد
هي وحدها والعجائب

تندھش إذا مرّت
هي وحدها والشمس
ما تكاد ترى فيها صورتها
إليها وحدها ومن يدري من أين
يأتي طير صفو الزمان
هي وحدها وليأخذ
ما عداها الشيطان الأخضر
هي وحدها ومن أجلها
وحدها عشت هكذا وتألّت
هي وحدها يا أغنيتي
يا دمي عروقي وأبياتي
هي وحدها ولتخرج
من الجحيم كي أبقى فيه
هي وحدها وما تعنيني
هذه الحياة والعالم
هي وحدها وأعرف من أين
يفني الطير صفو الزمان

غرناطة التي أسمها حياة

يا كلمات طارت دون تبصر من الشفة . . . تود ألا يموذ إليك زجلك فيصنع وجهك يا من
لا تزن كيف ومن جاءك التعبير؟ أو يجرمك الناس وقد فضلت عليهم حبك ووضعت في الميزان
امرأة شال أمامها وزن كل الوجود ولؤلؤة الفجر وحجر الألام؟ كيف تريد أن يفرضوا لك
عصف روحك، وهم يعيشون بين القاعدة والقياس، يا من لغتك استعارة وعينك دهشة؟

ألا تعلم أن العالم الذي فيه تحيا كان نائماً ولسوف يبقى إلى الأبد عالم الكذب التقني؟
أولئك الذين لا يخشون التعجيل في موت أب كي يجردوه مما ملك، أولئك لصوص السعادة، نهابو
الأحلام، تجار الجوع عاهرون في السر، مرابون، بوليس، قوادون، باعة جسد وعرق، جلادون
شرعيون، قتلة وملوك، لحاسو صحنون القصور والحرب والمهر، آه انك لتمنحهم بثمان بخص
فرصة عرض عواطفهم النبيلة، وقلوبهم الكريمة، حب الله، والقريب والشعب! أو ما من مغن
يفضح، وجه الوحش اللثيم الذي ينضح قبحاً، تحت قناع الخير ويطلق تمويدة نميت المقتنعين

بروائهم المفضوحة؟ متى تنقطع الفضيلة عن أن تكون العطر الذي يخفي الانحلال، وتمر القرون عبثاً، تتعاقب المجتمعات، الآلهة والفلسفات ولا يبدل الطاعون غير ثوبه، وتعرض الجيفة على هواها بوزها وقد تزين في رابعة النهار... طموح الروح، عظمة الفكر، كرم الانسان، كلها يستخدمها ستاراً له الرياء القادر فيظل منتصراً وله يتملقون. وفي ركبه يمشي أصحاب الرسميات، ما يقولون كلمة إلا وقد وزنوا وتفحصوا وسوا، لغة ذلك التهذيب الذي فيه ثمن يومهم مدفوع لهم، ذلكم رواة الشواهد، الناس - الأصداء، الذين تكفيهم لفظة كي ينقلوا على إيمانهم، لأنهم ارتشوا وزيدوا فشكروا... أولئك أصحاب الركوع الأيسر عليهم أن يبدلوا الصنم من أن يبدلوا الطفوس... ولئن لم تر ما أود أن أقول، فلا تتعب نفسك. فليست غرناطة الأيام الأخيرة بحاجة لأن تفهم، وما على الغبي الذي يجهد في قراءة ما بين السطور، إلا أن يرفع مشعله بيد راجفة، وأن يقرأ خسته في أول شيء يشبه المرأة!

ولتكن الكلمة كما قيل موقعة: إليكم عن طريقي أيها المراءون!

أنا عندما أكلم هذه المرأة، وما الفرق بين الصلاة والنشيد، لا أخبئ حبي وراء الدين، ولا أتظاهر فأجعل لله ما لهذه المرأة، وضوئي لها، الأسماء التي يفوه بها فمي لها.

وتباهون أنكم عن تقى تقربتم إلى الله بمائة اسم، ونسيتم أنه هو الذي منحها لنفسه، أو تسعاً وتسعين وبعدها اسمه. وتقولون أنها الأسماء الحسنی كأنها من جودكم. وأنا، وأعلتها، أنني منحت هذه المرأة أسماء عجيبة ما لا تمجدون ما يكفي من نجوم لو عدتكم. وتقولون: «من تلك التي لا بد له من كل تلك الكلمات كي يصفها» وأنا أجيئك أيها المراءون، أن ربكم إذا نقد بمائة اسم بينها اسمه فهو الدليل على أنكم تقربون إليه بعبادة بخيلة، وأنا أيها الأفاكون أؤكد لكم، أن التي أغنيها لها بديع الأسماء، لعلها تنتقي منها عقد يوم، ما ترميه الا وأقدم لها من الأحجار نادر البريق مما تجهل صلاتكم الفقيرة...

أبعدوا عن دربي أيها المنافقون! هوذا المكان، هنا يفترق الظل عن النور، هوذا الانسان الذي أحل مكاني فتجه إلى حيث أحدد موضع الله، راحته مشرعة إلى قبلي، قدماه متباعداً، لأنما يعظم القربان عندما لا ترى اليد، ويعمق النشيد حين لا تدرك أين الفم.

يا عجوزاً، خذ مكاني، كن قلبي وصيحتي.

التي اسمها يكتب أشكالا

غرفة ظل نافذتها عالية ضيقة ضائعة لا تدخلها الشمس إلا ساعة الصلاة الشرعية كاصبع صفراء تدل على مخطوط على الأرض خطه جمع كل بيارق اللغة الفارسية حيث تهمني كثلج نقط التصحيف فكأنما فيه تستمر الحرب المقدسة لا مدائح الحبيب

ونشيد الرمل لجامي حل محل القرآن

غرفة ظل لا يرى فيها ما خلا الهدوء والرقّة إلا جرّة ماء بارد تظفي من حين إلى حين ظمًا الشاعر

ظمًا يملاه ناراً لا تهدأ وتحيل بلا قوة
ظمًا لا يتبدل مرّ مرّ
وخشبة ينام عليها كتاب أبلته العينان وباب
يطل على النهج عبر سجف
لألىء سوداء وبيضاء سجف من خط
غرفة ظل شهباء رجل وحده قعد فتربع
وفي أعلى غرناطة في عمق البيازين
ياوي بيازون^(١) وعجّر وفقراء وأمراء
لا يآبه أحد ما الساعة تسمع أطفالاً في الخارج أو صوت خشوع مؤذن
في أعالي غرناطة ليس للانسان إلا أن يتكلم أو يضحك وهنا لا مكان
إلا للوحدة ولا شيء سواها والصمت ولا شيء سواه أين أنا أو لا
أسأل من يعيش هنا الصنفح أني دخلت إلى قلبه ولا شيء سواه
لكنني والحق لست في هذه الغرفة
حيث لا أراني على هوى جنونه
هذا الرجل الذي يقتصد نفسه

في أعلى غرناطة في عمق البيازين

لا شيء على درج الحجر ولا على الشمسية المخططة
يبیح الوصول عن هذا الرجل ولا سقف الظلمة ولا
طنين ذبابة عابر

وعلى الجدران لفظة سين ولام بين ألفين من اليمين إلى اليسار اقروها
معكوسة بعيني اللاتينيتين كسؤال SL ايس ال هل هي تتكرر بالحوارة والفحم
بالحوارة والسكين بالحوارة والحبر بالحوارة وتقلب بالأحرف اليونانية ايتالامبدا سيجمبا
ألفا من اليسار إلى اليمين على علو الرجل الذي على ركبتيه أو لاتينية على علو الفم أو
سلافية على علو الجبين... ΕΛΣΑ ELSA ΘΠΒΖΑ...

(١) مربو الباز .

ومن يتعرف في الف باء الغرب على كلمة أنكسا EN-XA المشتقة من المستقبل في بلاد الجنوب المقهورة .

هكذا يصنع الأطفال من النهج لعبة موشومة وللبدو لغة فيما بينهم لا تفهمها البيوت المرقمة ولا بشر العيون الهاربة من الشتيمة والخنا .

في تلك الغرفة في أيامنا الأولى أتذكرين كتابة لا تنتهي من يجب يكتب على الجدران من يجب يكتب على الجدران من يجب

كتنقيط في سر الصمت

هناك في أعلى غرناطة في عمق البيازين

هي غرفة وززانة وكهف مغارة كتلك التي يسكن غجر اليوم الذين لا يكتبون حروفاً على الجدران بل في اشارات لغة اللصوص

أوليس حبّ هذا الرجل سرقة « قبالة » مستقبل السرقة كسر في روعي سرقة ما سوف يولد والظلّ ملكة اختلسوها من عينيّ ياله سحر

لا يدخل أحد إلى هنا نعرف

أن عمجوزاً يخرج لقبه المجنون ووراء

أطفال أشرار يجتمعون إذا غنّى ويلحقون به في الأزقة

وأحياناً يخطيء فيرتل لغة بعيدة لا يفهمونها فارس الضائعة أو سواد الحبشة

أو يزعم عبيد الملك في قصر الحمراء الأحمر

انها ما لا أدري من هرج سلتي

والأطفال ووراء يضربون أفواههم بالاسم الغريب في غربته

في سخر أصابعهم واللسان والريق

من أعلى البيازين تنزل المسيرة وينزل الزجل والنساء يلتفتن إليه فيتضحكن

هوذا قيس

قيس ديار نجد الجميل غنّ يا قيس ليلاك التي اسمها شواذ لا يحفظ

عنّ يا مجنون تلك التي لا تدلّ عليها أحدا

ويمضي وحمال الماء يملاً حذراً جواره

فلا تضع قطرة منه

مما يجيء من الخزانات تحت القصبه ويدفع لقصر الأمير أتاوته

ويمضي المجنون بحاشيته في اسماها يغني ينزل إلى غرناطة وهي تعيش حياتها
العادية

رغم حقد واحتقار الذين عندهم علم الشعر يعتمدون فيه على القرآن الذي جاء فيه أن
حب المتعة من أين أتت من نساء ، أم خيل أصيلة أم أرض زراعية ، هو من خداع الدنيا ، يعوض
الله عنه في الحياة الآخرة ، - وكيف ينسون أنه قال : وخلقنا من كل شيء زوجين - رغماً عن
السخرية والاهانة ، يمضي المجنون ، بين الجمهور ، عبر الأحياء الفقيرة وفي البرية بين عمال
المزارع والقطعان ، في أسماح حياته ، وتجماعيد الزمن في وجهه ، يمر بالبؤس والتهديد ، يسرع وربما
كان يخالجه الاحساس بأن ما لا يغنيه الآن لن يغنيه أبداً . لا تحكموا عليه بشريعة القانون المدني
لأنه اتخذ اسم أمير من بلاد العرب مع أنه من منشأ متواضع وليس هو من ديار نجد ، بل من تلك
الهضبة في شرقي غرناطة التي تحمل نفس الاسم وإليها ينهد العشاق في نزواتهم ، فكأنه ما سرق
اسم النجدي ، ولو أن أحلامه نبعت ولا شك من جهة محب ليلي ، قيس بن عامر . لا تقولوا ألق
شعراً بضع السلاح في الأيدي الغرناطية ، والنار في قلوبهم ، والتهور على جيبتهم . وليوكل غيره
اليوم بهذه المهمة ! هو يدري أن في دمه وروحه أنه ما بقي له في لحظات الفصل السابق للحريق
الا تمجيد الحب الذي يحمل اسم حبيبي . أنتم حكماء وعادلون يا من تزنون كل شيء وزن
الذهب والفضة والفيروز والزمرد ! أما أنا ، الذي على أهبة الموت ، ما بقي لي كثير من نفس كي
أسمي السا . . . أقدم لكم هنا قصائد المجنون ، كما وصلتنني ، ممزوجة بالشحاذين وأولاد الأزقة ،
لأنه يتكلم عني ، في غرناطة التي اسمها حياة ، وفيها لا أخشى عاراً أو ضحكاً ، وإنما فقط أنني ما
قلت قبل المغيب شيئاً خلقت من أجله .

أغانى المجنون

كثيرون نادوها بياتريس وهم يجهلون أن اسمها كذلك
دانتي : الحياة الجديدة

ألف لام سين ألف ، تلك اشارات قلب يرى .

ما وصلنا شيء من عديد أغاني قيس بن عامر النجدي الملقب بمجنون السا أو الزا (عند البربر الزين والسين شمسيان ، وعلى ذلك وجب أن نقول اساً أو عزاً ، ومن هنا افترضنا أن هذا الاسم العجيب قد يكون تحويراً لاسم الالهة الجاهلية العزى . . .) لم يصلنا شيء من الأغاني التي نثرها عبر حياته في النهج ، والحقول ، والوديان ، أو مختلف المساكن التي قطن ، كما لا تنسخ صلوات التقى وما تحفل به من أسماء حسنى يتقرب بها لله . لكنه لما بلى الجسد ، وباتت رؤية سدوة وجوده مستطاعة ، وأوتار روحه التي كقيثارة زحفت على كل الحجارة التي فيها أثر من ركبته ، حدث أن طفلاً لحق بالمجنون وتعلق به ، أهله غير معروفين ، واهتم بالمعجوز من جمع ما يقدمه له مستعمو غناؤه ، وغسل عتبة بيته ، وحمل الماء إليه ، وتنظيف ثيابه ، وغطاء سريره .

وتعود قوال الزجل على ألا ينتبه إليه ، فسماه زيد ، وهو الاسم الوحيد الذي عرف عن الطفل . وأصبح زيد ظلّه وخادمه ، صامت وسريع لونه زيتون وفيه رشاقة ضبّ . أما كيف تعلم كتابة ، لا العربية فحسب ، وإنما عدداً من اللغات ، فأغلب الظن أنه أخذها عن عائلة من المتأدبين اليهود تسكن في جوار المجنون ، وبفضل موهبة مبكرة فريدة ، قد تكون من أصول خارقة للطبيعة . وما كان يرى إلا جالساً كاتباً أجمل خط معتمداً على ذاكرة مدهشة مكنته من حفظ ما يرنجل أستاذه ، وما كان يسأله أبداً تصحيحاً ، لأن المجنون كان يرى أن الكتابة وجدت من أجل اسم واحد لا يخطه إلا على الجدران .

اتنا مدينون لزيد وحده تقريباً بما سجل من أغاني النجدي . والعناوين هي من وضع الناسخ ، كان يبتدعها كي يسهل المرجع لمن يود أن يعرف حين يطلب نسخة ، من تلك التي كتبها على ورق من قنب وكتان أو ما يسمى بالشاطبي نسبة إلى المدينة التي تصنعه ، وكان الولد يحمل الدراهم إلى البيازين في قصعة من فخار . ولقد عجب بعض رجال العلم أن زيدا لم يسجل الأزجال والشعر الذي خصّ به النجدي ، كما يعلم الناس ، تاريخ غرناطة وشقاءها ، وإنما اكتفى بما قال عن السا وحبها . وعندما وقع زيد بعد زمن في يد التفتيش ، عذب كي ينتزعوا منه تفسيراً لهذا الأمر الغريب . لكنهم ما حصلوا منه ، وهذا ليس اعترافاً ، إلا على أن الخط ليس تسجيلاً لما يزول ، بل لما يبقى . حتى إذا وضعوا يده في النار ، أغضبه أن ملوك غرناطة على كفرهم ليسوا أهلاً لأن تحفظهم الذاكرة مثل السا ، فصاح ألماً ، بما جاء في تعاليم أستاذه ، أن مستقبل الانسان هو المرأة ، لا الملوك .

الأشياء ليست تماماً
كما تبدو
الحياة بيت
مظلم وهادئ

إذا كنت في الغرفة التي حدّي
وانتهت لك
طار من صدري
روحي

النامة عندي كدر
إذا صدرت عنك
ما أفضح شريعة
أن تعيش حياة مزدوجة

أموت كل لحظة
مما أحبّ
مع ذلك أعيش
والله يعلم كيف

ما نحلم شيئاً عن الحب
إلا وينكره الحب
لا ينتهي أبداً منه القلب
يكون هذا حيث يفر ذاك

تعليق زيد : لم يكن في بيت النجدي غير غرفة واحدة . هنا لك مجال للظن أن هذه القصيدة تلمح إلى قصر يسكنه الناس في المستقبل يكون فيه لكل زوج غرفتان ، احدهما للحب ، والأخرى للبكاء . لم أضع عنواناً لهذه القصيدة لأن استاذي قال لي عنها مرة أنها بوسعها أن تظل عارية الرأس .

مجنون

يا اسماً لا أسمى يقف في فمي
كشيء من طهارة يكسر نغمه
كزهرة في الزيزفونة نشم قبل أن نرى
يا اسماً من فانيلا وجرم يا مثل طائر على غصن
خفيفاً على الشفة الراحشة حلواً على لمس يد
كزجاج تحطم كمثل مداعبة
كاعتراف بحضور على طرف الظل واغرائه
اسم كريستال بعيد في المدينة أو قريب كتمتمة عاشق
يا اسماً يحمر على لساني وما أن ألفظه
حتى أشتهي أن أبقى كذليل ثوبه أو عبيره
ألا أكون غير غباره ذكرى خطوه الدقيق
ألا أكون بالنسبة إليه غير ذكرى مبهمه
أو أقل من هذا كرجفة ايقاع أو تنهدة
بما لا ندري عما ننسى من حركة منها أو نبرة
ظل تميزت في الصوت نفسه أو بوق في الأوركسترا
أقل من صدى في الدرج أو صوت باب يضيع
أو مع ذلك إذا ذكر أحد ذات يوم أنني
قلت هذا الاسم الذي لها وتضطرب روحي له
فافعلوا ما يريد القلب أن أبقى بلا اسم
في جوارها وعلى دربها ولتقولوا أنني مجنونها

تعليق زيد : علّمني النجدي ذات مرة ، أنه في السنة التي سلمت فيها غرناطة وحدها من الطاعون الأسود في القرن الماضي ، ماتت من هذا الوباء في مدينة من مدن الفرنجة المرأة الوحيدة التي يمكن أن يكون اسمها بعينه شبيهاً باسم السا ، لكنه لم يتلفظ به ذلك اليوم وكأنها آله ، وأضاف انه يتمنى أن يرتبط بهذه الأبيات أكثر من سواها ، فقد زعم أنه قلد فيها شاعر تلك الميتة . وقد قال لي عنه أنه قام برحلة إلى أبعد أرض في الشمال ، إلى جزيرة تدعى تيلي أو تيلي الأخيرة . ولو أنه فاه بذلك الاسم لما استطعت حفظه لأن مخارج حروفه لا تأتلف مع الحلق الأندلسي . عندها سميت هذه الأبيات مجنون ولقد فهمت أن أستاذي أراد أن أدرك ، أنه إذا وافق على تسميته بقبس الذي قضى في ديار نجد ، فلا يعني هذا أن ليل يمكن أن تحمل عمل السا . إلا مجازاً .

الباقية

عبثاً فعلت عبثاً قلت
كنت الظل الذي يتبعك
والزمن يفرّ من أصابعك
كرمل الليالي الأسود
كالشمس المكسورة في المطر

عبثاً فعلت عبثاً قلت
كنت الشتاء والصيف
لحناً يبقني في الرأس
لأننا دائماً غنّيناه
أو أبسط من ذلك لأنه كان

عبثاً فعلت عبثاً قلت
وراء خطوك أيان مضيت أريد
أن أكون هسهسة النار
ذاك الصدى الذي كاعتراف
أو صلاة^(١) الريح في شعرك

عبثاً فعلت عبثاً قلت
ما استطعت أن تميزي
بين ما كان وما بدا لي
من هذا الحب الذي منه أرتجف
من تلك السعادة التي سرقت

عبثاً فعلت عبثاً قلت
أن تغلقي نفسك على ما قلت

(١) L'ave هي صلاة للعدراء .

أن تقسمي بالله أنني كذبت
أن تلتفتي بعينيك إلى النسيان
أن تنكري قلبي وجنوني

عبثاً فعلت عبثاً قلت
قادمة أيام من دوننا
وأنا عند الناس أي الناس
أظل على ركبتك باقة تنفرط
فعلت عبثاً قلت عبثاً

تعليق زيد : في آخر بيت من المقطع الرابع^(١) ، توجد كلمة شككت بها طويلاً ، ويبدو لي أنها لفظ لاتيني يتقرب بها المسيحيون من طائفة المريميين إلى مريم ، أم المسيح . وذلك يثبت لنا أن النجدي خرج من دار السلام وساح في بلدان غربية ، ربما عند الفرنجة ، وقد يكون تعرّف فيها إلى السا . أو ربما أراد أن تكون غاية حجه ، وهو الذي لم يبحج إلى مكة ، مطارح سكتتها ذات يوم السا أو تحدثت عنها .

قصيدة شهري كانون

حبي بنفسجة شبيهة بلدغة
حبي ينغرز في قلبي فعل قدم عارية في الرمل
ترقب أثره نهمة قبلة الماء العميقة
حبي حلاوة نصف الليل من سطح إلى سطح
حبي أنت ومنك تغدو فضة مرايا الغرف
حبيتي الوحيدة الغافلة كالهواء كظل قلب
حبيتي الحية تمشي في حياتي بخط زنبق
حبي الجميل لوئها وحده صبغ روحي
أنت في قميص المساء الطويل حبيّ اللاهب يا امرأتي
كما تنزل الشعلة من المشاعل على الأرض
يا حباً يمزقني كباقة تنتشر على لمسة

(١) بل في المقطع الثالث للرابع .

يا حباً لا أهمس به إلا وأرتجف يطوف بغمي أيان كان
 حبي يا من كل لغة لديه زنار محلول
 والجملة التي نعقدها نجعل أين يكون رأسها
 لأنها على عتبة حبي تفقد الكلمات كل حيلتها
 على هذا الباب لا أجد أية كلمات أبوح فيها أنني أحب
 ومن ذا يستطيع أن يبين للأعمى كيف يكون النهار
 والقصيدة تموت حباً حين لا تتمم إلا بالحب
 تموت كما تقضي السنة في ربعها القمري الأخير
 كمملكة بلا موسيقى تتدنى فيها الذاكرة
 فعلت في الساعة التي أنا فيها في وجر البؤس
 ما يفعل الرجل الذي لا يرى غد الآمه
 الذي على حجره لا يبتدع شيئاً غير
 هاتين الكلمتين يا غرامي اللتين كموت الورود

تعليق زيد : بعد حديث كان لي مع استاذي نجرات فأرخت هذه القصيدة حسب التقويم السرياني كما كان
 يفعل شعراء الأندلس الأوائل . قال عن الشيخوخة أنها شهرا كانون الانسان يبقى فيها الحب لكن دون ورود .

٥

قطعنا الحياة كأرقام متشابكة
 كتبناها من ثلج على غطاء من يسار إلى يمين وأنا
 حرف في نومك يجرسك من فجر على سفين
 وعلى وسادتك الشاحبة الحلوة حرف السا مقلوب
 في ألفباء بلادك هذا الحرف معكوس
 تترجمه لي المرايا فيبدو لي طائراً طار
 كأنه قوس حب أو ملجأ لآيماة بيضاء
 قبلة ضائعة يد وداع هلال قمر أو قلب مفتوح
 في توقيع ذراعيك في عناقهما يكتب كل شيء
 السعادة والشقاء لما نام معاً حتى الصباح
 يا غرامي لون الزمن كل ما يرتجف يشبهك

وصوتك الحبيب يدخل في كصيحة

تعليق زيد : نقلت حرف أوبوروتنيا ، عن جدار غرفة النجدي وقد رسمه أشكالا لا نهاية لها مرات كنورس يطير من يسار إلى يمين ، ومرات في الوجهة الأخرى كمندراة ويزينه أحيانا بزهور أجمل اسمها .

التينة

ما كان البيت غير عقدة من ظلمات
عودي ألا تريدين أن تلتقي خطواتنا
أما زالت درفاته جنازيرة
ودرج الحجر ودرجاته المحطمة

أو تذكرين سياج جدرانها
والزنايق كيف جنت أزهاراً
كيف نما العليق فسال دم الجدران
وحلمنا بأن نجد فيه ملجأ لنا

ما زلت أرى فيه ثوبك الخفيف
فلنعبر العتبة بعد أن ألغيت عبثاً
علنا نستعيد رائحة عابرة
تصعد إلينا من عمق السنين

أحفر اسمك على التينة الذكر
لأنما فيها عطر تجاذب جسدينا
سوف يكبر اسمك في القشرة الشاحبة
مع الشجرة وظل البستان المغلق

قليلا قليلا تزول صورة الحروف
وتتباعد كما تتباعد الجراح
فلا يقدر عابر أن يقرأها

تلك الصيحة من شمس التي كنت أناديك بها

الكلمات التي تفوه بها الشفاه تموت
وينطفئ معناها لأياً فلأبي
ثم وليس لنا حيلة لا يبقى منها شيء
فتظل القبلات وحيدة ويرحل العشاق

أنا ما منحتك غير قصيدة فانية
وكذلك القلب ولو أنه خفق
آه يا عشقي الحزين يا قصراً من رمل
وتظل القبلات وحيدة ويرحل العشاق

تعليق زيد : يبدو لنا أن هذه الحكاية على علاقة بحادث من حياة السا والنجدي في ديار الفرنجة حيث عاشت في القرن الماضي تلك المرأة التي تحدثت عنها وماتت بالطاعون الأسود . كان استاذي يلمح كثيراً إلى تلك المدينة التي فيها قبر لافرا أو لاوورا أو لاورا ، إذا لم تخني الذاكرة وكان يقول عنها ، وخاصة للعنجر ، انها غرناطة ثانية . ويخيل لي أنها التقيا فيها في حرب احتلال ، ونظن أنها رجعا إليها فيما بعد . ولقد حلمت مرارا بفكرة ، أخذتها عن أستاذي ، أن الناس هناك هم طائفة مصرية كالذين يدعون هنا روم - ميني أو كاليبس ، لكن لغة العنجر فيها كلمات حسب الظاهر من الشرق السلافي ، وهم يقولون عن الموت ميرلا ، بينما يدعونه هنا ماريين .

يدا السا

أعطيني يديك من أجل القلق
أعطيني يديك اللتين بهما حلمت
اللتين حلمت بهما طويلاً في وحدتي
أعطيني يديك فيهما سلامتي

أخذها ففتح أسقط فيه
فتح من راحة يد وخوف من عجلة واضطراب
عندما أخذها كأنها ماء ثلج

تفر من كل النواحي إلى يدي أنا

أسوف تعرفين ما يعبرني
ما يبلبلني ويقتحمني
أتعرفين ما يخترقني
ما خنته لما ارتجفت

ان ما تقوله هكذا اللغة العميقة
كلام الاحساسات الحيوانية الصامت
بلا فم ولا عينين مرآة بلا صورة
انه رعشة الحب التي بلا كلمات

أسوف تعلمين بماذا تفكر الأصابع
عن فريسة ما تمسك بها فيما بينها
هل تعرفين أن صمت الأصابع
برق عرف المجهول

أعطيني يديك علّ قلبي يتكون فيهما
ويصمت العالم فيه ولو إلى لحظة
أعطيني يديك لعل روعي فيهما تنام
فلتتم روعي فيهما إلى الأبد

لم يعلق زيد على هذه الأبيات التي لحنّت مرات عديدة . ومن الممكن أن تكون من مصدر غيره أو كتبت على الأقل بعد زمن ، أي بعد سقوط غرناطة ، عندما داخلت عدوى القواعد الاسبانية الشفاه العربية . أو ما كانوا يدعونهم الموريسكو ، فعم شكل الفعل في المستقبل . وربما يكونون أخذوا الشكل الجديد للفعل من الفجر حين اضطهد العرب فتعلموا من ذلك الشعب التائه كيف يعيشون خارج قوانين الغالب . وقد سهل ذلك أن تصريف المستقبل له نهاية واحدة في لغة الكاليس وهي آ في كل الضائر (والذي ينقص أشكال الفعل عند هذا الشعب هو الأمر فليس لدى النجر من يوجهون له الأوامر) .

العنوان منقول حسب تقاليد الحفظ غير المكتوبة . أما الموسيقى فقد عزفت على آلات عليها رسوم منقوشة بالصدف يحملها مغنون رحل ينقلون معهم عربية الأيام البائدة إلى قمم الجبال التي لم يستعجل الاسبان للحلول محل العرب فيها ، وهناك كثيراً ما كانت الذئاب والخننازير المتوحشة تقتحم الموسيقين .

لغز

وحقل كتان كبير أزرق بين أعناب سوداء
تميله نحوى الريح راعشاً
حقل كتان كبير أزرق هو مرآة السماء
وأنا الذي أرتعش حتى أعماق دمي
أحزري

حقل كتان كبير أزرق في يومنا العائد
ما زالت منذ أمد تتسكع في ضيابة أحلام
وأخاف أن أرفع إليه طيوراً مجهولة
يتناول ظلها المجنح في البعيد
أحزري

حقل كتان كبير أزرق بلون الدموع
مشرع على أرض لا يعرفها غير الحب
كل ما فيها له قوة العطر وسحره
كأنما تروده القبل أبداً
أحزري

حقل كتان كبير أزرق فيه الدهشة
أن نكتشف دائماً ماء صافية وعميقة
ما يغطي بشكل عجيب بردائه
بحيرة أم بحراً أم كتفي العالم
أحزري

حقل كتان كبير أزرق يتكلم ويضحك ويبكي
أغطس فيه وأضيق قولي لي هل تحزرين
أي بذار يصنع فيه الفرع والألم
ولماذا حبه يسكرك ويقتلك
أحزري

تعليق زيد : يلاحظ النجدي أن الكتان ينمو في المرج وفي ديار السا . وكان يبدو له أن في هذا ما يكفي لتفسير

اللغز .

صليب للظلّ

السعداء بلا قصة
هذا ما يزعم الناس على الأقل
القمح الذي نرمي في الغربال
والثيران التي نجر إلى المسلخ
لا تستطيع أن تقول نفس الشيء
السعداء بلا قصة

إنها سعادة القتلة
الذين لا يزعجهم الموتى
ولا مجال للرهان
بأننا لا نسمع صراخهم
ينامون وهم يضحكون ملء أشداقهم
وتلك سعادة القتلة

الحب سعادة من نوع آخر
يرتجف شتاءً وصيفاً
يده دائماً على باب
قلبه كورقة ميتة
شفتاه دامتان
الحب سعادة من نوع آخر

الحب أن نفقد العقل
الحب ألا ندرى ما نقول
الأ يكون لنا أفق سواك
وآلا نعرف الفصول
إلا من ألم الرحيل
الحب أن نفقد العقل

أه أنت التي دائماً يجرحون
مرآتك دائماً مكسورة

يا سعادتي المسكينة وضعفي
أنت التي يشتمون ويهملون
أنت التي في كل جسد شهيدة
آه أنت التي دائماً يجرحون

الجوع والتعب والبرد
كل أوصاب العالم
أو من بها عبر حبي
منها أحمل صليبي
من لياليها يشاد ليلى
الجوع والتعب والبرد

المرأة

لو تجرأت المرأة على تقليد
الوردة وذهب الميموزا
وصفصافة مزهرة تميل مع الريح
والقويسة الدامية التي ترعف أحمر
البنفسجة والليلك
فمن أين تتحمل العيون المتعبة
لو أن المرأة أخذت من زهرة العناق نظرتها
ومن الحمامة جناحها الأبيض
أو لخصت فيها السماء
والتقت الشمس بالمطر
لو أنها كانت هي الليل أو كانت هي النهار
أو أنها ضاجعت النور
لارتجفت لما جئت
شربت شفتيك كخمرة
وضاعت على نغم موسيقاك
في قلب الجنة الجسدية
فلا ترى شيئاً إذا ذهبت

في نومها العميق تحلم
بك عمياء عما عداك
عن الميموزا والوردة
لا تحس بما أسكرها
تغدو غير مرآة إلا للسا

تعليق زيد : ان أحداً لا يدري أكان يعني مرآة زجاج أم معدن ، ولقد قيلت الأقاويل عن المعنى الذي يكنه
النشيد . عندما فتشت شرطة الأمير بيت أستاذي ، كانت مكلفة بإيجاد هذه المرآة التي زعموها سحرية ، يقرأ فيها
الماضي والمقبل . سألت النجدي وأنا الطفل الطلعة فأجاب « هنالك مرايا ماء أو سماء (سراب) . . . لكن الناس
أبسط من أن يفهموا أنه توجد مرايا كلمات (أو صور) . ولهذا كان الشعر عندهم سراً . هذه الأبيات تعني ، مادمت
مهتماً بخفيها ، أنني في شعري ، لا صورة إلا واستخدمها لابرز السا لا صورة إلا للسا ولو ظن بعض أنني أتحدث عن
سواها » .

نقيض - النشيد

عشاً تلتقي صورتك بي
لا تدخلني فما أنا إلا كي أريها
تلتفتين إليّ فلا تجدين
على جدار نظرتي غير ظلك أحلم به

أنا البائس الذي مثل المرايا
تعكس الصور ولا ترى
عيني مثلها فارغة ويسكنني مثلها
غيابك الذي صنع عمائي

دُعِي النجدي ذات مرة إلى ظهور فوجد الناس هذه الكلمات غامضة في غير مكانها لا تأتلف مع الحفلة . وسألوا
زيداً ! « ما أراد أن يقول ؟ أما كان حرياً به أن يتكلم هنا عن السعادة فحسب ؟ » . وأجاب الطفل والحق أنه أعاد
أحد دروس أستاذه فقال أنه يجب أن تؤمن بالسعادة حين نتكلم عنها ، وطالما كانت المرايا من الآخرين ، دون أن
نقدر على رؤية أنفسنا في الآخرين ، أي عندما الآخر الذي فيك يرى نفسه دون أن يراك ، فليس ثذ أبأس من
الحب .
عندها طردوها معاً .

واعتماداً على هذه الحادثة يرجع زيد بعد زمن طويل في بداية السنة المسيحية ١٩٤١ كي يعلق على « الساعة » .
وربما على نقيض - النشيد الذي لا يمكن فهمه دون النشيد الأول والذي يليه .

الليلك

أحلم وأفيق
في رائحة ليلك
في أية ناحية من النوم
تركنت هنا أم هناك

كنت نائماً في ذاكرتك
ونسيتني نسياناً خفياً
ربما كانت القصة عكس ذلك
هل كنتُ حيث ما كنتِ

أعاود النوم كي أصل إليك
في البلاد التي بها حلمت
حيث يفر كل شيء ويراثني
لكنك أنت رحلت عنها

في الحياة وفي الحلم
كل شيء له هذا البريق الغريب
من عطر يمتد
وغناء يطير

يا ليلاً منيراً ونهاراً مظلياً
وغائبة عني بين ذراعي
ولا شيء آخر يبقى في
إلا ما تمتت به

اللذة - الله

الله اللذة التي لي منك
التي تجعل الحياة هكذا قصيرة

كل يقظة مثل حلم آخر
هي أن أراك مرة أخرى
كأنني من جديد أوقع هدنتي
مع الموت حين أراك
الله اللذة التي لي منك

الله لذتي أن ألمسك
وأن يكون لي احساس فوق انساني
لو أكون على دربك
فمحا تطويه فتتيمه قدمك
يا أخذ يدك بيدي
كأن الكلمات أخذت تضحك في ثغرك
الله لذتي أن ألمسك

الهي الحاضر الهي الماضي
تتركبني في كل اللحظات
وقلبك الذي يخفق
وأفكارك التي تختلط
الأنك تفرين مني يخفق هكذا سريعاً
كعقل المجنون
الهي الحاضر الهي الماضي

اللذة الاله في أن تكوني لي
دائماً ابني في الصباح
وهذه السماء الأولى القريبة والبعيدة
قبل أن نفتح النافذة
كرداء سامري
يا شمساً يا شمساً تدخلني
اللذة الاله في أن تكوني لي

اللذة الحلوة اللذة - الاله

حيث يتفلق الجسد عن الروح
اللذة ما تفعل السماوات بالنظر
لذتي أن تعيشي
اللذة ما لي من عينيك
اللذة الحلوة اللذة الاله

تعليق زيد : كان يقول النجدي أن هذه القصيدة ، بالرغم من الرداء الذي استعار من الكتب المسيحية ، هي الدليل الوحيد بين ما اعطي من أدلة على الاله الواحد الذي يدين بحقيقته البشر جميعاً .

في طلب المغفرة

لا تراعي
ان غنيت اللذة
ما ذاك إلا كي أمسك بروحك
بأصابعي المتوحشة
أن أمسك منها بالصيحة ورائحة
الزهرة الهاربة
اغفري لي قحة
فضة وساذجة
والكلمة التي أطلقت للشمس
وكان علي أن أصمت عليها
في كل مكان غير أذنك
سرير الأسرار

هل قضي علي أنني عن ضعف
أخطأت هذا الخطأ
هل قضي علي أن أجرحك
حين أرفع صوتي

أنا ما استطعت أن أكنم من يومي

ما نحبس من أشياء
فإذا شمسه تفضح الحب
الذي ما هو غير نمتمة

لكنني مع ذلك يبقى في
مكان لذات مساء
مات في صمته
نشيد أسود

وكما على العالم فجأة
تصمت العاصفة
يغدو كل شيء بستاناً يغرقة
عطر النعنع

لكنني أخاف أصغر إشارة
أقل غفلة
يفرّ الطائر وتبقى اليد
على القلب الذي يرقص

الريب يأتي من ذاتي
والم خفي
ريب في حبك لي يأتيني
آه توقف الزمان

وليتخذ لوناً أبدياً
المأ بهيمياً
لأن نوجد جريمة
عندما نتوجع إلى هذا الحد

لا شيء يعنو لي أو ينصرف عني
والكل يمزقني

ما يجب أن أفعل
كيف تلينين

ألم يكن كل شيء كذبا
خبائثه الكلمات
هذه الوحشية تقضمني
روحاً وجسداً

كيف كان الثمن أصغى
للساعة والألم
لقد سكرت ولا شك
من طيف حلو

ظننت أنني أعيش ببساطة
سعادة النظر اليه
كنت سكران كنت سكران
دون أن أدري

الهي الهي أي غياب
أحس به وألمسه
الليل والنهار باتا من دون معنى
والصبيحة من دون فم

تعليق زيد : عندما انتهيت من خطحروف هذه الستين بيتاً ، طلب مني أستاذي أن أقرأها عليه ، ففعلت دون أن ألقت إليه ، خشية أن أرى الدموع في عينيه . لكنه لم يبك أبداً وقال « زيد ، أعد عليّ هذه الأبيات أبطأ ، لمعي أفهماها » .

أبيات للرقص

أكان الأحد أم الاثنين
مساء أم صباحاً نصف الليل أم الظهر
في الجحيم أم في الجنة

العشاق يشبهون العشاق
البارحة قلت لك

سوف ننام معاً

ذاك كان البارحة وغدا
ليست لي من طريق سواك
وضعت قلبي بين يديك
كي يتسَّق سيره مع قلبك
ما دام لديه زمن انساني

سوف ننام معاً

حبي كيف كان سوف يكون والسماء فوقنا غطاء
أغلقت عليك ذراعيّ
أحبك حتى لأرتجف
ما أردت من مدّة

سوف ننام معاً

هذه الأبيات واضح أنها تنتمي إلى فترة التقليد الموريسكي أو الفنجري من شعر النجدي وقد رأينا سابقاً مثلاً عنها ، وذلك للسبب نفسه اختلاط اللغة .

غزل في عمق الليل

دخلت البيت كلصراً
كنت تشاركين الأزهار راحتها الثقيلة
في عمق الليل

سحبت ثيابي وقد سقطت على الأرض
قلت لقلبي أن يسكت لحظة
في عمق الليل

كنت لا أراني ضيّعت عمري
عارياً في هذا العالم الأسود بلا نظرة ولا صورة
في عمق الليل

جردت من ذاتي خلعت أيامي
في عمق الليل فما لي أية ذكرى إلا منك يا غرامي

سري الراعش ألمسه دون تبصر فلا أرى
في عمق الليل يا ذاكرة يدي يا ذاكرة فمي

يا عطراً طويلاً مستعاداً من أيامنا معاً
في عمق الليل أرتجف على شمه كما في أيامنا الأولى

ها أنت يا زنبقتي أسيرة ذراعي
في عمق الليل تتحركين ناعمة في السرير إذا وصلت

كأنما توسعين لي مطرحاً في حلمك
في عمق الليل في هذا المنظر الذي لا يعرف إلا الله ما يجري فيه

وأظلم عن غير حق إلى جانبك سهران
في عمق الليل أخشى أن أسقط منك في نومك

ننفض ضباباً في المرأة كي نثبت وجودنا
في عمق الليل كذلك السعادة هشة حتى لنكاد لا نؤمن بها

أخاف صمتك لكنك تتنفسين
في عمق الليل وأضمك إليّ يا امبراطورية في الخيال

أنا حدك الدبّيدبان المضطرب
في عمق الليل على كل خطوة يخطو على الصدى الذي يردده

أنا حدك رقيب عني جدران

في عمق الليل

أتالم من ورقة أموت من همسة

في عمق الليل

أعيش من أجل أنه في الساعة التي ترتاحين
أعيش من أجل الخوف الذي في من كل شيء

تعليق زيد : لاحظت لاستاذي أن غزله لا يأتلف والتقليد الفارسي الذي يقضي بأن يظهر اسم الشاعر في آخر بيت ، فيفتخر به ، فأجابني أن جامي فارسي ، وأن قيساً العامري ينتمي إلى عشيرة بدوية ، وأن حبّ قيس لليل هو نموذج ، لا شعر حيرات المراهف . أما هو ، الاسباني ، فليس لديه ما يفخر به ، لأنما الأثهار في بلادي هي كرم من الطبيعة لا من حيلة الانسان . وارتمجمل فجاءة :

في عمق الليل

قل يا غزلي إلى بشر المستقبل
أن اسم الساهو وحده توقيعي

الصيد

من يستطيع الزعم أنه في الليل
يكتم سره
ويدع لي امبراطوريتي
التي يتوقف فيها الوجود
كعطر أنشقه

كل ما يحدث في الليل
كل ما يوقظه نومك
غابة الطيور هذه وهذا البئر
من موسيقى في أذنيّ
بشري وبشرك أي قلب يضطرب فيّ

كل ما يحدث في الليل
الكلمات الخرساء التي أقولها لك
ونفرّ أنه الصيد
عبر جنة سوداء
تعوي فيها الكلاب بصوت خفيض

بدأت الخيل عدوها
وارتجف الظل الذي يستقبلنا
أين نحن لا أدري
كيف أميز بالدعس أوراق
القبب من الكاتالباس

من هذا البرج العجيب
حيث الزمان رقيق حلو
نرى بركاً من قمر وذهب
أين نحن من أين جئنا
الحب مر وأنت تنامين

العيون المغمضة

لا تطبقي عينيك أنا
من هذه الناحية من جفنيك
لا أستطيع ولوج الليل
حيث تذهب نظراتك بلا نور

لاي شيء تبسمين أمامي
أي ظل يمشي فيك ويمسك
آه اني خائف مما ترين
ومن أن تديرني فمك

زمننا يمضي افتحي عينيك
فكري بما تسرقين مني من سعادة
تسرقين مني بعض السماوات
التي ابتدعتها لك وفاء بوعد

كأنني خاسر قضيته
مطروود من مملكتك

التي رحلت أحلامك إليها
إلى الشاطئ الذي عليه تتزهين

أعرف أنت تعيشين زمناً آخر
كل شيء فيه بدّل حدوده
والإنسان نفسه تغير حتى
لكأنه الله لكأن الله يقلّده

زمناً تصنعين منه رواية
تتخذين له رمزاً غرناطة
ونحن أولاء هنا موتى
مرتين بلا شهرزاد

دار العقرب ضالا
ساعة من عالم خيالي
حيث الصاعقة على جبين الإنسان
وهو يتكلم عالياً كالرعد

يتجاوز الفكرة
يدعها للآلات
وعلى طرق حمقاء
يسير كي يكتشف صيناً جديدة

وراء الشمس المعروفة
والصحارى التي لا يمكن أن تعرف
التي تنشر تحت قدميك العاريتين
نجوماً بدل حبات الرمل

وأنت كثيراً ما تسبقينه
على الدروب الأخرى بعد الواحدة
حيث المستقبل يميل مع الريح الكبرى
من نهايات العالم إلى القمر

أنت يا من تعرفين السموم الخفية
والوجدان السيء
والحيله والغش
وطاعون الظنون

أنت يا من ترين البعد
صوتك يجيئني من زمن آخر
لكني لا سرّ لدي يرقى إليك
يسمح لي بأن أستمّر بالعيش

في هذا البلد الذي إليه أنتسب
موثوق به حتى لأموت
غلب العربي أم المسيحي
حبك وحده يسكنني

أعرف أنك تعيشين حيث لا شيء
مما كنّا أو ظننا
مكتوب علينا أن يكون الوجود آخر
أن تتمزق الضبابه على شكل آخر

وأن يتبعثر البخور الخلب
أن يتولى العدل أنبياء كذبة
أن يولد على مذابحنا المقلوبة
وازع للتضحية آخر

كل خطأ نحكم عليه حكماً آخر
الحياة لها ألوان أخرى
الموت نفسه صار الأوج
والألم تجربة

نحدد تحديداً آخر الخير

والشر كل شيء آخر
نمزق يومنا أسباباً أخرى
ونطمح لأعجاب أخرى

أين من دوني من دوني أين
تشقين طريق ذاتك
ترحلين من دوني تنسين كل شيء
تنسين حتى أنني أحبك

افتحي لي هاتين العينين المعبودتين
لعلني أجد فيهما امرأتي
افتحي عينيك البلا شيطان
على قد روجي

تعليق زيد : عنوان العيون المغلقة أعطانيه استثناء النجدي نفسه ، وأضاف أنه لا يريد أن بدع لأحد مهمة التعبير عما له صلة بعيني السا .
والمبالغة التي في الكلمة الأخيرة تلمح ، باعتراف أستاذي ، إلى كتاب من المستقبل ، يرتبط به ولا أعلم كيف اسم السا .

نشيد الأناشيد

بين ذراعيك قضيت نصف حياتي الآخر

*

أنت الطائر الإلهي الذي زعموه لا وجود له
أن أرحل إليك ما أعمق البحر
لن تعرف عامة الناس غير اسمك

*

أي شيء أنادي وراء اسمك
إلا ويغدو دم الدنس

*

في اليوم الأول لما بين أسنان آدم
وضع الله كلمات لكل شيء

ظلّ اسمك على لسانه ينتظرنى
كما ينتظر الشتاء ولادة الورد

*

ليس في الساء ما يكفي من عيون كي تراك
وأنا لا مرآة لديّ غير قلبي أمده لك
لعله يحفظ له وحده وجهك الخفيّ

*

أعندهم كفاية من علم لقدميك على الرمل
هيوغلفية معبودة دائماً تمحى

*

أنت يا شمس البركة يضمحل فيك
ما نرى من عبر المدائح الانسانية

*

أنت الظمأ والماء المساء والصبح
جسد شبيه لونه بالأضداد

*

كل ما يفضله عن عمى عليك العالم
ما هو غير صنم هزيل بدلا عن الله الحيّ

*

هنا أتكلم لغة الطيور
التي ترى راحلة
ترسم في الهواء أكداص مقصّات
تقص بها الغيوم
تطير فكأنها تعبر السماوات
تفتق لها خراطتها
تطير إلى أصقاع لا تدرکہا العيون
يقودها هدهد
يهتف بملكة سبأ
بجبالها ومدائحها
إلى أرض أبعد من هناك
حيث تسكن الملائكة
أنا لست الملك سليمان العظيم
صاحب القيثارة الراحشة

الذي كان يرقص في شمس كالسلمون
وشاحه قوس القزح
لكن الحب الذي يغيرني
أعنف من حبه
أنا الذي أعلم لغة الطير
مثل هذا الملك
ملكتي أنا ليست تمثالا
ولا شبه امرأة
وعليّ أن أحمل حيث لا يدرك شيء
لون روحي
أن أحمل أيتها الطيور أعلى منك
يا ذات ملايين الأجنحة
إلى حدود مدينة اللاأين
مرأة ليست إلا منها
ولتفتح آنها صحراء الله
كفم على قبلة
ولأكن الله الذي ليست له عينان إلا منها
أو اللمس وحده

*

يا شفتي - السنونو

*

يدي الخجول تلمس ركبتيك
تندهب إذ تحسّ أن قلب طفل يرتعش

*

أنا مثل الذي جاء الهضبة
وأخذ صدفة حجلا بيديه
كان هناك لا يدري ما يفعل بحظه
آه ما أحلى الريش وهذا الخوف الخائق

*

كل نساء حياتي
كانت أزهار ربيع منك

*

عندما تأوهت شفتي كان ذراعاك تاجاً
زرع حول روحي حقل شقائق نمان

لو تعلمين كم أتألم عندما تكون الكلمات
ثياباً لا تليق بظلك
تعتقدون أنني ألعب تظنون أنني أكذب
أنتم لا تستطيعون أن تروا ما يجيء قلبي

*

النشيد الدامي في هو نشيد شفتي

*

أسهر عليك أبداً يا شعلتني الصغيرة
فجأة تكبيرين من جعلك جمري
من أجل وهج منك أذع روحي
انما نعلم الوردة كي تزدهر الورود

*

بوسحك أن تقولي عني هوذا شمعي

*

تنزلين بطيئة من سطح إلى سطح
يا حبي الجميل بخطا قمر في ليلي

*

لا تكلميني عن البحر

يا من كل حياتي

غنيتك

لا تكلميني عن أمك

أنا من كل حياتي

حملتك

*

في النهج وراء الجدران

ماذا يحدث من ضجة

أية أشغال أي صياح أية دموع

أو لا شيء الحياة ثياب خام

تجف في البستان على حبل

في المساء رائحة سعتر

صوت عربية ينطفئ
قيثارة تدوزن في البعيد

لالالالا-لالالا
لالالا-لالالا

كأنما هو النهار في هذا الليل
قشرة قمر غيمة
مرت فحيتها شجرة
والقلب لا يسمع إلا نفسه

لا تتحركي انها هشة
ضعيفة خطيرة
لحظة الظل هذه عند اثنين
في صمت المدينة

لالالا-لالالا
لالالا-لالالا

*

من جهة صورتك المقنعة
من جهة أخرى وجهك
خطوك صوتك كل هذا غاب
كله عندي موعدا أخلفت

*

راحتي تحتفظ برائحة كتفك

*

هل تسمعين حديثي إليك وأنت غائبة

*

هذا السر المضاعف بين
المعارف المتصر

امرأتي لا محدودة أنا ولدتها
في عالم ولدني .

*

لحن لشهر نيسان

لا أستطيع أن أحبك أبداً
لطول ما أحبك

*

سعادتي الهائلة تغدو بلا حراك لحظة قبل الفجر
عتبة الوجود القلقة والحلم

*

بلا حراك انتظر فجرك بعد الفجر
أمسك إلى ما لا نهاية بذراعك الحلوة في يدي
أتذ يزهري في شيء لا يوصف
وعلى شفتيك أرى شحوب الغد

*

وجهك سناء حياتي ذات النجوم
أنت التي في تمسين موسيقي الحلوة
أصغي إلى عبير خطوك يتمد

*

الرياح تندحرج على منحدرات السطوح
حباب زعرور شقراء
حلمت بك طويلاً
حتى لقد فقدت النطق

*

لقد امتلأت من صمت الحب الذي يصم

*

أتعرفين الأرض التي فيها المرأة حلم

*

أن ألمسك أجل من أن أوجد
أن أراك حلو حتى الموت

يا حيي يا عشبي العظيمة
دعوني أنام فيها أبدا

*

عشاً قطفت كل زهور العالم
انها للذبول أمامك على الأرض
بلا ماء ولا قافية

تعليق زيد : عندما رأى معلمي العنوان الذي وضعته لهذه القطع التي من جسده غضب مني وقال : « كان سليمان يتكلم لغة الطيور ، وكان سهلا عليه ولا شك أن يكلم الهدهد ، وما أفعل أنا بهذا الهذر لأن الكلام عن السالا يكون إلا صلاة ؟ » نيسان هو في التقويم السرياني أول شهور الربيع .

رؤيا المستقبل

أحدثك تفرين
أتبعك تطيرين
عينك بعيدتان عن حيث أنا
قلبك أغوته كلمات أخرى
وفي حاضري الأعمى
أيامي أيام شتاء

أحدثك وقد استسلمت
لأحلام من هناك
تفرين مني تسيرين على دروب
ما عرفتھا خطاي
أتبعك وأخشي
ما تنصتين له في البعيد

ماذا ترى يا حب
مما ليس لي أن أرى
ما تقول تلك الأصوات
الأبعد من حدود إيماني
لي أنا الذي لا أؤمن بك
ولا أستطيع أن أتخلى عن صليبي

هذه الحياة تنتهي

يا حب مطلقى الوحيد
شموس لا غروب لها
تطلع من أجلك
هذه الحياة طويلة وقصيرة
يا حباً وراء الأحلام

الغد ليس آيتي
الغد ليس مملكتي
لا أستطيع الوصول له
حتى في آخر أسبوعي
المستقبل ما هو
أجهل وأنت تعرفين

تقولين أشياء مظلمة
على عتمة الأزمنة المضيئة
كما قبل أن يفتح الورد
تكون شجرة الورد براعم
حيث تحطين يزهر الكل
يا السا التحولات

تعليق زيد : فاتني طويلاً تفسير هذه القصيدة ، فما أتجاوز حرفيتها . فكان لزاماً علي أن أحدث النجدي في شأنها ، وهذا ما سوف أروي لعلنا نقارب معناها . في ذلك الزمن كنت لا أفهم ما يعنيه أستاذي (بالمستقبل) وهي لفظة كان يستعملها كثيراً (لكن في معنى مختلف طبعاً عن ذاك الذي تعناه عادة) . لم أكن أفهم أيضاً ما يفصله عن السا كبحر محيط . ذلك أنني كنت ما أخذت بعد درس ربّي ناحوم بن صموئيل ، الذي تعلمت منه عدة لغات ، حتى لقد نسيت الكلام الذي حفلت به طفولتي وهو كما يبدو لي كلام شعب من الرحل (وقد أكون اختلطت من ذات قرية لا أذكر عنها شيئاً) وجوههم أشد سمره من وجهي ، يزعمون أنهم من السند ، بلاد بعيدة ، ظننتها أمدأ جنة على الأرض ، إلى أن درسني ربّي ناحوم أنها أرض من الهند غنى فيها الأمير خسرو ليلى ، وذلك عندما طرد تيمور جنود الذين تمهدوا طفولتي .

عند هذا الشعب ، مثلما عندي أنا ، مفهوم المستقبل غامض كما هو مفهوم الماضي نفسه .

القميص

ليلة خريف كما يبدو لي

من الرائحة التي حملتها الريح
كنّا كنّا معاً
أين كان هذا أكان من قبل
أكان من بعد لا شيء له معنى
غير حلاوة الوجود معك
فقد الزمن قوته
ولونه وروحه وصوته

ليلة خريف أو حزن
شحوب بيننا نحن
ورائحة ماذا كانت
أكانت من حديثنا عنهما
الأخرين نحن الآخرين
الذين نخشى أن نغسهما على مرآة
وعندما قالت الشفة أحبك
الكل صار وردة سقطت

ذات ليلة كنت لك ربما
أكثر قليلا من أي وقت مضى
وكنت أقل سيادة لنفسي
لم أقل أنني أحبك
لم أقل ما يوقظني
أو ما أنام منه نفس القدر
الظل يدور حول الشمس
لكنه أبدا لا يصل إلى نفسه

ليلة من أجل أن أذكرها
أما كان ينبغي أن تكون
أنفاسك أنفاسي
مع ذلك لم يكن شيء مثل نفسه
حلمت فيما علمت عن حلمك شيئا

ما كنت موقفاً من شيء
مثل يقيني أن الليلة تختبئ
بين المساء والصباح

ذات ليلة هي قميص
فررت مني فيها أسوأ من طائر
لماذا عن خبث ارتديته
فإذا أنت لست حيث أنا
بعيدة في حقيقة
ترتسم بخطا ذنب
ثنيات أسرار رحلاتك
والأحلام التي تجعلني أغار

ليلة هذا قليل ولا شك
ولو أنك تستطيعين عن يسر
ضياح قلبي فيها ودربي
كيف ما كان كيف ما اتفق
وفي خلجات الروح
جسدك مجعد النسيج
أعرف ألفباء المرأة
أكثر أسراراً من الترد

ذات ليلة كنت وراء الأثر
نزلت الخطا بعيداً عني
ذهبت من سطح إلى سطح
خارج جنتي المفقودة
ذات ليلة ليس إلي فيها نصيب
ففي الكتاب الذي تقرأين
أرى كلمات على الصفحة
مقاطعها من النسيان

الحمى

قضيت عمري خائفاً هذا الشيء الحارق فيك وفجأة أشاحت عيناك فإذا بي في الجحيم
والرعب والشك بالدبومة وفي هذا اللهب من يدبك قضيت عمري أخشى الأحلام البشعة وأن
يعود الخوف الذي أهملناه في المرة الأخيرة يا غرامي قضيت كبحار يجد في الرذاذ الفكرة - القلق من
الفرق قضيت عمري حدك من أجل نامة كلمة تنهدة اشارة أو ما هو أقل سوءاً صمتاً مخنوقاً في
الحلق كمحكوم يعد في الدهليز خطأ فجر يقترب لكنها تتوقف ثم تتعد

وتهم النار فجأة بوجهك
أية ريح تثيرها بك فتمزقك
والطيور ترتجف تحت أوراقك
فيك سوف تنزل الصاعقة يا غاييتي

من أية شمس داخلية نجم تكلس وجودك كحجر تسكنها روح لاهبة حجر من أيام القهر
العالم كله عندي حقل مشوي بلا ظل ولا نبع أبحث فيه عما يبرد جبينك عن ضهاد عن ثلج عن
لطف من السماء

كيف وجد الألم مكاناً فيك
مع أن القلب أضيق من أن يتسع له
الروح هل تستطيع المرور من قبضتك
جسد دقيق لا حق له بالعذاب

وجهي هذا ما بقي له مني سوى الخوف هل تظنين أن العمر هو الذي صنعه لي وأنت لم
تسمعيني أبكي وراء بابك منك لم تسمعيني أبداً أدمى منك وأنا أشيح هذا الوجه لم تري
أصابعي تكسر أصابعي تحت الطاولة ومختق منك أنفاسي كسباح في العاصفة وأنا لا أؤمن أبداً
بالممكن المستحيل ثم انهار

أنت لا تريدين أن ألمسك
تفرين من يدي تنفخين تتأوهين
ويلحق خوفاً بأنتك إلى فمك
كخطر أرجأناه لحظة

يجعلك ما لا وصف له وما لا تنفع فيه كلمات أرميها طعاماً شفيفاً إلى الجمر يحدوني أمل

سكران بأن أبعد عنك هذا الظمأ وأن تتلاشى الحمم في سباط مجهول كأن أقول كان كي أو من
بالتقصان فأرمني إلى الماضي ما لم نبعد عنا إلا في الظاهر وكأنه هدوء الأرض الكاذب بين هزتين يا
ألم الديمومة

نامي مداعبة الزمن وحدها تهدؤك
ولندع العاصفة تمر على السطوح
سأسهر على الجمر سوف أذكيه
سوف أطرده الليل من حولك

معطفك الأحمر الكبير على الأرض بطانته من كل الألوان شالك الصوفي الأبيض ويدك
تدلت من السرير تهائل دون شعور

تعليق زيد : يقول النجدي نستطيع أن نقول عن لا يغنى في المرأة إلا مجدها وبريق عينيها أنه محب ، غير أن
الدليل لا يقوم أكيداً إلا إذا صحبت النشيد موسيقى امتزجت بالألم وقلق الوجود إلى ظلام الوجه إلى ضلال خطر إلى
ذاك اللهات بالمستقبل . . .

وهكذا كان بوسعه أن يطيل اللحن إلى ما لا نهاية لكنه فضل الصمت .
وقال أيضاً أن الشعراء إذا لم يبرزوا الحبيبة إلا في ريعان صحتها فهم أقرب إلى الكلب من الانسان .

النشيد الثالث

أنا الصليب الذي فيه تنامين
الطريق الفارغ الذي يضرع للمطر
أنا ظلك المرجوم

أنا ليلك وصمتك
منسي في ذاكرتي
موعذك الملغى

شحاذا في بابك
ضجران لأنك لا تخرجين
على شفير الموت إذا تأخرت

وأظل كما تموت

اشاعة على أذنك
مرأة لك لم تترين بك

أن آخذك إلى الله على صدري
أن نضم نضم ما نجب
وما عداه لعب بالنرد

أن أتبع ذراعك أن المس فمك
أن أكون أنت حيثما مسستك
وما بقي ليس سوى وهم

تعليق زيد : ذلك اليوم وجدت أستاذي خارج بيته وقد أغلق بابه ومدّ اليها يده وإنما كان في مسكنه من غنى له هذا النشيد ، الذي دعاه بالثالث ، وليس ذلك من أجل تعاقب الأبيات ، وإنما من أجل الشخص الثالث الذي انجبه إليه بهذا الدعاء .

وفتح الباب فجاءة فأراني الغرفة فارغة ، بضحكة عالية حزينة تدرجت حتى وادي (حضروه) وهو المسيل الذي لم يبق منه غير صدى في الوادي القائم بين اليازين والحمره ، نستشفه عندما يختصر الفشتالين جلجلة اسمه في مقطعين دارو ، لا يتقلان الحصلا لا يقدران على اقتلاع الجسور .

الفجر

من كان يخطر بباله دون هذا الحب
دون هذا الحزن دون هذه النجمة
أن يوجد هذا المجنون في غرناطة
كمخمل أسود في أذن امرأة
لولاك ما كنت غير مهرج كلمات
بال أنوار ومودة^(١)
حصاة ملقاة تحت أقدام الشياطين
لعبة العالم والمسوخ
كان رأسي مفتوحاً لهوى الرياح
كبييت وضع في مزاد

(١) bal لا تترجم إلا كما هي وكذلك مرودة Mode .

وما كان يهدر في غير نرد الصدى
تقلباته كانت مدرستي

لما طلعت علي ذات مساء هل تذكرين
أين بدأت مغامرتنا
أنت التي علمتني معنى ومذاق الحياة
أرجعت النظر لعيني الفارغتين
أنت التي وجهت خطاي على طريق الآخرين
التي خلصتني من خرابي
أنت التي بفضلك بأعجوبة قضيت زمني
على غير شاكلة الذين لا يعون
بفضلك حملت قسطي من العبء
الذي يحمله البشر الآخرون
ومكاني في جحيمهم وأساي ونصيبي
ورأيت بزوغ الفجر

تمليق زيد : قرأ أستاذي هذه الأبيات لشعراء فاختصموا معه لغرابة قوافيها . قال لهم : « هل تفصح الشمس
عن قوافيها مع الأرض التي تغمرها حسب القواعد ؟ سمو هذه القصيدة الفجر مثل السورة التاسعة والثمانين التي
تبدأ بالقسم بالشفع والوتر » . وأضاف : « أن القافية هنا لها خاصة الوترية العجيبة القائمة بين الرجل والمرأة والتي
تعطي المرأة حق الكلمة الأخيرة » .

قال لي أيضاً : « فيها بعد إذ عاد للموضوع ، أن أكمل قافية هي الرجل والمرأة ، اللذان لا يخضعان للمنتع ،
وأن الشعر هو فن الحياة المزدوجة . وأن يوماً يجيء يفدو فيه الكمال الذي اسمه « زوجان » ملك الأرض الذي لا يحصى
عده » .

مقاطع عن أمكنة الجلوس

أنا جالس على طرف الرمال
أغني الموت والقبل
في الساعة التي تلتهب فيها السماء
فتمنحني صورة مقروءة
عن المستقبل بلون حكاية

أنا قاعد على حافة الرياح
حيث لا تسمع إلا خفق أجنحة

ولا تموت الضجات إلا فيها
منها العواصف تشتق
غيوم البعد والقبل

أنا قاعد على حافة البحار
وهمها تها العريقة
تتحدث عن بلدان غريبة
العيش فيها مر مثل هنا
أيضاً عن آخرين مثلنا عشقوا

أنا قاعد على حافة الزمان
الذي يدق سريعاً أسرع
هل يود حقيقة أن تتركيني
مع هذا لا أستطيع أن أوقف
هذا القلب المجنون الذي يدق مثله

أنا قاعد على حافة الأحلام
التي هي منك فحسب
منك النجمة على السطح
منك الألم الذي يهدأ
منك الفجر الذي يبرز

أنا قاعد على حافة الصياح
على حافة الحروب والمآسي
لعبت فخسرت روحي
وشعري شاب
أخذوا مني ما أحببت

يزعمون لكل امرئ نصيب
وان الشكوى غير نافعة
هل يسمعونني ماذا يسمعون

أولئك الطرشان عن النحيب
الذين عندهم الدموع ماء

لا يعلمون غير شراء وبيع
صرختي منك هل يرون
كيف حيكت من كل العذابات
كل النيران وكل الرماد
كيف يستطيعون أن يسمعوا

قرن شهيد قرن جريح
فمه مصبوغ بالدم
أنا قاعد بين الأنين
أما اكتفى من العذاب
أمضوا يا ماضين امض يا ماضي

وليأت الفصل قبل أوانه
فصل ما له أفق سواك
يا عقلي المجنون
منك يتربع نصف الليل على عرش النهار
ظهر آخر من حب فحسب

سعادة الأول التي فقد
دفع ثمنها الآخر بشقائه
والأغنية أغنيتنا
اتخذت معناها الذي أردت
ثم تقرأها عيون أخرى
هذا المجنون الذي أنا الآن
حتى وراء حدود موته
رفعه اسمك عالياً
فكتب في كل مكان على الجدران والسموات
ما لا يقدر ولا يجب أن يضحك منه أحد

نظمت هذه القصيدة يوم اقتلعت جسور الدارو والبيوت التي تعلوها. وهي القصيدة الوحيدة التي لم يعلق عليها الطفل زيد . لأن ما أشرنا له حدث قبل أن يبدأ خدمته لدى المجنون^(١) . قصيدة لم يفهمها أحد ولو أن كل الناس رووها .

النيران

أنا قادم من نسيان بعيد
أنا قادم على طرف مأساتي
ضعي قلبك على الأرض وأثني
ركبتك فوق روعي المسكينة

سيل الثلج الآتي
من جبال ضائعة لا ينمو فيها شيء
لا يبيكي فيها شيء ولا يحترق شيء
اشربيه في راحة الزبد

حيث تمر الطيور الراحلة
حلمت الليلة حد البرك
قرعك الانذار
أيتها الكوابيس يا كوابيسي

كخمرة كأس مكسور
أين أنا أسير أرافق ظلي
بنفسجات مسحوقة
تسكر خطوي بعبير مظلم

ها قد صممت البهشية
ها هو هوذا الرقص الصاخب
حيثما كان كيفما كان

(١) سنة ٨٨٢ للهجرة (١٤٧٨ ميلادية) هي السنة التي قام فيها كريستوف كولومبس برحلة بترارك لسنة ١٣٢٧ إلى أرض توله البعيدة . ولقد كانت في القرن الماضي تعتبر من احدى الأرخييلات التي ظنوها أولتجاتيلي لسنيكا ، وحوها كولومبس ومعاصروه إلى الغرب ، في ايسلندا . وهكذا تختلف أحلام الانسان مع الزمن .

وجر يكفي كي نزل فيه

نزلت أبعء في ذاتي
أعرف عمق الهوة
أوقدوا النار كي نرى
نزلة أخرى ما رأينا

لما كان زمان فيه
النسيج أقوى من البلى
عندما كان يخفق الزمان
والقلب يضرب على وزنه

عذوبة حلاوة هو قدري
وعلى شفة النائم
مثل السنين واحدة بعد أخرى
ماتت قبلي

أوقدوا النار انتهى كل شيء
فرقوا الناس والعربات
هي ذي الوقفة التي تنكرني
هوذا الحجر الذي أقف عنده

أصغي مرة أخرى لما كان
لأيام السأم أيام الضلال
الحب أعظم من الرفض
فيه اللذة والألم

انه يمنحني البقاء
إذا ارتحف على اسم السا
إذا زها بلفظة الحب
أولد ثانية في ما يشبهني

يدي على اللوح المحي
لا تؤمن بما تلمس من كلمات
وما أنا غير نشيد مضي
ما زال يحتفظ بشكل الفم

وتظل حقول الشتاء خضراء
ولو فقدت الزهر والعيبر
عندما أنزل إلى ديار الموتى
سوف أبقى عيني مفتوحتين

الحب والموت لهما نفس البريق
أريد أن أرى طرف ذاتي
أوقدوا النار هأنذا
أني أحب

لقد تفوه النجدي بهذه الكلمات ، على عكس القصيدة السابقة ، بعد أمد طويل من ترك زيد له ولا أعرف كيف أبرر وضعها في هذا المكان ، في عكس تيار الزمن كحطام يصعد إلى منبع النهر . لكن ربما كان فيها يوجه الكلام إلى زيد ، دون أن يعرف أين يجده ، فيعود إلى الحقة التي كان يخدمه فيها الطفل .

الأيضاً

هل حق على النشيد أن ينتهي ذات يوم
هل يتبدل الزمن قريباً
وكما تفترق الطيور
يجل هذا القلب الذي لي

قبل المستقبل ووابل المطر
قبل أن يمحي تاريخنا
ابتوني بعازي الناي
وانثروا عليهم الدراهم

ولتردد مرة أخرى

موسيقى غرامنا
قبل أن تتلاشى في البعيد
آخر أصوات آخر يوم

هنالك « إسلاميون » ، أو ما ندعوهم فيما وراء الديار التي تنبت النخيل نوعاً من الفقهاء ، يعتبرون هذه القصيدة منحولة : يتساءلون من سجلها ؟ وزعم آخرون انها ليست أبداً من النجدي ، وذكروا أساء عدة أدباء ممن نقلوا إلى الغرب تراث الأندلس . واعتقد انها متأخرة عن ذلك العهد وبوسعي أن أنسبها إلى شاعر من عصر السا كان يعرف اللغة التي يتكلمها أهل بلاده ، أو يعرف منها على الأقل ما يمكنه من فهم الصورة التي رسمت عام ١٨٥١ والتي يرى فيها ضابط شاب أراد أن يقفز كلبه على عصاه مرة ثانية فقال له Ankor iécho ankor أو ما يعني « أيضاً » أخرى ، « أيضاً » أخرى على مذهب من يصطنع كلام الأفرنج .

[٣]

الحياة الخيالية

للوزير ابي القاسم عبد الملك

أغني لك أغنية عن مدينة جنوبية

ساد فيها الشيطان

فيل أوكس

أغنية اكسفورد ، ميسيبي

لن أدع شيئاً مما عرف عن نهاية غرناطة إلا وأرويه لكم ، أنا الذي تتبعت مغامرة البشر والله هذه من مرقاة موغلة في القرون والأفكار التي ندعوها المستقبل ، وتاريخ هذا القدر بالصورة التي نستطيع أنتم وأنا أن ندركها . بعد أن عايشنا أكثر من سقوط ، ورأينا موت وولادة أوطان عديدة ، وقرأنا على طريقتنا آية في القرآن من سورة الاسراء تقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

وفيما يناقش الحكماء فيطيلون كي يتميزوا الشرفيا قدرته الأوامر الالهية ، نجدنا نحن ، وقد وجب علينا أن ندرك هذا الأمر في خلال تاريخنا نحن ، فأرى كما تخيلت هذا الوزير . الذي جعله الله شيبا . ينظر اليه أكثر المؤرخين ، على أنه كان رجلا محترماً ، لكنهم يجدونه غامضاً من أية جهة درسوه . والخيال في هذا المجال له نفس قوة التراث . وأنا لن أتحدث هنا عن مصادر ي ولن أدعي الدقة التاريخية . وأرجح في هذه الشخصية أنها على ما جاءنا في وصفها تلاءمت مع فلسفة السلطة على ما كانت عليه ابان انحلال السلالة الناصرية ، ولا يعيننا فيها أهبة الذقن أو فخامة الحركات .

ربي أبو القاسم عبد الملك على مذهب المالكية السنية وكان معروفاً بعظيم تقاه . وكان يرى أن السلطة ليست تكليفاً ، وإنما من إرادة الله . وما كان يعنيه من ينقل إرادة الله ، فما الملك إلا السبيل إليها . وهذا هو ما يمكن له في الاستمرار رغم اختلاف أمراء غرناطة فقد أبقوا عليه جميعاً وزيراً للمدينة . وما كانت ثروته لتتعارض وتقاه : ولقد ملك أراض واسعة في السهل والجبل تجعله قادراً في التأثير على تموين غرناطة ، وكان له من الأولاد والأحفاد عدد عظيم قسم بينهم ادارة ممتلكاته . ولقد كان له في عبيده ومعتقيه وفلاحيه شيعة يتزعمها ويحسب الملوك حسابها . كما كانت له أربع زوجات ، ومن السراري ما لا يستطيع زيارة احدها في العام مرة ، على رغم قوته العظيمة وخضرتة الدائمة . وعلى هذا اشترى لهن الحصيان السلافيين ، جميلي الأجسام كتائبيل بتراء . لأن الجسد عنده مرآة الروح . وظل هؤلاء على صلة بسلاف الحمراء فكان يعرف منهم هموم ورغبات الأمير أبي الحسن فيسرع بسبق الأوامر بالتنفيذ . واستطاع لما استحوذ على ثقة الملك من السيطرة على البراري والهيمنة على الشرطة بصفته وزير المدينة كما كانت له السلطة على كل أعضاء مجلس الوزراء ، حتى لقد كان بوسعه الارتفاع إلى مرتبة الامارة . ولقد سولته بذلك نفسه ، لكن الله أراد غير ذلك .

وفي فترة خاف فيها أن يفقد حظوة الملك (فقد لحق الحفاف بأراضيه ، ومات كثير من فلاحيه) علم من أحد السلافيين أن الأمير ينوي أن يورث الملك إلى اثنين من أبنائه بعد أن شباً ،

وقد كانا له من أسيرة مسيحية وأن يخلع طفل الملكة عائشة بعد أن ملأها . حتى إذا استشار الوزير صاحب المدينة ، أو ما نسميه مدير البوليس ، قدم له هذا متنبأ هذا اسمه حامد بن سراج . وهو من عائلة أختت عليها النوب ، يقسم حياته بين اللذة والتقى : وقد وضع تحت التعذيب بهذه الذريعة ثم جيء به كي يساعد أبا القاسم في خطته فتنبأ أن التشيكو « الصغير » (كما كانت تسميه المسيحية) سوف يكون آخر ملوك غرناطة .

وتوهم أبو القاسم ، حين اصطنع الفقر ، أنه يستجيب لطاعة الله ، ويؤثر عن طريقه ، إذ أوحى لفرديناند زوج ملكة قشتالة ، أن يدعم « ابني المسيحية » وقد توهم هذا أيضاً أنه يعمل بنصيحة الكاردينال دومندوزا .

وأقنعت السرية الأمير بأن يثبت بطلان نبوة الفقير . بسيف الجلاد في عنق أبي عبدالله وأخيه الأصغر يوسف : وعلى هذا بعث أبو القاسم من أندر عائشة وسهل قرارها وابنيها ، واحتفظ هكذا لنفسه بأوراق من أجل المستقبل . ولقد شك الملك بالأمر ولو أنه لم يتأكد . كما أن أبا القاسم ، وقد اطلع على ذلك علماً من البوليس أن مؤامرة تمت بين عشيرة بني سراج وبني السفري ، وقد كان بعضهما لبعض عدواً ، ثم ألف بينهم كره ابني السرية فعزما على خلع الأمير وتنصيب أبي عبدالله ملكاً في وادي عش التي نسميها كادش ، وفهم الوزير حينئذ أن ربح الله بذلك وجهتها (ذلك كان لما نزل الفتى كولومب في لشبونة وبدأ يحلم بجزيرة « توبلي » آخر مرفأ قبل المجهول . . .) ونفذت المؤامرة ، حين كان أبو الحسن يقاتل جيش فرديناند في الحمامة ، واستدعى الطفل إلى غرناطة ، وأصبح أبو القاسم عبد الملك وزير أبي عبدالله الصغير اعترافاً من عائشة بفضلها ، كما أنها أرسلت إليه لما رجعت ، دليلاً على إيمانها بمشيئة الله ، كوبرا رائعة الصنع خارجها زجاج وداخلها ذهب ملأى بأحجار الياقوت التي تبدو إذا عرضت للشمس وكأنها قطع جليد .

وامتدت المعارك حتى سنة ١٤٨٣ بين أبي الحسن والقشتاليين ضفر المجد فيها اكليله للزغل ، أخى الملك العجوز ، غير أن هذه السنوات لم تكن من تاريخ الوزير الذي نصح في غرناطة ، حسب مشيئة الله ، أبا عبد الله الصغير سلوكاً التزم به ولو أنه سلوك لا ينتسب إلى نزوات عمره . كان الرأي بأن يدع عدويه : أباه وفرديناند ينهك أحدهما الآخر . وهي السياسة التي نشأت عنها سمعة الجبان التي التصقت بالملك الفتى الذي كان يصفر ويحسّ بالاهانة وهو يسمع لقب المذلة التشيكو ييجار به الناس حتى أبواب الحمراء . وساءت الأحوال بينه وبين أبي القاسم الذي ظل يدافع عن سياسته في عدم التدخل . وتريد الحكاية القشتالية أن زريمة زوجة الملك استعطفته عندما عزم على ارتداء لبوس الحرب أن يبقى بين ذراعيها . مشهد أوبرا لا يتفق مع الواقعة التي تفيد أن أبا الملكة ، على العطار ، وهو قائد موقع لوشة (يقول القشتاليون لوخا ، ونحن لوكسا) نصح أبا عبدالله فعمل بنصحه وسار إلى ليسينا وفي نيته أن يعزل الوزير ويعين مكانه رجلاً أصغر عمراً من بني السراج ، وهم من يدين لهم بالكثير . غير أن فاجعة لوسينا التي قتل فيها عم الأمير ، ووقع هو أسيراً أنقذت أبا القاسم من العزل . وسرت اشاعة أن الملك الشاب قد قتل فحزنت غرناطة أشد الحزن وجعلت منه رمزاً للاسلام . شاعر الزجل نفسه وهو الذي ما كان يقول على ملتقى الطرق غير أبيات شعر مجنونة وجد نفسه وقد اختلط بالحساب ، وهو الاسم

الذي يطلق على قوالي مفارق الطرق (كان ذلك عندما رفض ملك البرتغال خواوو الثاني ثرثرة كريستوفان كولون الذي طلب منه أن يجعله نبيلاً حتى يبحر ناحية سيبانجو) .

رثاء الأندلس لملك شاب

أخذتم قلبي من صدري
وأظلمت عتبه الزمان بضربة
ولم يبق لي غير فجر حقود
حين قصفوا نخلة المدينة

انه بقية دم الأنصار
غنوا له آخر نشيد
ما كانت معركته بدرأً ولا كانت أحدا
ومن ذا بعده يدفع عن العليّ القدير

أيها الشقي أمن أجل مصيرك
عبروا المضيق الفاصل عن افريقيا
مروا في اثر طارق
الألى شادوا بصباحهم مساءك الفتى

أيها الشقي يا من جاءت أعراقه تتلو
اسم الله في سماء الأندلس
وأنت تروي من قصر وراء موتك
مجد الله من السممت إلى النظير

انه يومك الموعود أيها الشقي
يوم ربيعك وقد داسته الأقدام كفراش
وليدخل الجنة بلا حساب
ذلك الذي كان قوأمأ على الحدود

أيها الشقي ضياحك ضياعي
هل تسمع أيها الرزغيبي الحزين
الذي ماتت فيه الصبا العربية
ويبحث الملاك ضالا فيه عن قبرك المفتوح

كثيراً ما يستعجل الناس فيغنون الملوك إذا حلت بهم مصيبة . أولم يلم الخجل بهذا الذي ارتجل هذه القصيدة لما علم أن أبا عبدالله أسير لا أكثر ؟ خبير قلب المجد واستغله أبو القاسم بحيث لا يستغنى الأسير ، إذا أطلق فرديناند سراحه ، عنه وزيراً ويتخلى عن تعيين ابن سراج مكانه . وسرت بين الناس مهمة تطالب باستدعاء أبي الحسن . وخشي أبو القاسم مغبة الرأي العام فاستبق الأمر وأعاد الملك العجوز الذي ثبته في مركزه ، لكنه اضطر لأن يحاصر في الحمراء لما انسحبت الملكات إلى البيازين مع أنصار أبي عبدالله ، وبات مهدداً بهجوم مسيحي يأتيه بغتة أو ثورة في غرناطة . وحافظ الوزير على التوازن بين العشائر ، طيلة أسر الأمير ، واتبع سياسة الأمر الواقع .

وأخذ الحزبان يتصل كل منهما لحسابه بفرديناند ، ولقد عرض الملك العجوز أن يسلم الابن لأبيه ، ابن عائشة ، كي يذبحه لأنه سلح الشعب ، وعرض أبو عبدالله أن يعترف بسيادة الملكين الكاثوليكين . أما فرديناند فكان جوابه الزحف إلى غرناطة ، وهو يخرب كل شيء على طريقه ، دون أن يتصدى له أي من الحزبين فقد كان كل منهما يخشى الآخر ، لكنه لم يجرؤ على نزاع شعب من مليون انسان مستعدين للقتال حتى الموت بجيشه الذي لا يزيد عن بضع عشرات من آلاف الرجال . وكان كاردينال ميندوزا يفضل أن يدع للزمن مهمة اشعال حرب أهلية في غرناطة . وتلك سياسة شبيهة بسياسة أبي القاسم لاطالة حكمه . واستمرت المساومات بين العسكريين حتى تم الاتفاق في قصر بوركينا بين الملكين الكاثوليكين وأسيرهما وهو اتفاق خلوما كتبه المؤرخون عن شهامة ايزابيلا : ومقياس عظمة روحها تفصح عنه ، التعهدات التي املتها على أبي عبدالله ، ومنها أن يسلم ابنه ، رهينة هو وأربع أو خمسائة من فتيان الأشراف وتلك شروط كان لا بد من التفاوض في شأنها ، في المدينة نفسها ، حيث كان أبو القاسم وحده قادراً على تنفيذها . وعندما جاء الملك الشاب إلى عاصمته في نهاية الصيف اندلعت الحرب بين البيازين والحمراء . وذهب الملك عملاً بمشورة الوزير ، وضد رأي أمه ، إلى المرية كي ينتظر فيها نهاية تلك الحرب .

عندها أصبح أبو الحسن وكأنه ملك غرناطة الوحيد . وهذا ما لم يكن يرضي أبا القاسم الذي يعتمد وضعه على تعادل القوانين . وعلى ذلك قدّم للملك العجوز كشافة وجواسيس كي يدفعوه بتقاريرهم إلى البحث عن نصر اسلامي في منطقة دندة التي لا يوجد فيها غير حاميات كاثوليكية ضعيفة لكن التحركات الغرناطية كشفت ، وانجلت معركة الملك الشيخ ، في نفس الشهر الذي حبس فيه أبو عبدالله نفسه في المرية ، عن نصر للمسيحيين في لوبيرا .

لكن ، رغمًا عن هزائم العرب المتكررة في أواخر سنة ١٤٨٣ وكل سنة ١٤٨٤ (وهي السنة التي قدم فيها كولومب إلى قشتالة بعد أن سرق من البرتغاليين خرائط البحار الغربية التي رسمها توسكانيلي) ورغمًا عن انحذار صحة الملك الشيخ وقد عمي فلا يغادر غرفته ، بقي أبو عبدالله في المرية : وإذا بعمة الزغل يظهر امام هذا الموقع ويمتله ، ففر ابن الأخ إلى قرطبة ووضع نفسه في حماية الروم أما في المرية فقد سجن الزغل عائشة ، وقتل بيده أخا عبدالله الصغير يوسف ، وابن السراج الذي حظى بثقة الأمير ، وأعمل الجنود السيف في رقاب عشيرة بني السراج . فهل استوحى شاتوبريان من هذه المذبحة أسطورهه ؟ ومهما كان من الأمر حدث في المرية أم غرناطة ،

كان القاتل الزغل أو أبا عبدالله ، فالشعب الأندلسي لا يرضيه أبداً أن تزهد يد أمير أو يد أخرى
دماً مسلماً . في تلك الأيام ، ما كان شاعر البيازين الشيخ يردد كلمات الحب فيتبعه الأطفال
وتصيح به النساء : « يا قيس ، هل نسيت اسم حبيبك » ، أما هو فكان يحرك خصلات شعره
البيضاء ويقول :

رثاء الأندلس

هذا البلد الذي لا تنام فيه المياه
عبر سبعة قرون كاملة
لم يهدأ فيها الأعصار
مر كربيع
السيل المحمدي العظيم
في هذا البلد الذي لا تنام فيه المياه

في هذا البلد الذي نشم فيه الدم
ارتطمت أمواج السيوف
وكحصان شب
كتب الله الغالب إذ مر
على الغبار الأرجواني
هذا البلد الذي نشم فيه الدم

في هذا البلد ذي الحجارة الطرية
صعد الطريق
أو ما تفعل بالنار السمندل
إلى جبال المغرة والقرمز
في هذا البلد ذي الحجارة الطرية

في بلد البرتقال الحلو
حيث ضل السائح
وهو يصغي لأنفاس الليل
ثم جلس في الظل الأصهب
ينتظر الفجر المذهب
في بلد البرتقال الحلو

في هذا البلد بلون الرياح

كانت آتئذ الحريف
حين يذهل صاحب الأشجار
ويبقى هنا يحلم
بيوم هادىء ورتيب
في هذا البلد بلون الريح

في هذا البلد البعيد عن افريقيا
حيث الفم له طعم الثمار
والحب ناعم كالليل
والماء تمر في القناة
والزمن لا نهائي الفرار
في هذا البلد البعيد عن افريقيا

في هذا البلد الذي صار بلدي
جعلت نفسي على مثاله
حيث موسيقى الصمت
تضبط ايقاع قدم عارية
كطفل يتأرجح
في هذا البلد الذي صار بلدي

في هذا البلد الذي ابيض نرجسا
قلبه مثل قلبي
جعلت الجمال ملكي
وملأت اللازورد بأبنتي
ليست الأزهار شيئا أمامها
في هذا البلد الذي ابيض نرجسا

في هذا البلد الذي من ذهب وفضة
الموشى كقندح
الحقول والمدن والناس
كأنها في حلة «بال»
والهواء فيه عبير الصنوج
في هذا البلد الذي من ذهب وفضة

في هذا البلد ذي الأبراج العالية

الخمر فيه حلال
كان لا بد من أن نجيء
كهي تكون لعبة الحب الالهية
من زيتون ومحمل
في هذا البلد ذي الأبراج العالية

في بلد الشعر هذا
الجسد على حرارة النحاس
والقبل تبدو تلاحق
سراً من آسيا العتيقة
الأحلام أجهل من أن تعيش
في بلد الشعر هذا

في هذا البلد الذي عطّره الله
أي نسر اسود طار
عالياً وبشرنا بالعقاب
عما نحن وعما كنا
نحن الذين ما حلمنا بغير العشق
في هذا البلد الذي عطّره الله

في هذا البلد الخائف
فجأة من نذير مظلم
قولوا أيها الملوك ما يجري
أية نائبة ولدت عندكم
من جعلكم دميمين في مراياكم
في هذا البلد الخائف

في هذا البلد تهتز الأرض
تموت السماء وينكفيء البحر
ولا كائن فيه نجاة نفسه
كل شيء كأنه زان بنفسه
لا شيء يبدو كذاته
في هذا البلد تهتز الأرض

في هذا البلد الذي تمرّق شذرا

في هذا البلد الذي اخترمته النصال
هذا البلد المتآكل حتى الروح
الذي أحدق به آلاف الأعداء
حانت ساعة الاسلام
في هذا البلد الذي تمزق شذرا

في بلد الفاجعة هذا
آمنوا بما أقول لكم
عن وميض الحريق
انه مستقبل مرحلة
وغدا نطرد من جنة
في بلد الفاجعة هذا

الشعلة ليست مشعلا
يحملها في قبضته ملك اسبانيا الكاذب
وما يربحه لا يربحه
إلا بلعبة نرد القبر
وإذا كان المشعل رفيقه
الشعلة ليست مشعلا

وخضع أبو القاسم للزغل ، وهو الغريب عن الأحداث العسكرية ، لا يرى فيها غير دليل
على ارادة الله . في تلك الفترة بدأ أيضاً الرعب الأكبر في المملكة الناصرية : كانت المعارك حتى
الآن بعيدة عن العاصمة وإذا بكوين ومربلتة تسقطان ، وتبعتهما قرطمة ، ثم جاءت القوات
القشتالية فأحاطت برندة .

مدينة دائرة كاسمها^(١) ، قدّتها في وسطها ضربة سيف عظيمة ، فإذا بالسيل يجري في عمق
جرحها . ما كان بوسع الانسان أن يقفز التاج ، فالشق أسود وعميق لكنها كانت من جهة الشفة
الجنوبية مدينة بساتين كتلك التي كنت فيها بائساً . كان في أماسيها نفس العبير وقد امتزج فيه
الماضي الروماني ، بالماضي البونيقي ، بالماضي الغوطي ، وكان يظن أن المدينة لا تؤخذ بفضل
أسوارها العربية ، وريف الجبل ، والحفر الطبيعية . كنت تشبهين إلى حدّ بعيد ألمي بجرحك
الذي يستحيل أن يندمل . والعرب يشدون بركبهم على خيلهم السريعة ، أعصار أبيض
ورمادي ، ينزلون على المهاجمين ، يفاجئونهم من كل ناحية . ما كان أطول تلك الليلة التي رأيت
بخيالي . . . يا رائحة رندة في ظل جمادى الأول لعام ١٣٤٦ من الهجرة ! لم تستطع السنون أن
تطردها من أنفي . هنا بنيت من الزوجين .

(١) يتصور أراجون أنها سميت كذلك لأنها دائرية من اسمها اللاتيني Ronda .

اتخذ القشتاليون لهم مواقع في خمسة اتجاهات على طرق المدينة . ومضت ذبابات الاسلام في انهاكهم ، وتهديم ما يشيدون بصبرهم . عندها ظهرت الآلات ، التي بدأت عملها الشيطاني من مواقع بعيدة .

كان ما سمع أحد بعد بالمدافع على اختلاف أسائها . في رندة ، للمرة الأولى سقطت النيران من السماء على مدينة بشرية ، مطر السوء الذي ورد عنه في السورة الخامسة والعشرين من القرآن . مع أن شعب المدينة ، ما كان أخا فحشاء ، ولا كانوا أمة كفر ، ولا راودتهم اللذة في الذكور . هل رأيتم سقوط مواد النار على السطوح ؟ كيف تتدحرج أجزاءها مع كرات الحريق ؟ كيف ينفث الجحيم على بيوت الطيور والأطفال ؟ أكتب ما أكتب أنا الذي كنت أتزه في باريس وقد خلت فجأة ، في الساعة التي سقطت من السماء أول قنبلة ، عام ١٨ ، أنا الذي رأيت سنة ٤٠ يوم الحساب في دنرك . . . أكتب هذا في الأيام التي تهدم النار فيها من جديد المدن والمرافئ على جانب البحر الآخر . كل شيء عندي غدا صورة فظيعة ، أفضع مرآة . .

ان رندة حزيران سنة ١٤٨٥ لا تنسيني وهران ولا غرناطة : هنا النار للمرة الأولى ، ولقد تكامل هذا الاختراع الانساني كي يهدف من السماء بساطة الحياة . بوسعكم أن تقولوا لي أن حريق رندة ، إذا قورن بهيروشيا ، لا يعدو مندريئة بالمقارنة مع الشمس ، لكننا هنا بدأ الرعب وإلى الأبد .

كان الزغل في الواقع قائد الجيوش المهزومة ، ولو أنه لم يكن بنفسه في رندة التي كان أحد أبناء الثغري حاكما عليها . وهو من عشيرة الملكة الأم ، وزينت جماعة أبي القاسم للشعب أن الابن ليس أفضل من أبيه كما دفعته إلى تقديم التاج للزغل ، فهو محارب بلغ من العمر أشده وعلى ذلك ذهب إليه في ملقة فعرض عليه التاج واتخذ الملك الجديد سمته إلى العاصمة التي فر منها أخوه عملا بنصيحة الوزير . وعملا بنفس النصيح ، نقل الزغل ، الملك الشيخ المعزول من ملجته في المنكب ، أو كما يقول القشتاليون المونيكار ، إلى قصر أفضل مناخاً في الصيف ، في شلوبانية حيث مات منذ وصوله ، حين تلقى قبل موته ، دليلاً على العطف الأخوي ، هدية رأساً مقطوعة ، تعرف إليها بأصابعه ، فإذا بها رأس ابنه يوسف .

وأقنع أبو القاسم العاهل الجديد بأن يأتي بجثة الميت إلى غرناطة ، فلا تند شائعات أنه حي ، تستغل في التأمير عليه ، أن يجري الدفن سريعاً . أمر ما ارتضاه الشعب فاتهم الزغل علناً باغتياله . وهكذا أصبح الملك الشيخ بعد موته ، حليف الوزير ضد شعبية الزغل . لكننا في المدينة كان كل شيء طبيعياً ، طالما ظلت العادة على هيمنتها أبان الخطر ، ظلت طبيعة ثقة العامة بالحياة . وهذا ما أصف في هذا السجع الذي تعودناه من تلاوة القرآن من صلواتنا اليومية ، صلى الله على رسوله :

ما تقوله العامة

نثر العامة لم يبدل عوائده نفس قافلة الجرار ضجة خيل محدية أصابع سلال مجدولة

صياح الحمارين طقطقة الخفاف صوت أعمى يشحذ
وفي السهل تختلط بجريان يد اسنان في قوارب الفخار طنين نحل ولف على بكرة تلك هي
رياح الثلج في جبين أشجار التوت في بساتين البرتقال
الحرب القائمة في مكان ما لا تعنيهم وماذا
تبدل في قسمة الرز الذي يؤكل بفليفلة حلوة
في تمب الأيام الآلي وهي تمضي في جهد الحفارين في ما يحملون من أثقال وضنى العيون على
حسابات التجارة

في رائحة خروف مشويّ
ماذا تبدل هذه الحرب القائمة في مكان ما بفخذي الخياط المتصاليين بالكنتف التي جرحها
حمل الحجر بصيحات امرأة تضع
شعر موزون خلقوا للبحر الطويل وللروي « ر » في حريرهم وسيوفهم السمراء هم
زهور البساتين المعلقة تماثيل

السطوح في أماسي القمر حين تنزل عليهم الرطوبة كبرنس خفيف من الجبال
هم الذين عرفهم من مسك ومن قرنفل أصفر أنفاسهم
انهم ولا شك يتحدثون فيما بينهم عن الحرب بين ضحكات وأغاني نساء الحمراء
فعالهم التي بها يتأملون سوف تسمي أبيات شعر تندرج تحت خطوطهم كأنها أرض فارس
حالت نسيجا

يعيشون في الأعالي في دقّ ورهج الطبول الطويل الدائم لكن لا
طبول تضربها عصي أو
تداعبها أغصان ريمان لا أو
قفز بلا وزن لراقصين أقدامهم عارية وكل يوم
يتهالك أمامهم رسل أضناهم التعب يحملون أخباراً تصلنا منها نتف
وكل مساء يزداد فخاراً بموتى النهار
ما يحدث لا ندركه كثوب فصله الخياط على غير قياسنا
فلا نعرف عاليه من سافله ولا الكمّ من الرقبة
فهل وقعت خطأ على بازار لا تعرض على حصره الأتار مجهولة
قموداً على الأرض لملنا نفهم خصومات الأبطال
الرائعة القسوة تختلط فيها
وقائع تراجية جل جميلة تحفظها عواطف عظيمة
وهم على كل حال كائنات من لحم ودم تحت رحمة السيف وكثيراً ما
يا لكرم ضربة الجلاد
نرى رؤوساً تتدحرج على المرمر الوردي ثم يغسلون الدم بدلاء ملأى

أبناؤهم أنفسهم لا ينجون
ثم وبعد نشيد بر ونزي إذا مر السفراء
وقد أعجبهم البناء والتهديب
يعودون إلى أوطانهم القصية ومعهم
وعود بالتحالف وأشياء بلغ صنعها الكمال
لكن هذا لا يمنع روايات الجنود وقد علاهم الغبار
ولا ضجيج أسوار المواقع الضائعة التي سقطت في البعيد
والأسنان القشتالية تقضم حبة حبة غرناطة
ويقام الصليب مسبة في وسط جامعها كما في قرطبة
سعداء نحن إذا لم تزار المذبحة هنا كوحش مجنون
مع هذا لا بد لنا من أن نعد جلود الدباغ
وأن نجتمع بعضاً إلى بعض خشب التوابيت وأن نخيط السروج
أن نطبخ الذرة وأن نحمل سلال التين ونحن نترنح
يجب أن نذيب الجبس وأن نعدّ
الحليب الملون الذي تطلّى به القباب
ويمضي يوم بعد آخر ومعه أثقال العمل والدهشة والألم موتاه وولاداته
لا وقت لدينا نميز فيه بين القش والغبار
ويقول الشيوخ أن الأمور كانت دوماً كما هي
فالجار يشتهي زوجة جاره والسيد يتصرف بالعبد في فجوره
كانت دائماً حرب وضريبة الفتيان الذين لا يعودون
وما دام هنا لك بشر فلا بد من وجود اللصوص والملوك والسكرارى

كان مزاج الأمير الجديد وقسوته يهددان كل يوم رأس الوزير ، فعزم هذا على الاتصال
بكاردينال مندوزا فيحيطه بالعطف الذي أخذ ينعم به أبو عبدالله عند شعب غرناطة الذي بدأ
يسميه بالزغبي شفقة وحناناً . وسمح فرديناند للملك الشاب بأن يقيم في شمال مقاطعة المرية ،
على حدود تدمر تقريباً . في فيلزلانكو ، لعله يدخل عاصمته من هناك إذا استطاعت الجيوش
المسيحية تثبيت قوات الزغل في الغرب . في تلك الفترة مكن الكاردينال دومندوزا كريستوف
كولومب من الاتصال بالملكين الكاثوليكين في قرطبة . لكنها كانت مشغولين بأمر آخر ، هو
التحضير لعملية واسعة .

كان هدف فرديناند لوخا ، التي نكتها لوكسا ، ولا يفصلها عن غرناطة غير عشرة
فراسخ . وخشي أبو القاسم أن ينفذ الزغل إلى لعبته المزوجة فأرسل في طلب حامد بن سراج الذي
خياه مدة طويلة في قصره أيام ملك المدينة أبو عبدالله . وكان هذا وصل إلى كمال القداسة ، أي
حين اختفى أكثر شهود شبابه الفاسق أو فقدوا ذاكرتهم فكان يرى الناس فيه قدسياً ، يعتاش مما
يقوله على عتبات البيوت من كلمات يختلف تفسيرها حسب ما يعطى قطعة من خروف أو بعض
الأرضي شوكي تبعا لثروة الناس . ولقد دفعت أخبار حملة الملكين الكاثوليكين إلى التحامات دامية

بين حزب الحمراء والحزب الشعبي الذي يهيمن على البيازين .

وكان إذا برز حامد خلال المعارك توقف القتال للاستماع له ، فكان يستنزل اللعنة على الزغل والزغيبي . ولقد كانت حركة الفكر عند الأندلسيين العرب مثل النار في حطب الصنوبر : هبة ريح ويمترق كل شيء . وبان الخطر عظيماً لعيون القوم والنبلاء فاتفقوا على حل وسط اقترحه أبو القاسم : السلام بين الملكين واقتسام المملكة ، فيكون الوسط بما فيه غرناطة ومدن الساحل الجنوبي للزغل ، ولأبي عبدالله المحيط في الغرب والشمال والشرق كي يكون منطقة حامية للعاصمة ، تقبل فيها السيادة الكاثوليكية . لكن فرديناند أصم أذنيه ، أما أبو عبدالله فقد قبل هذا الدور بناء على وعود وزير المدينة السابق عنده ، وتقدم ناحية لوكسا فوجد نفسه أمام الجيوش الكاثوليكية . منذ رندة لم يستعمل المسيحيون مدافعهم فقد خافوا من قوتها . لكنهم هنا ، في شهر أيار سنة ١٤٨٦ ، عاودوا ما فيه نهاية العالم ، وأجبرت هذه المرة عساكر أبي عبدالله قائدها على التسليم . واتهم شعب البيازين الملك الذي أمامه في الحمراء بسقوط المدينة ، والشروط التي أمليت على الزغيبي ، ما خفى منها أو ظهر ، والمواقع التي احتلها ايزابيلا وفرديناند ، وخاف الزغل أن يضع غرناطة إذا خرج منه ، فلم يعترض تقدم العدو وفقد بذلك كل الثقة به . وما كان ايزابيلا وفرديناند ليجرؤا على استعمال السلاح الجديد ضد المواقع الأندلسية ، بعد أن تبينا قوته المخيفة ، لكن كان يكفيها أن يركزا المدافع تحت الأسوار حتى تستسلم الحاميات .

وهكذا استطاع الملكان الكاثوليكيان بقوة المهما هذه أن يكفرا بالله مدنا كاملة ، وهما يقدران أن تتبنى تلك المدن سبيلهما في الحياة والموت يا دينا جاء والنار ! لكن الصلاة الموسومة بالخوف ليست سوى تتممة ، وقامت ثورات في المدن التي بدلت دينها ، كما أن المتصلبين ، حين أجبرهم ذوو قرباهم ، فضلوا الموت على الملاينة وفروا وانسربوا إلى غرناطة من كل ناحية كماء ممسحة معصور وكمرق الفخار . والتسليم في غرناطة مستحيل لأن اللاجئين يقتلون كل من يتحدث عن الاسلام . وهل يفكر اليوم الملكان الكاثوليكيان أن تلعلع مدافعهما أمام العاصمة وقد ظلت خرساء في ايلورا ، وموكلين ، وزغرا ، وبانيوس ، وأنتقيرة ، وهو يسكار ، وبسطة التي لا أجرؤ على تسميتها بازا إلا بعد سنتين . . . هل فكرا باخافة غرناطة ؟ أو لا يجازف من يطلق النار على الحمراء بأن تلعنه الانسانية جميعاً ؟ أو لا يخدش اسمه حناجر الأطفال ؟ هذه القناعة جعلت الحياة تدرج وهي يمازجها خوف يوقظ الناس في ليلهم ، لكن من يراهم في النهار يكاد يقسم أنهم نسوا . ولو أنها أكثر الحاحاً عند القائمين على حراسة الحدود باسم الله - أو ليست الاقامة في الثغور أقرب إليه من خوض المعركة ؟ يصيحون في الظلام كي يذبيوا الأشباح كسكر في القهوة . .

الذي قال الرجل لابس الظل
ذات مساء في البرج
الذي يظل على السهل المظلم

من الذي بلغ قلبه قتما

يدفعه لأن يجعل فيه الموت
من الذي بلغ قلبه من القسوة
ما يجعله يرمي غرناطة
بنار تلهب الفقراء
قاتلة حارقة
لكن الكلمات تتعطل

وكضبابة على المملكة
تتوقف ما تعنيه يضلّ
يتيه بين البارحة والغد
وتبقى اللعنة
معلقة على شفاه البشر
تضيع في النظرة
تردد ترتعش تموت
في رعب كسدوم

أحقيقة يا الله أحقيقة
ينتهي جمال الأيام
ويمحي من الذاكرة
ما كان مدينة
موسيقى تاريخنا
كل ما كان جسداً
شعباً عالماً روحاً عمراً
حلم الملوك والأشجار
الأشياء التي لمستها أيدينا
حوار الغيوم
والمياه التي غنت على المرمر

في البدء كان رعب في أشرعة السفينة وقد خفقت فيها الريح تدكر بالقدر واصطدم
بالصاري جناح طائر عظيم أسود . وفي رفوف شمع الخلية ، ذهب الظن إلى أن ما يجري هو يوم
كسوف لا ظلمات خالدة . واستمر البشر بالحب قناعة منهم أنهم سوف يعيشون ، وحطت اليد
على الحجر دون خوف من القبر .

في سنوات الخوف الأكبر هذه ، قنع شعب العاصمة ، بجبن الزغل ، وبدأ يلهج بوجوب تصفيته جسدياً ، متعللاً أن يقوم أبو القاسم بالادارة دون تاج . ووصل فرديناند عن طريق المرج إلى غرناطة ، لكن المعارك كلفت كثيراً ، فرجع الملكان الكاثوليكان إلى قرطبة ، بعد أن انكفأ الزغل إلى داخل الأسوار .

وتنفس الزغل ، فسود في العاصمة الرعب ، انتقاماً من المؤامرات التي تهدته ، فألقى ببعض إلى الجلادين ، وصادر ممتلكات بعض آخر ، وطرده مئات من العائلات بكاملها . وعمد إلى تثبيت سلطته على المملكة دون رجعة ، فخطط لقتل نده ، الذي رجع إلى فيليزبلانكو . وكان الوزير عالماً بخطته ، فأنهاها إلى الملكة الوالدة . وأرسلت هذه إلى أبي عبدالله أن يلحق بغرناطة لأن حركة تتمخض فيها لمصلحته .

لكن لم يكن قيس وحده هو الذي ينشد في النهج عواطف الشعب ، الذي تعب من الأمراء وخصوماتهم ، التي يدفع ثمنها كل مرة . وبرزت فكرة حكم الجماعة الانتخابي .

رثاء آخر

يا رملا قسمته يد الملوك
قاس أنت على نفسك إذا واجهت نفسك
أيها الشعب يا من لست غير دم يهرقون
غير أحشاء خيول يجرونها في الحلبة

أنظر انه مثلك ذاك الذي يقتلون
أعطوك الحجر والسكين كي تكون
جلاد نفسك حين تختار سيداً لك
وعلى من تهوي ضربات ذراعك

على من على أي جسد ضراخه يمزقني
يرتسم عليه أثر السياط الأبيض
تضرب فمك ذلك هو هوسك
سقوطك صياحك شهادتك أنت

يا رملا مقسماً أكثر من حب قنب
يا شعباً كسروه آلاف الشظايا كمرأة
أبوسك أن تؤمن بعد بأمراء الله هؤلاء
الذين يلعبون الكعاب بحياتك على بطنك

أنت يا من تحمل صورة الموت في بؤبؤك

وعلى جسدك الجريح صفرة الجوع
أنت يا من لا تعرف من النهار غير عمل لا نهاية له
كأنك تخلد أوجاع الأمهات

حتى متى تظل العملة والثلث
الذي يدفعه الآخرون كي تكون لهم السماوات
حتى متى يجب أن يكتب وجهك
سيف الملائكة لمجد الله

جمع ظهور أبي عبدالله المفاجيء حوله فقراء البيازين وقد ارتد عنها الزغل إلى الحمراء حين خرج لخربه . وظلت المعركة طويلا غامضة النتائج ، فجاء فرديناند في هذا الوقت إلى بلج أو بقول آخر فيليز ملقة فحاصرها . ولقد زعموا أن أبا عبد الله طلب منه النجدة : ولقد كانت سياسة فرديناند ، بناء على وعود الملك الشاب ، ولو أن هذا لم يطلبها لكن نبؤات حامد بن السراج في البيازين وقد كان منها أن أثارت الشعب ضد الزغل ، تميل إلى أن تثبت الوزير ربما كان هو الذي استدعى الروم ، حين وجد نفسه في خطر مزدوج ، ولقد عمد إلى نصح العم بمحاولة الاتفاق مع ابن أخيه ، فيتنازل عن التاج ، ويذهب لتزال المسيحيين في الجبال كي يرفع الحصار عن بلج . لكن لما رفض أبو عبدالله العرض ، قرر الشيخ أن يبقى في المدينة قوات تكفي للمحافظة على الحمراء في غيابه ، وأن يسير على رأس جيش إلى المسيحيين ، لعل فخار النصر ، يجمع الشعب حوله ضد أبي عبد الله .

لكن الله شاء غير ذلك ، وعندما رجعت قوات الزغل المهزومة إلى العاصمة ، وجد أبو عبدالله أن الشعب برمته والوجهاء يجمونه . ولم يعد غير أربع شخصيات كانت حياتهم له واضحة . ولقد أذهل كرمه هذا كل شيعة الزغل فاعترفت به ملكاً . ولجأ الزغل فيما بقي له من جيش إلى وادي عش ، التي يسهل الوصول منها إلى غرناطة إذا قامت فيها ثورة . وتلك كانت نصيحة الوزير ، الذي بقي إلى جانب الملك المؤقت ، خدمة لسيدته الحقيقي .

انشغل المسيحيون طويلاً في حصار ملقة واخضاع بقية المواقع العربية في غربي المملكة ، فنعمت غرناطة بفترة هدوء ، اعترف فيها أبو عبدالله بسيادة فرديناند ، فرمم ما خربته الحرب ، وحرث وشجر المرج . وعادت التجارة فازدهم التجار الأجانب ، واستؤنفت المبادلات مع باقي اسبانيا ، وإيطاليا ، والمغرب ، ومصر وفارس . رجعت الثروة والحياة سريعاً حتى ليخيل أن ذراع الله توقفت عن ضربها . غير أن الأمير وقد شك بوزير المدينة ، كلف بالمالية والعلاقات الخارجية البربري يوسف بن قوما

سنة ١٤٨٨ جاء كولومب إلى المرسية وقد كان فيها ايزابيل وفرديناند . لكن هذا كان خرج من المدينة بأربعة عشر ألف فارس وأربعة عشر ألفاً من المشاة ، وقد عزم على احتلال الأراضي الشرقية التي يملك عليها الزغل وسقطت المدن سريعاً خوفاً من النار الكاثوليكية ، وحاصر الملكان الكاثوليكيان المرية وبنفس الوقت بسطة ، مفتح وادي عش . لكن السيول التي خربت الأندلس

المحتلة وقشتالة والأراجون أكرهت فرديناند على العودة عن القتال تلك السنة . وفي سنة ١٤٨٩ رجع إلى بسطة . التي أمر عليها السيد يجمي ، ابن أبي الحسن والمسيحية . وقاوم هذا الأمير الحصار حتى الخريف ، لكن الزغل أرسل إليه أنه لا يستطيع المجيء لنجدته خوفاً من أن يرى وادي عرش بين يدي أبي عبدالله . عندها سلم السيد يجمي الموقع الذي جاءه كريستوبال كولومبو كي يرى فيه الملك فرديناند ، ودان سرا بالكاثوليكية ، ثم ذهب إلى الزغل كي يقنعه بأن الله قدر ضياع المملكة فما له إلا أن يتخلى عن القتال . وأقسم كولومب لايزابيل أنه سوف يعود بذهب أوفير وسيانجو كي يخلص القدس . وقبل نهاية السنة استسلم الزغل .

يا أبا عبدالله ، يا محمد ! لسوف تتهم بكل الموبقات والخسّة . لكنها أخواك من أبيك ، ابني المسيحية المهجنين ، وقد أغراهاها التاج ، لا أنت ، اللذان يحملان في المستقبل لقبين اسبانيين ، فيخلد عرقهما سليل السيد النيّاز والسيد يجمي ، وقد أصبحا دون بيدرو دون الونزو وغرناطة ، ذكرى الردة أبداً . وكيف نزعهم مقارنتهما بك ، باسم الأمانة للمملكة ، مع أن السيد النيّاز هو الذي دفع أباه للتخلي عن عرش المدينة لمصلحة الزغل ، مع أن السيد يجمي ، بعد أن سلم خيانة بسطة ، فاوز في التحالف بين المعتصب المعجوز والملكين الكاثوليكين ، وأخذ رشوة مثله أراضي في البشارت ، أو ما يسميه العرب مراعي ، أو ما نقول نحن البوكسارا تبعاً للأبخارا القشتالية ، ثم دفعه إلى تسليم الروم وادي عرش والمرية . وكيف نقارن حيل أبي عبدالله ، ودبلوماسيته بالغدر المسيحي ، ونسيانه عن احتقار اللعود التي انتزعها منه فرديناند لقاء حريته ؟ لقد اشتروا الزغل بأرض أندرش ، أندراكس في لغتسا ، في وادي الحورين ونصف ممالح المالحة . . . وأبقوا له على لقب ملك أندراكس . كان ذلك في آخر أشهر الخريف القمرية للهِجرة ، أي عام ١٤٨٩ في تقويم بيت لحم . من ، سوى وزير المدينة ، يحرك ثورة شعبية في تلك الأيام في غرناطة تحمل أبا عبدالله مسؤولية ضياع غرب المملكة وتنادي بوطنية الزغل ؟

وكان في غرناطة كثير من الجواسيس والرسل القشتاليين مهمتهم شرح انتفاضات الرأي العام المفاجئة ، التي تريد أن يحمل الزغل راية الاسلام مع أنه على نقيض الظواهر حليف ايزابيل وفرديناند . ومن أين تجمي الشعب ضجة الخيانة وقد زرعوها على خطأ أبي عبدالله ؟ كانت حجة الملكين الكاثوليكين ، وسلاح التشهير ضد الأمير ، أن تركوا سرا بينها وبينه ينسرب للناس ، مفاده ، أن ملك غرناطة لما كان أسيراً وعد بأن يسلم المدينة والرعية للعدو .

وفوق ذلك اتجه فرديناند إلى عاصمة المملكة ، وبدأ تهديداته لأبي عبدالله ، باسم التعهدات التي تكفل بها هذا لما كان أسيراً وجددها بعد سقوط لوكسا . في الأيام الأولى حاول ملك غرناطة البائس أن يراوغ ، حسب نصائح أبي القاسم المهديّة ، ولو أنه فقد إلى حد ما الثقة به . وفي الواقع ، اعتمد فرديناند في الخريف على وعود الأمير بدخول غرناطة دون قتال : بعد أن هدد عبثاً أبا عبدالله ، بتهديم المدينة ، إذا لم ينفذ ، ثم انسحب شيالاً لقضاء الشتاء ، وترك لمقدمة مقاطعة الحانين ، أي خيآن ، مركز الكالالاريال . كان جواب ملك غرناطة ، غزوة في المرج ، طردت منه الحاميات المسيحية الصغيرة وحررت كله . وأقيمت الاحتفالات في عاصمة المملكة .

عند عودة الجيش ، انفجر قلب الشعب أمام الملك محمد ومن حوله وزراؤه . وكان بينهم

صانع النصر الرئيسي المحتسب ، موسى بن أبي العازي ، ومعه نعيم رضوان ، ومحمد بن زيّان ،
وعبد الكريم الثغري . وانتصر شعور الفقراء على النميمة . وضربت أيدي النساء على شفاههن ،
ظنا منهن أنهن يحتفلن بالسلم ، في ايقاع شبيه بغناء الورشان (أوها أوها أوها !) وصعد الموكب
إلى الحمراء على هذا الطبل من أفواه ، أجنحة أجفلت ، ترجيع حلق ، سير رجال ، أعلام
تجايل ، محمّة خيل . عندها فهم أبو القاسم أن سعدة انقلب ، وتساءل قللاً ماذا تنتظر منه بعد
الآن ارادة الله .

الزغاريد

على شرف دخول محمد بن أبي الحسن بن عبدالله إلى غرناطة (أعانه الله وأيده) .

القوس التي تشدّها ذراع الملاك
تبدع ربيعا في قلب الشتاء
في ألوان شفاه إلهية
فوق المدينة السماء زرقاء
تمطر فتهمي زهورا
تعطر الهضاب
من أجل عودة الفرسان
ارتدي النصر عقده
والشيخوخة بارحتها التجاعيد
تراكضت المدينة جميعاً
كل المدينة في النهج
تركت كل البيوت فارغة
الطقس جميل منتصر
حتى ليغدو الرجل كطفل
والمرأة كنجمة
والعالم صار قصرا
كل ما فيه يضحك يلمع يعجبني
كفم تحت قناع
أضرب فمي بأصابعي
ردّ لي الله ما كان به مدينا
والحمام تطير على خطاي
الليل والنهار باتا دثاري
عانقت الحياة بذراعي

والموت ليس سوى كلمة
سوف يعود البدء منذ آدم
الشباب وأسنانه الجميلة
من فجر ومن قحّة
الأرض التي تجري فيها المياه
تحدث الطيور عن الحب
في الهواء القادم من فلنسية
المساء حلو كوجنة
ولعبة الشفاه التي نلعبها فيه
يرطبها خمر القمر
يا مملكة أغاني
القبل فيك هي القبل
لما يهب نسيم بامبيلونا
يا مملكتي التي من جواهر
أين كل الرعية الملكية
إذا خفق فيك القلب ماذا يقول
يا مملكتي التي من بساتين
تتفتح فيها زهرة الأفراح فجأة
على مجد أبي عبدالله
يا مملكتي المستعادة
كزهرة في طريق
أو نقلة من أربع في الحقول
يا مملكتي الخافقة
كما في قلب الزمن
يضطرب الهزار
يا مملكتي يا للجمال
نزعت ثيابك
جئت عارية يا لك عجيبة
غرناطة يا سري أنا
لا أقول إلا قريباً
خافتاً اسمك في أذنك

[٣]

١٤٩.

... وقف النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم في المسجد وأشار بيده بالسلام إلى جهة الغرب . قيل له أنتذ : إلى م تشير هكذا يا رسول الله ؟ قال : انهم قوم من أمتي يخلون بعد زمن في أقصى الغرب ، على شاطئ اسمه الأندلس ، فيها يتم آخر مدّيني . ان حراسة يوم فيها أقرب إلى الله من سنتين في أي ثغر آخر . الحمي فيها دائماً حارس ، والميت شهيد ...

عن ابن عباس

رواه ابن هذيل الأندلسي

يا جبال ، ردّدي أغانيه ، وأنت يا طيور . . .

وخفقت من جديد أعلام بني الأحمر مع الرياح في مجموعات من سبعة فوق آلاف الرايات من الحرير المخطط ، رايات العشائر والقبائل . كان أمير المسلمين يخرج من قصره أيام الاثنين والخميس ، تحيط به الأعلام والطبول ومعه المشايخ والوزراء ، والقضاة ، والعلماء ، وكل جنده ، أي النخبة العسكرية ، فيذهب إلى خارج المدينة فيما وراء النجد ، إلى جبل السبيكة ، حيث يرقد أجداده في المقابر ، ثم يتقبل في قصره ، وقد أحاط به أقربوه ، شكاوى الرعية في قاعة للعدالة . وكان أهل غرناطة ، أيام الاثنين والخميس ، يلبسون أحسن ثيابهم ، فيجيئون الملك ، يسألونه العون ، في ضريبة أو قتل ، في جريمة أو قانون . وما كانت في العالم مدينة ، يفسل فيها الناس ثيابهم مثل الغرناطين ، حتى لقد قيل فيهم أنهم يخرّبون بيوتهم بالصابون الذي يفركون به ثيابهم .

يا لآخر شتاء من الاستهتار .

باتت ليالي غرناطة أغاني خلف الستائر من نساء بيضاوات وسراوات يشبههن الشعراء بطيور اختفت بين أوراق الأشجار . أما الراقصات فما كن يتحجبن لأن جمال وجوههن كان فيه ملامح الهية . أكثر من هذا كان سكر الأصوات الموزونة أدهى من سكر الخمر ، هيمن عليها فكان مجدها . وما ينسى أحد ولو أن الآلات الوترية استقدمت من بغداد قبل خمسمائة عام ، وقد نما هنا فن اتساق النغم الخفي وحده ، أعني دون أن ترافقه الكلمات . حتى أن ، لهو الأغاني هذا الأخرس اللفظ ، لما قطع البحر ، سمته إفريقيا وقد كان مجهولاً لديها ، حين لم تجد تعبيراً تطلقه عليه ، باسم غريب هو كلام غرناطة . وانتشر هكذا نوع من فسيفساء النغم أو موسيقى تختلف عن الأغاني القديمة اختلاف زينة الجوامع وقد غدت لوحات فارسية نرى فيها الخيول والجمعيز ، والمحاربين وأحياناً راقصات وكلاباً . كأن غرناطة حينها أحست فيها بوادر الموت ، لم يبق لها على ما يبدو من هم غير أن تملأ نفسها بهذه الجمل الخرساء ، التي تقول بالنحيب والضحك ما لا تستطيع الكلمات عما ليس له تعبير في الحياة . هكذا كانت غرناطة كلها رائحة موسيقى ، وحفلت البساتين بالمزامير في تلك الحقبة فكانت أكثر عدداً من الأزهار : فهناك جوقات على الأسوار وفي الأبراج ، والعود ذو الأوتار الخمسة يجاوب قيثارة تصاحبها في الأحياء الواطئة آلات البندور . ارجوان الراقصات صار اكليلاً معلقاً على نوبات الآلات . يا رائعة ! لم يعط أحد أي معنى لهذه الأصوات المتناسقة ، مع أنها خشخاش ينام عليه عقلك ويمرر حلمك . أنت وحدك تكتبين اسطورتك على هدير هذا الخطاب الذي لا مثيل له . هذا الحشيش يمنح روحك جناح الأبدية . انها غرناطة التي تبكي كماء نبع ، أو حب بلغ لذة دون حدود . . . غرناطة يا من لا تستطيعين ايماناً إلا بلذتك العميقة . . . غرناطة في ليل رمادي وردي مثل يمام . . . غرناطة ذات هديل الأوتار فوق مغرب طبلات وطبول العامة . . . ناسية بلابل المدينة وبغداد ، ترجع غناء اندلسياً في حلقها وقد قدمته إلى الحرية . . . غرناطة هوذا اسمها الذي في حمرة الرمان في اللغة ذات الأسنان الجميلة التي تقال فيها كلام :

كلام غرناطة

هذا النشيد لا يتجزأ
 كأنه لغة الطيور
 قصص بلا قضبان

ولا حواجز تميح خطاه
نزهة خالدة

هوذا كلام غرناطة

أين تبدأ أين تنتهي الكلمة
تموت فلا تدع ميراثاً
ليست فيها حصة إلا
للتنهدة والتعيب
والظل والسيرينادا^(١)

هوذا كلام غرناطة

في هذا المناخ الرقيق
تنام الروح وراء الجدران
والعود لا يتمم إلا
بحلم بين الضحك والبكاء
فكأنه لا يحدث أحداً

هوذا كلام غرناطة

فيه ينسى الصوت الانساني نفسه
كصورة في مرآة
كما تندهش السباحة في الماء
ويعجب المجنون بجنونه
ويضع الطيب بين الأصابع

هوذا كلام غرناطة

الفكر كي ينظم على قرص
اصطراب ما أجهل كنهه
دورته مقطعاً مقطعاً
يضيع لأنه من دون مسطرة
في عمق سماء كبرى

هوذا كلام غرناطة

صلوات من دون اسم الله
لا يعلم أحد إلى من أتقرب بها

(١) عزف أو غناء ليلي يقوم به العاشق تحت نافذة محبوبته .

أأجذف أم أتعيد
إلى أية سموات تتجه عيناى
المستقبل أم الزمن الراحل
هوذا كلام غرناطة
أين تفرين يا غيوم
ما تكتملين حتى تموتى
من ذا يحس فى دربه
ما يقول العبير للريح
لغز أأغاز لغز

هوذا كلام غرناطة
قُبَل ما تمنح حتى تزول
بروق صيف بلا عاصفة
سفن أسلمت للفرق
أطفال جميلون يبعوا بخمر
كفم يتحدى

هوذا كلام غرناطة
ليس له قافية ولا تعليل
أقدام عارية تعدو على شاطيء
صبيحات من يقطرون مركبا
كبذار فى غير أوانه
يا موسيقى يا نغمأ صاخبأ
هوذا كلام غرناطة

المرأة الحبيبة

من يعلم ، ربما يكتفى الغزاة ، بعد أن أخذوا المدن ، بالسيطرة على المرية ، ووادي عش
وبسطة (جواديس وبازا فى لهجتهم) . . . وهيمن الهدوء على العقول فى المدينة وقد امتلأت
بضائع ومؤنا ، ما عدا أبو عبدالله . . . ماذا بقى لهذا الملك ، ابن السابعة والعشرين أو الثامنة
والعشرين من طفولته الخرافية ؟ كان فيه احساس مر وعميق بمرور الزمن ، وهو يعلم أن
القشتاليين ، وقد استولوا على شطآن الأندلس يستطيعون أن يفصلوا غرناطة عن الجبال الجنوبية ،
البشارات التى ترفد زراعتها المدينة ، وما كان يريد إلا أن يستغل ما بقى له من العظمة الناصرية ،
كمحكوم بالأعدام يطلب قبل أن يصعد إلى المحرقة أن يعزفوا له لحنأ راقصأ . . .

والحياة في الحمراء تنقضي كما كانت حياة الحلم الاسلامي العظيم ، ليس فيها غير جمال البناء والأرقاء ، وبرودة المياه الزرقاء ، والطيور المتعددة الألوان ، وهذر السعادين ، والأيتل ، والأسود الحجرية . . . ما كان الملوك يطمحون في عدالة الحياة الآخرة . وهل يمنحهم الله ما هو خير من حريم فيه ألف فتاة كاملة ، أو في جنة قاعات الظل والمرمر ، والجداول وعوسجها العطر ، والأشجار والزهور ؟

كانت تسكن في الجهة المقابلة ، عائشة ، الملكة الوالدة ، في جنات العريف ، حيث تتقاطع النوافير أمامها كسيوف من مطر حتى أسفل الهضبة . كان أبو عبدالله عندما تجهد نصائح الحاجب يوسف بن قوميلا الذي كان لا يرى شيئاً إلا المال ، وما كان ذلك أسوأ ولا أفضل من الزمن الذي كان يصفي فيه لوزير المدينة السابق ، أبي القاسم عبد الملك ، الذي ما كان ينطق فمه إلا باسم الله ، ولا يقترح شيئاً إلا استقاه من القرآن . . .

ذهب وقد أعينته شكاوي المدينة إلى أمه الشابة التي ورث وجهها ، كمرأة حبيبة . لقد اتهم بأنه أمير مائع لأنه كان هنا يأخذ النصائح الوحيدة التي ينفذها . لكن هل كان يبحث عندها عن النصائح فقط ؟

أبو عبدالله

أماه قولي من أين أتاني القدر
ماذا في سلوكي اذن ما دام كل شيء مكتوباً
وهبتني الحياة والشقاء
إذا كان الشر من الله هل أذفع الثمن ؟

عائشة

يا بني لا يكون الله الله ما لم يكن الشر والخير
على نفس القدر من مخلوقاته
وأنت لا تكون ملكاً ما لم تأخذ منه
سلطتك غير العادلة فهي من طبيعتها مشبهة بها

أبو عبدالله

شككت يا أماه بالسلطة وبالله
هل وجب أن يتحقق الشر حتى ثبت وجود الله
هل وجب عليّ عقاب من لم يخطيء كالله
هل وجب أن أظلم حتى أثبت وجود الله

وتنظر عائشة إلى هذا الولد الذي من قمر وما كان أجمله لما كان يجهل كل شيء ، فإذا بها ترى الرجل الذي ينهشه الملك لأنه يعرف القدر الذي ينتظره ، هذا الرجل من جسد وفكر وقد بات في شرك العالم لا يعلم كيف يسترد نرده بعد أن رماه ولا يستطيع أن يبدأ اللعبة مرة أخرى آه لو أنها تستطيع أن تكذب عليه كذب الأمهات على صغار الأطفال ، لو أنها تهدده بين ذراعيها بعد أن نسيا الحنان ، وهي التي تحس بأن حياتها طالت وتمزقت كي تمنح كل عواطفها ونار أيامها وحيلتها لعلها تحفظ على هذا الابن سلطته التي غدت عنده الآن مرارة .

سكنت تصفي إلى النوافير وتضفر أزهاراً وكأنه حزر شيئاً يسكنها وجد فيه سبباً كي يتابع حديثاً انقطع

أبو عبدالله

قولي أماه كم كان عمر النبي
عندما أخذته خديجة وقد احمر رأسها من الحناء
بين ذراعيها كما أنت لا تفعلين
وأنا أموت كي أعود إلى حيث منك ولدت

عائشة

يا شادني دعك عن لعبة الغش البدنسة
أفهم الرهان الذي يكذبني فيه قلبك
اذهب وراء داعي الشباب في الايل
أنا عجوز لا حيلة لي في العمر

أبو عبد الله

أماه عندما أطفل محمد من زوجته خديجة
ابنين وأربع بنات منهن فاطمة
كان يفصلهما عشرون عاما كماء عن مجداف
تجراي فقولي أنه لم يكن يجبها حقيقة

عائشة

اذهب اذهب أعرفك اذهب اذهب أحزرك
يا ثمر جسدي الفتى يا مسخ الشفقة

أنت لا تستطيع أن تخدعني فقد كنت في صدري
تتحرك كشیطان وتضربني بقدمك

أبو عبدالله

حبي لك يا أماء ليس مثله
منحتني النساء اللذة كأرض خصبة
وأنت أعطيتني السلطة الحياة للمرة الثانية
جسدي من طينتك ولقد رفضت أبي
كفري بالقرآن جعل روحي وروحك زوجين
تلتفت إليك روحي برغبة طويلة ظائمة
عينا روحي وجسدي ليست لهما لغة مختلفة
ان الحوار يبدأ دائماً من عينيك
حوار الرجل والولد بنار حرّمها الله
ما الترجس إذا قيس بك يا ملكة الزنبق
وقد جلست فوق النوافير التي جمعت يديها صلاة
تسيرين بخطا ياسمين بين رغباتي المختنقة
أرتجف إذا رأيتك كأنني حيال جريمة
أجدك في مرآتي كزني بين القوافي
أخاف النهار أخاف الليل أخاف صمتي وصوتي
لا أدري أين أضيع في نظراتي أم أحلامي
حضورك لا أسوأ منه وغيابك يأكلني
منك أنت كنت منك يأتيني ما يحطمني

عائشة

يا أمير أقلع عن هذا الزيف وهذه الشكوى
العمر ما هداً جنونك بعد
أنظر يا ابني كيف غير الزمن صورتي
حتى ولو ظننت أن بوسعك أن تحبني

أبو عبدالله

هل وجب علي أن أكلمك حديث الرجال
هذا العنف في في دمي تسميه الكلمات
ويصمت عنه اللسان لكنه يسكن أحشائي
ألا تذكرين كيف تكون عاصفة
زوج قاس يدفع البهيمة فيك للأنين
هل وجب أن أكون لديك ذكرى الدنس
تعرفي على القتل والحريق في عمق بؤ بؤي
لا أنت ولا أنا نستطيع شيئاً ضد الربيع الخالد
الذي ليس له قانون سوى قانونه ولا سيد إلاه
ليس اختياري أن أجنيك المسبة أقوى من البرق
أنا الرمح والسيف أنا البرد والعاصفة
آه أقبل فقط أن أخذك بين ذراعي اللذين من مطر
مادمت آخر الملوك فلاكن آخر الأعاصير
ولا بد من خطيئة بلا حد كي تفسر سقوط عرش
وأن تحتقر غرناطة من أجل جحيمي

عائشة

غرناطة تنتظرك يا بني أذهب واملك .

اللائي يخطرن مع الطواويس

في تلك الأثناء ، كانت نساء الأمير يتكاسلن من غرفة إلى غرفة في القصر الذي ينظر إليه هو من عند عائشة . قطع حلو أدت العادة به لثلاث تمييز عنه زريمة ، التي ولد منها ذلك الطفل الأسير ، مع أنها تعد الملكة الحقيقية . كانت تلهو بحليها وتفكر طويلاً بهذا الصغير ، كيف باتت هيئته ، وما عمره ؟ عشرة أحد عشر عاماً . . . ربما اثنا عشر . . . الزمن يتبدل حسب البشر ، ولولا المقارنة لضاع الانسان في حساب الفصول . هنا في نعيم الحمراء الكامل ، بأية اشارات تستطيع امرأة ولو كانت ملكة أن تشطب خطوطاً على الأيام الزمن عندها هو الحضور ، فكيف تقرأ التغير فيمن فاتها وجوده ؟ الغائب لا يكبر أبداً ، لا جسداً ولا روحاً . . . يا لك أم ! أم ما زالت صبية ما فارق نديها ابنها إلا منذ قريب . . . ما كانت لتغار من السراري ، اللائي يجرون ، مثلها

الخطا هنا وليس لمن غير لذات غافية أو تطريب لا ينتهي لأجسادهن . ترى ما كن يعلمن عما يجري وراء المرح الذي يرى من المرقب وقد ازرق ؟ بل أي معنى له عند اللاتي يخطرن مع الطواويس ! حد الحمام توجد غرفة تدعى غرفة النوم فيها أكواخ للراحة كأنها عندهن ما عند البيغاء أغصان شجرة ظليلة . النوافذ والأبواب والأعمدة ، شبه غابة فيها فسحات . . . وفي الشرفات ، في الأعلى ، موسيقيون ، سلبهم الحديد المحمى النظر ، يعزفون بلا انقطاع الحاناً طويلة شبيهة بالزغاريد ، ويرتفع بين الحين والحين صوت بلا رؤية يجود كلمات من فارس أو مصر ، وأغاني من افريقيا أو الأندلس . . .

نشيد الموسيقى الأعمى

دفعت ثمناً غير انساني
لأنني جيتُ بستان النساء
أنا الذي لا أحدث غير أرواحهن
كلام الأيدي وحده
وفي غرفة النوم
تحن قيثارتي
ويطوف بأذانهن نحبيي
كدمعة من زمرد
نقطة دم قرمزية

أمامهن تنحني ركبتي
في ضراعة جسدية
إذا كان ذنباً حب
الموسيقى في شريعة محمد
فريسة من تحملمن نصف غافيات
أن تصبحن إذا غاب الملك
أنتن يا من اسمع هرجكن

ويجهلكن فراغ عيني
دائماً على أهبة أن تتعرين
من الشرفة التي تخفيني

أحزر حركاتكن
بماذا تحملن نصف نائحات
كما أنخيلكن
أنا العاصي شريعة الله
لأن لا أحلى من المعصية

ما عددكن في القاعة
أكتاف ذهبية نهود عرائس بحر
شعر يولد منه الليل
صدف يتسكع لؤلؤ على رفل
ليس يتألم ابن آدم أعظم
من ألم أعمى في غرناطة
ولو أن موسيقاه تصمي
قلب الملكات الكسول

أنا الفلك جرى
في الظل الرطب فوقهن
الحلم بفحل يدها من ريح
الطيران الخفيض المنقض في العاصفة
كما كنت أرى السمرمر
أنا جوقة دائمة على أهبة
أن تغني غابة
ظلماء كنتظري
أنا نحيب الحشرات
من أجل مسرّات أملنا
بها من قبل أن يضل
الربيع الباكي في سره
عطرا يجير الروابي
هذا أنا القلب الحطيم
السماء المحرمة السعادة الملعونة
البحر الذي يغرق المالح

الفم الذي ينحني لقبلة
والكلمة المائتة قبل الفوه بها
على شفة المطرب المرة
يا حلاوة البنات فجأة
بين ذراعيّ فخذي بطني
في عقود الاحتقار
كل ورود البستان
كل القبل الغرناطية
تدخلني من كل النوافذ

الحوض

الآن ، في قاعة الميرت . . . آه دعوني أفضل الاسم الذي نعطيه لهذه العوسجات ، التي
جاءنا عطرها من قبرص أو بافوس ، على الأرايين الاسبانية المسروقة من الرياحين الأندلسية . . .
الآن في قاعة الرياحين في الحمراء ، حد فتاة ، لا حاجة بي إذا وصفتها للظبي ولا للفجر -
وما يضيركم أن اسمها زهراء ؟ - جلس محمد الحادي عشر على حافة الحوض ، وعيناه ضائعتان إلى
الشرق فعلى جدار الحمامات اسم يوسف الناصري مكتوب بحروف كوفية باهرة ، محمد الحادي
عشر في رداء من الديباج الأحمر ، محمد وكأنما عادت به الذاكرة عند أمه إلى الزمن الحالي ، فاستسلم
إلى قصته هو . . .

يا عالمة^(١) حلوة على قد تلك الساعة ، لا تفهم شيئاً من الكلمات الملكية ، لأن الأذن التي هو
بحاجة لها ، نبيهة وغافلة ، تفتحت للصوت لكن صباء على الحس . . . والأمير يجلم جهارا ، وهو
خير من يعلم مصيره . . .

قال أبو عبدالله أذكر ذات يوم من طفولتي
هي

كانت تحب فيه قوته فحسب وتمعجب
انه ما يكلمها إلا إذا سأها بين حين وحين
لذة يجمل التعلل فيها كأنه
كان يحدث امرأة سواها
قال الملوك غريبون كنت لا أحب

(١) عالمة : راقصة جمعها عوالم (بالعربية في الأصل) .

أبي ولماذا

أحبه ذاك الكائن الثقيل لماذا

أحبه وقد كان يرى إليّ بلا نظر

وهل كان بيننا شيء مشترك

غير رائحة القتل

التي تأتي من وراء هذه الحياة من حيث تشاد السلطة تجيء

من زمن مجهول زمن أول من جلس على هذا العرش وأقام العدل

وأنا

الذي لا يخلف وراءه هذا الكذب

فأنا آخر السلالة ومن بين يديه يزول كل شيء يغدو الكل مزقا

ما كنت أقول

ورأى المرأة فجأة فابتسم كما جاء أبوه إلى البستان الخالي دون ضجة في ساعة القيقظ ونظر

إلى ابنه وقد انحنى على البركة

كنت لا أحب أبي كان يتحدث في الخيل

كانت له حياته وبنون وزوجات

لماذا اجتهد في تعليمي السيف وهل كان يعلم عني أكثر مما عن ببغاء

أماه أحقيقة أخذت هذا الرجل بين ذراعيك

أنت التي راثحتك مساء كبستان من قمر

لم أسألك أن تعطيني أبا ملكا

لا أذكر قبلها أبداً أنني رأيت أفكاره كان ينظر إليّ دائماً من فوق رأسي وفجأة

رأيت الشجرة في الماء مقلوبة بين الأسماك كان هناك في صمت الظهيرة

لأنني لم أنس الساعة ولا لون ثوبه وكأنه

ارتداه من أجل أن أذكره وما كانت دهشة عينيه للمرة الأولى أثقل من وزنه

على المرأة للمرة الأولى انفتح ذلك الباب على سره

كان ثوبه من زردانة مصر وكأنما صور الحيوانات تراقبني من بين خيوط

الذهب

لَمْ أكن أحب أبي وأعرف لماذا

ولا وزنه لا خطوه لا حديثه بل ولا نفسه
لا شعره ولا جلده لم أكن أحب أبي وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي قرأت
في عينيه كلمات خرساء

والخوف والاحتقار لا يجدان كلمة واحدة تعبر عنهما وتجمعهما
في هذه المرة الوحيدة كان في عين الرجل احساس انساني وقرأت فيها موتي
قام بتلك الحركة ناحية عنقي في الماء الجاري والأسماك المذهبة تبهر صوبي
وتيجان الأزهار تدوم على السطح كنا في الشهر الذي ينهمر كثلج فيه الزيزفون
أوهل كان لموتي نفس الوجه الذي عرفت منه أمي أني سوف أولد وهذا الملك
كم كان يزعجه أن أكون شادنا بين شدانه .

لقد صاح في الخجل أكثر مما فعل الخوف
وصمت المشؤوم تحت أشجار السرو التي تخفي سرا عميقاً وتبدل شيء فيه كقارب مقلوب
وداعبت يده المرأة
ونفض وفيه عقب الذاكرة وجرى الجمهور ناحية الباب ومعه كلاب شقر في قعقة سلاح
على الدرج

قال أيها الملك أيها الملك يا أبي كان يبدو لك سهلاً جمع السلطة والحيلة . وما
كنت تدري أن القرن تبدل كمسافر ما بات نفسه بعد المرحلة والغبار يا من جئت
متأخراً إلى هذا العالم الذي خطبه به البيخ نطقة ضياعنا يا من كنت تجمع الأرض فما
تدرك أن ميراثنا يلجأ إليك لكن عبثاً فقد كنت إذا استوليت على مدينة سقطت
أخرى .

ويأتي يوم لا يجد فيه الملوك فرصة للنزول عن السرج آنثذ ما الفرق بينهم
وبين قاطعي الطرق لأن الملك هو من استطاع إلى الكسل سيلا ويأتي يوم لا يغدو
فيه الملوك غير حلم بين حدود المملكة في ساعة اليقظة ويأتي يوم هو اليوم الذي تفقد
فيه الكلمات معناها الليلي وتهدل الحمامة على السطح نبوءات غريبة .

من الذي أراك ذاك الطفل في البلاط وما كنت لتأبه له وقال هوذا آخر ملوك
غرناطة .

لقد ضحكوا من كلمة الفقير آه ارموا له بالذهب وليرحل وانسدل الظل على
النبوءة فدارت فيك كجدي طردت اليد لفكرة في الظاهر لكنك ما دمت تحمل فيك

هذا القلب الميت من يبعد الذباب عن الجثة .

وكنت تنظر إلى ابنتك في ماء حوض الريحان النائمة كما أرى اليوم قدري
هوذا هوذا آخر ملوك غرناطة يا معتوها لم يبق له الآن غير نهاية المملكة لا
تبحث عن حلف بين الحظ ورماح الجيش فليس أمام عينيك غير شقائق أو ما كان
يكفي كي تفسد لعبة الحظ أن تخنق هذا الطفل قبل أن يملك أن تخنق التاريخ في هذا
الطفل

لا ضرورة للكلام كي نعرف كل شيء ولقد حمل كلانا يا أبي هذا السر سعيد
من لم ير موته في عين نبعه وأسعد منه ذلك الذي لا تدوم سلالته

ألم نكن من قبل فرساناً بلا هدف غير الطراد والمضرب مشرع لجهدنا إذا بلغ
أقصاه كنا نذهب من معسكر إلى آخر وقد نسينا وراء ما اجتحننا من أرض

ماذا حدث حتى لأدوم في ذاتي خلل الرماد ماذا حدث كي أكون الأخير ولا
مرد أنظر كيف تضيق تحتي الأرض ولا مرد حتى لأرى حدودي من كل النواحي فلا
حاجة بي للصعود إلى الأبراج لا حاجة لأن تصغى أذني للأبواق الغربية

لو أنه قتلني بيديه الملكيتين ذلك الأب ولقد راودته في ذلك الرغبة أكثر من مرة
ولقد كانت تفر أمامه الغزلان حين تفهم هذا الشيء الغامض في نفسه لو أنه قتلني كي
تعيش غرناطة وتنظر إلى هاتين اليدين اللتين لي منهما كل ما جاءني منه لأنني أميل إلى
ناحية أمي

ما عدا هاتين اليدين يدي التفاح

هاتين اليدين اللتين يتبعثر ويضيع فيهما كل شيء هاتين اليدين اللتين لا
تطبقان على شيء يحول فيهما كل شيء غباراً وينسرب كظل من بين أصابعهما

زهرة شريفة زائدة يا بنات اللانهاية ألف بينكن الكسل يا أنضر من ماء زرقاء جمعتها
الريح

نظرة الأمير تعبرهن وهي تضل فيها بعض الأفكار
التي تحمل بأسه وغرناطة تضيق يا زهرة يا شريفة يا زائدة

زهرة شريفة زائدة الأولى تشكو والأخرى تنزبن والثالثة تبدو طفلة وبَّحوها

أي رجل يقدر أن يراهن دون أن ينوي امتلاكهن فما أنعم أجسادهن ان القلب لينفطر إذا
مضيت في سبيلك دون أن تمد لهن يدا

زهرة شريفة زائدة حقل برسيم بعد غيث سعادة للقدم العارية أن تعدو تعدو فيه حتى إذا
وصلت ماتت موت السذاجة

لا أحلم بأن أطلب لذة من زهرة وشريفة وزائدة ولا أن اختار بينهن
يكفي أن أنظر إليهن غزالات غزالات غزالات
زهرة شريفة زائدة

ان شيئاً ما بعد الآن لا تحل عقده الأغانى لا الكائن الانساني في شبابه ولا
الملك الذي يحملهما غير هم الربيع ولهذا اختار الشعراء دائماً القصور مكاناً
للتراجيديات

وقارنوا بين قصة أمير الجَدِّ وملك الجَدِّ

وها هو هذا الخلاف ينسخ اليوم على كل المملكة أن أكون أنا أو تكون أنت يا أبا
عبدالله

لقد اشتد حتى لأعيد الآن شكاته
لا كمرأة ملك

وانما صدى للانسان

في هذا القرن الذي غدا وارث كل آلام التاج
من مات بالطاعون ومن مات جوعاً

والمرأة الراكعة على ركبتيها والعبد الذي فسد حتى الروح
كل شقاء هو مملكة يكون فيها أحدنا ملكاً

شكاة ملكية

يا لاختلاف النساء الحلو في رحال قوتي

كعقد مساءات يعقده الصباح

ترى تعبت من نفسي أم من الحب فحسب

ويذهب العبير سدى في الطلاق العظيم

بين الروح والجسد بين الشجرة والقشرة

نجدنا ذات يوم على حافة الزمن الكسير

وما بقي لنا من القبله غير شفة حائرة

ولا نفهم نحيب النوافير

دون اضطراب دون ذاكرة وقد صحا القلب
هذا القلب الذي نجعل لم أستشهد

لماذا تركتني في صحراء الرمال .
فما يبدو لي فيها شيء مكتوب إلا بأسود وأبيض
لماذا قررت مني أيتها الشهوات البطيئة الحارقة
كطفل خاب ظنه لما انتهت الحكاية
وهو أشد جوعاً لما قام عن المائدة

لقد ظللت وحيداً حزيناً حين
صمت فجأة في حياتي
فما أذكر إلا تنفي
وما أنا من ذاتي غير ظل واحتقار
خرساء هي الطيور عمياء هي البساتين

زمرة زهراء

محمد حزين لا ندري
كيف نوقظ البروق
يا لبؤسي أنا التي عانقته
ظانة أنني أرضي كالقش
النار الملكية الباحثة عن فريسة
لكنه عاف فمي
فلنرقص نحن الثلاثة
كي نسي الملك المتوحش
آه فلنرقص أرقصن الزمرة
كي أظنه بين ذراعي

نهداك صغيران وما أوسع عينيك
شريفة هيأ أنت الأولى
يا التي تفوحين عنبراً عطراً
تقدمي إلى نوره البارد

لعله يبتسم لك
لا تحشي أن أغار
إذا سمعت صراخك
سوف أرقص على الحشيش

هيا ولنرقص ارقصن الزمرة
وهو يتشي بين ذراعيك

وليتنق أجلنا
لعله يفضلك يا زائدة
فيضمك بين ركبتيه
وليدخلك كحديد
سوف تتعلمين منه
ما الذي يبكي في خوف
لأن الحب يجيء كالطر
واللذة كالآلم

هيا ولنرقص ارقصن الزمرة
وليخفق بين ذراعيه

الفلاسفة

١

ما أورد هنا هو افتراض محض فما شهدت أبداً هذه الشخصية ولا باحت لي بأسرارها لكنني أتخيل آه اني أتخيل ما دامت بي حاجة فظيعة للعظمة ، عظمة لا تتلاءم بالضرورة مع ما عهدنا عنها أو ما يقضيه الغرور في يومنا هذا ، أتخيل أبا عبدالله فريسة ما نعني بالتمزق نحن الذين بحكم الزمن على طريق الزوال ، ولو أننا بالفكر من عالم النجوم . أتخيل اذن محمداً بن أبي الحسن بن عبدالله وقد عرف أنه آخر ملوك غرناطة ، يشغل نفسه بمسائل غير الهدنة مع الحظ . وبين ماضي الأندلس والمستقبل المسيحي ، بين شعبه المهتد بالمذبحة والمنفى ، والأندلس المقبلة ، ليس له أن يختار أو يئأس ، حتى ولو انتسب حقاً إلى هذا المعسكر أو ذاك . وهنا نجد تفسير الحرج الذي يدفعه للقتال ويدفعه عنه ، والتردد الذي حباه وجهاً قلباً في عيني التاريخ القاسيتين ، أكثر من الوعد الذي أعطاه وكان بوسعه أن يخلفه . ما كان بوسعه أن يؤمن برسالة الاسلام ، وهو الذي يجسد هزيمته ، وكيف وهو الذي تأمر طفلاً على سلطة أبيه ، وزعم لنفسه حق الميراث ؟ يعلم أنه على حافة الهوة ، لكنه يجهد منذ عشر سنين في ألا ينقلب من عليها . لقد حاول من كل جهة بتبرير ملكه ووجوده ، حتى إذا يئس اجتهد في أن يجد من يوصي له بملكه الكاذب . آخر ملوك غرناطة . . . يمكن أن نفهم ذلك على شكلين . كان أسهل عليه أن يدع ميراثه بين يدين عربييتين ولو لم تكونا ملكيتين ، من أن يسلمه لأولئك الأمراء المشركين الذين سوف يطمسون الجمال الاسلامي بالصليب وصور العذراء ، ويعسكرون وسط الحمراء وقد أقاموا عنبر شارلكان . لكن أية يد وماذا يعلم عن الذين يأخذون من بين يديه الرائعات؟ لم تنفع فيه قناعته أنه جاء من كذبة ، أوليس العالم الذي حوله ، وقد قام كي يؤيد سلطته هو ثمرة أوهام هذا العالم نفسه ؟ لم يكن له من يعلمه طرازاً آخر للأمر ، حياة أخرى ، مفهوماً آخر عن الشر ، والخير . من كان يداني الأمير الفتى فيقول كلمات قد يكون فيها موته ؟ وما كان أبداً لأبي عبدالله أن يدخل إلى سر الآخرين . أو ما كانت اذن تكفيه الأبهة ؟ هكذا كان يقيس بجمال البساتين والأشجار وما يمكن أن تؤول إليه ، كل قيمة أخلاقية . مع ذلك أدت صدفة علائق البوليس . . .

السّر

كان في غرناطة رجل حزين وجميل حتى ليكاد لا يطاق . وتحدثت عنه البيوت في ليلها فأرسل أبو عبدالله حرسه في طلبه ذات خميس فجاءوا به إلى السبيكة وجمع الناس في مثل الفضيحة

فقال له الملك ما وراءك وصمت الآخر يصغي إلى النوافير حتى أن الملك وقد أيقن أنه لم يفهمه أعاد عليه بصوت أعلى ما وراءك وحين لم يأتيه الجواب غضب فصاح في هياج حائث ما وراءك

وعندما رفع الرجل إليه وجهه الكامل استولت الدهشة فجأة على العاهل فجلس وأعاد في رقة هذه المرة ما وراءك وتضمخ العالم إلى أجل طويل بعبير الصمت أنها غدا السؤال قلقاً ثم راجياً لا يطاق في رابعة النهار كظل غلغل كل شيء في احساس ضعف حتى لقد انحنت الضجة في البرية وتبدت المدينة وكأنها تنطفئ في رائحة الظهيرة في عمق الساء الشاحبة

وواتت الشجاعة أحد الأمراء فذهب في طلب الجلاد لكن أبا عبدالله رفع يده وتمتم ما وراءك وتكلم الرجل أخيراً واطمأء الصوت حتى لرجوه أن يرفعه كي يسمعو مع أن الكلمات كانت بسيطة وواضحة في هذا الثغر الفتى كان يكفي أن يؤمنوا كي يعرفوا السر

قال أنا أرثجف أنا سعيد

أيجوز لأحد الرعية أن يرضى بنصبيه إذا أنكر العاهل حظه ؟ لكن ما كان يعلم أبو عبدالله عن شعبه ؟ في اليوم التالي لاجتماع الخميس العام ، نددت إليه معلومات أكثر سرية ، ولقد كان الاجتماع في المدينة الجمعة وعلى هذا سمي ذلك اليوم بهذا الاسم .

ولقد طاب له الاصغاء طويلاً لما يأتيه عن غرناطة المجهولة فكان يأتيه مرة في الاسبوع صاحب المدينة وهو رجل في قوة العمر فيروي له ما لا يخفاه من جرائم أو اخلال بالنظام . « ما تحمل لي من تخيف الأبناء يا صاحب المدينة هذا الاسبوع ؟ - سيدي ، ابن قتل أباه ، وامرأة وجدنا اربا في السقاطين ، فحسب . . . » وما كان بعد يعيش أبو عبدالله إلا من أجل الجمعة . كان يتعرف إلى أشياء عجيبة عن اللحامين ، والمتسلمين ، وذهابي^(١) الدارو وتجار الدواء ، وقلاعي العقيق الهباني الأحمر والأصفر . كان يبدو له أنه كلما تعمق أكثر في المدينة ، اكتشف الفاسقين ، ومزيفي الحليب ، ومحتكري الطحين . وأعمال الفوضى على شاطئ النهر ، والأمكنة التي ظهور امرأة فيها يكاد يكون فضيحة ، وجرائم حداد عجري وجب أن يرمى به في القصبه ولو أن موسى دافع عنه لمهارته في صنع السلاح . وهكذا لم تعد عنده غرناطة مدينة مجردة : كانت يسكنها الأحياء ، الحرف الصغيرة ، الأهواء والمفاسد . وهكذا تداخلت فيه كل أنواع الحركات الداخلية التي كان ينجل منها أو يخفيها عن النور على الأقل ، فغدا انعكاساً لما يجري في واقع الآخرين . ولحسن الحظ لم يكن قاضياً : ولو كان لأطلق كل مجرم مهما بلغت فظاعة جرائمه إحساساً منه أنه مرآة له . أما من كانوا يقضون عنه فما كانوا يوفرون الدم ، ولقد تعود أبو عبدالله أن يتجاهل الأمر ، لأنه يفضل الشعر على عقوبة الاعدام .

وهكذا علم عن وجود مكان في أطراف المدينة مرذول السمعة : لا لأنهم يزورون فيه العملة أو أن أبناء المدينة يرتادونه للزنى ، وإنما لأنهم يتعاطون فيه افساد الروح . كان يعيش فيه على زراعة الأرض أناس يزاولون منذ أجيال حرفة الافكار المجرمة . كان يجتمع فيه ليلا الفلاسفة الفاسقون ، الذين يشككون بتأثير اليونان بمبادئ الملكية الالهية .

(١) الذين يشتغلون في الذهب .

وذهب صاحب المدينة ، إلى أن قتلة البنات ومزيفي العملة وسارقي الماء ليسوا شيئاً إذا قورنوا بهؤلاء ، الذين يشذون عن حرفية القرآن والأحاديث ، ويدعون تفسير الكلمات المقدسة ، وربما كان ذلك بقصد تجريد كلام النبي من معناه وهو الذي تخضع به الرعية للأمر ، لأن المعنى المباشر يكفي لثبيت الناس في ما اعتادوا عليه ، ولا ضرورة للتعلم إلا إذا كانت النية تهديم الاسلام . ان الفلاسفة يتدرعون بحق المناقشة فيما بينهم بالخير والشر ، وقدرة الله التي لا ترد ، وطلب الانسان السعادة . ولقد جاء الزمن ، أمام التهديد المسيحي لوضع حد لهذا التهريج .

ورغب أبو عبدالله في رحلة إلى مشعوذي العقل ، قبل أن ينفذ صاحب المدينة نيته في غزوة إليهم من نوع آخر . كان الأمير لا يعرف إلا قليلاً عن أفلاطون وأرسطو طاليس فلم يسمع عنهما حديثاً إلا في مجال الحكم على حب الفلاسفة في الاطلاع عليهما . ولم يدخل أي فيلسوف عتبة الحمراء . وكان واضحاً ، أنه يجب ألا يتحدث في المشروع لصاحب المدينة . وفكر في الأمر طويلاً أبو عبدالله . حتى إذا علم أن الدروب على التلال تنقلب إلى بساط نرجس ، وأن شرطة المدينة سوف يستخدمون العصي والحبال للوصول إلى الفلاسفة ، قرر أن يسبقهم .

لم يصطحب معه أحداً ، على خلاف الخليفة هرون الرشيد ، لا حاجباً ولا أحد الوزراء ، فما كان بينهم من يثق به حق الثقة ، ولا كان له فيهم جعفره .

٢

الطلعة

وتزيماً أبو عبدالله بزي عتال وخرج من المدينة وحاذى مجرى الشنيل

ثم ولج في بدء ليل يشبه كثيراً مروا سيء النحت وهو يتخيل الأرض حمراء من اللوم

ومر حراس يحملون أكياساً تند عنها رائحة خروف بللوه يجدفون بلعنات جديدة لها ضجة جلد وبصاق في الظل

كان والظلام بين بين ينزل طريق المهربين المرية إلى حيث يزهر فجأة الياسمين

عمّ تبحت يا ملكاً بلا تاج في عمق الحقول المزرعة حجرا

عم تبحت تحت الزيتون وقد التفت أذرع الضارعة

الوحدة أم الذكرى سرّاً من الطفولة أم النسيان

وأنت ما زال في يدك كميّ الحبل عندما نزلت وأخاك يوسف

أبراجاً أرجوانية لا تنتهي

ما زال في بؤبؤك نور الثالثة عشر في قادش وادي عش كما تسمونها من أجل جدولها عندما

انخذك شعبها أميراً لا زالت مشاعل غرناطة لما رجعت مساء مع يوسف على حصان أبلق

يوسف يوسف الذي قطع الزغل رأسه في المرية

وحملت الرأس إلى أبيك الأعمى فتعرف بأصابعه إلى ذاك الوجه في عمق الخطوط الدامية .
بماذا تحلم أبا عبدالله لقد مات أبو الحسن على يدي عمك
وما استطاع الزغل أن يملك طويلا لأن الخيانة لم تمكنه من عطف فرديناند ولا الابقاء على
جبال أندرش حتى إذا
جاء افريقيا وخز الضمير فقتت عيناه على ما روى بأمر
عدالة سلطان المنطقة الساحلية
بماذا تحلم أبا عبدالله وقدماك تدميان على الدروب المظلمة
حدّ مزرعة وما زالت ترى فوق الخضرة الظلماء
بياض برج حمام تبيئه
وأنت تتوقف فتصغي إلى قلبك وقد ضاع مع الزيزان
وفجأة تكلم من لا يرى ولا سمع أنك أتيت
بصوت عجوز قاس وهادىء صوت خلق لرياح من جليد والشمس اللاهبة وتعاقب
الفصول

صوت تدوم فيه في بعض اللحظات أوراق ميتة
صعب فهمه بسبب لغته التي لا تدخل القصور لونه أرض وحجر يخلف وراه احساساً
بصوان كسره دون فائدة

قال الصوت كان ذلك يا بني في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور خليفة ما
وراء البحر

ولقد مضى ثلاث مئين من مواسم الحصاد على أيام تلك الحرب الأخرى عبر
الأندلس اخترم فيها الموت سبع مرات آباء آبائنا
على تلك الحجر قدام البيت وقد هدم وبنى مرات عديدة
على تلك الحجر البيضاء التي ترقع عليها ثم تنهض بشيابك الشاحبة
كان يأتي فيجلس كل يوم اللاجىء المنبوذ
وهو الذي أتت منه التعاليم عبر انبهار العصور إليّ
عنه أخذت الحكمة السرية

وهي لم تغادر أبدا هذه الدار التي تمتلئ عند العشي بعبير التيريبانت
ولقد زاد فيها لأيا آباء آبائنا

فلتغمده الرحمة أبدا لأنه أول
من برهن أن المعرفة في عيني العلي الأعلى اللانهائيتين
بالتعليل اليقين هي واجب على البشر
أيها الفيلسوف يا معلم أشياء ما وراء العقل

يا أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد الذي نضج
اسمك حيث لا ينبت النخل أبدا
كثمرة مرة احتفظ بها الفم طويلا
ويسميك الروم بلفظة غريبة على قدهم أفيرويس
يموت فيها نسب أجدادك

قال الولد الذي لا يرى بصوت متغير كالبحر ساعة المد والجزر القلب يا أبي
هنالك من يسير في الظلام لقد قضقض كمحار تحت قدم أو كأغصان
انه طلعة يا ابني يبحث عن صيد في مطارحنا
واني لأوده جاء مثلنا من افريقيا انه شره مثلنا ولقد حل الدم عنده محل المعرفة
لا خطر أن نتحدث أمامه في ابن رشد

انه حتماً من أولئك الذين لا يؤولون الكلام فالعالم عنده هو ما جاء في الكتب
كل شيء عنده حر في والجريمة لديه في التأويل
فهو لا يفهم الكلمات بغير منطقتها البدائي
وهو لا يشني عن ذبح الدابة ما دام غذاؤه منها
غير أن معلمنا لقننا في صبر أنه يوجد نوع انساني آخر
يتكلم مع النوع الأول ويفكر على نحو مختلف
غير حر في ولو أنه يتكلم حرفياً
انهم جماعة فصل الخطاب وما الأوائل عندهم غير أدوات
سلطتهم الغيور قائمة على ما أوحى

هنا صمت العجوز طويلا كما يفعل الزيز أمام خطو الجوال الليلي المهدد

وأحسن أبو عبدالله في قلبه غضب الملوك
ماذا يزعم هذا الفلاح الذي يدعي أن باع معرفته أعلى من سنابله
وكانه هم بالجواب على هذا الحديث البطيء في عمق الليل الوليد

ونحن أصحاب النوع الثالث
الذين نرى أن ما لا نفهم حتى الآن من أعاجيب وأسرار
ليست سوى ما أخطأه الإدراك ولو أننا نسير إليها مستأنين معتمدين عصا
المعرفة القديمة

الذين نرى في الشيء الموهوب آلة يجب أن نتعلم استخدامها
نحن أبناء المعرفة العميقة لولانا كان الفكر الانساني أنكر النبوءات
ومن له من دوننا أن يوفق بين ما في الكتب وبين ما يناقضها
نحن الذين خلاصنا بأن ثبتت للسلطة الأرضية
ما تؤديه لها من خدمة
وابن رشد يعلمنا لخير العلم
أن تتمسك بالحقيقة النامية عند الذين يعرفون كيف يستخدمونها دون أن
يعميهم النور بينا

يكتفي أصحاب الفضيلة الأولى
بدلالات الدين المحسوسة
هكذا

الايمان بالشكل عندهم فرض الهي
بيننا يفرض الله علينا الشك
على أنه حالة ارادية لوظيفة المعرفة
ذلك هو التعليم الذي تلقينا
قال الولد القلق يا ابي ألا يبدو لك
أن الطلعة وجد طريده بين الأوراق
وأجهل أي تنهد أسمع يشبهني
وكأنما صمّ العجوز عن السؤال كما
عن سؤال القلب الخافق في الأدغال
وكانت نفسه هادئة تحت أوائل النجوم

ما خفي علينا لا يختلف عما ألمس
غير أننا بحاجة لأجيال كي نصعد السلم
ولقد سرنا منذ موت ابن رشد

خطأ كبيرى سوداً في المعجزات
أو تظن أن ما اخترعوا من مدافع سوف يخدم الملوك دائماً
أو لا تظن أن العلم في النهاية سوف يكون أقوى ممن يستخدمه
وليس الدليل فحسب ما نرى من نقصان هذه المملكة الغامضة
ليس في مرور الزمن وحده وتعاقب البشر بعد البشر
يتعاضم استعمار المجهول
هنالك حركة عكسية لا ترى في البداية
بقعة زيت على بحر الانسان
والنوع الثالث الذي كان عدداً قليلاً
يمتد مع بطة القرون ويغزو حقول الجهل الدنيا
لا أفهمك أبداً يا أبتى أهناك ليلان ليل المعرفة وليل الانسان

اصغ واحفظ جيداً أننا ما زلنا
في الزمن الذي لا تنتشر فيه المعرفة إلا كماء اناء يضيع على الأرض
وتكرر الأيام فتشربه الأرض من أجل حصادات رائحة
وما كان طبقة فكر قادرة على كل المعرفة
ما كنا ندعوه بالفلسفة يتبدى آنثذ آلية فكر غوغائية
منذ الآن ودون أن نتنبه لذلك توجد في استعمال الانسان
أنواع شتى من المعجزات الآلية فقد صفة الأعجوبة
وهناك أناس أقل من عاديين يسيطرون دون تفكير
على ما كان البارحة خارقاً للطبيعة
انك تضع في يد الجندي سلاحاً كنت البارحة
تحرق على أنك ساحر من أجله هل تفهم
انما تبدأ هكذا نهاية المعارف الحرفية
وهذا ما كان يقيم بالدقة
السلطة وقد اختلطت بالله ما كان
يبدو بالدقة مصطنعاً كي يملئ هيمنتها
هو الذي يحمل للجمهور المظلم قليلاً قليلاً
النور كوباء

قال الولد يا أبتى علمتني عن المعلم

تغمده الله برحمته
أنواع البشر الثلاثة حسب مواهبهم في التفسير
وتوازن المجتمع كأن الانسان قدمه على الأرض ورأسه في الغيوم
علمتي أن هذا العالم ثابت لا يتحرك
أوليس من الكفر أن نهز اليوم فيه قانون التمييز وأن نقلب النظام القائم
قال العجوز يا بني كيف يكون الانسان كفرا والقوانين لا وجود لها إلا فيه
والمعرفة ليست سوى مرحلة يقطعها الحاج
وليست مهمة الطريق ما دامت تؤدي إلى مكة
ان الله لا يسمح أبدا بأن نتوقف من خوف
اننا نزحف إليه كجيش غاز
وفي كل خطوة ينقص ما ظل حتى الآن ملكه وحده
انه لخائن ذلك الذي يخشى أن يدوس حقوله
لأن واجب الدين أن تنتزع من الله ما له
ولقد خلقنا نحن مثل النار تحرق القمح الناضج
ونحن أولاء من الشهر في الزمن الذي يتأخر طلوع القمر
الطلعة الطلعة صاح الولد وقد انقض بالسكين على الظل فأمسكت به يد من قبضته

٣

الوليمة

لما دعا سيد المزرعة أبا عبدالله لمشاركتهم في الوليمة الجاهزة وأضفى عليه وهو الضيف غير
المنتظر لقب كالاندار ونعته بابن ملك ، أحسن عرقاً سيئاً بيلله ، فقد ظن أمره اكتشف ، ونظر إلى
يديه اللتين ما اشتغلتا ، وقد ظهر البون بينهما واللباس الذي اتقى ، لكنه ما لبث أن اطمأن حين
ساروا به إلى البيدر ورموا الحصر للمدعوين والمؤاكلين العاديين ، فقد كان السيد يدعو الجميع
بهذه التسمية العراقية ، وهي على ما يبدو ليست سوى ذكرى ليالي الرشيد ، واستغرب ، فسأل
بلهجة مزاح واحترام بأية معجزة يمكن أن يوجد صدفة فيجتمع ، بثياب التنكر ، كل أبناء الملوك
هؤلاء . كانوا رجالا من مختلف الأعمار ، بعضهم راجع من عمله ومعاه أدواته ، وبعض وصل من
المدينة مع المغيب ، مكنتهم الداعي من الوضوء قبل الزاد ، كما لو قبل الصلاة . ووقفت وراءهم
نساء البيت ، من أمهات وبنات ، وكنت السيد ، وقد تحجبت الصغيرات منهن ، يقدمن الصحاف
ويطهين ، ويتدبرن المشاعل التي تنير المشهد . عندها شرح صاحب البيت الشيخ إلى ضيفه الفتى
وقد أحله مكان الصدارة لأنه آخر من جاء ، تلك العادة الفريدة بكلمات موزونة محسوبة ، لم يفهم
أبو عبدالله إلا بعد لأي أنها أبيات قصيدة من وزن لا عهد له به لا تتبدل قوافيها إلا في نهاية
المقاطع ، وكأنما هي تصفيق بالأيدي . يا ابن ملك ! قال . . . ووقف ، ينوس بذراعيه
الممدودتين ، وعيناه مغلقتان ، يقول بصوت يرتفع قليلاً قليلاً ، وفي الظل قيثارة ، يبدو وكأن من

يعرف عليها ، يتبعه فقط ، ويسنده لثلا يسقط بلحن قديم رتيبٌ موجه الطويل يرتفع فجأة عندما يصل إلى طرف المقطع الذي تتبدل فيه القافية : يا ابن ملك !، قال . . .

يا ابن ملك لا يقلقن بالك ان رأيت حولك أننا نعلن صراحة تمييز أرومتك
اني إذا شاركت بالأرومة عبداً اشتريت من السوق فإنما ذاك غرور بسيط مني
وكانني أرتفع به عليه أما هو فيبدو أنه لا يخدم إلا رفعة أصيلة
آنثذ يتبدل ما يهين الانسان في سره إلى نقيضه فلا يتدنى قدر كل منا وانما يرتدي
قناعاً اخترناه بقرار مؤقت

حتى أن المجتمع الذي يطيب لي أن أتصرف به على هواي لا ينتظم كدرجات
عرش نور الخلافة على التراب الحقيق وانما على العكس
ينهد من وضاعة الناس كي يتساووا في القمة في أعلى مستوى للبشر لعلهم
يصلون إلى المجد

وهكذا ينقطع الأمير عن أن يكون له مقام الأمير إذا وافق على أن يقوم بالأعمال
التي تبنى عليها الامارة أو ليس العمل هو الذي يصنع التاج وعندما أقول أن هذا
كالاندار ابن ملك أنظر يديه الرائعتين

فقد كتب على تصلب جلدهما حقه الذي لا يرى في خيرات العالم وامتيازات
ميرائه التي لا مرية فيها

وفي شهادة أصابعه نتعرف على النعومة السالفة في الجلد وتضحيته من أجل
خير المجتمع وهي التي لا يمكن أن تكون إلا من صفات الملك

انه وحده يرى في سعة وبعد نظر قدير المملكة ويفهم ضرورة المهام الصعبة
وامارات التعب التي يستمر بها دون اهتمام بالعضلات المجهدة المنهكة
وحده يدرك معنى المثل الغريب ومن دونه لا خبز ولا ملح ولا سقف فوق رأس
ولا رداء يتحدى الريح والشتاء

لا تعجب يا ابن الملوك إذا رأيت هذا العدد من أبناء الملوك في باحة المزرعة
هذه لأنما يكفيك أن ترفع عينيك إلى الفضاء الذي فوقها فلا تستطيع أن تصل إلى عد
النجوم

لا تكن مثل الأمير المؤمر علينا في الحمراء الذي يبكي كما قيل منذ طفولته
بسبب نبوءة

غافلٌ من يعتقد أن يوماً يجيء تغدو فيه غرناطة بلا ملك لأن كل أطفالها
يولدون من أجل تاج مُشع

ويستحيل أن نعدّ ملوك الغد كحصاً في البحر لا تحصى يغسلها حبّ البحر
انهم ملوك مملكة صعب أن نتخليها اليوم نحن الذين نركع أمام ملوك
المقاطعات الصغار القساء

انهم ملوك ما لا يستطيع كل الدم المراق أن يمنح لأقوى أقيال اليوم
ملوك الكنوز التي ينظر الأباطرة بالقياس إليها في شفقة لصولجاناتهم
وجيوشهم

ملوك الخيرات التي لا تقدر تشحب لها جنيات القصص التي يفرك فيها قنديل
نحاس فيطلب إليها أن تحقق رغبات سخيفة على حساب بسط المستقبل الطائفة
أنظر يا ابن الملوك إلى من يتحلق حولك من امرء
من يبررون دمهم ومرتبهم بالمعرفة
متساوون بعض بالأرض وبعض بالمعرفة

لعبة مسرح : يتقدم الراوي ويشير إلى الضيوف واحداً بعد آخر وهم يتتهون من العصيدة
أو الفول وأنهم عن كياسة لا يلحظون موضوع الحديث بين الداعي وآخر القادمين . . .

أعطِ هذا أرض هضبة ثم أنظر كيف يأخذها بأصابعه
فيحسن تقدير الرمل الذي بحاجة للسهاد والتراب الدهني الذي يمكن بذاره
كامرأة مرت

بتجربة الأمومة
يعرف كيف يعد الخطوط للحب يعرف كيف يعرضها للشمس وأفضل زمن
للبدار

طريقة الاسراع بالانبات ونوع الماء الملائمة
أنعته بابن ملك لأنما من صبر يديه يخرج كتان الصيف اللدن الأزرق كسماء
دنيا

لأنه يعرف كيف يعالجه ببراز الطيور

هذا الآخر الذي يرى إليك ويضحك وهو مجرد الأرضي شوكة التي يأكل منذ طفولته

أحبيه باحترام واجب لمن اكتنه كل أسرار الأشجار
أنظر حوالبك في ضوء القمر الذي ارتفع تلال بعدها تلال على مد النظر
وتحت حليب النور اشارات لا تحصى من خط معقد اسمه الزيتون
كل المال الذي خرج من أيدي البشر هوذا
وإذا

لم تنخ نكبات الحرب أو العاصفة أو الصقيع بمجزرة فانها سوف تعمر قروناً
وقروناً

أزمنة تجهلنا وتجهل كم تعذبنا
وهذا العامل القوي الذي رمى الحصى في الحفرة التي وضع فيها الفسائل حتى
يدخل الهواء للتربة ومثله المطر
والثمرة لها منذ الخريف لون وجنتك بعد أن مضى يوم على حلاقتها يجب ألا
نhez الشجرة أو نضربها بعضاً إنما
نقطف الزيتون في لطف تداعبها الأصابع فلا تعرف العنف قبل المكبس الذي
كزوج غيور

هل قلت الأشياء كما هي يا
محمدأ بن محمد المغربي
يا سيد الشجَار

عندها ضحك الافريقي عالياً وانحنى

أنا لا أتبع صاحب الدار في تعداد الملوك من ضيوفه ولا الذي يقيس الماء على قدّ الزرع في
أنابيب الفخار ولا الصقلي الذي يعرف فن القطن ولا الذي يسقي النخيل في أطول يوم وأقصر
ليلة من السنة

ولا بين من يميز من الفلاسفة في كل أنواع التطعيم والترقيد
ان لفي هذا ضياعاً أكثر مما في الأنواع النباتية
في اختلافات الحكمة التي لا تحصى فيما نعلم

أيجين القطف في تموز أو أيلول لأنهم يستعملون التقويم السرياني لتحديد لون الأفكار
وبذرة الاستدلال

فقال المضيف في اشارة شملت عيون واحد وعشرين وجهاً مفتوحة كنجوم كل
هؤلاء

إذا أنكرتهم يا ابن الملوك كدرتني فأنا أبوهم
أعد عقولهم للمالك مجهولة في الجغرافيا
لقد منحتهم هاته الزوجات كي يطفلوا
فيكونوا بين المستقبل وبينني درجات لما يجب أن يولد

عندها جاء دور أبي عبدالله بالكلام فقال

باركك الله وأبناءك يا صاحب الدار
لكن ألا تعرف أن غرناطة أصبحت تحت رحمة المسيحيين
وكيف تتحدث عن المستقبل كأنك على عتبته
وتضفي غرورك عبثاً على ابناك وأبنائهم
مادامت سلالتك تنتظر على ركبتيها سيف الجلاد
لا حاجة بك أبداً لعموم الميراث
ولا أن تحدد من من العبيد يصير مديراً
ان وصاياها عبث يهزها الأكتاف الملوك البرابرة
ولسوف يقضي معنا معنى ودم الشريعة
والتينة على أهبة السقوط وهي تنحني بثأرها
وهي تنادي الخطاب مجنونة من تعبها
ترجوه أن يخفف عبثها ويأكل ثمارها
وتقول هذا وأنت مشلول القدمين واليدين
الله أكبر وتبنى للغد مشاريعه

حين انتهوا من الأكل قام الذين يجب أن يستيقظوا قبل نهاية الليل فعليهم فرض الصلاة
السابقة للفضج وهي التي لا يمكن قضاؤها في الوقت الممنوع بين الانسان والله لما

ترتفع الشمس فوق الأفق إلى ما لا يقل عن ارتفاع الرمح
وحيثما تصفر الأشعة

فلا يكفي اليوم بطوله للفلاحة في الربيع

واعترضوا من الآخرين الذين لا تقويم في عملهم الفكري البعيد عن أعمال الحقل لأنه
يندرج في الحلم ولا ينقطع في راحة أو لعب أو حب الذين بقوا

وقد باتت المشاعل غير ذات نفع حينما البس القمر كل شيء رداء من حوارة
وقد انتقوا لمناقشتهم الليلية الموضوع الذي افتتحه آخر كالاندار ككتاب وجده صدفة بين
الخرائب

المستقبل ما هو

قالها رجل بقي في الظل حتى الآن يقوم على خدمته ولد صغير فسأل أبو عبدالله في صوت
خفيض عنم يكون هذا الفيلسوف وأجابه صاحب الدار انه ليس فيلسوفاً وانما مطرب نهج يسمى
ابن عامر النجدي وفي عدم معرفة هذا الضيف له دليل على أنه غريب في غرناطة

فكرة جديدة في الأندلس

٤

جدل في المستقبل

قال أحدهم لا مستقبل إلا من الله
وقال آخر لا مستقبل إلا من الانسان

كل شيء راجع للأول لأن كل شيء بأمره
كل مسيرة للسلطة الزمن نفسه
لا يحدث شيء إلا من حيث نبع النظام
الملوك ليسوا إلا قرميداً تجري فيه ماء الله
وهو الذي يكسره فإذا استطاعت يد قاتل
مباغت دينية أو ثورة شعبية
فمن الله وحده الطريق المفتوح للآتي
أما إذا نطق فم باسمه أو ضربت ذراع
فيا لها مخولان بالسلطة وبما أن قوة
الانتخاب بواسطة الشعب مجتمعا لا تعبر إلا
عن إرادة الله
وهي من الله في الامام المنتخب

المستقبل من الله المستقبل هو الله

قال الآخر أيها البدعي عن فمك تند رائحة خارجية
ليس الله الماضي ولا المستقبل انه هو فحسب
المستقبل من الانسان انه ما اغتصبه الانسان
ديمومته التي ما لها حد ضد الموت

كمال الانسان الذي لا يكتمل أبدا
وإذا سقطت زهرة السنة جاءت زهرة أخرى في الفصل المقبل
ولو أنها لا تكرر الزهرة السالفة
تتعلم منها
تتجاوزها بألوانها وقوتها وعيبرها

كيف تدعو سواك بالطائفي
يا من أذنك تنبوع عن معنى الكلمات
أيها المعتزلي الذي لا يرى في الله إلا تجريداً بعيداً
مجرداً من صفاته مقصياً عن مملكة الشر
انك حين ترى في الانسان وحده قدرة الجريمة
حين تنتزع من الله المشيئة فيها
فإنما كي تزعم أن الوحي
لك وتكر سر الكلمة غير المخلوقة

ويصني أبو عبدالله في صعوبة وقلبه
يخفق علّه يعرف إذا كان أم لم يكن الشر
من إرادة الله فيدير عينيه من واحد إلى آخر
لكن ثالثاً قفز بين المتحاورين كسكين
فمزق صراخه السدوة
وضرب بيديه فغطى على الحديث بصوت حاد
يصبح مستقبل الانسان الطير مستقبل الانسان الطير

عندها حركوا جميعاً ألسنتهم وأكمامهم
فإذا هي غابة كلمات تتصالب فيها الأغصان
ونقيق حمام فلسفي
يا لها فوضى في بيت الاسلام
وهل للجمر أن يفضل شعلة على أخرى
من منهم الذي سيرمي بنفسه أولاً للنار
وهذا يجهر أنه من السنة
باسم شريعة الأمويين
من يخالفها أمامه يراه متهاً بالتشيع
وهذا الذي يزعم إحياء الايمان بالثتم

ويرقص في جامع البيازين
المستقبل لديه في موت يستعجله يبحث عن جلاذ
يعلم أن دمه مباح لمن شاء واضطهاده مباح
المستقبل هو شغفه بأن يكون الضحية لمجد الله العظيم
في زمن يتهدد فيه بيت الاسلام الخطر من كل ناحية
وهو يريد أن يهز فتور المسلمين
لعلمهم يفضون مما يقول عن الله
فيقطعون قدميه ويديه
انه قلق قلق الشهادة وهو هنا
في بيدر القمر وبين حكمة الشيوخ
يضرب أرضاً بقدم لأن زمن العذاب تأخر
وهو ينتظره كمرس يدور حول نفسه
في كلمات تبرر فعل قاتله
ويشيره بزندقته
كمي تخرج الأبواب من المصارع
وتظفر السمكة من الحوض
وقسوة الانسان

سباب من أجل الاعدام

يجب أن تكون ملكاً حتى تصلب بين خنزير وكلب
انهم يذبحوننا بلا ثمن نحن الذين لا حق لنا بالتفاصيل
في تأنق أو من دون تأنق السيف البربري أو المسيحي
أتظن أن الألم أقل إذا مت ميتة البهيمة
ان الدم يصبغ في الحالين الفم من جرحه
لا تنتظروا مني أن أبكي الأمراء كصفصافة
ولا أيديهم ولا أقدامهم إذا اخترقت ولا قصورهم إذا ضاعت
لأن السوط يمزق كتفي مثل أكتافهم
أما إذا لم يكن موتي بيد الجلاد
إذا لم يأت أجلي على جدار وقد مزقوني اربا
إذا لم أنزع في رابعة النهار كثور
أما إذا حسمت حياتي سكين العجز
أليس الأمر عندي سيان الزبد أليس نفس يأس القلب

أوليس غضب الله هو نفسه وغضب السباب نفسه
من منحني ذاك الخالق الذي قدر الموت لخالقه
يفصلني عن دمي يزهقتني في ما أحب
أما من كلمات يقوها الانسان لله سناً بسن
لعلي أضربه بخنجري فأسمع أنينه
أو يكفيني أن أنتزعه مني وأن أرميه كنجيل
أين يدمي ضعفه أين أستطيع الوصول إلى أحشائه
إنسان ذلك الذي يركع ويخاف الله
أريد أن أظعن اله السماء بضربة لا تندمل
أريد أن أجد لجرحه الزمن والمكان
فيظل اله منه مثل وجر لا يشفى
لعله ما دام يزعم بأنه لا يبلى يتألم من وجع خالد
يعانيه الانسان خطأ منه ومن ارادته الفاسدة
عقاباً له في علي قدرته وخلوده عقاب
غيث لخصاد
ومحراث لأرض

وامتلاً الليل فجأة جرأداً كفضيحة في رابعة النهار
واستولى الخوف والغضب على مشعوذي الأفكار وضدها كأنهم قذفوا السماء بحبات
مسابحهم

أو بأحذيتهم التي حلوا سيورها
وما شأن هذا المسعور في جدل أسمى
ولقد كان ضجيجهم يخرج منه كدممة دبور
إلى الأذنين الملكيتين
أفما كان ينبغي أن يذبح للتو ويحمل
رأسه المقطوع إلى باب الفيرا حيث
رأى القمر نفسه مرات عديدة في نصال السكاكين
لكن صاحب الدار تقدم في قلب التهديد والشتيمة
فما يدري أذفاً عن الله أم عن ذاك الصوفي الذي أفقده اتزانه
أم أنه خشي الحياة أم ظمأ النزاع الذي لا ينطفئ
فصاح سريعاً قبل أن يراق الدم ان الله في الذي ينكره

الله في الذي ينكره

القائل قولاً ضد الله هو الذي يضم الهه بين ذراعيه
وما يسود فمه وروحه إلا من وجد الحب
والله لا يغضبه الكلام هيا قل قل ما تشاء
أو هل تظن أن من يضرب امرأته لا يحبها أبداً
اني لقادر على انتزاع جلدك كما ينزع غطاء عن سرير
أن أعري داخلك حيث ألمك سجين
عله يتحرك في كل نقطة من جسدك عل جنونك
كمهرة تشب إذا لمس عرفها
أرأيت عضلاتك وقد برزت في دنس جسد مسلوخ
ولون دمك المخيف كشفة تجف
وأحلامك في رائحة النهار كما في رائحة النهار معاصيك
واليد التي تغطس فيك فتصطاد قلبك
أستطيع أن أقطعك من أجل لذة فرقة عظامك
أستطيع أن أغرز أصابعي في فجوات صدرك
وأن أقطع في أناة عذابك بمقص
أن ألف صوف أعصابك على أصابعي كبكرة
لكن الله قال لي دعه كلما ازداد في انكاري وفي تحبطه
كلما ازداد اضطراب خلقتي أو جد فيها
كلما ازداد السباب بشاعة وتدنت كلمات الشتيمة
أخذت منها ماهيتي ومن غيظها طبيعتي
أتود أن أعينك في إيجاد كلمات قدرة ومخيفة
تضعها على قدم المذبح لعل الله ينتشى من القذارة
كلما أوغلت في الدناءة والوقاحة والطين
يصعد منك أعلى ذلك الذي يختارك كنيسة له
لا تستطيع شيئاً أبداً أبداً ضد الله الذي يستمتع بغضبك
هو الشعلة تنفخ عليها فإلى مكانها تعود
انه الجحيم لأنه السماء انه النور العجيب
تكسره بقبضتك فإذا تلك صورتك في المرآة
من يحمل تلك النجمة السوداء بين عينيه في الوسط

أنت الذي تنفخ كثور
أنت الذي تتألم كأرمل
أنت الذي تحس في عمق وجودك بنقص في الله
وكما يخرج الطائر من بيضة يولد من الله الذي أنكره اله جديد
أنت لا تستطيع شيئاً لست سوى انسان مهما كان نكرانك
وظلام ذنبك وجودك فمك وسورة البهيمة
عندما تشتم أنت الذي تتعذب أنت وحدك
يخنقك الله باسمه وحده في حلقك

كحسكة

وأنت يا مجنون ما دام الذين عيونهم على الغد
كفاهم هذا الصوفي فأضل خطابهم
أعد إلى سماء المستقبل تلك الثيران الخارجة عن الطريق
غنّ زجلا في المستقبل وأر الانسان أين يعدو الانسان
عندما غنى ابن عامر

زجل، في المستقبل

الحلم بما أنه من طبع الانسان
فهو يعرف كيف يموت من أجل أن يكتمل
حلّمه بأيّد أخرى
ونشيدته على شفاه أخرى
مسيرته على دروب أخرى
حبه نفسه بين ذراعين آخرين
لعل آخرين يقطفون ما بذر
وحده يعيش من أجل الغد

همه أن ينسى نفسه
الانسان من فضل سواه على نفسه
يشرب آخر خمرة
الانسان روح للعطاء
هو الذي يقهر نفسه

ويمنح دم عروقه
ولا يطلب ثمناً عن جهده
ثم يذهب عارياً كما جاء

هو من يبذل نفسه
يتجاوزها كما يقدر
لا يصبر عن الوصول للسماء
يحترق بنار أوجدها
كالليل من أجل الصباح
لا يحس بضياعه
يفرح إذا فتح باب
على هوة قدره

في هيئته في بنيته
لا يحلم الانسان إلا بالمستقبل
كلاعب شطرنج جولته
أن يفقد خيله وأبراجه
فيزول كل أمله
من أجل ملوك أخر على خانات أخرى
من أجل بيادق أخرى على قواعد أخرى
وتستمر الجولة بعد رحيله

بين كل ما ينتفس الانسان وحده
اخترع لنفسه المستقبل
لا أحد حتى الله الذي عنده الزمن
لا يقاس مع الخلود
لا يمكن أن يصير ما دام
هو البقاء الالهي
الانسان هو شجرة تسيطر
على ظلها وترى أمام
المستقبل معركة

ضد الموت وما أرباحه
ضد البؤس فهو الأرض
التي يقضمها الفكر الانساني
قدماً قدماً كموجة بحرية
تعود دائماً إلى حيث
زرع زبدها حربه
وقوة آخر حبة

المستقبل هو ما تجاوز نفسه
يداً ممدودة وهو المدى
فيما وراء الطريق المطروق
هو الانسان الغالب بنوعه
محطم تماثله نفسه
واقف على ما يتخيل
كصياد طير
يعد ما قتل من طيور

استعير منه سكري
هو كوبي وحببتي
هو كلداني^(١) المعكوسة
السر الذي أتقنى
كشفة بلا صباغ
هو العين المفتوحة في الرأس
أحشائي وغزوي
الركبة على اله الفكرة

أسقطي يا قوانيننا صنعوها للفقراء
إليكم بأثمار لأعياد أخرى
أنا فيها ناري نفسها
تلك هي أرقام وفول^(٢)

(١) Chaldée بلاد الكلدان .

(٢) يستخدم لاعبو القهار أحياناً حب الفول محل ه الفيش ، والأرقام .

اننا نبدل قواعد اللعبة
لغد مجنون ولتمت البارحة
الحساب يتقدم على الصلاة
ويربح الانسان ما يريد

ان مستقبل الرجل المرأة
انها لون روجه
هي هممته وضجيجه
دونها لا يغدو سوى شتيمة
هو من دونها بذرة بلا ثمرة
فمه ينفخ في الريح المتوحشة
حياته ملك للخسران
يده نفسها تحطمه

أقول لكم خلق الانسان من أجل
المرأة خلق من أجل الحب
العالم القديم سوف يتبدل كله
أولا الحياة وبعدئذ الموت
يجب أن نفتسم كل شيء
الخبز الأبيض والقبل الدامية
ولسوف نرى الزوجان وملكه^(١)
يثلج كأشجار برتقال

أخذ الطفل زيد عوده ودار
ابن عامر يوجهه ناحية الليل و
استأنفت الخلية دمدمتها لأن أحداً ما كان يفكر
أن يعطي درساً رعاي الفكر إلى أهل العلم الذين يقينا
يبحثون في كمال اللغة
بعض ما كان يرمي إلا إلى التوفيق بين أرسطو والقرآن
وبعض يجد في المستقبل قاموساً فيه لكل شيء اسم

(١) كلمة زوجان تتعامل مع هذه الكلمة بالمفرد .

وما كان لزجل ينشده مطرب في النهج
أن يستقطب مناقشة رجال الحكمة في الساعة التي يحتدم فيها الحوار والعنف
فعتها تغدو الكلمة كينت عند نحوي
يدأب طويلا وراء لذة الوضوح
يقول أننا نتكلم لغة النبي وعلى هذا
لا نعتى بأن نعطي الفعل صيغة المستقبل كما
يفعل الروم في ضلالهم
وفوق ذلك ما معنى هذا الزمن وهو لا وجود له إلا في الضم
وهو لا يعبر مهما طمح إلا عن الممكن والضروري أو عن تركيب للياقة أو ابداء رغبة أو
تمني

ان الكافر نفسه يخشى مستقبل الواقع لأنه انتهاك لمملكة الله
وبعد ما تلك الصيغة الفعلية سوى تصور من نوع آخر للحاضر
أكثر غموضاً ودائماً ناقصة
تعبير عن حلول الأشياء لا أكثر
ونحن بعيدون عن هذه البدعة المستقبل
لأننا نفترضه كلاماً غريباً على القرآن

٥

يا لها أتذ ضجة بين الذين كل الأشياء عندهم في اللغة
وظن الأمير المختبىء أنه في دهليز ثرثرة
فلقد ضاع بين المرايا كلص انسرب إلى بيت فيزيائي
والتفت فخاف من صورة جسمه الشوهاء
لكنها الأمر أدهى في الفكر حين لا تتعرف على ذاتك فيما تفترض من انعكاسات نفسك
والعالم

بين صياح المعتزلة والحنابلة والأشعرين والعلماء الثائرين
وكانت تشغل الأمير الليلي فكرة وحيدة من بين كل ذلك أن يعرف
هل الشر من الله ككل مخلوق
إذا كان الله يريد الشر فماذا أقدر أن أفكر عن المستقبل
وضاع أبو عبدالله في غيابه الاصطلاحات
كطائر مهاجر أخطأ الفصل
وأعوزه الزمن الذي يتعود فيه عادات المناطق التي يمر بها
وبات لا يستطيع متابعة علم الفلاسفة وما ذلك لصعوبة الكلمات فحسب
بل لتعدد ما ذكروا من مصادر

ولم يدرك الملك هذا القاموس وهو الذي قامت سعادته دائماً على الملموس من الطيبات

هو الذي ما عن له أبداً أن يحل الكلمات محل الاستمتاع بها
وإذا به يجهده أمام علم يرى المعرفة في اللغة وحدها
والتلاعب بالكلمة

لكن هذا الصرح الفكري الذي يشبه عمارة الحمراء المكتوبة
ألم يتعوده كمحراب تحت سلطته
ولقد أتاه في تلك الساعة شعور غامض راجف
بخطأ الكلمة ووجود أشياء خارجة عنه لا اسم لها

وما كان ذلك في البدء غير حالة شبيهة بغلظة على حدود الحقول التي غمرها القمر

ربما لم تكن في البدء غير صدى لأسرار نفسه العميقة
الشر الذي في الشر الذي يضطرب في

وكما تشهد عيون سحقته راحة يد

أو تلك الأصوات من غير الواقع التي تسكن أحياناً الصمت
ما من دليل أن الليل يستعير ألوانه من الحياة قبل الفجر ما من

دليل على الدعس الذي يكبر في نوم البرية اللامحدود

أو هل يأتي ذلك من الأفق هل يأتي من صخب الأفكار

ثم لا يسمع أبو عبدالله غير ما لا يسمى أبداً مثلها

لا نسمي الألم العنيد الذي يملأ صدورنا

لا يسمع غير جنون فيه فلا يدري أنه الأندلس

ضيق كل حب اطلاع ما عدا ألم لا يقهر

آه اني أنعرف عليك اني أفهمك يا ملكاً يتألم

في تلك اللحظة التي لست فيها غير انسان الخفقان

كيف من لا يحس قلبه كبهيمة شطرت

من لم يسمع أبداً عدو طريدة داخلي لا يرحم نقر من الصيد

تطاردها تطاردها كلاب مبهورة النفس ألسنتها تتدلى في لثاتها

من لم يمتلىء أبداً من الألم الصاعد كجرة

من لم يعرف أبداً خوف الشرايين

كيف يشارك مثلي في قلق هذا الملك الغامض

الغائب عما حوله الغائب عما يقال الغائب عن نفسه

وقد غدا أذنا نحسب على عتبة رعبه

آه تستطيعون أن تتكلموا أن تتكلموا يا فلاسفة

أنتم ما وجدتم بعد اسماً لما لا يبرره غير

صباح الجسد

الصيحة التي تختنق لما ينكر نفسه قبل التكوين

ما لا نفع فيه كمنارة في بلد عميان
بوسعكم أن تقيسوا دمي يا أطباء لولا أن ما اعاني
يفلت من علمكم كما من كأس دهاق
لن توجد لغة عما يملأني حتى الكتف
لهذا الطوفان في من موت ينهشني
ولا يمكن أن تطلب منه حتى الشفقة
ماذا فعلت لك حتى صرت هكذا متوحشاً يا غلاف روحي
ماذا فعلت لك حتى غدوت هكذا تمزقاً عندي
الصيحة ترتد إلى الحلق وابهامها على قلبي
شيء يفيض عن ذراعي المطرقة تضربني ضربات شديدة
لا أعرف ما أنا ولا ما يمتلكني
انه لا يتراجع أبداً لا يمكن أن يتراجع
ذاك الذي يلهث في بصمي وجودي قبل قسوة الصباح

ودعس عظيم على الطرق بل عدو
لا يتقيد بالدروب المعهودة
يجيء عنيداً من عمق المنظر ويندلق في الأدغال
ويتخذ قليلاً خطوات غزو وتترامى الأشباح في السماء
فيصطك الظل في كل مكان بشر وعربات
ويسمع سوط على الجلد في رعب القطعان
وتحترق في كل ناحية الشمس المجنونة على وجه الأرض

جاء رعاة فقالوا أن قوافل نجية من كل جهات الأفق وروى أول الفارين عندما تقف
حميرهم

أن المسيحيين يشرون منذ المساء أشجار البساتين يقصفون النخلة فتهدوي ولها رائحة
انسانية

يجففون الزيت في الزيتون والكرزة في زهرها
لم تبق رمانة في سهل غرناطة لم تبق ليمونة مرة ولا برتقالة مرة في وسط حقول بقروا
بطونها وما زالت يثر فيها البذار

الحريق في جهات الأرض الأربع يشعله جنود نصف عراة يحملون المشعل والنهب

القرى تفر من مراع عاثوا فيها وانتظار حصاد لا نفع فيه واهراء ترقلت

انها نهاية العالم اختارت هذه الليلة لقدمها لا ليلة أخرى

وذاك المجنون الذي تنبأ بالزوجين فقدم له مملكة الأرض

في الحين الذي بدأ الانسان موته بموت القمح والذرة وأشجار التفاح

على بعد أية مسافة منا حاملو الرعب
من أية جهة التهديد وكم بينهم وبيننا من زمن
وقد أخذ جزر المياه الاسلامية يلطم الرابية
أعمدة الشقاء الشاحبة قرار مفاجيء كحب من أهراء عظيم ثقب من أساسه
لا أدري ما أسوأ الدموع أم الصمت
يقفون ثم لا تلبث الهدأة أن يحيق بها الخوف
ما حيلة غرناطة فيهم وقد غصت بمن فيها ومن أين الغذاء بعد أن نهبوا السهل والجبل
وما يعلم أحد ان كان العدو هناك يتبهم في أعقابهم
وهم يجرفون في سبيلهم شعباً ترك المزارع والقرى
وتكبر الموجة في بقعة الظلمة
عربات وأكوام وعدو أطفال ونساء
وما يأخذونه هنا يدعونه في مكان أبعد أشياء بائسة جنى حياة
وحوانات ير يدون دفعها أمامهم تنفلت في صراخ أجش
الخيلول أولاً الخيول من أين جاءتها هذه القفزة فكسر أحدها الميزان
وفجأة صاح الابن بأبيه وقد نهد حين تبين شبه جواد دار به فارس في قوة ملك إلى المدينة .
صاح الابن : الطلعة يا أبي الطلعة
فيا السبوق وقد هيمنت عليه فخذان ويد أمسكت به من عرفه
يصهل مقهوراً ثم يسلس للرجل وعلى الطريق
صيحاحات جههور وعربة تعثرت وفلاح فتى
سقط أرضاً يتأوه قليلا ويدها على بطنه
وأظلاف تطير إلى قدر الملك

٦

الفجر

لما مدت الشمس لسانها القاسي ككلب أصفر
على جبين الفارين الشاحب وعرقهم ونومهم
رأوا أن كل هذا لم يكن حلماً عابراً
بيتهم يحترق حقيقة وقد قطعت الشجرة وجفّ النَّسغ

الأرض حامل بقرت والسدر نفسه في المقبرة

لم يسلم من الفراعة ولا بقي دون شق
الأهراء الذي غفا فيه شغل الماضي كطفل في مزود
أيها العلي القدير لم هذا الجرح أي ذنب اقترفنا

الحريق منك وقد أشعل الكافر ذبالتة
مهمازك حبسنا على منحدرات جنات العريف
ملاكك جلس علينا حرثنا بمخلبه
في شقائنا الذي قراص بين نضر الزنابق

الشعب واقف على الأسوار دعونا ندخل أمواتاً أو أحياء
غذينا أطفالكم بالمحراث والمعول
وأحست غرناطة بالأمهم تموت على أقدامها وهي تلحسها
لكنها خافت ان فتحت للغرقى البحر أن تغدو في قاربهم

نفس الفم جمع عند الفجر الخير والشر في وعظ واحد
انه الله الذي شاء لما لا أعلم من سبب غامض
أن يضرب حتى الموت البريثين والفقراء والضعفاء
من منّا يقدر من يقدر أن يمكسك بقبضته التي ترمي السهم

حصار غرناطة

اندفع إلى غرناطة أربعون ألف راجل وعشرة آلاف فارس ومعهم ليلك القيجا كما يسمون المرح يقودهم فرديناند ، وقد أقام معسكره في ينابيع القويطار ، على أقل من فرسخين من غرناطة ، ساعتى نزهة . ترك الملكة ايزابيلا والأميرات والأميردون خوان في قلعة الكالا لاريال ، هكذا عمدوا قلعة يحصب القديمة ، وكانت الحاشية وهي تنتظر النصر تنشد المزامير ، وتلعب النرد والشطرنج . كانت تستقبل عليه الغرباء ، ومنهم رسول مكسيمليان النمساوي ، دوق بورجونيا ، والمسودّ جان مولينه ، الذي كان يقرض أنيق الشعر . تمت الحملة ، بفضل ذهب اليهود ، ضريبة أو مصادرة ، ومحارق دامت أكثر من ستة شهور أضاعت فيها شبه الجزيرة كلها يومية لمجد العذراء والله ، نشوا فيها موتى اسرائيل ورموا بقاياها على المزابيل كي يمرروا سلب الأموال . . . ما كانت لتكتفي الحملة بتحدي الخيمة الملكية وقد زرعوها على مرأى الأسوار الغرناطية ، ولا بالدوريات التي جابت الفيجا نهباً ، والجبال القريبة ، فلا يرسل منها شيء يطيل أمد الحصار ، وكان ذلك عند فرديناند انسانية ، لا بريرية أبداً . . .

أما داخل الأسوار ، ولو أنهم رأوا ، في غير وضوح ، حركة الجيش العدو في المرح ، فقد توهموا أنها ما لا أدري من هجمة قصيرة ، أو مظاهرة عابرة قد تسبق مفاوضات صلح . وكانوا يقولون أن هؤلاء المسيحيين لا يصلحون لإلحرب الأشجار . . . ذلك كان أثر الربيع وحلاوته ، بالرغم من الاعلام المركزة في الأرض ، والصلوات التي تسمع في فجر النهار وفي فجر الليل ، لكن الذين يخسرون استمدوا من ذلك حكمة وبصيرة ، صفر تراودهم النبؤات . وشهد مجلس الملك انقساماً في الرأي . حتى لنظن أنهم في أيام أخرى حين يئس من الدفاع عن بلادنا الأعلون فيها ، أو تظاهروا بذلك فوصموا بالخزي الجندي ، والعامل ، والمعلم . . . أمن الممكن المحافظة على الاتصال بالبيارات والدفاع عن جسر الطيلات ؟ وانحى باللائمة الوزراء ، والشيوخ ، على شعب غرناطة الفوضوي ، رفضوا أن يروا فيه جيشاً . وحسب الأعلون حساب نقص المؤون ، والجبن والثورات ، فطالبوا بالبدء بمفاوضات مع الملكين الكاثوليكين تحفظ عليهم ثرواتهم ، هذا وبعد - لم لا نسلمهم اليهود ! وما دام الملك ، كما زعموا ، قد عقد من قبل اتفاقات مع العدو ولماذا لا يصغي إلى سامي الشخصيات فيبدي لهم أنه وافق عن غير رغبة ؟ بدلا عن ذلك ، وهل يحظر ببالنا أن دفاعه عن أبناء اسرائيل نفاق ، حين ذكر بأن السورة السابعة تذهب إلى أن من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يدلون ؟ وجاء الرد سيلا من آيات ضد اليهود ، فقد كان علم المشايخ والوزراء وتقاهم عظيمين ، لكن هل نسوا أن بني الأحمر الذين تسلسل منهم محمد الحادي عشر ،

هم آخر أحفاد الأنصار ، أصحاب النبي ، وأن زعيمهم سعد بن عبادة ، هو أحد السبعة الذين توسطوا بعد معركة أحد ، وقد قاتل فيها اليهود القزمان والمخيرق مع المؤمنين ولو أنه يوم سبت ، عند محمد كي يعفو عن هذا الشعب من أهل الكتاب ؟ وأعمى الله غضباً أبا القاسم وهو الحكيم ، فكشف سلوكه أنه رأس الذين عزموا على ارسال مفاوضين في نفس اليوم إلى منابع القويطار فأثار ضده عنف العسكريين . وربما كان السبب أنه وعد سراً مندوزاً باضطهاد اليهود وسر ذلك الأمير ، فاتخذها حجة لعزله عن وزارة المدينة ، فلم يدع له إلا منصباً استشارياً في المجلس ووضع على رأس الوزراء يوسف بن قوما ، فسماه حاجياً . وجعل أبو عبدالله بنفس الوقت وزيراً على الجند موسى بن أبي الغازي ، المحتسب ، وهو من لعب دوراً عظيماً في معارك الشتاء الأخير التي حرر فيها الأمير المرج كله ، فأتاح بذلك عودة الزراعة وتموين المدينة .

أعلن أنكذ موسى أنه سوف يعيد تنظيم صناعة الذخائر والأسلحة ، وأنه سوف يقاوم العدو بالشباب . وأصدر محمد الحادي عشر منذ عودته لغرناطة مرسوماً يؤمره على أبناء الذين يريدون تسليم العاصمة ، وأمر بأن تفتح الأبواب بعد أن تدعم ، بالخوازيق ، والعوارض والسلاسل ، كي يدخل المدينة حشد اللاجئين المسكين وقد نزلت أمه من جنات العريف فتوسطت لديه من أجلهم . وبينما كان مدهم ينهال على المدينة من كل جهة - وسعوا مكاناً ! وسعوا مكاناً - كان يتقدم إلى وسطها في تفسير موسيقى الخيالة ، قائد الجيش الجديد ، ومساعدوه ، على خيل القتال ، ومعهم نخبة العسكر ، الجند ، وبعد قليل تلمع من جديد في السهل سيوف الاسلام .

نشيد معارك لا جدوى منها

رأيت يداً تشهر السيف

رأيت الحصان يدوم في الحقل

ويصب في صيحة عظيمة

ويطير الرداء وتدخل المهاميز

بطنه الدامي فيقفز ارجوانياً

رأيت السماء في بيارق الحرب

تحيف النسر والحمام

رأيت الريح تفر بعيداً عن الأرض

والنار تقتعد خانات الشطرنج

وتعدو الكلاب ثم تسقط أول ما تسقط

اقتطعوا قبضات المسيحين على الأعنة

واجدعوا أذانهم وأنوفهم ووجناتهم

رأيت الدم ينبجس من نوافيره

والانسان ينحني كقمح على منجل

رأيت الجسد يتأوه على كل طعنة

رأيت سيادة المطرقة والرمح

رأيت القم ينسى القبلة

رأيت الحديد يذبح الصمت

رأيت الحياة مسحوقة محطمة

رأيت الموتى يستشهدون مائة مرة

رأيت مذابح مزدوجة من أجل لا شيء

وأعداء يتصادمون عبثا

يفرون ويمجرون أحشاءهم المتدلقة

والنصر يتردد حتى الليل

وفي المعسكرين نفس الضراوة

رأيت النهار المتوحش ينجو بنفسه

إلى التلة بعد الطعام

وعلى فراش حب داعر

يزيع القمر الظلمات كدثار

فيأخذ الأجساد في بريق ذراعيه

هل أدرك أبو القاسم أخيراً أن ارادة الله قدرت منذ البدء أن تجعل منه أداة ضياع المملكة ، وأن ما ظن أنه يقوم به عن تقى تبعاً لتلك الارادة ما كان في عين العلي (ولتكن مشيئته !) غير مجرم جريمته أن ينتصر ما قدر الله أو أنه فقد الأمل ، إلا بسلاح الاسبان ، لتثبيت سلطته ، التي مارس طوليا على غرناطة ، فعزم في برود عقل أن يكون في خدمة الخيانة ؟ واني لأميل للظن على كل حال أن تفاه زين له أن القضية ارادة الالهية : أو ما كان واضحاً أن الملكين الكاثوليكين ما كانا ليكتسحا أكثر المملكة ويحيثان فيحاصران عاصمته لولا أن العلي القدير أوحى بأمره ؟ لقد آن الأوان الذي تنجسد فيه الكلمة الالهية ، وأن تتحقق واقعا نبوءات الفقير ، وقد عاد فظهر في المدينة ، بعد أن جاب عبثا افريقيا الشمالية وطلب في مراکش ، والقبروان والقاهرة ، نجدة الملوك المسلمين ، مع أنه كان بوسعهم أن يجدوا في أبي القاسم شريكاً لهم في المملكة الأندلسية إذا أصبحت تحت سيطرتهم .

ومن غير أبي القاسم ، يقدر على اقناع الزغل العجوز في جباله أن أيامه رجعت ، حتى لقد اقترف جنونا فغادر في مائتين من خياله قصر اندرش واختلط علمه الأحمر بالبيارق المسيحية ، فما وصل الخبر غرناطة حتى عم الغضب عليه المدينة كلها وهو الذي كان عليها ملكاً ، وعظم جها لابي عبدالله ، الذي بدا الآن وكأنه آخر خلفاء النبي . وحلم الأمير عندها باسترداد المدن

الضائعة ، فأرسل قواده للبشارات يدعون للحرب المقدسة ، كي يجندوا جيشاً في الجبال ، بله شواطئ البحر .

وانقضى عام ١٤٩٠ في معارك متصلة ، يخرج العرب من غرناطة ويندفعون حتى المعسكر الكاثوليكي ، أو يعيدون الاتصال بين الجبال والجنوب من أجل التموين ، فيما يتناقص ما ادخرته المدينة ، وأخذ المرضى في الأماكن العامة يشهدون على اللعنة الالهية . ودخل الطاعون فاتهم به اليهود . في تلك الأثناء فتح المحتسب موسى معامل الحديد للسلح ، وكان ينقصه العمال ، فتذكر حداداً اضطر أن يسلمه لعدالة القاضي ، وجاء بالفجر من مغاورهم في شمال غرناطة وهم المهرة في صناعة المعدن . لكن المعدن نفسه لم يكن موجوداً . ولقد تبادل الناس ، في تلك السنة ، أن عهد الغزوات الصغيرة لى ، وامتدت راية الجهاد واستعادة ما ضاع لما سقطت بهجة ومعناها الأبهة^(١) التي يكتبها الاسبان برجا ، فيما وراء الشلير والبشارات ، على فراسخ ثلاثة من البحر ، في جنوبي مقاطعة البيرة أو الفيرا ، وهي تبدو باب المرية نفسها . ووقع هكذا في أيدي المجاهدين ، رصاص تلك المنطقة وتوتها ودود قرها وهددوا أئمد البيرة وقصدير الشلوبانية . . . لكن الغرناطين ما استطاعوا سييلا إلى طريق البحر السوري ولا دخلوا المرية ذات المدن الثلاث ، القاعدة بين الثمار ، من موز ، وقصب سكر . . . ولو فعلوا المدوا يدهم من على البحر إلى امبراطورية المناطق الساحلية ، ولما طرد الاسلام أبداً من أوروبا . . . أيتها الأحلام ، يا أحلام الليل الأخيرة ! تمكن جند أبي عبدالله من الوصول إلى ضواحي الشلوبانية ، وقد بدأ حصارها ، لكنه وجد نفسه يتهدده الاسبان الذين وصلوا من بلج ، فيليز ملقة اليوم ، وبأولئك الذين أبحروا من جزيرة قريبة . كما أن مرفأ ادرا ، وقد ثار من أجل الأمير ، سقطت ثانية تحت سلطة الكاثوليك ، فكان تهديداً لجناح المسلمين . الذي أخذ الموقع غدرأ هو أحد أبناء السيد يحيى فاجأ الموقع بأسطول قشتالي بعد أن البس بحارته ثياباً مغربية ما أشقى نائري ادرا ! لم يبق في المدينة رجل ، ولا امرأة ، ولا طفل . . . ورفع أبو عبدالله في بأسه الحصار عن شلوبانية ، ورجع إلى غرناطة ، كي يواصل منها انهاك العدو الذي ضيق الخناق ، نعم ، لقد عاد إلى البدء ، نعم ، وتوقف الأمر على ضربة قوية ، على جيش صغير ، كما في أمس المدينة ، لما غدت دار الاسلام بلدة فحسب ، ووضع الأمل كله في خندق حفروه . . .

يا بيت الله مثلما بدأت
تنتهين ذات يوم
غرناطة والمدينة ندان
مرأتان اصفرتا مع الزمن
قال الرسول قدتك
إلى أقصى قدرك
الولادة والموت نفس العيد
والمساء صباح آخر

(١) هكذا ظنّ أراجون معنى بهجة .

والانسان لا يعيش إلا من الرحيل
ومن صراع الأعداء
هوذا مكان شهادتك
هل وعدتك بشيء آخر
العظمة الأخيرة والأولى
في أن تعطي كل شيء فلا تأخذي شيئاً
من يحترق فانما من نوره
أيان ذهبت فإنما للمكان الذي منه جئت
والغد يرى الخسارة
في ما كان البارحة راحتنا
أنظري إلى يمين صورتك
أنظري إلى يسار انعكاسك

على طريق العودة مرّ الأمير ، بالملكات التي منح فرديناند إلى عمه وأخيه غير الشقيق ،
فسود فيها شريعة الجهاد ، بالنار والنهب ، وعادت قطعاته محملة بما غنم من القرى التي تركها
رماداً . أما جليو البشارت وقد رأوا في شقاوتهم انتقاماً من الله على حملة سيدهم حين ضم سيوفه
إلى فرديناند ضد غرناطة ، ثاروا في كل مكان ، مما اضطر الزغل إلى الرجوع سريعاً لأراضيه ،
لكنه لم يستطع إعادة النظام بالمائتي فارس الذين معه . وخشي أن يقتلوه فعرض ببساطة على
الملكين الكاثوليكين ، والسيد يحى أن يبيعهم إياها ، وقطع البحر بالكنز الذي جنى ، ظاناً أنه
يجد ملجأ في المغرب . لكن الملك هناك ، عده خائناً لله فأمر بعينه ففقتنا ، وقضى الزغل أيامه
شحاذاً ، يحمل في رقبته لافتة يقرأ عليها : أنا ملك اسبانيا الشقي . . .

وحانت من جهة البحر الثانية ، ساعة كلمة النبي في هذه الحياة الملقبة اندلسية ، ساعة
الصراع الأخير من أجل الاسلام أو ما اسمه ، دون تقييد بالحرف ، يعني زوالك في إرادة الله .

مثال مدرب الرقص

... لا يعدّ الرقص لذاته حراماً

أبو حامد محمد الغزالي

في ذلك الزمن الذي أدرك فيه كل امرئ أنه لم يبق له أمامه غير أرض الموت ، ولو أنه أسهل عليك أن تموت عندما لا يفصلك عن الله غير صدور الأعداء ، في ذلك الزمن الذي بلغ فيه الألم شأواً أشد من القتال وهو أن تعيش بلا معركة في انتظار ما لا اسم له ، في ذلك الزمن الذي يقوم فيه الطفل بالحراسة ، وترتجف المرأة من الرجل وهو بين ذراعيها كما لو أن الدم يسيل منه عليها ، في ذلك الزمن الأسوأ من اليأس فما فيه عند أحد بارقة أمل ، حدث أن انساناً في سهرة باريسية ، وكان ذلك من أجل سفر فرقة مسرحية إلى بلد بعيد ، يطير فيه الناس بعد أن يضربوا بكعبهم فيدوموا في الفضاء المحرم وقد أخذوه من الملائكة ، انسان ما في سهرة باريسية ، بيت في أعلى المدينة بين أبواب من عاج ، وأبنوس وفضة ، كانت تسمع ضحككات النساء فما يدري أن الرجل الذي يحبيهم دنا موته ، قال أحد وهو يعبر بمؤلف هذا الشعر أن مدرب باليه يرغب إليه في نص للرقص في الفصل القادم . وأغرقت الفكرة المؤلف الذي لم يكن آتئذ غير رائحة من غرناطة . واندلقت الاشاعة كخمر في اثناء ما أحكموا سده ، وتعرف الناس إلى نكهة اسبانيا ، نكنهم ما استطاعوا التمييز بين الملقى والكزيريس ، ولا عرفوا تاريخه ، وتحيلوا أن ما سوف يعطى في القصر الجديد الذي بني على هضبة شايبو ، هو مشاهد من الحرب التي بدأت بموت شاعر في غرناطة . وجاء مدرب الباليه كي يتفاهم معي .

المشهد في المكان الذي أعيش فيه ، الكلام من مكان آخر .

المدرّب

إن من لا يرقص أبداً أو لا يعرف شيئاً عن الرقص إلا ما كان لقاء ساعة متأخرة

لحظة بين رجل وامرأة مع الموسيقى أمام الناس جميعاً وأحدهما بين ذراعي الآخر

لا يستطيع أن يتصور لغة الأقدام والجسم كله التي لا تطلب جواباً ولا أجراً لها فتلك لذتها بل تتكلم

لغة أذكي من الكلام أو الموسيقى كل ما فيها يضيع بالثانوي وردة تمنح أو لافطة

كتب عليها شكسبير ما جاهل أحبك كي يشرح فن الرقص
هنا لا يقال شيء بل يرقص
وتفتح أمام الصالة المعتمة مملكة كاملة من التجريد
وعلى هذا لا أنتظر منك ديكوراً بل ذريعة
لا لون التاريخ أو لون الأندلس
البرنس أو الشاشية^(١)
وإنما مشكلة تعبر عنها فخذ ممدودة أو ذراع طائرة
اجتماع وتباين انفصال واتصال الخطوات
مشكلة في تدوب ولا تحمل على شكل آخر
أشارك فيها هذا الفم الأسود أمامي
من شعب قعد في نسيان نفسه فلا يتتبع إلا المشهد
كما في لعبة التنس يدير رواح الكرة ومجيئها مرة واحدة
المقاعد كعنق واحدة

المؤلف

الحقّ أنني فكرت طويلاً بالرقص
بأنه وشي بسيط للموسيقى ولهذا
كان يبدو لي الباليه صورة عن حكاية لا لغة بنفسه
أما اليوم فلا أدري إذا كان ممكناً زواج ما يسكنني وحدي كعطر
مع لغة التوازن وهذا القفز الذي يكفي بنفسه
والشاعر على عكس الراقص لا يستنبط من الفكرة حركة
أعني تفسير المعنى ببراعة الجسد
هو من يبحث عن ثوب جديد لروحه
ينشق من صورة فيه تتخبط كعصفور أمسكوا به
إلى جريان الأشياء الذي لا يضبط
كسفينة غمرتها المياه
ولهذا نرى منه في حدود اليوم الآلية وهو يقطع الطريق
بين المسامر^(٢) لغير نعش وبين ما يحلم به

(١) الطربوش في شمال إفريقيا .

(٢) المسامر التي تشير إلى مكان عبور المشاة من الطريق .

وهو يحسب حساب النور الأخضر والأحمر على ملتقى الطرق
تولد غرناطة غرناطة ليست منها تلك
وشياً أو جباراً مجرداً
أنخيل مشهداً على قد القصيدة
فكيف أحدد فيه ما لا أتوقع
وكيف يثير خطواتين تصفيق القاعة
عندها وفي غمرة فرقة لم أحدس بها عليها ريش ديكة أو قبعات من ورق
ينام عالمي أنا على أية فكرة
وما يلبث أن يحلم كشجرة كجرة أو حرب معلنة
فتي ليس من العقل كفتك

المدرّب

ماذا تعرف عن فتى الفن كالجسد
يتبدل مع العمر وهو قبل كل شيء حاجة
عميقة الحاح لا يدع لك راحة
يدفعك إلى نوع من الغناء أو
آخر وأحس الآن في ضرورة عمل واسع قادر
أبعد مما كنت ومما صنعت
عمل يرتبط في بآلاف الأعصاب وعروق دمي
يرتبط بما يعتمل في ويضنني إلى ما
شئت أم لم أشأ يستولي علي ويدفعني عن النوم
ولست الوحيد الذي انتابته ريح الجنوب هذه
أولسنا مثل خيل أيقظها القمر في قلب المراعي
يرود أحدها كل الاتجاهات وهو ينفذ عرفها الشاحب
ويرتمي الآخر على حواجز القلق
ويصهل المهر بكل خيشوميه إلى أمه
هل أستطيع أن أرقص أيضاً هذا الجنون
الذي أثبت فيه المعرفة وحق الارث
فأدع طويلاً يتجزأ ما في من مشترك
لا مع الذين كانوا بل مع

بشر هذا الزمان الآخرين الذين تمزقهم مثلي نفس الأشياء
ولا أقول أنه التعذيب لا أقول أنه الجزائر

المؤلف

يا رسام الخطا يا فتى وصل إلى نضوج ذاته أراك تحيثني في زمن غير مؤات
لأنك تكونت لديك عني فكرة مما صنعت في حياتي ومن احتقاري الذي
أبديت للقواعد واللوم
لكن عشرة كانت تنمو بطيئة في بدأت اليوم فحسب تبدو كأنها تزيح أوراق
شجري

ولي الحق بعد كل ما أعطيت من ذاتي أن يظهر عليّ اليوم وكأنني أخيبك
لي الحق دون أن أشتم في أن أسلك طريق الجبل المعوجة
ومن ذا بوسعه أن يزعم أنني أغلقت عيني على أيامنا الحاضرة
أنا الذي جعلت نفسي حاسباً^(١) على مفترق الطرق

المدرّب

ماذا قلت . . .
أنا
قلت حاسباً لأنه ما من كلمة فرنسية
ليس هو تماماً شاعر مناسبة ولا
معلقاً الحاسب ليس صحفياً
هو قريب من شجرة التفاح في مهب الريح
نظرت طويلاً إلى هذا العصر وجهاً لوجه أولم يقرأ في دموعي دموعه قل لي
لم أفرق أبداً بين العمل والحلم غنائي
أمسك بالحدث من شدقه
إذا ذكر بعد لأي كثير من سقطوا ظلماً فإنما من أجل بيت وضعته بورع.

(١) يستعمل الكلمة العربية .

تحت رؤ وسهم المقطوعة

لي الحق في أن تترددوا في لومي إذا سلكت درباً بين الصخور أو الزهور
الوحشية

وفما يبدو عودة إلى ما كان من قبل كوباً مقلوبة

لن أعطيكم أبداً نصّاً طلبتم يصل بين النظارة والرياضيين الراقصين
في هذه اللحظة ليس في غير موضوع وحيد امتزجت فيه الشمس بالظلال

في هذه اللحظة ما في غير صيحة طاغية على ما عداها
وليغضب من شاء أنها من غرناطة ومن الغزو الاسباني

أعمى من لا يرى فيها جرحه نازفاً منها أعمى وأصمّ من لا يسمع الصدى
الذي يجيب في الانسان الانسان في خرائب الزمن المهتمّ

كان الحاضر لا يحتوي مرآة المستقبل والماضي المزوجة كأن كل الحاضر لم يكن
ماضي مستقبل كأن كل ماض لم يكن رمزاً لصيرورة

هكذا أنظروا إلى هذه المرأة هنا في غرناطة سنة ٨٩٧ للهجرة في أيام قمر ذي
القعدة الأولى في قناع أو لثام بسيط والجلالة النازلة على السراويل

ليست هي غير درفة في باب التحول والمجنون الذي أتحدث عنه على حق

فهو لا يستطيع أن يراها خارج الصيرورة الملائكية التي ليست منها الحالة
الانسانية غير مرقاة مؤقتة

ان الطريق أمامه ولا شك طويلة وأمله خيف مما تخيل عن أيامنا هذه فهي لما
تصبح مملكة الملائكة

أيها الشاعر الطوبواي الذي لا يصل أبداً إلى حكمة اليوم القاسية فهي قسمتنا

نحن الذين نعرف أن قدر الانسان يتبدل على شاكلة أخرى دون أن يرتدي
طبيعة أخرى

وفي جنة يدينا هذه وغرنا لا يمكن أن يوجد غير بشر تقودهم مصالح الرجال

لا ارادات سماوية لكنني مع ذلك

ألتفت إلى غرناطة إلى هذه الكائنات من لحم ودم التي أرى

واقفة في نور النزاع على أقصى مغرب الاسلام

ولتكن هي الصورة الحقيقية للمستقبل الذي ندعوه اليوم

هنا لعبة المسرح ليست أشياء ولا أشخاص : ما يكاد مدرب الباليه يتحرك من جهة لأخرى من المقعد ، حتى اعتمل الرقص أفكاراً ، وكأننا لا علاقة بين ما تقدم وما تلى ، ونمسك بكلمة حقيقية التي فهت بها بلا حذر

هو

لكن المجنون الذي يجب أن نعرض عجوز آه
الشيخوخة دميمة على الخشبة مستحيل مستحيل
يقلد الشيخ منحياً يعتمد عصا ، يهز رأسه إلى يمين ويسار ، يحرك الفكين يعني أن الفم دون
أسنان ...

أنا مطمئناً

أسمع أسمع لكن ما الحاجة في عرض الشيخوخة يكفينا الشيخ
ويمكن تجريداً أن يكون راقصاً جاداً شاباً وعلى جمال عظيم
بل ربما كان أقوى قليلاً وأنى من رفاقه
لا يعتمد في سيره على عصا بل يمكن أن تكون كل أسنانه باقية في القرن
الخامس عشر يبدو
أن أحداً ما كان يتطلع إلى الأسنان الضائعة قبل الثلاثين
من هذا ترى أن الشباب مفهوم نسبي بعد خمس مئين من السنين أما العمر
فيكفيك أن تبديه بخصلات كبيرة بيضاء على رأسه في غير نظام فوق وجهه دون
تجاعيد

هذا وبعد
ضروري لكل فرقة باليه تمثل الرجال
أن تخلق جماهما وهذا يجنبها في كل الحالات
التعليق والتباين

هو مطمئناً

ان قدرنا هذا شيء آخر
شاب جد جميل خصلات بيضاء كبيرة

أغلق عينيه من أجل لعبات المشهد الداخلية ، خسارة ألا نستطيع أن نتابع معه وضع
الراقصين في أماكنهم ، ودوران الأجسام ، وطيران الخصل البيضاء . . . لكنه خاف ولا شك ،
فجأة ، من الجهاجم الحليقة ، من باليه كبيضة مسلوقة ، وقد أوحيت به في لطف شديد ، وما أقول ،
وقد أغريت أكثر مما ينبغي ارادته في التجديد . . . أما الصعوبات فتأتي الآن منه :

لكن قل النساء ما تكون هيئة هاته النساء
بخمار على الفم لقد نسيت ما قلت

أنا

لثام هذا اسمه لثام

هو

والبنطال المنفوخ ماذا

أنا سريعاً

سروال لا تخشَ هنا غرابة ولا عجمة المودة الغرناطية
فالنساء في العالم الاسلامي هنّ في الحمام أو دار الخراج
ولن أدعك تدخل هنا خشية أن تزاحم
نافورة بهجة سراي أو الحمام التركي
تستطيع في هذا الباليه أن تلغي النساء أو تجعلهن راقصات فحسب
يرتدين زياً يدعى عقبة خيطة كي تنفتح كما تنفتح الزهور
والبشر لم ينتظروا كريستوف كولومب من أجل الستربتيز
الهدف من رقصهن تمثيل اغماء الحب
وهن يتقلبن إلى وراء حتى تلامس الأرض جباههن
وينشق على بياضهن النسيج الأحمر ذو الرسوم الذهبية

هو

لكن ألا يجب مع كل هذا أن تمثل
على المسرح التي إليها كل غناء القصيد

أنا

أمنعك كما منعت المجنون لأن
كل صورة خيانة لألسا كل صورة للحب
والشعر ليس صورتها بل صورة مديحها
لن ترى على جمالها مهما كانت نجمتك جميلة
بل مختلفة
تتقدم في كذب الأنوار
لن نراها في ممثلة بارعة التجمل
لن نراها يرضيها التمايل المنسجم
وكأنها ليست سوى تلك المرأة وتلك الرغبة
التي لا تتجاوز النظرة
لن نرى أبداً كمال النسب فيها يحرك
دمية روحها
لن نرى أبداً الوجه الذي اخترعوه من وجهها
لن ترقص من أجلنا ما دام من أجلها رقص الأشياء
ما دامت كل ما قيل لها وما هام
قلق داخلي إلا بها كما تثرثب الزهرة للشمس
ولو أن أحداً ما رأى وجه الشمس كما هو
لن ترقصوها لن تخرعوا شيئاً لها لكنها من أجلكم
سوف تكون في القاعة سوف تكون القاعة التي تفتح لها التراجيديا
وما معنى أوديب إذا كانت القاعة فارغة لأسرها عندئذ
يختفي في عمق زمرته

لأول مرة هنا ، باستثناء ما نجل للمجنون ، نجد استعمال المستقبل في الشعر ، فقد سمعنا أنه
من السا في لعبة مسرحية غريبة ، المقبل من السا ، والضرورة ليست إلا منها .

[٤]

١٤٩١

الزمن مرآة بثلاثة وجوه
في مصاريعه الثلاثة المغلقة
يمحي المستقبل والماضي
وأرى الحاضر الذي يقتلني
« السا »

إذا لاحظنا ديمومة هذا العالم ، وجدناها محدودة
بالحاضر الذي ليس سوى نقطة تفصل لا نهائيين من
الزمان . الماضي والمستقبل لا وجود لهما أيضاً لو لم يكونا . . .
ابن حزم الأندلسي

الساعة

ألا تستطيع إذا فككت الساعة أن تتخيلها على شكل آخر فتنسق الدواليب
لغير تسجيل الزمان الذي حق عليك اندراجه
بل لاقحامه في دروب رفض
حتى الآن ريادتها هذا الحصان الخليع
أفما بوسع الانسان وقد اخترع الابرة كي يتبعه أن يجد آلة تطوعه

هكذا قال ابن عامر على الساحة العامة فاهتزت منه كتف وتكأأ الناس عليه
يا مجنون قال أحد منهم وهو من يعرف الجمهور
ذو علم باللغة طار نبؤه حتى فارس حاذق حتى ليجد لكل مسألة تثار جواباً في حديث
ولو أنه هذه المرة أهمل الاستشهاد بالكلام غير المخلوق

يا مجنون
يا من عن غير دراية تضع الزمن موضع جدل هل فكرت
أنت يا من يقارع صوته الريح والعربات
أنه شيء من ظل طائر اقتضى دراسة طويلة
عندها أنشد قيس ابن عامر

الانسان والزمان عدوان أكيدان
يطوي أحدهما الآخر لعل يأتي صباح
نصنع فيه نحن أقدارنا

في استمرار لا انقطاع فيه لعله يظل يقظان

غير مقسم فينا بنوم
أو عنا بمسار الشمس

هذا الزمان الذي ما هو إلا عيش برم
لا يروح ولا يجيء هذا الزمان الذي بلا امتداد
لا صيغة له إلا أن يكون معلقاً

هذا القلب من صخر يخفق فيه ضياعي
هذا الثقل الذي في هذه المادة بلا حراك
هذا الطائر الميت وهو مشرع الجناح

انه زمان الأفاق المغلقة الثقيل
الزمن الذي يمر مع أنه واقف
الزمن المسدود الذي ندعوه الديمومة

من قبل ومن بعد بلا باب ولا نافذة
ما عنده أبداً غير نفسه يتعرف عليها
وما هو بعد غير موت ما يولد

الذي يلتقط اللحظة من خيشومها
قولوا لي كيف أقلبه
كيف أقدر على تبديل نظامه وحركته

فأغلب الزمان في قانونه نفسه
وأعطيه اتجاهاً في نظام معكوس
تلك هي معضلتي الوحيدة

أما من نوع آخر للزمان
نجعله مكاناً على مزاجنا نضعه
في علبة مثل دبور أو نعرة

هو عند الانسان ما الحبل عند الراقص

العودة مضبغة كل خطوة أخطر من خطوة سابقة

ظننت طويلاً أنني أتبع هذا الطريق
الذي يقطعني بين البارحة والغد
حلمت طويلاً بهذا الزمن الانساني

وتفرق الجمهور كبرادة حديد وقد اجتذبه الرغبة في أغان من نوع آخر ، وسأل زيد أستاذه ، وقد كان يتبعه صامتاً ، إذا كان يجب أن يستنتج من هذه الأبيات وجود نوعين من الزمان أحدهما مسار ، دائماً وكيف تخيلته في الظهيرة ، والآخر كنه شبيه بالفكر والأشياء التي لا تتحرك .

عندئذ ابتسم الشيخ أن الطفل فهم كلامه أفضل من رجال المعرفة . قال ان الزمان - المكاني هو ما لاءم كلام الروم وأراءهم اللاهوتية ، أما الديمومة التي لا تكتمل عند جماعة الاسلام فهي أفضل ملاءمة لأنها هي نفسها اسلام ، أي اخلاص مطلق لا رجعة عنه في المستقبل ، ولا عودة فيه للماضي ، والمسألة تنحصر كلها في معرفة من يكتمل فيه الناقص ، في الله ، أم في امرأة حقيقية ، ما هو أعلى التفاني ، في الله ، أم في كمال خلقه .

وخاف زيد أن رأى أستاذه يوازن بين زمان الاسلام وزمان الجاهلية وأضاف النجدي أن المستقبل يمكن أن يكون اتفاقاً بين اثنين مما أبدع الانسان ، وحدة الزمان - الكنه والزمان المكاني ، في امرأة الزمان المقبل .

ومنها أنت فكرة لزيد أن شأن الساعة كشأن المرأة ، لا ترى الزمان بل تسجله . وعليه سأل معلمه ، أليست الساعة ما كان أمامها ذات يوم وقد دعيا إلى ختان . وأجاب النجدي ضحراً أنه يجب التمييز بين الاستعارات أو اختلط كل شيء .

الشتاء

١

ما كان في البدء محدياً ما كان نزالاً
وهراء رسل حرب من السهل إلى الأسوار
وعرضاً لطراد خيل
وثمة من يقارن بين جمال الثياب والسيوف
ويرى من الأعالي إلى غبار المحاربين
هناك وكأنهم جواهر في ذراع خنجر
وتدور الأيام

وغما التعب عند الفرسان في عودة الصباح من غزوة ليل
وعجفت الخيل هزلاً وساد
الجوع

اعتم الشلير بغمام تلج وردية
شتاء بارد قاتم ما فيه غير بزاة الطير
والمدينة شاحبة تدعس حد مخازن الحبوب
وتهدر صلاة صباء
وقبع أناس تحت السماء عليهم أغطية مبللة
والنار نادرة في معسكرات الشتاء
الوجنة خاوية والأذن ثقبها الجليد
وأهملت الأفران الكبرى فصفرت فيها الريح

أفواها مرة على مفارق الطرق
لا فحم حتى ولا ربعا^(١) منه

(١) وزن اندلسي بين ١٢ - ١٥ كيلوجراماً .

والفحام وقد ذهب صباغ وجهه ومذراته بين ركبتيه
يشتم المتقبل^(١)

آه ان كنت تفضل الفحم الشاحب
احرق جابياً لكن لا

المتقبل يجس في حنان راحة يد
نفاية الفحم

لأنه لا يستطيع اليوم أن يفرض ضريبة على التاجر
والآن لا بد من طرد باعة الحطب من البازار لما الجوع

الجوع يحكم هذا الشعب بصولجان من جليد
بين الكوانين السوداء

وهو يغمز بعينه للطاعون الآتي
فما يكف الناس عن قبر الألى انتفخت بطونهم
والأحياء السفلى تفوح فيها رائحة جيفة بشرية وبول تجلد
ارجموا الأطباء في النهج

الجوع حاكم في فم الأطفال على أكتاف امهاتهم
والجار يكره جاره من أجل رائحة جيفة على سفود
يقتلون من أجل حذاء عتيق وهناك
شيع جديدة تظهر عند التخوم
تتكلم لغة الثورات

وغرناطة قاعدة في زخارف أعراسها
نخبىء قدر المستطاع نهدبها الهزيلين

الجوع يحكم المارستان الخالي
الملجأ الذي يجيئه الفقراء إذا اقتربت نهايتهم
ومشوهو الحرب عند النزاع
يحكم عند المعتوه الذي انقطعوا عن اطامه
فهو يجمر وراء القضبان
يحكم الذين ينشون عن قشة يمشون
في مجار امتلات قاذورات

الخزاف انقطع عن إدارة المحور

(١) جابي الضرائب .

والخذاء عن غمس خيط القنب في الشمع
وماذا يفعلون ما يفعلون طوال النهار
العجر لا يحددون سنابك الخيل
والحدادون ما عندهم فولاذ ولا حديد خام
وغدا فقدان سلاح ما شقاء
يفوق الخبز الذي يطلب في معسكر الأعداء
حيلة أو عراقاً بيد

هل تذكر طعم الكزبرة
وهل تجد أصبعك على شفتك عبر الكباد
على م تهيل الآن القرقة
على م تهيل الكمون
الاسفنج والهريسة من يعرف ما هما
لقد أكلت آخر طيور الشرفات والسطوح
قتلت الكلاب التي كانت ترعبك
فما لك مؤونة إلا الحقد
ما عندك بهار إلا النغيظ

عبثاً تبحث في السماء الباردة الفارغة
عن أسراب قاسية من طير أبابيل
التي من قبل بحجارة من سجّيل
كمطر شمسي بحر وف لسانية دال وضاد
جعل الله العدو كمصف مأكول

عبثاً تبحث في الكلام المنزل
عن معجزة مؤمن بلا زيغ
عبثاً تنقب في القرآن والحديث
لن تجد فيهما حجراً تسند إليه رأسك
لن تجد حجراً تتجدع به مدة أطول جوعك
ولا حجر النهاية تحفيك عن الغربان

٢

لماذا هذا القلب كعاصفة
لم هذه الدموع في حلقك

لا فائدة في الكلمات
دع المجذاف يجري عبثاً
سوف يأتي يوم يثقل فيه الزمن
فاخش فمك والكلمة

التي تنتزع من الألم
أخش تصريحاً لا رجعة عنه

احذر افتراق شفيتك
عما لا يمكن استرداده

المخيف ألا تساهم أبداً
هذا اسمه الشيخوخة

هي خفر راعب
يميل عنه الأفاك

الذي لا حق له في أن يتحدث عنه البشر
هذا الحداد الأبيض يرتديه المرء عن نفسه

احساسك أنك مزعج
أو أنك لا تتسق مع شيء

أه أعرف أن سيقال لي
هذا ليس مهماً

أن تلك قسمة الناس جميعاً
وفي هذا الرزء في هذا الرزء

تعليق زيد : هكذا تكلم أستاذي والناس لا يعيرون أذنأ لغير البرد قائلين ما دام شيخاً فليمت وما كانوا ليدرکوا
أن المدينة المحاصرة تشبه الانسان في أيامه الأخيرة وأذكر كلمة عن النجدي عندما كان المرء يستطيع الايمان بالغد قالها
كسر للطفل الذي كنت : سوف يأتي اليوم الذي تعترف هذه المدينة فيه بعمرها . وفي مرة أخرى قال : قدر كل كائن
هو يؤس غرناطة .
وقد قال أيضاً :

٣

الدم لا يتقطع عن التزيف على مدار العام

نفس الألم يصدر عن الروح والجسد
سماؤنا بلا حس يبدو غفرانها عبثاً
في بعض شمس في بعض لون
يا غرناطة الزمان يا قلباً من المتوسط
كسفينة ضائعة في رمال الساعة
بعضها يرحل رملة اثر رملة وحياتنا
أقول حياتنا أنت الأخرى في مرقب السفينة
ما يفعل المراقب من أجلنا معاً

قريباً تنتهي هذه الرحلة العجيبة
شهر يمضي شهر يمضي ويستشهد البشر
بطيء هو الموت حتى ولو آن أوانه
ولا رحمة إلا في السماء
مقدّر علينا نفس المصير
نفس الجلالاد سوف يقطعنا

لكن هذه القصيدة التي أكتب للريح تبذرنا
كقبلات تراوغ الموت أصبح بها أقل قوة
للقرن الأسود أحبك كثيراً

الزمن الحاضر كلفني زماناً به حلمت
الحب فيه طبيعي المكانة بلا تبكيك
يارفريقي أتبعك إلى نفس المزاد الداسر
ان قلت السافها أحيا إلا بها
ويأتي يوم اليوم الذي يثبت فيه لعيونكم
أني ما تنكرت أبداً لمواقفكم

أفتح نافذتي إلى عالم يولد فيه يسير
الرجل والمرأة روحاً بروح يعرفان معاً
مقبل الوجود وعيشاً مجنحاً

ان ما أصغني إليه هو سعادة الآخرين

وانه لكثير أن أدفع الثمن
يا أخي في الألم ماذا تخاف
أعف المستقبل من أجر الصفع
أكلمك وقد سقطت على حافة الطريق
وقوس القزح من دموع أنا حكمتها

لقد غنيت على الأقل في زنانة الشتاء
واني لأشفق على الذين يعيشون الصيف
لعل الريح تحمل لهم أبياتي

كل ما في العالم يجري وكأن
لا شيء فيه ما هو الكل هو ما يولد منه
دائماً العين تظلم لأنها رأت
ومن صنع النار ليس الحرباء
والانسان يمضي بالألم هكذا دائماً
كل شعلة توقد تتطلب ثمناً من رماد

من يأتلف مع الألم يجب أن يؤمن بالزمن الجميل
أو من به ولو أنني أعرف أن الوجد إذا شفي يتبدل
يتكرر بشكل عجيب

الذين سمعوه لم يفهموه أبداً وقالوا أنه غامض وآخرون عم يتكلم ان لم يكن قوله عن الهواء . ذلك لم يمنع
أنهم وجدوا كلامه أسود وأخذوا عليه تشاؤم أغانيه : لم يضع شيء ، من الممكن ربه كل شيء لو أظهرنا ذلك . كان
فقهاء غرناطة يتجنبون من في النزاع إذا مروا في الطريق ويتحدثون فيما بينهم عن الفرح وكأنه الفضيلة السامية .

الربيع

١

حكاية المرأة - الزمان

المرأة قال النجدي ذلك اليوم الذي حاول فيه البساتنة أن يربحوا الربيع بالاسراع بازهار
البصل قبل أوانه بحماية البلور المرأة يا زيد هي آلة ثابتة يطحن فيها حب قمح غير موعود

قال النجدي المرأة ولتكن فلسفة عندها ينبغي على الجنود أن يحطموها في فناء
المساجد

قال أيضاً لو كانت المرأة رجلا آه هنا ببساطة صورة الرعب
انه بين كل الطيور ولا شك أكثرها قتلا

في العالم المرأة ما إلى اليمين هو إلى اليسار وتبتعد أنت عن المرأة كقبلة
انصرت

في العالم المرأة كل شيء زوج وليس فيه إلا وحيد
في العالم المرأة لا حب إلا لواحد وكل تبادل هو مظهر خادع
كل شيء يدخل في العالم المرأة ما عدا المرأة

إذا كنت مرآة امرأة لا تراك
إذا كنت مرآة نفسك فلا باب إلا منك على العالم
إذا كنت مرآة فعمّ تتحدثان

أما إذا كانت المرأة من الزمان بدل المكان
فماذا يجري في محراقها

قال النجدي أيضاً في ذلك اليوم للطفل زيد
تخيل فحسب مرآة يعكس فيها الزمان الزمان
تخيل الصورة التي تحمل لك فيها
تلك المرأة التي لا ترى فيها نفسك بل هي
تخيل مرآة - الزمان التي تسكنها الصورة - الحب

أظنك تستطيع هكذا أن تدرك تمزق من يرى المستقبل

٢

تعليق زيد بين نشيدين

أحياناً كان يتكلم النجدي أمامي كلمات لم أكن أجزم في تفكيري أنها لي
وحدي ولو أنها لم تتخذ شكل الشعر أو موسيقى الغناء حتى ولو

في وقفة ما من الصوت بما لا يشبه اللحن الموجه للآخرين أو بوحاً للطفل
الذريعة الذي كنت
يُلي دون أن يملي بالبده

أول السطر حينها كان يقوم بإشارة واسعة من كمّه للسما كان يحدث

أحياناً أن أحس بضرورة قطع الكلمات من فمه بالماء من مثل قال النجدي أو
تفصيل عن اليوم في الظاهر

غريباً غريباً كان على ما يتفوه به من أشياء

هكذا في اليوم الذي حدثني عن المرأة - الزمان لأول مرة أذكر أنه كان واقفاً
أمام جنات العريف وربما كان ذلك سنة ٨٩٦ في أوائل قمر جمادى الأولى

كان بهرج التلة في ليلة لطفت كزهرة عكس زمن الحصار حتى لينبجس من
العينين الندى - القلق وأناي استطعت أن أقول في أوج صمت أستاذي

يا مولانا

أما بم أجاب فقد ضيعت السياق فما أذكر إلا أنه تحدث مرآة

بأية ألفاظ لا أقدر أن أجد لها أثراً مع أنه يبدو لي أنه قال عن أهل جنات
العريف عن الملكة حفظ الله عليها شبابها وعن ألف من البساتنة كمعزى لكن لا
ترعى

أن هؤلاء الناس لا يرون الحاضر أكثر مما أرى المقبل لأنهم
بلا مرآة تُري بعضهم ذاك وصاحب النبوءة هذا
من هنا جاءت الحكاية التي قالها وحفظتها

٣

الخيال الدمى

تنتقل الشمس مائلة
في الباحة الأقواسها أشجار
أسير على مرمر هو عشبي
لا أعلم لماذا ولا كيف

يطاردون في الدوائر المميزة
كما معركة فيلة
ما هم غير أطفال صفار
يتصنون الضرب والغضب

يقفون في خيلهم الدمى
كما كان الدأرو في خضرة - النيل
بدوّون حول ركائز أخذها الشتاء والجسور

يقلدون الرجل والرعد
هذه الحرب القائمة هنا
لا تلهب غير الوجنة
في المذبحة الخيالية

لهم لون الصباح
ولدوا للجهاد والفخار
يكفهم أن يعزموا عليها
حتى يقتسموا الغنيمة

في المعارك الحياة مرجة
جميل الأطفال حتماً إلى الجنة

أتاحها الله لأشجع الجنود في الساحة الأندلسية

بريثون حتى السخف
على جهشة النوافير الأخيرة
يا أمراء أرض قلب
آه قلدوا الموت والدم

كم من الزمن في هذه المساكن
التي تحسونها تضيق بكم
بقي لكم يا أطفال الملوك
قبل أن تموت غرناطة

في ساحات أخرى لم يكن الأطفال هم الذين يلهون بلعبة الخراج (الحصان بالفارسية) وقد علقوا في نطقهم
أحصنة من خشب لها خراير يط ، ثم يتنازلون في معارك خلبية يظهر فيها قوتهم كالرجال ، بل كان مقاتلون صاروا
بلا عمل ينظرون إلى الرافعات اللاتي زين أنوابهن بخيالة شطرنج ائارة للرجال ، ذكرى لغزواتهم ، بينما لم يبق في
السهل حول غرناطة مكان لعرض الفرسان ، ولا على التلال لصيد الحجل . لم يبق إلا ذكريات في البيازين ،
لصاحب البيزة ، وهو يلعب مع بيازته بما يسمونه هنا النرد وحوهم البيزة وعقالها في أرجلها تقفز من مجاثمها وتضرب
البلاط بأجنتها ، وهي لا تفهم شيئاً عن كسل الرجال ، تشكو الظلم ، أن ليس لها من فريسة . غير ما يرميه لها
الخدم من خدعة . كل هذا في الوقت الذي تحضن فيه أناتها في جزائر النهر ، والسجن يصيح في الأسل فأراً من
افريقيا .

٤

كان يحكم المدينة ذئبة قلقة
لا ترى هائمة لكنها تسمع وهي تنن
والمجنون وحده يتبعها كي يقول لها من
أنت يا أنثى الجوع من لم يكفها أبناء البؤس
هو لاء الأمراء ما خلقوا لأسنانك ولا ابن الشيخ أو ابن الأمير
هل هي عاصفة هل هي وباء
لا شيء فيها يمكن من إيقافها لا الوشاح
الذي يختفي فيه وجهها ولا نواحيها الشبح
كبد علقت بين أوتار قيثاره

أمسى كل شيء مظلماً في غرناطة

جناح أسود يجر نفسه على أكعب التلال
فلا يرى المستقبل يلتهب والحاضر
يخبىء كل أشعة الروح وتنطفئ المرايا
الكل ليل حتى الصباح نفسه

يا جناسات تعني الأضداد
لا يقال شيء إلا وينكر للتو
عندما يرين الشقاء على المدينة بأية معرفة تقوم بالصيد
الموت يلقي نوره فيضيء
الأشياء خارج اللغة

المجنون يضيع ما يقول قلبه تخنقه الريح أين
تذهب الذئبة آه
أرى أسنانها الطيشورية السفلية تتهاوى
شاحبة وشفتها القذرة رمادا
كأنني أسمعها وأدرك سرها

أحدق إليك وجهاً لوجه يا نهاية شعبي
فلا أراك - كفتى جميل يمضي للقاء
أسوأ من موتي أسوأ من موت الحبيب
وليس شيئاً ما يسبقها من مخاوف
إذا قورن بما يأتي بعد

بعثريني فلا أحضر رعب أهلي وقد ذهبوا اربا
بعثرى وجهي وعظامي بعثرى نفسي وأحشائي
فلا أسمع صياحهم ولا أعاني تمزقهم
التهميني يا وحشا نجسا أقتليني آه أقتليني
أنا

قال زيد لمن تتكلم يا أستاذي ولا أرى أحداً بحثت عنك في كل مكان كنت . . . وغضب المجنون آه أنت تلك
هي نفر أولاً ألم أمنعك يا ابن اللعنة عن أن تدعوني بهذا الاسم الأبله أولاً ترى أنها نتيجة لخطك عودت ما هي فيه
حين قاطعتها

أجاب زيد من لا أرى شيئاً لا أحد أجاب زيد أولاً يا أستاذ أردت أم لم ترد هذا الأسم يأخذ معناه عن ندعوه به والمسألة ليست هنا كنت وحيداً فما من أحد أقاطعهُ أولاً تلاحظ أنني خرجت عن الطفولة

قال ابن عامر منذ متى يا خبيث فضحك زيد منذ أصبحت رجلاً قال ابن عامر منذ متى تنبّهت لذلك أيها الحشرة أجاب زيد منذ يوم منذ أن أحببت وأنه ليوم طويل

ونظر وهو يتوكأ على عصا زيتون تقوّم خطاه إلى طفل البارحة وهو يتكلم اليوم في الحب كيف يقدر على ذلك والمستقبل لا يرى واستر الوجود البعيد كيف يمكن له أن يتكلم اليوم في الحب هذا وبعد أما ينبغي أن يكونا اثنين في الحب ما عمرك أيها العاق في الساعة التي تموت فيها غرناطة أي عمر لك حتى تسمع فيك هذه الموسيقى ولمن اللحن

قال زيد غداً يكون لي أربعة عشر عاماً وسمحا التي يعني اسمها بالعبرية الفرح هي ابنة ربي ناحوم بن صموئيل الذي أخذت عنه القراءة والكتابة والغناء وما كفاني هذا فأخذت عنه الفرح وأعرف منذ يوم أن كل شيء تغير لاني عشقت يا أستاذي أستاذي كل شيء غداً ذا لون

عندها مزقت الكلمات فجأة عند قيس زاوية من ظلمة الأشياء فاستعاد صدى فيه عميقاً يعطي صفاء المياه معناه عندها قيس كما تنفجر السماء فجأة عن نور في قلب العاصفة مما وراء الغرق عندها قيس أحس فجأة بعينيه تفتحان وراى قليلاً راى قليلاً من المستقبل

قال هكذا أيها الطفل يعدون من أجلك الأتي يا الله كيف أغفر لك ما وعدت به هذا الطفل ماذا صنع حتى تفعل به ذاك الذي ينتظر ذاك الذي يدوم فوق رأسه

وفهم زيد بعينه الفيتين عيني الرجل فهم أن النجدي المجنون إذا بكى فلأما يبكي مما يعرف

ولما أصبح وحيداً من دون الطفل الذي صار رجلاً غنى المجنون ما يبلي في حرية في حرية الوحيد بين البشر كي يمنح ما يسكنه مكاناً على قدّ الروح

٥

في بيت صمتي تحين صلاتي دون ساعة
إذا انغلق الباب وحق لروحي أن تتعري
كيف اتجه إلى قبلي إلى أي محراب مجهول
الليل كله تفوح من فمي رائحتك يا امرأة

في بيت صمتي لا صورة إلا لك
كل شمس ترى إليك من النافذة تغدو فقيرة وشاحبة
أذكرني أن أي ذكر لم يعيش من أبناء محمد
حان ملكوتك ها هو مثل ملاك جالس على السطح

منحتك مني قلباً حياً قسّمته أصابعك كخبز

واللب في قلب قلبي هو شقاء البشر العظيم
لكم يلح علينا بالألم كم يلح على أكثر من أي انسان آخر والضمان الوحيد جرح
الحب وحده وحده جرح الحب

سيرى في قلبي لعلهم يقرؤون مع قدمك الدرب الوحيدة
ضعي بقدمك في جسدي خاتم الأشياء العجيبة
كلما أثرت في دمي أحس أنك أحب
فاجعليني من شمع وبخور لأنفك ويدك

أحبك حباً لا اسم له كي لا يكون له قياس
ياخذ عليه العالم حين يتحول مثاله ودرسه
موسيقاه هي المستقبل تبدل الكلمات أغنياتها
أحبك حباً بلا حدود كاللازورد لا حد له

أحبك حباً ليس له على الله روح ولا عين
من هذه الجريمة المشرقة سوف يولد النور الأبدي
أعمى قبل أن تفتح انسانية بؤبؤه
من هذا الدوار منك سوف يتعلم الانسان كيف يكون الها
وان قلت لي أن هذا الحب ليس حباً في الله أروي لك ما قال الشاعر القرطبي
عن امرأة أحببت لا كما نحب في الله القادر على كل شيء :

أعرف أن هذا الحب أنقى من الماء وأشرف من الهواء أمنع من الجبال أقوى من الحديد الصق
اتصالاً من اللون بالأشياء الملونة أشد وثوقاً من الحدثنان في الأجسام أبهر ضياء من الشمس أكثر
حقيقة مما ترى العين أبهى من لمعان النجوم أصدق من القطا أدهش من الحظ أجمل من الفضيلة أنعم
من وجه أبي عامر أمتع من الصحة أحلى من الأمانى أدنى من الروح أقرب من وشائج البنوة أبقى
من نقش على حجر

وما أهمية ما يتلوه فلا يحومزاد هذا الحب هذا ماذا لو أن هذا الحب وضع له هدفاً
غير الله إذا أرسى في النهاية أبعاد أعلى صورة لحب الله حتى عندما أمنحه حسنة حبه
فيك

في بيت صمتي غيابك يهز عوارض السقف

في باب البنود حيث ارتفع علم بني الأحمر الأحمر كلما نودي بالأب ، أو العم أو ابن الأخ أميراً على المسلمين ، تعاطم الحشد الذي يتبع النجدي ، وهو من به كما زعموا مساً من الجن ، لكن ما باله اليوم وهو أول قمر رجب لا ينشد إلا الحب ويروى أنه لن يدع تلك المرأة التي صعب اسمها تخرج من عنده فلها وحدها الآن يحفظ بأغاني الغزل . وكان يمشي أمامه زيد الطفل ، الذي عاد عن تبكيت ، إلا إذا كانت لم تشأ سمحا أن تراه اليوم ، وكان زيد يباعد بيده وصوته الذين يقفون كقطع في سبيل أستاذه . ومنهم من يتمم أنه ارتكب فسقاً حين سمى هذا الولد يزيد تشبهاً بالنبي وقد كان أول من تتلمذ عليه المعتق زيد بن حارثة . ومنهم من لمح إلى أن النجدي تقليداً لما جاء في السورة الخامسة عشرة عن محمد إذ قالوا له انك لمجنون اتخذ لنفسه هذه المسبة . . . وكان العجوز كاسد جريح ، كحامة فقدت نظرها واستعادته لما حطت على سقف الكعبة ، وهو الذي ما كانت له عينان إلا لحبه ، ومن جعل نفسه أنين غرناطة .

منهم من قال أنها في الحق حيلة ، فقد سرت شائعة أن السلا وجود لها ، أو كيف يلفظ هذا اللفظ الغريب ؟ رأوه يكتبه بسين ، ولو أنه يلفظ في فم العجوز فيغدو زيناً . . . وذهبوا إلى أن الاملاء الهادف يخفي سراً وثنياً ، لأن المجنون أراد أن يستر وراء حجاب فارسي ليلاه التي يفترض أنها من آفة الجاهلية ، وهي التي ، يبدو ، أن محمداً ضحى لها في فتوته خروفاً أبيض ، ولو أن العجوز كتب كما يلفظ لتعرفوا إلى العزى التي كانت لها ثلاث أشجار دردار عند غطفان والتي حطمت صورها في مكة عندما خضعت قریش . . . منهم من قال . . .

حتى لو كانت الجن هي التي تنشد في هذا الرجل عند باب البنود ، فالناس يصغون له كثيراً ، وهو لا يكتفي بالتراتيل إلى زوجته ، بل ينهد لاثارة الشعب ، لعله تلتفت عيونه السوداء إلى أبراج القصر الأرجواني !

زجل باب البنود

ما الساء سوى قبة
موقعها فوق جباهنا
تسقط قتيلة منها الطيور
وتنزل الصاعقة فتسحق
على الدروب الشجرة والطفل

الأرض سيل
من دم ودموع وعرق
بلا هوادة أو وقفة أو نور
نصر قتلة
أحدهم ضد الآخر في كل لحظة

أن نكره في أواخر العمر
على أن ندلي بالشهادة
لمن لا يدري سوى الشيطان أين لا يعرف غير الله
لأننا عشنا بين الذناب
لأننا وضعنا في وجر

لماذا هكذا مصير
كل جسد إلى جحيم ما
كل أمل إلى التلاشي
تألمنا طويلا من أجل لا شيء
والزمان يقرصنا وينشرنا

أعترض أنني أعترض
من أجل الحب الشهيد
من أجل أفواه بلا قبل
من أجل أجساد باتت دميماً
ضد المقصلة ضد الطاعون

من أجل حياة عشناها
وما يدعى موت طبيعي
احتملنا وزر النزاعات
التي تلفح بالتعذيب
وجهنا الساذج

من أجل العظام التي انكسرت
وصياح المرأة في المخاض
وجفاف الحقول
وذبح الأغنية
من أجل الجوع من أجل الشقاء

من أجل ما صنعوا بنا
لقد خلنا كل شيء ماء قراحا
نحن الذين ما بحثنا عن مغامرة
إلا في طيبة المستقبل
وأركعوننا على ركبتنا

نحن باسم ما هو أفضل
على أهبة أن نفعل كل شيء
على أهبة أية توضحية
نحن الفقراء الثير في رقابنا
يسخرون منا يجر ونا حيث شاءوا

أعطينا أفضل ما فينا أعطونا الأسوأ
ضاع جهدنا
سرنا على درب غير انسانية
وبذرنا الحب مقلوباً
تحت سماء الوهم

خدعوننا وعلينا احتالوا
منحونا الشر عوضاً عن الخير
أما من لا يعلم شيئاً
ويأخذ الشر في محمل الخير
أفليس يموت من أجل الخير

لو أن هذا العالم ما كان
غير ما هو أو ما يبدو كأنه هو
وأن شكل الحرف لا يعدو معناه
أكان بوسعي أن أرضى
أما وجب علي الرفض

هذه الروح التي في أناي تقضم نفسها
هل حق عليها القبول
بأن تكون محدودة
بالأ تكون في النهاية
غير حلم بين ليلتين

هل الانسان هو التحدي الحاسم
وتلك الرعشة في الآلة
التي ما تني تتصور
غرابة أن يكتفي
هذا القلب بصدرة

مع أنه يتسع في ذاته لأكثر منه
لو أننا نفتحه ونبحث فيه
كم كان خاسراً في اللعبة
كم يعين الأمس في الما بعد
أولئك الآتين وهم أعقل

أقل بؤساً والأهم أنهم
أقدر مما كنا نحن
أولئك الذين غدا يوقدون
رمادي فما زال فيه دخان
وناري يعيدون إليها اللهب

وإلا فنحن الانتقام
ولسوف يجيء الحريق
سوف يجيء أقول لكم
الاثنين الثلاثاء الأربعاء
الخميس السبت الأحد

المحاكمة

قالوا : « هوذا ابن عامر النجدي ، الذي يدعى بالمجنون . . . » جلبه شرطيان إلى أمام الحاكم ، وهو القاضي الأدنى - كان الله في عونہ ! - فنظر إليهما وقد بدا الملل عليه لأنه كان رجلاً طيباً يعرف أنها سكيران زنديقان . لقد ربطا يدي العجوز ، وكان ثوبه ملطخاً بالدم ، وعلى وجهه ندوب تشهد على ضربه بالسوط . قال الحاكم مغضباً : « من ألقى إليكما بالأمر بجلد هذا ؟ » . ثم تنهد وكان بوسعه أن يأمر بضربهما ووضعهما معاً في السجن ، لكن من يحل محلها يفعل نفس ما فعلاً . . . كان لا بد من شرطة على مستوى المدينة ، لكن أي مواطن يحترم نفسه يرضى بهذه الحرفة ؟ كان أمراً مقضياً قبول هؤلاء الشذاذ بلا وازع . : « قلت لكما مائة مرة أنه ممنوع الجلد إلا بأمر الوزير ، أو صاحب المدينة ، أو القاضي ، أو المحتسب ، وفوق هذا هو رجل شيخ بات لا يستطيع الوقوف لطول ما عذبته ، يا كلبان . . . ثم لماذا تنهانه ؟ » كانا يتدافعان بالكوعين ، وتميل عيناها بالنظر إلى امرأة يحيط بها اثنان من زملائهما وهي تنتظر دورها بالثول . بنت هوى ، كانت تبدو رائعة تغمز بعينها لكل الناس . . .

قال الحاكم ، محتمداً : « اني أكلمكما ، ماذا تنتظران للجواب . . . » عندها قالوا وقد اتخذوا هيئة كاذبة الوقار ، انه بلغهم من مبلغين محترمين ما أثار انتباههما لسلوك هذا الشخص اليومي . قال الحاكم : « أين هم ؟ وهل أخذ العدول شهادتهم » بهذا الاسم كان يدعى الشهود المأذون

لهم ، الذين لا تجوز لسواهم الشهادة أمام المحكمة ، لأن الشاهد الذي يتقدم كيفما اتفق يمكن أن يكون بلا ذمة ، فهو يبني قوله على العين أو الأذن أو اللمس ، وهي من أسباب الخطأ ، بينما لا يقدم العدول ، وهم من أهل العقل والدين ، إلا بعد أن يرجعوا للكتب ، وهم يسكنون عند باب الشريعة ، حيث يقضي القاضي ، في براكات بنيت لهم كي يكونوا تحت الطلب . ومن هنا منشأ الشائعة ، التي ذهبت ، بعد قرون من اسلام الأندلس أن باب الحمراء هذا الذي سباه العلماء باب الشريعة ألتبس فيه معنى العدل بالأخذ والمعطاء في التجارة فكأنما اسمه حقل البازار ، وما كان هذا الالتباس ممكناً لولا تقدير خفي من الله تعالى في ما شاء !

غير أن الشرطين لم يفكرا هذه المرة بجلب المبلغين لأن الجريمة موصوفة لم يستطيعا لعظمتها أن يسكنا نفسيهما عن الضرب . قال القاضي : « أرياني سوطيكما ... » فقدمها له . وغضب من السيور التي جدلت للقتل ، وأراهن أن الجلد لم يتم على الشكل الشرعي ، وإنما بكل قوة الذراع وقد ارتفعت ، والمجلود أرضاً ، يجلدانه واقفين على أصابع أقدامهما كي يكون الجرح أسمى .

لقد وجدا المتهم أمام الدكاكين ، أي على جوانب الجامع الكبير الخارجية ، في الوقت الذي طردوا فيه الحمير والبقر من الساحة ، فلا ينجس برازها المصلين ، في صلاة الظهر ، وكان هذا الرجل قائماً في صلاة قبلتها غير مكة ، وإنما إلى الشمال الشرقي كما يبدو ، كأنما قبلته ، خلافاً لاسمها^(١) هي في ناحية ما من نواحي ثلوج الجاهلية . وعندما نبها الفاسق ، أجاهبها أنه لا يصلي متجهاً إلى حجر ، وإنما إلى كائن من لحم ودم ، وهذا وثنية واضحة ، جاء فيها أفصح عنه المدعو بالمجنون ، عن امرأة صعب لفظ اسمها يبدو من مصر أو سورية ، وأمام رفضه في التوجه الصحيح ، رفعها سوطيها أملاً في اقناع الضال بالعودة إلى الشرع ، لكن عبثاً ، فضرباً . آنثذ قال الحاكم محققاً : « ما دامت الجريمة ضد الدين ، لماذا جثتا بهذا المجنون إلي ؟ أتجهلان أن القضية ليست من اختصاصي ؟ » .

عندها أخذوا الفاعل إلى المحتسب ، وهو مساعد القاضي ، يحكم في باب الشريعة عادة ، وكان جمع عظيم من الناس ينتظره ، لكن المحتسب في ذلك اليوم ، واسمه موسى بن حبيب الغازي ، كان خارج المدينة في حملة تأتي بالغذاء من البشارات ، يدور كنسر على حصانه ، يصيح بالأوامر ، ويدل برمحه على طريق الجبل . وانتظر السجناء حتى المساء ولم يأت المحتسب ، حتى أن غيمة العدول خرجت من براكاتها ، وهاجمت الحراس ، والمتهمين ، والشهود الأصليين ، ولما اكتشفوا ألا شاهد بين هؤلاء للمجنون ، زعقوا كقفيقان ، وطلبوا بأن يسلم لهم سريعاً ، حتى يستطيعوا هم أنفسهم في الغد ترجمة الشهادات للمحتسب حين عودتهم . ووعد الشرطيان بذلك قبل أن يضعوا الموقوف في السجن مع الآخرين على أمل الفجر ، وبقياً وزملاؤهما ، مع فرائسهم ، بعض من أجل أن يسلبوهم ، وبعض من أجل أن يستمتعوا بضرهم ، وبعض لأنهم كانوا سكارى يخشون العودة إلى بيوتهم . وغنى أحدهم :

(١) قبة حرفياً ما هو أمامها ومجاوراً ما يجب أن يكون أمام (من أجل الصلاة) ، وتعني في اسبانيا ، الجنوب ، والاتجاه لكة (الملاحظة لاراجون) .

لحن للرقص

لا نستطيع الصلاة دائماً
أو شرب ماء الصهريج
الليالي طويلة دون مصابيح
بؤساً للرجل المتزوج
لا نستطيع الصلاة دائماً

السباحة والصيد أو الرهان
الرقص والضرب على الطمبور
والخمر الأسود بعد الحب
وعراك من أجل كلمة
السباحة والصيد أو الرهان

تنوع الملذات قليل
وتتعبنا الفوضى
بين حمار أو ولد أو بنت أو ناقة
وحزين مساء الفارس
فاللذات تنوعها قليل

ولماذا نزعق
من أجل قواد مسحنه
أو دنيء جرحناه
أو يهودي جرحناه
ألهذا نزعق

الحياة يوم عيد
نصرفه بالتكشير
ما نفعل ان أمطرت السماء
فالشمس تعود تشع
الحياة يوم عيد

أخذ موسى يصغي في ملل ، وقد رجع متعباً من غزوه في الجبل ، إلى صياح زبائنه المعتادين من العامة الذين يوكل أمرهم القاضي إليه ، من ضالين لم يتبعوا القواعد في استعمال القرמיד على قياس النموذج المعلق في الجامع ، ومن ضاربي رمل استغلوا بساطة احدى الزبائن ، أو زبائين لم

ينظفوا كما يجب قاعة الوضوء في الجامع الكبير ، ومن فتيان ارتكبوا في المقبرة المعاصي عنوة مع أراميل وجدوهن عند قبور أزواجهن . . . وبكلمة مختصرة الروتين العادي ، وكان لا خيار له في ذلك ، ولو أنه تفترض فيه القسوة ، لأن الخطر المحيق بغرناطة يجعل الانتقاص بقواعد الدين والسنة الاسلامية أكبر جرماً وأوخم عاقبة . كان عقله مع فرسانه الفتيان ، يحلم بضربة إذا سمح الأمير . . . يا لها مغامرة غريبة في هذا الثغر الأندلسي أن يجد نفسه في عين المجازفة التي انطلق بها الرسول (عظم الله مجده) من المدينة بحثاً عن غذاء للمهاجرين ! هكذا تنتهي غرناطة كما بدأ الاسلام ، وموسى يقود مغازي الأمير ، مثل المعتق زيد بن حارثة عند رسول الله العلي القدير . وعندما جاء دور المجنون ، لم يعر الشرطة المحتسب غير أذن ذاهلة ، وكذلك شهادات المبلغين التي أخذها منهم العدول . أما الشهادة الأولى فقد أدلى بها شاعر انحنى على المتهم أنه لا ينظم أبياته على منحى الأوائل وانه يبذل القافية في نهاية المقاطع علي غير قواعد الزجل وجرائم أخرى من نفس الشاكلة . وأدلى العدل الثاني أقوال شاهد يعرفه جيداً موسى ، وهو أمين الكلاسين ، رجل محتال ، يشتهر فيه بالتهريب ، ولو أنه ينجد دائماً من الملاحقة ، وكان يروي عنه أنه يجتذب النساء مساء إلى مكلسته . كان هذا ينعمي على المجنون عاداته ، ولمح إلى ألف قذارة عن امرأة ذلك ، ولو أنه اعترف مكرهاً أنه لا يعرفها أبداً ، بل انه يجهل عنها غير ما سمعه من أناشيد المتهم ولو أنه أقسم أن تلك أكاذيب . كما عن تسميته بالنجدي مع أنه من نسل راع قجهول وقحة . . . والأمر ما كان كل ذلك ، بل الكفر . ولقد استحال ، من الشهادات التي تفحصها العدول بدقة ، الاستنتاج الدقيق عن ايمان ذلك المعتوه بامرأته ، كما زعموا ، أو شيء عنها نفسها : ما عدا الاسم الغريب الذي يدعوها به ، وما كان بوسعهم أن يعرفوا عنه ؟ بيت المجنون لم يكن إلى شبال الجامع الشرقي ، فلم اذن كان يقبل تلك الجهة في صلاته ؟

أما إذا كانت هذه الال-زا ، كما أكد بعض ، فناعاً لألهة بني غطفان القديمة في نخلة ، العزى ، فما كان بوسعهم أن يقيموا الدليل ، خاصة لأنما كان يعيدها في الكعبة ، عدا عن المؤمنين الأصليين بها ، القرشيون والثقيفون في الطائف . وكيف يميزون إلى من يتجه المتهم في صلاته ، إلى الصنم أو الاله الحقيقي ؟ وذهبت احدى الشهادات التي درسها العدول ، إلى أن اسم الرجل هو قيس عبد العزى ، لكنها ولا شك شهادة خسة ، لأن الأحاديث لم تذكر عن أحد باسم عبد العزى ، غير أبي جهل بن هاشم ، الذي شتم النبي ذات يوم عند صخرة الصفا ، ولاحظ المجنون أنه يشرفه أن يلقب بعبد السا ، لكننا في أرض حبيته لم نجر العادة بنسب الخادم إلى ربه ، أو سيده أو سيده ولو أنهم يسمون الابن باسم ابيه ، كما في البلدان الاسلامية . وكانت أجوبة العجوز عما بقي مختلطة لا تفهم . كان في كلامه الصوفي ، أن السا تسكن قرناً آخر في المستقبل ، حتى إذا طلبوا منه أن يأتي بها ، قال أنه ليس في مقدور الانسان أن يستدعي كائناً على مسافة أربعمائة وخمسين عاماً . . . عندها غضب موسى غضباً شديداً ، وأمر بجلب تلك المرأة . ووضع من الاستجواب ، أن شيئاً لم يكن كما قدروا في البدء ، ولو أن جرم العجوز كبير لعبادته امرأة حقيقية ، هي امرأته ، التي يمكن أن ترى وتلمس ، وهذا من الهيمه ، حتى إذا وضع أن أحداً لم يلمسها أو يرها ، وقد اعترف المتهم أنها لا توجد في أي بيت من غرناطة أو في ذلك العام من الهجرة تبدل الأمر كله . جرم فظيع أن تمنح أسماء الله نفسه ، وطقوس عبادته ، لامرأة

لملوسة ، وأفدح منه ألا تكون المرأة موجودة . ولأن تعبد شيئاً من هذا العالم ، بدلا عن الله ، يستحق الصلب ، وأنواع التعذيب علناً . أما أن تذهب بالزندقة إلى حد الرُكوع أمام ما لا وجود له فهو كفر من عمل الشيطان . ووقف المحتسب ، فعلق جلسة المحكمة . كان لا يستطيع الحكم في قضية على هذه الفظاعة ، وما كان بوسعهُ أن يخرج الجن من المجنون ، وعليه أحيلت القضية إلى قاضي الجمعة ، الذي يحق له وحده الحكم في جريمة على هذا القَد .

*

ولم ترفع القضية إلى القاضي ، إلا بعد عدة أيام . فقد قام اضطراب نجم عن خلاف بين الحاجب الجديد والأمير حول السلوك تجاه الملكين الكاثوليكين . كان يقدر الحاجب مثل مجلس الوزراء بتأثير أبي القاسم عبد الملك الحضي ، ضرورة التفاهم مع جيش الحصار ، لكن أبا عبدالله ، رفض متأثراً باحساس أمه ، أن يستجيب لرأيهم ، ودعمه المحتسب ، سراً ، فدفع الشعب لابتداء ارادته في القتال والموت عند الحاجة ، فلا تسقط غرناطة بين أيدي الكفرة . وزعم القاضي أنه مريض ، كي لا يبدي برأيه ، مخافة أن يؤدي به سوء الحظ إلى أن يجد نفسه في الجانب الخاسر . ولقد جرت العادة أن يزعم الحاجب نفسه ، فيذهب إلى بيت القاضي ، مما يزيد في سلطته أمام العلية ، وسرى الخبر في المدينة : زار الحاجب القاضي ، كي يعطي هذا قراره فيما اختلف عليه الأمير والحاجب وخرج الناس إلى بيت القاضي يصيحون به أن يعلن الحرب المقدسة ضد المشركين بالله . ولاح أن دعوى المجنون في عسر . ما كان ليفهم أهل غرناطة ، أن يعدم في بساطة ، كان لا بد من تعذيبه أولاً عذاباً طويلاً ، على قد كفره ، والكفر كيف كان ، ولا غرو ، جريمة ضد الاسلام ، لكنه الآن يتجاوز كل تصور وما جرى عليه الناس من أحكام ، خاصة والسيادة الاسلامية في الأندلس هي في عشية انطفائها بالدم والنار .

كان قاضي الجمعة يحكم في الجامع الكبير وقد ارتدى الأحمر وأحاط به الفقهاء في ثياب بيضاء . واتخذت الجريمة ضد الدين في هذا الديكور العظيم ملامح الخطئة . وجاء هذه المرة من الناس من أراد الشهادة ضد الكافر عدد فاض عن العدول ، حتى لقد اضطروا لطردهم بالعصا . كانت الشكليات طويلة وأولج منذ البدء ، رغم رفض المتهم ، محام للدفاع عنه ، تكلم ساعات ، معتمداً على الشك بوجود السا أو عزة ، حتى يأخذ من القاضي نفسه اعترافاً بعدم أهلية محكمته . كان الشعب في الخارج ينادي بالموث ، ويأكل فطائر بالجبن ، ويصرخ بأن التجار يغشون الناس بما لا يعلم غير الله من خليطة يقدمونها على أنها جبنه شريش ، أو ما نسميها خيريس ، وقد مزجوها بالطحين ، وقد سموها هم بجبنه الحرب ، مما لا يمكن فهمه ، مادام النقص في الطحين أكثر منه في الجبن ، ولربما كان فيها بعض الحوارة . . . على كل حال كانت طريق شريش مقطوعة منذ زمن بعيد على الجبن مثلها هي على الخمور الحلوة .

وتابع المكلف دفاعه عن المجنون . بناه على التسليم بأن المتهم ، مثله مثل كل الشعراء ، تسكنه جنية ، ورافع أن أل - زا اسمها ، مما استنتج أنها جنية أنثى ، غولة ، كي يتجنب حكماً ينجم عنه طردها ، لأن الغولة إذا أكرهتها على الخروج من المسكون الذكر ، فضلت موته فقتلته . وعلى هذا كان من حق القاضي (حفظه الله) أن يأمر باعدام المجرم ، ولو كان جلاداً ، أما أن يسمح هو باغتيال هذا الرجل فيكون شريكاً بقتله ، مسؤ ولا أمام الأمير (أطال العلي القدير عمره) . وهكذا . . .

عندما قرر القاضي ، وقد جاءته رسالة من الحاجب ، أن يستمع للمتهم ، فطرد المكلف ، وأعطى الكلمة لصاحب العلاقة .

وقف هذا بالقدر الذي يستطيع الوقوف ، لأن حراسه أوسعوه ضرباً من جديد تمضية للوقت . ولقد دام التوقيف الاحترازي زمناً طال فيه شعره فترامت خصل بيضاء على وجهه المعذب المشجوج . شفته كانت تنزف دماً أسود ، لم يتخثر . ولقد فقد بعض أسنانه . من هذا القم الفظيع خرج نشيد كأنه نشيد هدهد ، لما جاء رسولا من سليمان بالتحية إلى ملكة سبأ :

عن السا مسجد جنوني

كل لوحة جدارية أو شمسية مزركشة أو توشيح باب وتلك الشبكة التي يصفى معها الفضاء

فتجعل الأثر قدده قد النفس الانساني
كل ازدهار الحجر والترجس منها غيران
مثلما يغار القم من تكرار القبيل
القوس الكامل فوق عين امرأة غيران
كل فسيفساء في عجيب تناسق موضوعها كأنني
أزرق من شفتي جسد تدمى فيه هنا وهناك آثار قسوتي
كل مجموعة خزف تجرد فيها العين لذة أكبر من تأمل العربي
والقاعات هي أبواب وأقواس خلّبت كجلد عظاية
سقوفها مرسومة من ظل تكتب في الأعلى بلغة مجهولة
أسرار الزنى المخبوءة عميقاً في قلب العلية
ويبدو كل شيء وقد غسله بعد قتل أسرع به عبيد
وللأصفر والأخضر لمعان أخفض له نظري
يا جمال مرمر وخزف لا يذكر بالفجور
كم يطيب لي أن أعقده بهندسة خادعة
تشابكها يتعقد وينحل على هواي أقدر
أن أنظر إليه أمام الناس فلا أخجل وما من أحد
يذهب إلى الشك بقوتي ولا يرى
ضمي وعرفي

كما يخفي جلد الانسان الكامل حركات الروح والدم في العالم الداخلي
أو كما يخفي رسم اللحاء الشجرة
الشجرة نفسها هنا هي نقل خفي

أستطيع أن أصفها عالي الصوت الشجرة باتت غير شجرة في تناسق الأوراق

لم تكن أبداً طيراً ولا زهرة عطرة

أستطيع أن أصف مسيرة المذاعبة إلى السماء
كما تصعد يدان على طهارة فخذين
عنق مقلوبة إلى النجوم
كتفان من غيوم كل ما هو
مباح للنظر في تسامق البناء
أستطيع أن أصفك يا مسجداً كثوب لم يرتده أحد
حجاب أهملوه
نسيان ما يتنفس
أستطيع أن أصفك على هواي فلا يظن أحد بكلامي الخطيئة

لكن كيف أمسّ فحسب لون جبينك
كيف أتكلم عن أنفاسك أو خطوك يا حبيبي
كل ما أقول توأ يغدو دنساً توأ كفراً أو مذبحاً
قدح قدح بالنور
كيف أزعم إلى لحظة رسم شيهك بالكلمات
يا من لا شبيه لها يا هاربة يا دائمة التغير والتحول

أنت يا من لا تستطيع قدرة أن تثبتك في عيني لا الوجد ولا السنون
دائماً جديدة ومذهلة يا حياً يا حياً نقر صورته
من خط الكلمة والريشة
لا يحيط بك شيء كصورة الضحكة لا يحيط بك شيء كأنك جهشة
ناثرة على الزمن ناثرة على الذراعين وقد قدرا ضمك في حدودها العضلية
كل تشبيه موسوم بالفقر إذا ود أن يصف قرارك
يا ماء غير رطبة لا تدع أثراً ولا لمعة
يا ذكرى بلا ذاكرة يا جرحاً بلا خنجر

إذا كان حراماً وصف الجمال المحمي
أين نجد تناسق الأنغام الذي ندرك عبره النوم
مرأة مرأة من أجل النسيان
من أجل جمال النسيان الفارع النقي
أما لمن خشى احتراقه لا يبقى غير حديث عن لهب مجرد
لا يبقى للرسم غير أن يجلي مكانه للخط
من يمين إلى يسار على واجهة النوافذ
على إبراق العمود

يؤلف الكلام على بياضه حرفاً من سبج
كغزوة في صحراء تتبدى تقفز سيوفاً مشرعة

كل حرف قدم على رمل مهددة فهد
أو نشر جناح أسود فجأة فوق الغبار
عندها أرى أنني منحتك مكاناً خصصته لله
لأنما منذ الأبد سادت هنا الصلاة ومجده
أحموه من اسمك الذي صنع فما يوصف من رمل وجناح
كراية ثورة في الشمس
كرقصه عروسين دنسين
كنبضة لا نهاية

أعطيتك مكاناً خصص الله والقصيد
يعلو أبداً على التراتيل
جعلت مكانك في وضع النهار على حجر النذر
منذ الساعة كل التقى منك
كل تتمه حاج كل ركوع الإيمان
كل صيحة منازع

أعطيتك مكان الفضيحة التي لا حد لها

يبدو أنهم استمعوا للفضية ، وما بهم الجنون إذا كان قناعاً للكفر ؟ لم يكن مقبولاً تبرير
الشطط في الكلام ، والجحود أمام الله بالمرض وحده . ومن يستطيع أن يقول أن المرض نفسه ليس
عقاباً من السماء ؟ من يكره المجرم على التصريح بجرمه غير الله ؟ يمكن أن توجد في قلب العاقل
كل بذور الشر ، والأفكار الزنيمة ، يمكن أن تكون نياته مجرمة مائة مرة ، أن يكون شريراً ، قاتل
أبيه ، هذا لا يهم . . . ما دام يظل بقوة الفضيلة ، مخبوءاً ، مجهولاً من الناس . . . أما إذا رشح
عن النفس السم العميق ، إذا بلبل الله المجرم المجهول فسلبه قدرته على ضبط جنونه ، قيل أنه
مجنون ، مع أن الأصعب الإلهية خطت على جبينه الحسة . . .

أرسل القاضي جوابه إلى الحاجب ، يوسف بن قوما . وأخذ ينتظر منه ايضاحاً ولا شك .
وفيما هو على ذلك بدأ يستجوب المجنون ، كأنما يريد منه كشفاً عن العالم ، والحضور يتدمرون
من تأخير القرار . عند بعض الأجوبة كان انفجار الأصوات يرتطم بالجدران ، « جيفة !
جيفة ! » . وخرج بعض الناس فما كان يوسعهم أن يتنفسوا هواء هذه العدالة البطيئة .

القاضي : - تقول أن هذه المرأة لا وجود لها وانها موجودة . وضع ، أيها الضال ، كيف
يكون ذلك ممكناً عندك على الأقل . . .

المجنون :- ليست موجودة في مفهومكم عن الأشياء ، فأنت لا تستطيع ارسال شريك للبحث عنها في البيت الفلاني أو الفلاني لجلبها إلى المحكمة . لكن قل أيها القاضي السامي ، الجزيل الاحترام هل العلي القدير ، في تفكيرك ، موجود أم غير موجود . لأنك لا تستطيع ارسال بوليسك إلى الجامع ، أو الأماكن التي اشتهرت بأن الله يزورها ، ان أوغادك (أحاطها الله بحمايته) لا حظ لها أبداً في أن تجد الله ولا أن تجلبه لمحكمتك . هل تستخلص من ذلك أنه غير موجود ؟

القاضي :- أمنك ، حتى بهذا اللف ، أن تشبه تلك المرأة بالرحيم . هي موجودة أو غير موجودة .

المجنون :- أيها القاضي ، يا من عنده الكشف عن الأشياء ، كيف تستطيع القول عن امرأة لم ترها ولم تعثر عليها أنها غير موجودة ؟ فتهدأ إذا كان التشبيه هو الذي يزعجك لأنني لا أريد التشبيه بما لا مثل له . الله ، مارآه ، ولا يراه ، ولا يمكن أن يراه أحد في العالم أو انقطع عن كونه الهاً . اني أقول عن الساما لا أستطيع القول عنه : انها موجودة ، لأنها سوف تكون . أما الله ، حسب ما أعلم عن الكتاب ، لا يتغير مع الزمن ، فهو لا ماضي له ، ولا مستقبل ، ولهذا كان شك في وجوده أو في حاضره . . . ولو أنني هنا لا أريد المناقشة في الالهيات . لكن كم تكون الضجة ، لو أن أحداً ، وهذا لا يمكن أن يفوه به فمي ، قال أن الله سوف يوجد . ضجة حقة ، ولو اختلفت أسباب الغضب ، حسب اختلاف الناس ، وما يعيرونه للمناقشة . . . فإذا قلت أن السا سوف توجد أليس هذا تأكيداً لوجودها الذي ليس له بدء ؟ انها موجودة عند من يرى في المستقبل الحقيقة المنتصرة ، وهل المستقبل غير ذلك أيها القاضي ؟

القاضي :- لكن أليس قولك سوف توجد انتحالا للنبوة ؟ وفيه ما يكفي لأن أطلب لك الصلب أو الرجم ؟

المجنون :- حكمك أيها القاضي العاقل التقي ، لا يتعلق ، حسب ما أفترض على الأقل ، إلا بك ، ولا تسلبني صفة النبي ، لو كنته ، فتمنحني صفة الشهيد . لكن هل يوصف المرء بالنبوة إذا استعمل الصيغة التي تصف المستقبل ؟ ولأعظ مثلاً ، قانون المدينة ، وهو من قول الملك (حق ركوع الشعب قدامه !) لا يستطيع امرؤ الزعم أن ترتيبات تنظيف الأقدار وبيع الخطب هي من كلام الله ، إلا واتهم بالكفر ، مع أن قولها يجيء كلاماً عن المقبل ، فهي تأمر وتنهى ، وتطلب ألا يباع . . . هل تعني أن المشرع يدعي النبوة ؟ أقول هذه المرأة موجودة لأنها سوف تكون ، وهذا رجاحة رأي لا نبوءة .

القاضي :- لا أفهمك أبداً ، يا ابن عامر ، ألا تنتحل النبوة ، عندما تزعم أنك تبشر بشيء يكون بعد قرون أربعة ؟

المجنون :- إذا قلت سوف ينزل المطر يوم الأربعاء (وهو ما لا يكون إلا بمشيئة العلي القدير ، تقدس في ذلك اليوم وفي الأيام الأخر !) أأكون انتحلت لي صفة ؟ هنا يتم أحد أمرين ، قبل محاكمتي : تنتظر الأربعاء ، فان لم تسح الغيوم ماء ، قلت ببساطة أنني تكلمت عن حفة ، أما إذا أمطرت ، هل تقطع عنفي لأنني قلت الحقيقة ؟

القاضي : - أنت في جنونك أوسع حيلة من هذا الوكيل الذي تكلم ، فما يعرف كيف يطيل حيلة موكله إلا مشاكسة أو تمسكاً بأصول المحاكمات . . . ولو أنني أصححت لك ، لأجلت النطق بالحكم أربعة قرون حتى نرى أكانت السا نبوءة أم لا . . .

المجنون : - أنا الأشد حيلة ، أيها القاضي ، وأنا الذي تقررون هنا بألامه وحياته ؟ أو أنت الذي تتهمني بأني أريد منك أن تفكر أربعة قرون أو نالني الاتهام بادعاء النبوة مع أنك تعلم أنك سوف تمسي تراباً في مدة أقصر بما لا يقاس . . .

القاضي : - أيها الرجل ، إننا لا نتناقش هنا في موتي ، بل في موتك .

المجنون : - يبدو لك ، يا نور الأمير ، وقد أعطيت سلطة الفصل في الشك ! يبدو لك حسب الظاهر أن الأمر يتعلق بموتي . . . مع أن كل دقيقة في العالم هي بداية حياة وموت الناس جميعاً ، لا رجل واحد ، أكان شاعراً معتموها في مدينة ، أم قاضياً ، مهما كان الصمت منه قريباً ، أما إذا شئت أن تصليني لأني قلت أنك سوف تموت ، وأني أتنبأ بتفسخ جسدك ، فقد حق عليك أنت إذن الموت صلباً أو بالفأس لفسادك في سلطتك

القاضي : - يكفيك تهريجاً . فلنتطرق بالحكم . . .

كان يبدو أن تسليم هذا المطرب للغوغاء تدير حسن . فقد جرت العادة أن يهرق دم الفكر ما دامت اراقة لا تكلف الملوك إلا قليلاً ، وقد خيل للقاضي أن المجنون خير كبش فداء ، فراحته الزندقة تبيح اعدامه لا لطابع الفتنة التي تنم عنها بعض قصائده بل دفاعاً عن الدين . لكن رسالة من القصر أفهمته ، أن ارضاء الغوغاء ، بتضحية صاحب البدعة ، هو ضد مصالح المملكة ، فهي ما دام مجلس الأمير لم يحسم في قراره ، مظهر ضعف ، أمام الحماس الشعبي من أجل الجهاد ، الذي اختلط فيه احترام الدين بالشعور ضد المشركين . وفوق ذلك جاء رسول من وزير المدينة السابق (الذي حافظ على علاقته مع القاضي) فنقل له عن سيده أنه يتمنى عليه ألا يتخذ أي قرار ، فالقصة يكفي عمقها وسهاكة جدرانها للبقاء على المجرمين فيها ، حتى إذا دخل المدينة غالب ما فصل في أمرهم ، لأن مصيرهم لا تبت فيه شروط التسليم . ولقد رافقت هذه الرغبة هدية على قدر عظيم من الجمال : فتاة في الثانية عشرة بؤبؤها أوسع من بؤبؤ خيل نجد ، كأنها قطعة من كافور تثلثت خشية أن يغار منها القمر .

وأخذ الحرس المجنون إلى كهوف القلعة الملاصقة للحمراء ، فوق الدارو الصاحب ، فنزل ادراجاً ضيقة ، من قاعة إلى قاعة ، صوب الليل الذي يدلج إليه المعذبون ، حيث لا تنفع أبداً صور الكلام المستقبلية . . .

مسجونو القصة

١

المسجونون كزيزان وضعها طفل في جرة من فوقهم حجر كبرى وهم لا يواجهون سوى الظمأ والجوع أهو صوت حشفات يند عنهم أم أنفاسهم في قمر اردبة

منسيون ولا شك منسيون مصفدون طاوون على جوع خالد
لأنما الحراس من فوقهم عندهم اليوم ولا شك ما يقض مضجهم
عندهم يؤسهم في أوجه والمدينة من حولهم نهب للريح
ولكل تلك الحياة التي يجهلها المعتقلون وهي تبدو لهم حلماً
لتلك المأساة بلا هدنة لذلك التمزق المتصل
لماذا يولد الانسان وينمو ويموت ويظن أنه يفسر الأمر باسم التاريخ
هذا الدولاب الذي لا يوفر شيئاً لا الجسد ولا الروح
هذا البحر الذي ما يفتأ يتدفق ثم ينسحب أبيض أسود
هذه الاسفنجة التي تمحو كلمات الانسان وما كادت تكتب
السجناء لا يعلمون شيئاً عما يجري خارج أصفادهم
السجناء يتكلمون فيما بينهم لغة عفت منذ زمن طويل
يمسكون في راحة يدهم بماضيهم كسمكة لزجة تتخبط
عيونهم تبحث عن شمس حالت دخاناً منذ بعيد
يا أبناء المرأة المستذلين في عرفكم وفي روحكم
تلك هي اللحظة المنكرة التي يغدو فيها الضياع العظيم
واحة لكم وكيد تحمي اللهب
في قعر زنزانة ما تهتز حتى تعود إلى حالها
اسمع خفقك يا قلوباً تقيس الزمان بساعاتها
يا أنفاساً في الأرض يا أنظاراً لا ترى غير الليل
أنتم يا من لستم سوى ذكرى كل حياة فيها مقلوبة
يا سيولا تحت أرضية يا من ليس لكم غير مرآة أصواتكم

٢

الصوت الأول

بعيد هنا عنها أنا
أمر بتجربة الموت
الزمان دونك خوون
وأنا فيه قلعة نفسي
بوصلة بلا شمال

كل شيء عندي ذكرى
كل حلم قنينة على بحر

في لون الغياب هذا
لا شيء له نسغ ولا معنى
ما أفعل بقلبي المر

يا نشيد المجنون صوت الاحشاء الصاعد من بين الحبساء أية درب سلك أي خصاص
انفتح لخطوه ، نشيد ما بدل شمسه في غي الظلمات أحق على هذا الحب الفظيع أن يثير سماعه في
مهب الريح وهو ما ينفك دؤوباً على كلمات العبادة أحق عليه
أن يحيل الجلد شاحباً وأن تتبدل ألوان الحياة عند العبد أو الوزير وهو يمنح النساء بعداً من
لازورد جديد حتى ليموت الفيروز إذا قورن بعيونهن

ليعدّوني مجرماً
أحبّ حباً بلا حدود
كائناتاً بشرياً
يجعله حبي خالداً
يا سليمان انها عندي شولاميت

أعبدها منذ عشقت
اغرائي الأبدية
امرأتي أنا هي نفسها أبدا
أحرق لها قصائدي
الساغرامى الوحيد

ألا نستطيع أن نحتمل خيراً من يهود الماضي مديحاً لغريبة . وملكهم كفضيحة كبرى يطوي
على خطاها بساطاً من زهور انه هو سليمان يسميها ويسميها بلقبه باسم لا ينتسب لمعروف
اللغات

حتى ولو كانت خرافة شيئاً من خيال كائنات من جنون يتبخر على كلمة لكن لا هي ذي
المصرية

هي ذي نستطيع لمسها تروح وتغدو تأخذ من ماء النافورة ليست شبعاً ولا جنية أو كناية
ولا نصاً أو لحناً من جهشات آلات وترية

غائبة تبدو غائبة في هذا الموسم مثلها وضعونا في سجن لكن مع أنفسنا كما القلب المجنون في
عين المحب أو ما قيل لا جناح ما دامت الطريق توصل إلى بغداد

فليحتقرونا وليسخروا منا
لا شيء ولا أحد يستطيع أمرا
لا شيء سوى الحب يعدل الحياة
يحترق فيه القلب كقش
يجعل الجحيم جنة

اضحكوا من الرجل ومن المرأة
اشتموا الزنديق
أنا هو من كل روجي
موسيقاي الوحيدة ومأساتي
آهتي حياتي ومرحي

انه يجدف يجدف ييوح يعلن يكرس عبادة فاجرة للتي تُرى يفضلها على الله ويجور كل لغة
لدائحها يجعل كلام شعبنا عقوداً تلهو بها لحظة لا تضعها أبداً على حنان الأذن
ألحاناً تغنيها فنسأها وتعاودنا إذا غمنا حين لا نجد أماناً غير الليل كصحراء سوداء

السا يا قوتي وضعفي
أنا لست إلا تمتمك
خطوة تتركينها في العشب
كم يخفق القلب حتى ليجرحه كل شيء
أنت منك أعيش وفيك أموت

ملكتي البعيدة شعلتي المنطفئة
منك تستيقظ المرايا
كل باب على اسمك انتحاب
كل شيء ظلك المرسوم
كل نور ذكراك

آه فليسكت فليسكت وهل يمكن أن نحتمل هذه المدايح في حفرة حتى ولو تعلق الأمر
بجنية أو ملاك

أو تعلق بشيء فينا لا نذكره لكنه يتعلق بامرأة بامرأة

أنت التي أوقظ لا نفسي
في ماء الكأس الذي فيه أترأى
عن معجزة أو حيلة
بت لست سوى من أحب
بت لا أنظر بل أعجب

يا عجوزاً لا يطاق

٣

في العيون المخنوقة
يهيمن ألق الظلمات
أية شعائر خسيصة تقام فيها
أية صفقة نساوم عليها

لا حلم لا حس لا رؤية
الانسان يسأم كونه انساناً
لأنه يفعل ما تفعل الكلاب
فلا يسود منه الليل كما ينبغي أن يسود

يستطيع السقوط في ذاته إلى درك لا بد فيه من شاهد على عاره
يروى عاره على الأقل
للأذن التي لا ترى

عار القلب عار الجسد
هل تسمع أنين الروح
إقبل تحدي النذالة
فالأدنى فيها هو الأتوى

هذه الهوة فيك هل ترى كيف
تفتتح في كل مخلوق
إذا كان شبيهك نتنا
فلسوف تنتن مثله.

الزاني

قال الزاني أنا هنا أنتظر الرجم
أجهل لم يبطنون بانتزاعي من هذا الجسد
اننا لا ندرك عامة سلوكهم

كان يتكلم كليلة ربيع
كان يمزرون صورته من حركات الظل في لحظات ألق نظراته
كانت قدماء تتحرك أحياناً في ألم الأصفاد

قال أحقاً لا تستطيع رؤيتي أنا جميل
جمالاً فظيلاً لا ترفض أية مرأة أن تنحني له
ولا الرعب في قلب عين المرأة
من جمال يمزق ثيابها جمال
حضوره بين الجمهور يخلق الخوف
أما من تبقى معي وحدي فما يعينني ان ظلت حية أو ميتة
تتاوه من قربي قبل أن أدانيها
أسف أنك لا تستطيع أن تراني أسمع صوتي على الأقل
هل فكرت ذات يوم بما يعني
جرم الزنا لماذا

ما يفعلونه جميعاً بالنساء جوارهم
يغدو جريمة لما أفعله أنا الذي لا أخشى أن أبدو عارياً
لأنني قوي بفتوتي وأني جميل أقول لك
أنا الذي لم تستطع امرأة أن تشيح بعينها عني
وأكثر منه إذا بين دراعي أخذتها وفي لغب جسدها
أجريمة تكون إذا رنا إلى فمها
القرمزي وإلى انتظارها
أو فاجأها قبول عينيها المغلقتين
أجريمة الدوار أجريمة اللذة

كان يحرك وهو يتكلم أصفاده على البلاط

وفي الحبس العميق يمل قليل النور من النزول
إلى الأسرى على عكس ماء جبّ

قال مرة ولا أذكر أين
أين ربما في المرية أو شرب
في تدمر أو قرطبة حي البساتين الذي يفوح برتقالا عند العشي
في أوليلا ولا شك
كنت بلا أفكار أحسنني على أحسن حال والهواء كان أصهب حلواً
كان بوسعي أن أتخذ درباً أخرى
فجأة أمامي انها قصة تافهة
هي رأنتي أولاً يجب أن أقول لكم
انها ما كان بيدها الخيار إلا وأن تستند على الحاجز
كانت زنقة^(١) يبدو لا أدري شيئاً عن ذلك
وماذا يهم إذا كانت زنقة
كنا منذ أبد أنا وهي على موعد
هون أن نعرف أنه هنا

كان الفتى وحق الله كأنه يبكي
يجب أن أقول لكم

ألم تعشق أبداً في نومك
لا لا تضحك ليس هذا مكاناً للضحك
يحدث لنا في النوم أن نزار
في الزنقة كان الأمر في الحق كذاك
تلك الفتاة ما كان وزنها إلا وزن حلم
واستفقت أنا كبهيمة
ولم أدرك ذاك إلا بعد زمن
شعرها شعرها كالمسك
على الجدار كقناع
وبين يدي كرعشة

(١) الطريق المسدودة .

صمت طويلاً على انتظار الآخرين
الكلمة ولا أعلم لماذا كانت نصيبه
كما السماء نصيب النجوم في الليل

رجعت صباحاً بدوت
مثل الذي يبحث عن ظلّه
ركضت في كل ذاك الحى
دون أن أجد خطاي في البارحة
العطر كان غيره
الحواجز كانت أخرى
ما كان شيء يشبه شيئاً
في أية ناحية ما كانت زنقة
في أية ناحية لم ينتظرنى أحد
لم يكن أحد حيث مررت
والحلم لا يعود أبداً

أعتقد أنه أخذ
يضحك فجأة ضحكاً غريباً
يضحك يضحك على دفعات صغيرة كما تتجرع شراباً حاداً

منذئذ سحت
وسرقت من البساتين
ثمارة نضجت لأفواه أخرى
رأيت مدناً ومرافق
في المساء يجب أن ننام
نمت كثيراً بين الموتى
وكثيراً على الطرقات
مددت للأحياء يدي
وأسوأ من فيهم النساء

كأن هذه الكلمة تعلق
روحه

في العالم من النساء
ما يكفي للسعادة
أتحدث للعشاق
الذين ذاكرتهم ديديان
في العالم ما يكفي من نساء
كي نستطيع الملل منهن
أما أنا ففي كل مرة أعجب
أكان ربيعاً أم كان خريفاً
صدّقوني لا تصدّقوني
أضع خطوي في خطوهن
كل امرأة نافذة
يبدو لي أنني أتعرف منها
على ما كان للأبد ذات مساء

وفجأة حنق وشم
أحدا ما في الظل فما نسمع
كلماته ولا نميز
كلمات القسوة بين أسنانه ولا نفهم
ما يقول لنا في غضبه

نعم أنا من الذين يجب أن نخشوا
فلا تفتحوا في غفلة باباً لشحاذ أو عتال
أو أناس بلا مروءة تاريخهم يوم
أية فتاة تطيب لهم وأية زاوية في نهج
دمويون لا وازع لهم إلا قضاء لذة
لا يعرفون قوانينكم لا زواجكم ولا حيلكم
بشر العناق العابرون الذين يشبهون النسيان
يخلطون بين الأماسي والقبل والفرص والمدن
يمشون عبر الأقدار عيونهم تتطلع إلى البعيد
لا قاعدة لهم غير نار فيهم يريدون منحها
إذا ليلة من غير حب جنوا شدهوا
كجيش ما عنى أحد بأن يريه عدوه

كنا لا نطيق أن يصمت
فنسمع في السجن دوران الذباب

يريدون رجمي لأنهم قبضوا علي مع تلك المرأة
وهي لم تكن غير امرأة ذلك اليوم وكفى
ولو أنها سقطت تحتي كبطيخة على الأرض
آه كم انتقمت من حياتي معها طاوياً ركبتيها ويدها
على الحائط وأنشبت أظافري في الجبس
زعموا فيما بعد أنها استنجدت لأنها صاحت
لو لم أكن مخبول لذة ما قبضوا علي
مع أنهم أربعة وماذا بعد
لن أنكر الزنى كما تسمونه في لغتكم
أنا غليظ عندما أتكلم عن هذه الأشياء
كلما تي كرسم الأعضاء
وبما أن الزنى له ثمن عندكم
من حجارة فليكن

اجمعوا ما يعدل وزنه موتي
هيا حطموا هذا الجسد الذي عاث في قمحكم
انظروا إلي في وضح النهار هوذا عاشق نساءكم
وليمنح هذا أذرعكم قوة وأنتم في بساتين كرزكم الساقطة الزهر
احسبوا جيداً مكان القذيفة وكيف تقذفها
فأنا الذي لن يعفى عنه لأنني أعطيت كل تلك اللذة
أنا الجسد المنتصر حتى على الضربات التي اخترمته
أنا الامتلاك الذي لا يجرد مما أمتلك
أنا العنف الفوق عنفكم المسكين
وساء العيون التي لم تضطرب منكم
والحريق الذي لا يجاريه غير مجنون
أنتم يا من لا تستطيعون في غير قتلي
كما تقتلون بنفس الضربات السر النائم فيكم
وهو ينزف مني طويلاً بعد أن قد انهيتموني
وتستمتعون بطاعة زوجاتكم
وتذكرون المرجوم الأسود الأزرق على حافة حقل

وانقطع عن الكلام تاركاً المكان للأفكار
هل هو حقاً على ما يزعم من جمال هذا الأفاق من مدينة لمدينة
وقد امتلكته خطيئة الجسد فلا يرى سواها
خارج الزمن الذي يسكن وما يمر به من حروب
يلم بالرحيل وزلازل الأرض
ينسرب إلى المعركة فلا يدرك معناها
ولا يهتم بمن يعطيه الصدقة
مسلماً كان أم لم يكن

أهنالك هكذا أناس لا يعرفون شيئاً
إلا عن الجاذبية والنوم والظمأ والفصول
أهنالك هكذا أناس كذئاب في شوفان
ربما كانوا هم لا نحن البشر
غرناطة ستموت ما يعرف هذا عن موتها بل ما يعنيه
هل رأى غرناطة عمره أو أنه من أجلها سوف يموت
كيف انزلت إلى موقع محاصر
كيف فسر لنفسه الذين يخرجون على مفترقات الطرق
ألم يلحظ المعذبين على الدروب
أو الصوفي في دهشته

الأوابد عنده لا معنى لها ولا موسيقى فيها
لا تجرب أن تروي له تاريخ المعتمد أو ابن عمار
أما إذا تكلمت عن الحب فاخش الصور في رأسه
لا تلفظ أمامه اسم حبيبتك
الاسلام لا مكان له في حديثه
كلمات عجيبة تمتزج أحياناً في جملة
كالنار تنجدل في القش فتلهبه
أغرناطة أم غيرها ما يسمى ميليجرانا
عندما يسأله في عمق الظلمة صوت
manuch th hal busno^(١) أعتقد أنه يجب
فجأة كما تغني الماء عبر الجسور
me hum calo pralo^(٢) أعرف لغة

(١) ، (٢) باللغة العجورية

(١) أغريب أنت أيها الرجل ؟

(٢) أنا رفيق (عجري) .

سارقي الخيل واللاعبين بالحظ
يا زانياً نذرتك القوانين للموت
ليس لك إلا السلسلة والكرة والخشبة في العنق لك
النسيان هو ما تستحق أيها العجري
أنت لست دون خوان تينوريو مع هذا
تشبهه كما يشبه الرماد اللهب

٥

الفيلسوف

كما يذهب آخرون ذات يوم كي يقطفوا البنفسج
على نجمة أنا
أدلت حياً في بشاعة الانسان

في أمكنة الجذام والعزلة
حيث فقد الكل صوت الروح ولون الفكرة
لم يبق مني هنا غير ما نفيت عني بسوط حزامي
انحل كل شيء كلحم جسد قضى
أسكن مع الجريمة والدعارة في بقعة العفن الكبرى
لا ألاحظ حتى رائحة ما فسد
لا شيء هنا له ثمن إلا ما كان عملة كلامنا
تعود فمي هنا على القمامة
هنا الهواء يكره أنفي والحلم ابن سرير آخر في بيت حالة
الحيلة هنا جالسة تحديق فلا تتكلم إلى نقطة سوداء أمامنا في الليل
كل عنف انكفاً إلى قضم أظافره
العين والأذن تغشان في قمار مجهول
ترحم فيه الدناءة الديمومة
حضور آخر هو تواقم في الظلمة صفة للكائن
يا وحدة عديدين لأنك مسبة منحطة للهوى الذي كنت
قليلاً قليلاً أغدو شبيهاً بهذا العالم السافل
لا أقدر أن أمسك نفسي عن أن أنتزع مني ذلك الزخرف
أسحج في فسادي القلب والجرح

كلما أوغلت في مزبلة هذا العالم
عانيت من نصيبي في رائحة التعفن
أعرف أي دوار حجر منوم
في الهوة
كل شيء بني على هذا العدم المتقيح
أنا نفسي

ماذا قلت بماذا اعترفت شريطة
ألا يكون التقط أحد هذا السر على فجر شفتي الشاحب
لست على يقين أنني أنا نفسي سمعت نفسي
في هذا الدرك السفلي الذي وصلت إليه لا تستطيع أن تقارن شيئاً إلا بالبرد
ثم ماذا يهم يبدو
أنني ما زلت أتمتع بلغة من غير هنا
عادة قديمة كمظلة
سخيفة مثل مظلة في الجحيم
كترس في غرق
كل الكلمات التي ما زلت أكونها في ليست غير علائق
بين أشياء بالية
كل هذه الكلمات التي مزامير دين بلا مؤمنين
كل تلك الكلمات أشباح حياة منسية
كل هذه الكلمات تفقد صورتها كخطو في وحل
كل هذه الكلمات تموت وتكذب
كل تلك الكلمات مشلح وهانذا عار كبهيمة
كل تلك الكلمات صيغت من ربيع لئيم
كل هذه الكلمات من قبل الطوفان من بعد الطوفان بلا هدف
كل هذه المشارب المقلوبة حول من لم يشربوا
كل هذا الخراب لأفكار بساتينها سفحها البرد
لكن ما معنى بستان ما هو الربيع
عند القطيع الذي نحن وقد زربنا في صحراء الأشياء
الآن أذكر أولئك الذين أعطوا دمهم من أجل المجد

أولئك الذين كانوا طواعية يهلكون أنفسهم من أجل جمال قطعة نسيج
أولئك الذين كانوا يصلون على السطوح كما يراهم الناس
أولئك الذين كانوا يحملون اللذة فوق كل شيء
لن أتحدث عن فرسان طرادهم حتى انبهار النفس
ولا عن مقامرين يراهنون على مملكة برمية نرد
تذكر قوارباً أزينت ازهاراً على ليل الأنهار
تذكر أحاديثاً لا تنتهي عن السعادة والفلسفة
وليلة المرج وقد قضيتها تناقش في المستقبل وهو يشحب في أبهة أنوار الحريق
كان لك في الأيام الغاربة جنة هي حماك
كان لك ذراعان انعقدا على عنقك فلا يحلان
كان لك في الصباح الرائق كلام يهدل به اليام

هنا بين اللصوص والحائنين والقوادين
هنا في خسة العواطف واللغة
حيث البهيمة مرأتك الوحيدة صدائك الوحيد وندمك
تحس نفسها وجلدها حضورها وخزيتها
بين الرجال والجرذان القروح والدود
هنا أخذت السماء زرقة ذاكرتك العميقة
هنا أولد بطيئاً حتى الموت

٦

سواد في سواد حضور لا تندّ عنه غير الأنفاس لولا صوت بعد آخر ينفصل عن الجوقة -
الصمت

الأفواه ليست على نفس الدرك لا تدري ان انحنيت ممن تقترب عمّن تبعد

وسكنت الآلة التي يبحثون عنها بلا يد

يا أنيناً بلا وجه

لا يستطيعون أن يسألوا غير إذا سمحت أو كيف حالك

ولا أن يصيحوا أية ريح

كلنا قاعد إلى ماضيه
يعدده على أصابعه خشية نسيان
فإذا قال أحد أنا سأله الآخر ما تعني

لا نتحدث أبداً عن نفس الشيء ما عدا ماء الجرّة
أو جناح الوطواط

هذا الفيلسوف الذي هوى نحزر
انه اتخذ مكاناً له في عشاء الكلاندرين
لكن كيف نربط معه ما كانا بيننا
مشاركاً كل شيء يبدو سبباً وكيف
في هذا المكان نستعيد نشيد المستقبل
ذات يوم هل كان ذلك يوماً لا أدري أية درب جاءت به
هوذا فجأة يدرك ما أصغى إليه

ترى هل عاد إلى حيث التقينا
كان الحرس يأتون بطعام لا يرى
وراءهم عواء الكلاب
لكن ما كان مصير صاحب الدار هكذا
أمر بقطع رأسه الملك الذي كان معنا
وهي ذي تتدحرج بيننا
والنفاصيل أجهلها
ما كنت بحاجة لمعرفتها أريد أن أنام

رمضان

١

ماذا تعرف عما خارج السجن أنت يا من لا علم لك عن الساعة أو اليوم

وكيف تمر الشهور إذا لم تعرف شيئاً عن الزهور
مع ذلك عندما أخذ حرس الليل يقصفون في أكل وشراب
فهم السجناء من الصباح والرائحة والشتائم والأغاني أن الله يديننا
أن رمضاناً بدأ

الصيام شيء غريب غريب

في عمق الزنزانات في بلد محاصر
لكن العسكر يأكلون من خمر الأمير
أوليس من التقى أن تشرب خمرًا اغتصبته من العدو

ما تعرف عن خارج السجن يا مصفدا بين الأقدار
أية مؤامرات تحاك أية أعلام على الأبراج
أنت لا ترى حتى عودة الشمس
ولا نحول الناس الذين يخرجون كدود على الجدران

هل قالوا لك أنهم انقطعوا عن توقيف من يأكل الخيل الميتة
ماذا تعرف عن خارج السجن وأنت هنا في الصمت
لو وقفت على أكتاف مارد ما استطعت أن ترى شعر العالم
لا فائدة من طلب شيء من السجن الأسود الذي يتكلم لغة الطرشان

ما تعلم عن خارج السجن غير أن الأبواق باتت لا تسمع
كسماء فقدت طيورها كمدينة بلا دخان
أما زالت هنالك ليال خضراء للذين يعتمون ألا يناموا
آه يا لتهمة باب عند الظهر على حافة الظل في الساحة
وأغنية تصمت على اقترابك من بستان

ماذا تعرف عن خارج السجن وقد باتت عينك الآن بلا جدوى
بلا جدوى فملك ذاكرتك بلا جدوى

٢

ذات مساء نددت عن الأبراج صيحة
حالت سيلا في الأزقة
حتى ليخيل أن الشفق بعث في الغرب
وهبت ربيع في البشر دفعتهم كأوراق إلى الأسوار
الشحاذون أنفسهم حركوا في الظل أعضاءهم الجرباء
واشتملت كل الأفواه معاً بالنبأ

أيتها النار يا ديكي يذعره دائماً الفجر

يا نار يا لساني وتجديفي
يا نار يا رأسي الأشهب يا نار يا ضحكتي في البعيد
يا حصاني جمع فما يصني لشيء

كانت ترى هناك مناديل الله في غضبه
تعدو في نسيج ومعسكر المسيحين
كخيل صغيرة حمراء تقفز من على سياج الليل

يا ناراً ليست سوى حساب من العناية
يا ناراً تأخذ الملوك في اسطبلاتهم
يا ناراً ظمأها لا يروى في الساعة الأولى
يا نار قلبي جنّ نشيدي أصفر

الزحام العظيم على شرفات الأسوار ينحطم متراجعاً
لا تدفعوني عيناى خلقتا كي ترى هذه الدقيقة
دعني ولو كنت الخليفة ولو كنت عمدا

يا نار الجحيم يا نار الجنة
أيتها النار اشوي الكستنة الملعونة
يا نار التهمي أعلام المسيح
يا نار طاردي الانسان في جلده وعلى حصانه

يستحيل أن تقارن هذا الفرح إلا بفرح الختان
إذ يجيء الأصحاب من أقاصي البرية
وقد حملوا للمحتفى به خياراً وخمراً حلواً

صاحت البنات يا نار شكراً
آخذك في فمي يا فتى جميلاً
يا نار أعلقك على أذني أضعك في اصبعي
يا ذهبي الصغير الحارق يا عاشقي على بيدر

ولقد نسي الناس في غرناطة حتى مساء الغد أنهم جائعون

لما وصلت الملكة ايزابيلا إلى ينابيع القويطار في كل أبهة موكبها ، وفيه ولي العهد دون خوان ، وأخوانه الأميرات ، تبدى أن كل جميل أقل مما يليق بها ، ولقد قدم مركزز قادش للملكة خيمته التي بنيت في الوسط على هيئة برج من مخمل ، ارتفع فوق المعسكر على أعمدة من رماح ضمت إلى بعضها ، من مخمل دمشقي من أغلى ما صنعته طليلطة ، جدرانها كلها من حرير فضفاض ، تحيط به غرف من نسيج مرسوم موسى بالبروكار . ولقد اتسع لكل البيت الملكي فاستقروا فيه كي يناموا ، وبما أن جلالتها خشيت بعد طول الطريق أن يزعجها نور شمعة حد سريرها عنت لوصيفتها فكرة مشؤومة فوضعت الصحن بعيداً عنها في مكان تكفي فيه هبة ريح لاشعال الجدار القماشي .

وضرى اللهب ، فلبل الجند وفاجأ الأمراء في أوائل نومهم ، فدق النفير ، وشبت البهائم وصهلت ، أما ذهب الشمعدانات ، ورضاص الصناديق ، وقصدير الصحاف والصحون فقد ذاب فحال إلى سبائك في رماد الحرير والسجف .

وجرى احصاء الموتى وتضميد الجرحى ومنهم صاحب السيادة جان مولينه ، الذي كان يقفز على قدم الألم ، وقد أصابته في عينه شرارة ظل يرى بريقها فإذا أغمض جنه الآخر أمحى العالم .

وفي غرناطة وقد بدت في رابعة النهار على نور الحريق ، أخذ العرب بعد أمائر النصر التي سيطرت عليهم ، يخشون خدعة قشتالية تجذبهم إلى السهل ، فقد استطاعت الحيلة الاسبانية أن تجرهم إلى مصيدة أكثر من مرة . كان أبو عبدالله قد خرج من الحمراء إلى بيته الصيفي في ظاهر المدينة ، ورأى من هناك خلية النمل المشتعلة واضحة وعجيج الرجال والخيل ، ولقد رده مستشاروه عن محاولة المفاجأة التي كان يفكر بها موسى . وهكذا ضاعت الفرصة وطلع النهار وهم يترددون وانقضى كله بين اجتماع وخطاب ، حتى وضح عند العشي أن العدو استعاد قوته ، وأن جيش فرديناند رغم فداحة الخراب ، بات مستعداً لمجابهة هجمة من المدينة .

غير أن روح الهجوم انتصرت مساء وخرجت زوبعة خيل وسلاح ، فألقت بنفسها على المرج كفضيات تقدم إلى ملوك أجانب في وليمة كبرى ، كان في نفوس المقاتلين كل ميراث بطولة النزال والتقاليد ، حماس الثغور ، جنون الموت ، وعزماً على ألا يترجعوا وفيهم دمهم ، ورؤيا الله وراء كتف العدو ، ما تركوا احتياطياً في المدينة ، كل السيوف كانت تشق الهواء كأهلة ، ومرقت روح الاسلام مرة أخرى في الحقول المدمرة ، الله أكبر ! فاضت عن الشنيل وغمرت التلال ، واخرقت صبوف القشتاليين مرة أخرى ، ففترقوا ، وارتبكوا وترجعوا إلى المعسكر الملكي ، وهو في رماد الحريق ، وقد كانت تتجمع فيه عربات الرحيل . . .

لكن مشيئة الله كانت غير ذلك ، قلبت النصر كخمر التمر ، واندلق الدم غزيراً على البساط وانتصر الرعب على العرب ، فانكفأوا إلى غرناطة ، قبل أن يتبدى وجه الصباح . وكان النصر حليف حامل شارة الصليب وإرادة الله .

أما الذين نهوا عن المغامرة فقد كان معهم الحق الآن أمام الأمير والشعب ، حين أحصوا

الموتى والسلاح المفقود . أما كان ينبغي انتظار هجوم العدو الأخير ؟ هل يستطيع في الفوضى ، والحداد ، والخلاقات مقاومة جنود ايزابيلا وفرديناند ؟ وذراً الشقاق فدام أيام عديدة . لكنهم لما علموا من الجواسيس أن الملكين الكاثوليكين ، وقد أفادا من درس احتراق معسكر النسيج ، اتخذوا قراراً ببناء مدينة في المعسكر القديم البعيد ، اطمأنوا ، لأنها هل يكونان بحاجة للبناء لو ينتويان أخذ غرناطة عنوة ؟

وهكذا بدأت هذه الفترة الجديدة من الحصار ، كان يهزأ فيها الغرناطيون من العدو ، وقد تركوه إلى لعبة البناء . وكيف يأخذون جداً ضجة الخشابين والمعمارين ، وحملة الرماح في هذا المناخ الجميل ، ولاح أن القشتاليين يكرسون جهودهم للشغل ومجيء قوافل لا تحصى ، من عربات وبنغال ، تحمل ما لا يدري من غنائم من كل شبه الجزيرة ، إلى الورشات حتى أن طرق البشارات باتت من جديد سالكة . ولقد ورد ما فيه الكفاية منها لملء المخازن ، والقشتاليون مشغولون بأشياء أخرى ، وصفق مليون من الغرناطيين لمواكب القمح والذرة واللحوم التي أهملوا من أجلها القتال . فقد كان يجرسها كلما وصلت مرة ثلاثة آلاف فارس .

شؤال وذو القعدة

١

لكن حدث أن التحسن النسبي أعاد للغضب قوته ، وبعد أن أكل الغرناطيون في شهر الصيام الفضيل ، كمية أقل مما ينبغي ولو أنها كافية لليل ، واتهم الشجاعة بعضاً ضد بعض واستيقظت الأحزاب . واعتقد الأمراء والعلية ، أن أسوأ الأمر أن العامة وضحت مطامحها حين نهبت بيت أحد الجبابة وتنازعوا فيما بينهم حول الوسيلة التي تخضعهم . وظهر المحرضون في الساحات ، بعضهم يحض المستمعين على التسلح ضد الغاصب القشتالي ، وبعض يجار بأنما يجب القضاء على الخيانة في المدينة نفسها ، ومنهم من اتهم الأمير نفسه ومنهم الحزب العسكري أو اليهود . وزاد في الطين بلة ، أن الوصول إلى غرناطة بات ممكناً من جديد ، فدخلتها أرتال من الفلاحين المغمورين الذين يستجيبون لكل شعوزات السحر ، كما جاءها الفارون من مدن مقاطعة تدمر وعاصمتها المرسية ، ومن شاطئ الشمس ، حيث يكثر اليهود وقد أتوا يدفعون حيرهم وقد حملت الأطفال ، وعلى رؤوسهم دثر مخططة ، تلاحقهم الصيحة المسيحية بأنهم مسمومون أبار : ونفشت في المدينة التي تعبرها أغاني حمالي الماء ، حيمات لم ينفع فيها علم الأطباء ، والخوف من أن يقترب اليهود من الصهاريح وعلى هذا وضعا في الأحياء البعيدة عن احتياطي المطر . وهنا تركوا ، وقد تكدسوا بعض فوق بعض ، يموتون عطشا . لكن أهل المعرفة الذين تصفي لهم الحمراء فضحوا هذه الأساليب ، على أنها غيبة وضارة ، وقالوا أن الحكمة تقضي بذبح اليهود أو معاملتهم معاملة انسانية . لأنهم أصبحوا في غرناطة كجراح متعفنة ، تنتشر منهم أوباء الأمراض التي لا تنظر إلى عرق ، ففضى مسلمون مؤمنون من معاملة اسرائيل . وتكشفت عن أشياء أكثر من تلك التقاليد الغرناطية ، لكن من يناضل ضد خيالات شعب جائع ، يحاصره العدو من كل الجهات ، وقد جاءه ولا غرو الجواسيس من قشتالة يزينون له الأساطير المسمومة !

كان الناظر في الأعالي ، يرى مدينة من حجر تشيدها الانشاءات القشتالية على مد النظر ، ولقد كانت في البدء مصدر سخر وأغان ، أما بعد فقد غدا بناؤها السريع مثيراً للتساؤل . ونقل الرسل الذين أنفذوا كي يجربوا حولها أن الملكة رفضت تواضعاً وتقى أن تعتمد باسمها ايزابيلا ، واتخذ القرار بالألا تدعى كما أراد فرديناند عن تهذيب ، اعتقاداً منها أن تستدر عطف الهما المصلوب وجهور القديسين المشركين وقد رسموا في صور تعددت ألوانها ، وتمائيل جيء بها من المملكة فكلفت نفقات كبيرة ، وهكذا قامت مكان فونتيس دو جويتار ، في ظل الايمان الباطل سانتا- في ،

فكان لها دوقها ، وسجلها الخرائطيون على خرائط الممتلكات الكاثوليكية . وارتفعت أولا في قلب الاسقالة كنيسة بنشدون فيها تراتيل للعدراء ، ويرى الناظر المواكب تطوف بين جدرانها وما اكتملت بعد ، أثواب الرهبان والصلبان .

في تلك الأثناء ، من على الأعمدة النازلة من القصبه إلى وادي حدرة ، من فرجة فخارية للتهوية ولا شك ، وبين الضجة والسياب البديء ، وصل إلى شابين ، جلسا لا يفكران إلا بنفسيهما ، نشيد من صوت كهواء مسبل ، من صوت معروف مجهول ، كأثر بيت أليف .

آه ضيّعت قلبي فيك
فما ألقاه أينما ذهبت
رحلت عني بغنيمتك
فما أنا غير انسان على صليب
تعانق ذراعا الغياب

انتزعت قلبي يا قلبي
أحس مكانه غريبا
أحس الجرح في جنبي
فارقني من أجلك
وما استطعت أن أمنعه

بعيدا بعيدا عن مكاني
يلحق بك قلبي كصياد
كغيمة ومطر
قلبي أنا بحاجة له قلبي يفر
كنشيد ابتعد فاعمى

أخذت قلبي أخذته
من دونه أعيش بصوت خفيض
كما تفعل أبواب اصطكت
من دونك كل شيء سرقة
النهار عندي ليل والنار جليد

وإلى سمحا قال زيد ، دون أن يدع يدها في دهشة النشيد الآتي من الأرض ، في تلك الفترة من العام المترعة بأفكار شبيهة بلدغ : « ما زال استاذي حيا ، يا لؤلؤة حياتي ، لم ينقطع عن الحب ! » .

استمرت في تلك الأثناء حرب المناوشات ، وغزوات ليلة واحدة ، والتحدي يطلقه الفرسان ، والمبارزة في أمكنة يتفقون عليها فوق الهضاب ، ومعارك الجبال في الجنوب . وحمل الأبطال على محفات ، موتى أو في النزاع ، وتعاطم القلق مع الزمن ، وزجرت غرناطة خوفاً وغيظاً ، وجناً وعزماً ، وتحدث الناس في البساتين البعيدة بلغة التسليم ، فما يند عنها شيء على الوجوه علناً أو في أحاديث الأمكنة العامة ، لأن الشعب كان يمتلكه حب مجنون لأرضه ، وكان أكثره مسلحاً ، خاصة الجنود الذين انكفأوا إلى العاصمة من مدن المملكة التي سقطت ، فكانوا الأشد غضبا ، أقل كلمة تهدد بالثورة ، وأبشع العنف ، ولا ننس أن هؤلاء الناس ، تعودوا منذ عشر سنوات على قلب العروش ، وطرد الأمراء فتنصيب أول دعوى مكانهم ، على أنه يمثل الله . . . أما هذه المرة ، فكان يتأكد نصر الغوغاء ، وبما حفلت من محرضين ، لم يسجن منهم ، غير أهوج ، أو من لا سند له في الرأي العام .

وكان قليلا على هذا تكديس المجرمين ، وأنبياء الكفر ، والفاسقين في كهوف القصبية العميقة ، وأيضاً المعذبين الذين تزهروا رؤوسهم على جدران القلعة ، بعد أن تستنفذ فيهم وسائل الاقناع ، كالتعذيب لانزعاع اعتراف من حلوقهم ، بالتآمر ، أو بالتخريب أو الاتصال بالعدو ، وتنديد بأفكارهم نفسها . يروى أن أبا عبدالله لم يكن يحب هذه الأساليب ، فلقد كان مرهفاً ولا غرو لا تطيب له رؤيتها ، ولو أن صاحب المدينة كان يرويه له أيام الجمعة . وما كان الأمير ليهتم بهذه الرواية ، على أنها صيالات حقيقية ، وإنما كانت تطيب له على أنها لون من الأدب . ولقد ينحني عليه باللائمة من لا تذل له حكايات العالم السفلي والبوليس ، والتقاليد تحت الأرضية ، أما أبو عبدالله فقد كان ينسى ، إذا أضغى إليها ، جمال القصور القاهرة ، التي يطوف بها الموت على نحو آخر .

هذا وبعد أي دور كان له في هذه الاعتقالات المفاجئة لمواطنين عرفوا بالشرف حتى نذب، والعسف الذي انتهى الناس إلى اعتباره طبيعياً في ثغر محاصر ، لا تدري فيه متى يكشف القناع عن الدهليز . . . حتى العائلات التي كان ينتزع أحد أفرادها كانت تشك بأمره ، فلا تصيح ألماً . كل اختفاء كان يتميز ، بشيء من الراحة ، مصحوبة بالخوف ، كأنما يجدون تفسيراً لوضع المدينة المأساوي . كانت المؤامرات مفيدة للأمل ، فضح منها العديد لرد الثقة بالشعور ، انهم يخونونك وانك في مأمن . كما أن هذه الطريقة كانت تفسد الخطط الحقيقية التي تداعب العلية ، ويحول الروح الشعبية . . .

ومضت الأيام بعد الأيام
كانت النوافير تبكي في الليل
وجاء رسل أجاناب
على خيل أظلافها ضجة
يدخلون في قمعقة عظيمة
كالخط الذي تلعبه نردا

يتجلببون بالسواد مد ججون بالسلاح
حدادا على المههم من أرض يهوذا
يلمحون بأسائهم السامية
وأراضهم وأجدادهم
على أهبة امراق دمهم على العشب
من أجل ابتسامة في العيون
على أهبة القتال واحد ضد عشرة
وهم منتصبون على الركاب الفضي
حتى يستسلم العرب
جاؤوا يذكرون الملك بوعد

أقسمت يا أمير على التوراة
والصليب والقرآن
أنك إذا انتصر سيدي
تفتح غرناطة وتقول خذ
الحمراء وجنات العريف
واحفظنا ألا تذكر
بابنك بين محالينا
إذا خنتنا قتلته
هل أعد لك المدن
وقد تهاوت واحدة واحدة عن الشجرة
المرية وكذاك اشبيلية
وانحنت ملقة تحت نيري
ماذا بقي لك يا أمير
أخذت لوخا في طريقي
وعسكرت على ضفة الشنيل
وفي يدي قادش وبازا
وقد حالتنا خراباً ورمادا
أريد الحمراء
ألا تصيخ للعقل
أو أمطرها بنارنا
ويرين النسيان
على سقوفك الملونة وسماواتك الجيسية
لأنني أملك سلاح القيامة
لم استخدمه عن احسان

وأنت تعرف أنني أستطيع
أن أمسح غرناطة كاسم
آتيها بالموت والحديد
في نشيد المدفع المسيحي

عندها اهتزت الأسوار
الذين يحملون الشمس على جباههم
وقلوبهم دامية مثل حرش مقطوع
يعنى فيه اللبلل للحطابين
وهم يبحثون عن نسائهم وكلاجهم بعين تائهة
يتخيلون فظاعة الينابيع الجريحة
تدور مآقيهم الراجعة في كل جهة
على موت عجيب يتهدد كل شيء

لا التوراة ولا الانجيل
عندي كتابان مقدسان
قال أبو عبدالله أما القرآن
فلا يجوز أن نقسم عليه
ما هو ضد طبيعته
أما إذا مسست ابني
ودنست كتبك
وصنعت ما ينهى عنه كل اله
فلسوف يسقط عليك رجم من السماء
فإذا كنا تحت دثار واحد
وجمعنا نفس القبر
بين ذراعي الحمراء
كعاشقين اختلطا بالموت
فإن روح الملك وأقوالها لك
لتجد في اللهب الذي يقضمها
لك الجحيم ولي الجنة
لا بد من زمن نقضي فيه
ممالك وبشراً
وينهدم فوقى بيتي
فلا ولي بعدي أمره أحد
هل أشحد أيامي

كفتات وليمة
لقد شبعنا من الحب
وبوسعي أن أرى أمامي قدري
يا ملك قشتالة بفضل ملكته
يا قواداً يعد فلوسه
ادخل إلى غرناطة لعلي أجرك
إلى حيث تنام نوماً يرويك
يا غريباً عن هذه الأرض
هل تعرف كيف تتذوق العبير
الغبطة والسر
الزهور والقبل الراحلة
حتى لو ملك عرقك ذات يوم
يظل مغلقاً عليه أبداً في البساتين
المدنسة لماذا تدمى السماء
حتى المتوسط
ومم يتهالك الليل
عم يتحدث السيل
لماذا ربح الجزائر
تهب نسماً من زعفران

عندها سمع شكوى العلية
من أين جاءك الحق بالتصرف بنا
يا ابن نصر وأنت جالس في البؤس كما إلى طاولة
تحفي عن العالم خزيك وركبتك
أنت تتحرق لاحراق خيراتنا وأشخاصنا
يا ولداً ما أمسكت يده إلا بصولجان حطيم
أنت موكل لهذا القدر وقد دقت ساعته
وأفضل لك أن تهادن ملوك المسيح

القصة في الخريف

١

سقط رجل في البئر
يدان من دم وعينان من ليل
كالحجر والضفادع
لا شيء يتحرك حوله
ليس ما يزكي ناراً ولا ما يلمع
هنا تصدأ الذاكرة
سقط رجل في البئر

أي أي يوم نحن أي يوم من ذي القعدة

لكن ما هذا الصوت
قد يكون جرداً فر
شيء أسود يعج
خطوة خفيفة تتبعها أخرى
كما ينزل في الفرن الشحار
الظل يتسخ مذعوراً
ويكتشف الرجل رجلا في الصوت

الخامس أو السادس عشر أو أي يوم نحن على كل حال في ذي القعدة

آخر آخر آخر ثم
واحد آخر الكل ستة سبعة ثمانية
الظلمة تسعل وتنقب في نفسها
أي يوم نحن اليوم

وما يعينك يا غيبي
أن يكون الأحد أو غيره

قال القادم الجديد نحن في السابع عشر من ذي القعدة

عندها تمحس بدوره أحد الذين لا يقولون شيئاً
وأخذ في الظاهر يعترف بجرائمه

٢

(المظفر)

هنالك كائنات من لحم ودم يقودها الطمع وأخرى تبحث عن السعادة
عرفت أمراء وخزافين كأرض ظمأى لجمال النساء
ومن أهل المعرفة السامية من يضيعون الليالي والألوان في الجبر
وفلاحين دمهم من خمر كرومهم

وفرسان بحر وجوههم من ملح ونفوسهم من قار
رأيت من خدام الله من يهلك في طلاق صوفي
رأيت زنادقة يضحكون على الدولاب
رأيت من يفضل الموت على الحياة
وأهل مدن لا يدركون البدو

هذا العالم المأهول بخلاء يعدو وراء كنوز مختلفة
ولا لغة مشتركة بين الذين يظنون أنهم يتكلمون نفس اللسان
أصغي إليهم وهم على خيلهم أو بين البساتين
أصغي إليهم يتقصون الساء أو بينون السدود
في السوق أو على فلك

أصغي للصوت الأزرق مساء في المآذن
وهذا الذي يقسم الممالك بين أبنائه
وذاك الذي أخذه دوار السلطة له وحده

وهذا الذي يجري وراء نبتة عزّ مطلبها أو يحمل في ساعات اليقظة شوفانة جددها على عتبة
القوافي

يتبادلون فيما بينهم أحاديث طرشان
ويتخذ كل ما لا أعلم من لون لجنونه
يمرون بالقرن وطفل ميت بين ذراعيهم

كيف يستطيعون ألا يعلموا
أن الكل عبث ما عدا المجد

أنا الواقف في ريح الشهرة العاصف
أنا الذي تلف جسمه وروحه أنا
من تأكلني ناري فلا أتجدد
وليس لي من عزاء غير اسمي كحصاة
تفر تحت قدمي من الهوة فأخو باسمي اسم أبي
أنا الذي أحب المجد إلى ما لا نهاية
كل شيء عندي هو ما يضحخ وقع نفسي
كل شيء عندي هو رعدي الذي يجلجل في البعيد
هناك في بلد الرعود

حيث يحتكم المستقبل والماضي
أرض أفخم فيها صوتي كي يبقى ضجيجي
وقليلاً قليلاً أزول فلا يبقى في غير تمثالي
عظيماً متحجراً
أصبح حصاناً ناشباً إلى الأبد على قاعدة اشارة من عملاق فوق أرخبيل
أبا هول مدينة ما ولدت بعد
شراعا عظيماً من صداداً يخفق على صاري سفينة
سراً انتزع من زجاج فلسفي
طبلاً لا يهدأ في قلب أشن المستنقعات
جملة تسطر أبداً على مورد الساء والأرض

في المورد الذي يرى فيه
أن كل شيء عبث ما خلا المجد

تسألون أي مجد في فمي
مجد الانسان الذي يعدو أسرع أو مجد آلة أحل نغماً
وتميلون للظن أنها كلمة وقف على قادة الحرب
والحق أولاً
لا يصل إليه أكيداً إلا من يسقي البرية بدمه
يغدو وقد اخترمته السيوف إلى مدن الخوف
لكن من يقيم على ذكراك يا ابتسامة الأجلاف
يا غزاة غزاهم النسيان غير حروق وندوب
ويتمزق رداؤكم كما الامبراطوريات
تجهل طويلاً كيف تبدد الطائشين

لكنني أحسدك يا طارق ومجدك حامل السعادين
فيه تتحدى شبه جزيرة الثار بحراً حاراً
ومجد بناء الخرائب كمعظم على رؤوس
أجسدك يا قاتلاً قطع البحر والجمال
مثلاً أحسد من يسلم الروح وقد مزقوه من أجل كلماته
أحسدك أقل من الذي يتخذ له مكاناً بين الأصنام
أو يختلط أمره للأبد مع نجمة
لأن ما يهيم المجد لا سبب المجد
هذا الرداء على كتفك تمسه يد شحاذ إذا مررت
المجد الذي يدفعنا للحلم به ويحطم ما يضمه
كقصر أجل ما يكون عشية حريقه

لا شيء يعدل الجلوس فيه
غير خمر المجد الأسود

بوسعك أن تعب من هذا الشراب على عرش أو على مزبلة
وتقر من هذا الباب بعد أن ظننت أنك أمام جدار أعمى
أنظر إلى السماء على أهبة أن تكون ملكك
وأضحك من الذين يحدون طموحهم ببحار أو جبال
تعلم مني أنه يكفي أن تحبه فيكون لك
هذا المجد الذي يشرع نفسه أمامك على السماء في افتراق فخذيها
حتى ولو كان ذلك في قلب السجن
تحت أقدام الأحياء يدوسونك كعشبة في حقل بازار
أقدام نصرهم الغامض القاسي
وتعض قرفاً ومنتعة على سلامياتهم التي من غبار
وهي في خبطها الغافل تدعو
من يولد منها كصباح من قدر الليالي
تدعو متممة الطهارة وامراع البذور
وقوس قرح بعدك بعد المطر يا حياتي
تدعو عدالة ما لا أعلم من محكمة عند الفجر
والزهرة الخارجة من الهلاك
وظاهرة القبيل
تدعو بشاعة رغبتني لما يدينها

وشمس الذاكرة
تدعو زنايق المجد

اللسن

يزعمون الآن أنني لصرّ
فتشت عبثاً عن بداية كل شيء العمياء
لا أجد باب ذاكرتي ولا يوم الحساب
من أي تشابك في الصدفة يولد قدر الانسان
بدر منا هذا أولاً كلعبة
أذكر أمسيات الصيد الماضية في حي البيازين
كيف كنا نعدو حفاة عند عودة الخيل
وراء فرسان عالين يتحدثون فيما بينهم عن أيام الخلافة
والطائر على قبضاتهم ينفض جناحي غضب
لطريدة أخطأها
طائر مخدوع تحت قلنسوة جلد وحلقة ذهب في عنقه
والصيد تدلى على عرق الأكفال في جعب المظلمات الخضراء
والسوط يفرق جمعنا المغمور
وهو يصيح بالبازي ساخراً بشعار الأنصار

لا غالب إلا الله لا غالب إلا الله

كم مرة كم مرة ونار الفرسان في السهل
والانذار على الأسوار وبراز الفرسان في البعيد
كل طفولتنا انقضت في مخاوف تتبدّد
بين الهزيمة والنصر ومن فوقنا تلك الفلسفة
مهما كان لا غالب إلا الله

مرّ زمن كان في غرناطة ملكان
وتمزقتنا نحن الأطفال كما في منافسة بين طيور
نقذف الحجارة في النهج
وفيها يليه معركة من نوع آخر
ونار من السماء كما زعموا تسقط على مدن المملكة
من آلات اخترعها العدو يدفعها أمامه

ذهب أحد الملكين وبات الآخر سيداً لنا
ونحن لا نفهم شيئاً مما يجري

لكن الربيع فتح النوافذ على الأزهار
يا عبيراً مسائلاً لا تعرف فيه
أن نفرق أحياناً بيننا وياسمين على الجدران
وجاءت سنة بدأ فيها خوف الأحشاء
أذكر يوماً ذهبوا فيه جميعاً إلى الأمير
صائحين بعصي وفؤوس ومطارق
ونداء عظيم بالموت بدلاً من
أن يدعوا المسيحيين يدخلون غرناطة وأصنامهم

وكان طراد تحت الأسوار وضجة سيوف جماعية
وفي كل يوم يصل بشر على أقدامهم يحملون أولادهم وثوراتهم
مدينة أخرى سقطت في البعيد والدم
يصعد إلى قلوبنا لأننا لا نعرف أين
نضع هؤلاء الناس وفي النهج سوق
عائلات نائمة وأنا أسير ضاحكاً

أقول لكم كل هذا بدأ أولاً كلعبة

ثم لمع السلاح في الشمس قريباً فرأينا الأبراج
ومعسكر زراذير على الحقول الغربية
ما أسخفها كلمة كلمة الحصار
وكان مفاوضون يتدربون بالفولاذ
واهتزت المدينة لوجودهم فصاحت
بحب أبي عبدالله أن يطردهم منها
فكانت عروضات^(١) بأردية بيضاء تتطاير
وأعاصير غبار في البعيد تنقلب إلى مشاعل
لكن ألم ينشروا الأشجار المزهرة منذ نهاية جمادى الثانية
بقروا بطن الزرع فذرت الريح الحب
لم نفهم أولاً تلك الحرب ما دامت
مخازننا مملأى قمحاً وخضراً مجففة وقطعان الخراف في النهج السفلي

قبل الصيف أصبحت الجرايات ضئيلة فأخذ في العشيات التي ما بين قمرين
ولدان عظمنا جرأتهم

(١) Fantasia ترجمتها عرضة .

يعتدون بقوتهم الفتية على سرج
يروون كيف يفاجتون المعسكر المسيحي ويطوقون
الدواب وهي غافية ثم يسوقونها
عن فرار الرعاة وذبح الحارس
ياله طعم اللحم انتزعناه من العدو
فاقسمناه صباحاً في الساحات
وشيخ يشرحون أصول الغنيمة وشرعها
كما تناقلوها فم عن فم منذ عهد عمر
الخميس لله جل جلاله
لقد أخذ النبي يوم بدر سيف العاص غنيمته
ولو أنه لم يوضع حد للضريبة قبل الأمير
فهو يأخذ أولاً واحداً بالمائة من الباقي ثم حصة الفارس
واثنان بالمائة لحصانه
وأذكر الآية الثانية والأربعين من السورة الثامنة
وخمس الأمير قبل كل شيء

وهكذا ظلت موائد الحمراء عامرة باللحم
ولو أن الذين يعودون والدم في جراحهم
يتعززون بقولهم لا غالب إلا الله

أذكر المغربي الذي أردفني على كفل حصانه
وأندفع يمزق الليل إلى معسكر الروم
كنت من الجماعة التي تحرس الخيل لما تتم الضربة في مخازن الرز والتوابل
عند العودة طالبنا عبثاً بحصتنا
مع أن أحد الملتزمين بكل أسنانه الافريقية
كان يسمينا بزاته الصغيرة

لعبة بل درجنا عليها كلعبة

آه كم انتظرت الليل خافق القلب انتظرت
الطراد عبر الحقول السوداء ، والكمين والحيلة
ورائحة القطيع الخائف وقد همت يدنا
بكل ما يؤكل ويشرب تلك غنيمة الحرب المقدسة
وخمر المسيحي ليس ذنباً إذا كان ثمنه حياة كافر
ثم جاء زمن أعطوني فيه حصاناً

وازرقت الرابعة عشر على شفتي ورنوت طويلا
إلى من أرى من نساء عند العشي حد النوافير
إنها لعبة أقول لكم كثيرون قبل أن يستمتعوا بها
سقطوا حمر النفوس في الحفرة

في الأحياء المكتظة التي تند عنها رائحة وحش لأيا لأيا
أقام الجوع وأطفاله منتفخ البطن
الأمهات كن يناديننا إذا سمعن فجرا عند بابهن حافرا
وضجة سلاح عائد ماذا حملتم ماذا حملتم لنا بزاتنا الصغار
ما كان يجدي بهن أن نردد شريعة النبي
لا الخمس ولا سيف العاص ولا السنة
ما كانت تريد تلك النساء أن يفهمنا
وجاء غرناطة في الخريف فارون من نوع آخر
يحيئون آفاً على نور المحارق
إنهم يهود قرطبة يسرون إلى الباب
إلى ملجأ محمد
يا لها أفواه زائدة يسكنها كما زعموا الطاعون
وما كان بوسعنا أن ندعهم جميعاً للموت

وجاء الشتاء فتناقص قليلاً قليلاً عدد النبلاء في عصبتنا
إذا اجتمعت ليلاً في السلاح على شاطئ الشنيل
بعض أخذه الكفار وبعض قتل على سرج وآخرين
أجهدهم ولا شك طول هذه الرياضة الليلية
أما نحن الذين ما وجدنا عظمة في غير هذه اللعبة ولا خراً
بل ولا حماساً يغير هذه اللعبة
فقد بتنا لا ننتظر الظلمة بين قمرين
صار طرادنا سناناً أبيض عبر الضباب القاتل
فدوت رابعة نهار نصف الليل بصياحنا
لا غالب إلا الله لا غالب إلا الله

كان هذا ما يعيننا فحسب وماذا لو جرّدونا إذا عدنا من الغنيمة ونحن نرتجف كبزة

لكننا كان النهار أحياناً طويلاً ونحن ننتظر الليل
هنا وهناك كان يموت أطفال ونساء
ما أبشع رؤية الجوع
وأحسب ما يذهب للقصر من غنيمة وخمس

وحصة النبي من الأربعة الأخماس وقد قسمت على مائة
وقامت مناقشات لا تنتهي حول ما إذا كان عدلاً
تقسيم الغذاء على غرار الأرض والجمال
وأن تمشي الأندلس على عادات خراسان والحجاز
وجار الشيوخ بالشكوى من زندقتنا
لأنك لا تستطيع في غير سنة البلدان الأولى
أن تهمل من ماء الشريعة القراح
ولا يفرق بين السارق وجند الله
غير حديث النبي
وما من رامة وحل تحت الشمس إلا وتوجب عليها العشر الذهبي
ولا حفنة فاصوليا ولا جرابية لوز
المرأة التي بين ذراعيك ألتست مسؤ ولا عنها أمام الله
وعلى م تبني حساب ما يخصك إذا لم تقيم
الفرق بين الغني والفقير وإذا
لم تعرف اسم مقاييس السلف

كنا نصغي طويلاً لمن يتحدثون في العلم
لأن كلامهم كجوز قطفوه من أعلى شجرة
ثم تفاجئك الشهوة بالضحك والعدو والقتال
وتمسك بك عن محاضرة حول جباية الضريبة عن آبار النواعير
عندما يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة فيتبارون فقهاً
حول معرفة أي مفصل في القدم يحدد به عقاب المذنب
وينسجمون في تعداد جزاء من يؤخذ بجرم الزنا
لأن حكمة القصاص يطيب لها أن تصف اليد المثقوبة
والكاوي الذي يدخن منه الجسد وجزاء العين في محجرها

لكن هذا كله هذا لم يكن من قواعد اللعبة
أه أعد ولا تصغ أعد أعد حتى ينهر منك النفس

لكن لما فقد البصل والعسل
ووجدنا في الصباحات مهاري مينة عمرها عام
انترع منها القلب
من كان بوسعه أن يصغي لتلك المحاضرات بأذن مسلمة
من عاش مرارة هذه الأشياء من كان خبزه تمتمة
لا غالب إلا الله

وإذا بهم يزعمون أنني سارق
لأنهم لم يستطيعوا أن يمسكوا بعصاة الجلد على عيني
لأنهم لم يستطيعوا ضبط الطريدة وفي عنقي حلقة
لأنني لم أبق على قبضة البياز
لأنني ضربت الهواء ضرباً خفيفاً بجناحي
لأنني انقضضت في الليل لا أبه لدورة القمر
لأنني أعطيت ما لله دون حساب لأبناء أُمي
يقولون أنني سارق

كل هذا لم يكن في البدء سوى لعبة أما إذا قطعتم يدي اليمنى
من يمسك بعنان الحصان
من يجري كي يدفع عنكم عند الأسوار إذا جزرتم كعبي
أنا لست سوى طفل ولن يكون نصركم عظيماً أو في سبيل الله
إذا غلبتم طفلاً ما زال يلعب

لماذا قبضتم علي لماذا وضعتوني في هذه الحفرة
كنت أطمع الجائعين أبدد من أجلكم قوتي
قوتي الفتية المجهولة وقد شدهتني أنا نفسي
كانيجاس ينبوع من جبل
ما كنت أدرك خطر الموت
إلا أنه لعبة أخرى مع أن الأمر يتعلق بحياتي
في اللعب قبضتم علي ضربتموني وأنا على الأرض أهتمت في الرجل الوليد
وهأنذا بين المجرمين وهم يصيحون جميعاً ببراءتهم
قبضتم علي كطير براحات أيديكم العنيفة
وأنزلتم عصاة الجلد والصمت
تقولون أنني بلغت السن الذي أسأل فيه عن جسدي أمام الله
عمر القصاص وحديده في قدمي والليل في عيني
أخذتموني قبل بدء حياتي عند بزوغ فجر نفسي
قبل أن تلتفت شهوة شفتي إلى حلو البنات
كل خفقة من قلبي بين أصابعكم كل جهشة من عذابي تواجه
ذراعكم المتوحشة
لا أسمع إلا صخب الغضب وقد حل أصفاده
تزعمون أنني اقتربت من الخامسة عشر وانه عمر الحقد
وانكار نفسي ما دام عمر البؤس

ما كانت ذراعاي اذن إلا للصليب
وحلاوة يدي إلا للمسامير
ومن قلبي تصعد لا غالب إلا الله
الذي لم يمنحني من أجل السقوط أمام
الجلاد غير هاتين الركبتين الساذجتين
ويقولون الآن أني سارق

٤

البشع

تسألون عن خطأي يا رفاق
ان كنت قتلت أو سرقت أو خنتُ عشيرتي
وما أفعل في أعماق زنانات غرناطة
تشبهون بي لأنني بلا سلسلة ولا غل
منذ متى أنا هنا وحتى م أبقى هنا

ألم تقرأن السورة الثانية عشرة
لما ظهر يوسف عليكن يا نساء
عبدته قبل أن يتكلم
وتدحرجت البرتقالة من جلابيكن على أقدامكن
دمت ايديكن تحت السكين دون ألم

نستطيع أن نروي فلا ننتهي من هذه القصص
هنا يكمن كل شيء في الحكاية من مصر إلى الدم
والزينة والذراع والنهود الناهدة
والأصبغة العميقة الثقيلة والعطور القوية
وهيئة هذا اليهودي البريء المستقة

أكنت قادراً على أن أعيش دون أن تلتفت
الكائنات كما تلتفت إلى الشمس شجرة نادرة
بجدوعها إليّ تحت تأثير الطبيعة
التي تجعل إلى لحظة الانسان عندها شبيهاً بالله
في نشوة عيونها العظيمة

لو أني أستطيع انتزاع لحمي مني
شعري وراثتي وحركاتي المعروفة
فأكون من الذين يعشقون لأول نظرة
إذا فتح الباب وجاءوا
لا يعجب أحد لحظة أنهم عراة

اني لأعرف أكثر مما ينبغي دواري وهوتي
أه لو كنت مسخاً كنت على الأقل
أعرف أني بشع فأحس وأتالم
مثلاً يكون آخرون جميلين أغبياء ومغرين
بشع تلك البشاعة البشعة بشعاً في بشاعة

أردت كثيراً أن أحطم هذا العلج
الذي يلحقني ظلّه عمداً وراء قدمي
وهذا الكتف الضعيف وذلك الفم
مثل أثر ملّ على زجاج الليل
صعب أن أحتمل ما أنا

لا شيء سوى ذلك مما أعرف حدّه
هذا القرف الطويل المتجدّد
كماء يشبه الصباح ويقلّده
خان يقعد فيه الماضي
قدماه متعبتان من خطوهما الذي اعى

خجلي مني على مدى عمري
كان يكبر كل مرة أراني
من يستطيع انتزاع وجهي من روحي
وقد وقف بيني وبين العالم كذئب ملعون
مثل كاريكاتور لأقوال

كل شيء يذكرني حطة الوجود
وهذا النفس الذي يكمد له العرق على الجلد
أنا بشع كغسيل على النافذة
كدعس قطع في مكانه
كرعب صفدع عارم

جرميتي أنني بشع جرميتي هي شبيهي
مذنب أمام نفسي بهذا الجسد بلا جمال
تطاردني المرايا أخاف اهانتها
ترعبني أحياناً نظرة الآخرين
أعيش منذ الأبد كشيء مرمي

جرميتي أنني بشع حياتي كفارة
المقصلة كانت تكون عفواً عني
أسوأ ما في قدرتي وجودي
أسوأ من عذاب المجرمين في نار الآخرة
أي عذاب يليق بجريمة الميلاد

لم يصدقوا قولي عبثاً جهدت
في أن أكشف عن روحي السوداء كبومة
قادوني من دائرة لدائرة في الجحيم
أبرزوا قدمي الشوهاء وأذني أذن الذئب
فتحوا يدي يدي خائق لو أنهم سمروهما

رعي مني ناب تنهشني
أصغى حاسداً في عمق السجن
إلى صوت الحديد في أقدام المحكومين بالاعدام
هيه لم تنفعي كل اعترافاتي
تركتموني حياً يا قضاة بلا رحمة

٥

آخر القادمين

أصغى إليك قال صوت ذاك الرجل الذي غطاه الذباب
وعلى زاوية فمه التراخي جرح رهيب
رموه دون أن يغسلوه في رائحة دمه
لا يعرفون عنه غير أنه لم يرق للأقوياء
يتكلم ثم يتوقف أحياناً على عتبة ذاكرته
أصغى إليك قال الصوت في أحلك ظلمة سوداء

ربما ما كان لك الحق بأن تكون بشعاً أو تنبغ

لكني لست لصاً لست قاتلاً

مع هذا أنت هنا ولا بد من سبب
كنا من قبلك في السجن أكداً
ان لموك فضربوك فما هذا بلا سبب
انه تزوير عملة أو انه حدث أمر آخر

لم أفعل شيئاً ضد شرائعهم لم أنظر لنسائهم
عشت على الدماء من عملي كنت أقول للعابر سلاماً
كنت ما دام النهار أطوي قصب السلال
لقد اكتفى أبي وأبوه من قبل بصنعة القفاف
لم أحلم بأن أتبدل ولا هما حلماً
حياتي كانت بين أصابعي يخفف عبثها الغناء
ما كنت أطلب شيئاً طلعت الشمس أم نزل المطر
فعشب الأطفال ينمو في غبار الشارع

أه قال الفيلسوف وربما كان سواه ظننته هو
ترددون نفس الأغنية الفضيلة فيمن لا يملك إلا قليلاً
لكن جسديك يمكن أن تتنابه الغنغرينة مهبها أوغلت في الفقر
كيف لا تتفرح نفس من لا يملك شيئاً

أنا لا أفهمك أليست الحياة العمل ولا شيء غيره
لا تستطيع أن تنام دوماً فيما يشحد آخرون على هواهم
ان جهدي وزمني لا أجني منهما غير الخبز والثوم
من هو اذن الذي ينكل بمعده أرجوك من اللص
كان علي أن أقضي وأهلي جوعاً فلا أقول شيئاً
لكنما هي ذي الضجة قائمة في كل مكان لتسليم غرناطة للرومي
وانه لأفضل أن انتزع قلبي بيدي من صدري
وليفعل بي ذلك الملك ما ليس مشروعاً إذا شاء
افقأوا عيني حطموا عظامي أحرقوا لحم وجهي
بيعوا أبنائي في السوق أتخلل عما أحب
أشرب البول إذا وجب علي ارموا جنسي إلى القطط المتوحشة
أرفض الحياة وجنة محمد
أشفقوا على غرناطة فحسب أشفقوا على الأبراج القرمزية
أشفقوا على الحقول وعلى سواقي الكرمة على التلة

إذا خان السادة فالشعب يسهر على الأسوار
تسلح بالغضب وعصي ومدى
كل النساء معه يزغردن
وتلك المرارة المفاجئة كمد عارم
يهيل بين البيوت عنب الرؤوس المتوحشة
كنا على استعداد للموت كي نطرد ظل الصليب
كي ندفعهم نرصهم نرميهم حتى قصرهم قصر الينابيع
حتى عتبة المرمر والظل حيث بني ما بني للأقدام العارية
حيث تفر الغزلان أمام جمعنا الحائر
عندها جاء الجنود

الشطرنج

١

ذو الحجة ذو الحجة شهر الذهب وقد جعلت فيه أواخر التين في عام ثمانمائة
وست وتسعين بساطاً كانصباب دموي

لم يرد فيه شيء من البرية لا حب ولا زيتون لا حصاد تلك السنة
وخوف من الشتاء أمام من يتبع ظله في أصيل نستشف منه الليل
وغيث من أنبياء أكثر عدداً مما يسقط من أوراق على الساحات
لا يكفي كل جنود الأمير تكتيسها
وهناك تقوم أبراج سانتا في

تحمل على مئزرها صليباً من شارعين يفتح كل فرع منهما على طرفه باباً للرياح
الأربع تنفذ منه كما ينفذ نفس الله

وفي مركز الأربعة الفروع أقيم حقل مارس يتسع لخفقان قلب الجيش كله
وكانت تتراحم الجمال والبغال قدام غرناطة الجائعة

فتحمل لقيادة المسيح العامة الفواكه واللحوم النسيج والسلاح الخمر
والطحين المقاتلين والتجار والرهبان

وعلى الأسوار ترى مواكب الصلوات والأناشيد وكأنها باقات رماح في النور
وفي كل يوم تؤخذ قطع جديدة من رقعة الشطرنج ويحكم
الحصار حول المدينة من أجل ضربة قاضية ماهرة
وتقترب منها كل يوم ما يسميه صاحب السيادة
جان مولينه في كلامه ابراجه المتحركة

وهو يعني آلات التغطية التي يحمي بها الجندي المسيحي في قفزه نحو الأسوار
من خانة إلى خانة وعينه توجهه وجمعاً شديداً ولو أنها معصوبة منذ شهر ثلاثة
وغنى رسول مكسيميليان فقرظ المشهد بأبيات من عشر تفعيلات

لأنما يبدو أن موسيقيّ الكلمات الشماليين يعدون المقاطع على أصابعهم
لكل منها نوتة على الناي أما الأخيرة ففيها صيحة
القافية وكأنها أنف ينتصب أما اسمهم فالبلغيون تهذيباً

مَنْ مَلِكٌ أَيُّ دَوْقٍ فَرَنْسِيًّا كَانَ أَمْ يُونَانِيًّا أَوْ لَاتِينِيًّا^(١)
خاض الهيتان ضد ماران افريقيا
غير ملك اسبانيا والأفان
وهم أفضل من السارازان^(٢)
يحتكون بجيرانهم بالحرب والتجارة
لمصلحة الدين الكاثوليكي العامة
لا أحد منهم يهتم بالتأؤب حين النجدة
كل يسمعها بنفسه

هذا الكلام للفرنجي الغريب الذي يدعو عرب الأندلس ماران
ويسمي المعارك هيتان وذوي القربى الأفان وكفى
فنجد الفهم عسيرا

٢

أبو عبدالله يتحدث إلى العلية في قصره على الهضبة

من لم يعرف الأسر
كيف يدرك تحولات روعي
أنتم تأخذون علي أنني رميت
بتاجي إلى فرديناند بدرهم
لعلي أعري ملككم
فأغطيكم برداء الله كأوراق شجر
دون أن أرى أن الطيور لم تدع
من وجهه وقفاه غير ما يكفي لففص

(١) المقطع مكتوب في الأصل بفرنسية كلاسيكية .

(٢) العرب .

كفوا عن صممي بساء محمد
جنتي أنت يا مملكة الزنبق
وحقول زمرد وفضة عشقت
من يعدلك يا نوري ونحيبي
حتماً ليست الجنة التي أحتقر
وذلك السكر الأبدي والعذراوات الكاملات
ألم أكن هنا سيد الجنان
ما كان شيء كلداتي وأعيادي
لا شيء انتظر غير التراب والنار
إذا تجاوزت العتبة والحد
كيف يريدون مني أن أنكرك
فمي يرفض ومثله لساني
أنا عاشق هذه المدينة وهي بين ذراعي
تريدون انتزاعي حياً من حبيتي
ارتجفوا إذا رأيتموني بلا عذار ولا دنار
وحانت ساعة جسدها وشقائنا
اللعنة على الكلمة ومن رقى بها
مجنون من كانت كلمة قالها جداراً عنده
ما بهم أني كذبت في غرناطة على الملكين المسيحيين
الحنث الحقيقي ألا أحنث
ليس شراً عظيماً أن تخون إذا وعدت
وإنما أن تبقى وفيماً لما به كذبت
افتحوا لي القرآن فتشوا لي عن السورة
التي تأمر بالآلام هذه الشهادة
أنظروا إلي واقفاً بين الشرفات
وأصيل الإسلام على وجهي
انه آخر بلد تركه الله بين
أيدينا السلطة السالفة تتآكل فيه وتمحي
أتريدون أن أعيش في دمي المراق
ناكراً قلبي خائناً شعبي البائس
أتريدون أن أموت وقد بعثت روحي

وتعثر ظلي في باحة الغالبيين
ما فات الزمن الذي نظهر فيه ما نسوى
هل وجب أن نؤمن بالنجاح فنصيح بالنصر
ما فات الزمن فنمسك بالخيال
ونرفع أعلامنا ضد التاريخ

٣

عندها نذت عن الشيوخ ضجة جراد في بساتين بعيدة
حتى لتسمع صيحة روحهم تحت أثوابهم أو تحت نطق الجلد
لقد حسبوا الأمر كله لتكون مسؤولية الخطأ كله على الملك الصغير
كانت القيثارات تستمد وتصفر الحناجر والأصدا
لا أظن أنكم تزعجون بالوساوس الفارغة الأسطورة
باتت رواية كل شيء جاهزة حتى التفاصيل كما يفهمها الشعراء
وعلى جبل « بدول » وجد مكان الراحة والآهة^(١)
ومن يستطيع الاعتماد على أبي عبدالله فهو حسب أهوائه
يقول اليوم شيئاً وآخر غداً ومن يعتقد أن الأمير يجزيه على حماسه يطبع الأمير سريعاً فما يفتأ يسمعه
يروى له غزلاً آخر
ما رأيكم لو تركناه يقذف بنفسه على الرماح القشتالية
انه لجميل نادر أن ترى ملكاً وهو يقاتل
ان السلام ينزل على ملك ميت كشعاع عبر زجاج ذي ألوان
والغالب يتكلم بلهجة أخرى بعد الجنازة

غير أن أبا عبدالله أتى إليه بالموسيقين
وهنا ينتهي في هذا المساء مجلس الشيوخ الذي دعا

٤

عجبية الموسيقى انها ليست سوى حركة
كأنها ماء تنظر إليه كل ما فيه غامض النامة
روح تلاعبت بها الريح فتناثرت الغيوم
كل ما فيها يظل نهدة حلم ثم سراب آخر

(١) Padul : اسم لمدينة وجبل ، يروى أن أبا عبدالله توقف فيها عند خروجه من غرناطة .

الجملة من كلمات آخر وما تفتأ أن تتبدل التمتمة
 أن تزهر أو تذبل فما تلبث أن تحتفي
 تفر كالزمان كزمان لا يعود
 يهدد يغري يلد يموت هو سهم وهو هدف
 الليل والنهار معاً اللهاذا تجلت عن كيف
 عجيبة الموسيقى أنها ليست سوى حركة
 عبّ من لذة الملك عبّ من لذة اللا ألم
 أنت يا من تعرف أن قليلاً يكفيك كي تصمت
 أنت يا من تدري أن العبير سعادة سرقت
 أن الأمنية تمزق أن كل سماء باب بلا مفتاح
 أن النغم صدقة تمنح لمغرفة الأذن
 يا مرأة سيان أن تنام فيها الروح أو تستيقظ
 يا دما نبضه عقل وجنون
 يا زمناً رماً مقلوباً لا يقيس غير النسيان
 أصغ إلى وتر يصدح والريح تتكلم بغير كلمات
 إلى لغة الطيور تطير لها الطيور
 جوقة كحقل قمح تحنيه كتف السنابل
 أيدُ الانسان تبدع هذا الصوت الذهبي أم الله ينتشي ثم يغفو
 أنت يا من تعرف أن الحب ألم وأن الموت عنف
 عبّ من لذة الملك عبّ من لذة اللا ألم

٥

من تخشى أكثر أيها الملك الأمراء أم الشعب
 وأمامك نهاية غرناطة وليس لك غير أن تختارها
 أخافوك ممن غتّى ومن رقص أخافوك من الفلاسفة واليهود ومن ظلك
 حركوا أمامك قدرك كقماش أحر أمام نور
 فظللت موزع القلب بين المياه الحية
 يا من عشت بعد موتك دون أن تخشاه وما يكون نهر الزنجبيل إذا منحته في الفردوس
 فذقت رحيقه وعطر زنجبيله
 لو قيس بينابيع حياتك

عليك أن تحزم في بطانتك
فتقرر أمرك وفي ذاكرتك مثل من افريقيا

إذا قضي عليك بفتات المائدة
ارم إلى البحر بروحك وملكك

انهم يلحفون عليك من كل ناحية
فلا تستطيع أن تنسل من تهديد الصلاة
وغرناطة تزجر فيما تنزل إليها أبدا على حصانك
كهي لا ترى عيون الشقاء
وفي قاعة السفراء تحت سقف الصنوبر والأرز في الحمراء
في قلب الهندسة الزرقاء الحمراء الخضراء الذهبية
اجتمع شيوخ الشغور وفقهاء غرناطة والقضاة وأهل الرباط مع الأمير وقد جلست حده أمه
ملثمة بين العلماء والوزراء

كما يقرروا هذه المرة حياة أو موت
آخر خطوة في القضية
يا محمد أيها الملك انهم أشعة مملكتك
أصغ إليهم يردون على أقوالك بكلمة واحدة
التسليم يبدو انهم نسوا كلام الاسلام وحثوا بأنفسهم
فلا أذن لهم إلا لهذا
الوزير العجوز الذي طردت أمي القاسم
عبد الملك وقد أعطوه فرصة الخطاب كأنه
صوتهم أفواههم
خفقان جفونهم
وأنت لا تصغي له فما أنت غير حلم مما وراء بحر فرسان مصر
سودان سود أو من يدري
قد تنتظر ملك المغرب لأنك تفهم اليوم
كيف أتى امراء قبلك بقوة بربرية
كأنك تبيع الوقت حتى
وصول خيالة الصحراء
كأنك تبيع الوقت في عدوه لعل
ريح السموم تصل إلى أرض الأندلس
فتكنس رقعة الشطرنج في لفحة من أنفاسها

لكنهم جميعاً
يقولون لك أن عليك أن تستسلم كما أقسمت
كما أعطيت عهداً بتسليم غرناطة للروم
يدعونك إلى ما لست
يكرهونك على نفسك أمام العدو

أين ينزلون الآن لا مكان ولا مرفأ
يفتح نفسه لجسد افريقيا
من قادش إلى بلنسية لا مرسية ولا ملقة ولا
المرية المدن الثلاث
أين ينزلون من البحر السوربي إلى البحر الغربي
والماكر العجوز يريدون أن يذهب إلى سانتافي
لا يقسمون إلا به وقد ثاروا كريح في رمال
لا يؤثر فيهم قول الملكة الأم
موسى يقترح عبثاً خيله ورجله
يذكر بشرعة الجهاد موسى يستشهد
بكتاب الحماسة والشجيمان
بكتاب النائمين به شهد بابن حديد والحماسة
لكننا فسد الخطاب فقدت الكلمات معانيها
يريدون أن يذهب الماكر العجوز إلى سانتافي

أن تبيع الوقت كأرنب على دروب ضيقة
أن تبيع الوقت كزانية في حليها
أن تبيع الوقت غشاً على غشاشين
أما إذا شاء المحتسب أن يحمر التراب مرة أخرى من الدم
فاذكر أنه قيل أن أسداً يقود ألف ثعلب
خير من ثعلب على رأس ألف أسد
لقد حضّ الله على الشجاعة وبارك في الحيلة

أن نسلح الشعب قال موسى انها عنده
الاكسير لا يفكر إلا بمنح الشعب السيوف
وأول ما يهدد ذلك رأسي
أن نسلح الشعب ثم نرى
أن نبيع الوقت حتى الشتاء
وابتسم أبو عبدالله كما في لعبة الشطرنج

عندما تتردد يده عن القلعة ثم فجأة
يحمل إلى قدم الشاه بغتة فيلَّهُ

لماذا ننتقي التفاحة بدل البرتقالة

ابتسم أبو عبدالله ووافق علي ارسال
أبي القاسم عبد الملك ناطقاً باسمه
إلى سانتافي محملاً بالهدايا والمدائح
وأن يرافقه الحاجب والقاضي
لأن خائناً وحده لا يكفي لتسليم الاسلام

ويبدأ عام ٨٩٧ للهجرة

١
محرّم

قالوا من هو الذي يدعى بالمجنون
كان ذاك يوم ربيع عاصفة كأنه محكوم بالاعدام
تجر الطبيعة فيه أغلاها
سمعوا تقعقة سلاح وخطا
انكشارية
وفاح في الحفر تنن البشر
وطارت شتائم في الليل حين توقد
مشعل

زأرت البهائم المتوحشة في أقصائها حقداً على الجلادين الأحرار في غدوهم ورواحهم

حتى إذا جروا تلك البومة إلى النور الخارجي
أحس في داخله صمتاً صاخباً ظن أنه سوف يقضي به
لما اكتشف أنه جللته القذارة والجراح
حتى إذا مر بيده على وجهه ارتعش
قال لا ليس اسمي قيساً العامري
فما أنا في عمره ولا من دمه ولا لي فته
ولا الجمال

وحوله عمالقة من جلد وععضل
أجلاف كما يجب الملوك أن يكون حرسهم
سخف من ملك هوى
قال أحدهم أيها المعجوز يبدو أنك تعرف أغاني

تحدث عن فارس وحداة العيبس على الدروب
غَنِينَا لَأَنَّا نَمَلُ حَتَّى الْمَوْتِ فِي مَوْقِعِ مَحَاصِرِ

أَمَا هُوَ فَكَانَ لَا يَفْهَمُ مَا يَرِيدُونَ مِنْهُ

وَفِي الْبَعِيدِ كَانَ يَسْمَعُ صَوْتَ وَادِي حُدْرَةَ وَقَدْ نَفَخْتَهُ أَمْطَارُ الْخَرِيفِ
كَانَتْ السَّمَاءُ عَلَى زُرْقَةٍ لَيْسَ مِثْلَهَا إِلَّا بَيَاضُ الصَّوْفِ
وَتَأَوَّهَ أَحَدُهُمْ فِي بَيْتٍ مَجَاوِرٍ
وَرَأَى فَجْأَةَ السَّجِينِ الْعَالَمِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ الْبَشَرُ
كَعَرَبَةٍ مَحْطَمَةٍ

قَالُوا لَهُ غَنِّ لَأَنَّا أَجْهَدُنَا الْقِتَالَ
وَشَرِبْنَا النَّارَ الْمَحْرَمَةَ وَالْقَتْلَ عَنْ فِرَاقٍ كَمَا تَرْمِي حَجْرًا عَلَى رَامَةٍ
تَعْبَانَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ الشَّتِيمَةَ نَفْسَهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْلُو حَنْجَرَتِي الْآنَ
دَمُ الْيَهُودِيِّ لَا تَسْرُّ لَهُ عَيْنَايَ
لَا أَلْتَذُّ بِالْتَعْذِيبِ

قَالُوا لَهُ غَنِّنَا حَتَّى تَنْهَمَلَ دُمُوعَ رَأْسِنَا
يُرِيحُنَا أَنْ نَبْكِي إِذَا كَانَتْ الْمَوْسِيقَى جَمِيلَةً وَتَحَدَّثْتَ عَنِ الْأَبْطَالِ
غَنِّ يَا مَجْنُونٍ لِلَّذِينَ بَاتُوا لَا يَعْدُونَ الْمَوْتَى
نَشِيدًا جَمِيلًا عَنِ الْإِسْلَامِ نَتَعَرَفُ فِيهِ إِلَى خَيْلِنَا وَالْمَجْدِ
وَشُعُورِ النِّسَاءِ السُّودِ وَقَدْ حَلَّتْ عَلَى أَقْدَامِنَا
غَنِّ يَا مَجْنُونٍ حَتَّى نَحْسُ بِالشَّهَامَةِ
غَنِّ أَوْ أَرْفَعِ سَوْطِي عَلَيْكَ حَتَّى الْمَوْتِ غَنِّ

النشيد لا يأتلف مع الكذب
قال النشيد ليس أمراً
قالوا غنّ نقول لك غنّ
وضربوه حتى غنّ

أخجل أن أقول شيئاً عن هذا النشيد الذي انتزعوه منه
هذا النشيد الذي ليس فيه شيء من الانسانية

لأن الحياة تبدو فيه حلوة
والانسان كريم كريم
السلطين يعدلون
بين الغني والفقير سواسية
والأيام تلبس تيجاناً
لا أقول شيئاً لأنني أخجل
لكل ما غنى من أكاذيب
من أجل الألف أمل وأمل
من أجل قلبي الذي رموه بين المسامير
والسهاء التي نزلت إلى الأرض
ومعجزات المجدفين
آه الكلمات يا للكلمات
تتصيد كشبكة
لو أن العالم يندرج كذلك
فلا نراه كما هو
نصنعه على صورتنا
اللاشيء أجمل من المرايا
غنّ قال الجلادون غنّ
فغنّي ليلاً ونهاراً
وهم يصفون يهزون برؤوسهم
وتلبسهم هيئة الرعاع على لفظة الحب

لو تعلمون من أين أتجلى
والظل الذي يتبعني أياك كنت
لو تعلمون ما ينهشني
لو تعلمون ما يسرني
وهذا الخل وتلك الاسفنجة
أيها المساكين أيها الجلادون المساكين
آه أغلقوا أغلقوا فمي
قبل أن تعرفوا عني ما لا ينبغي

أما هم فما كانوا يسمعون غير القوافي

فيقولون غتنا غن أيضاً
كان ذاك شهر محرم
ومن الباب يُرى
على عالم مأساته الأسود
مطر مطر مطر

٢

الحمّام

قال المحتسب موسى ايتوني بذاك المغني الذي سمعت عنه الأقاويل
في قاعة المرمر الأبيض كان يدمى من كوي السقف نهار قرمزي
ايتوني به قال موسى وهو يدور بجثته العظيمة بين يدي العبيد
المللّكين
وفي البخار الخائق يبرد الماء على جلده كثفاة استولى عليها الخوف
ويمس الهواء المخنق الثقيل حيث شاحذ السكين يخلق الجماجم كبيض
لكن هذا الشعب وقد تمرى واختلط أجساداً وأعماراً ماذا نسي على البلاط
ان أحداً لا يحتفظ هنا باسمه ولا ثروته أو فقره منذ ما يخلع ثيابه
انك تشم هنا رائحة الانسان الملكية وقد اغتسل طويلاً وأصبح قادراً على الحب أو الصلاة
انك تشم ياسمين الدم والشنان الذي يدللك به المستحمون أكتافهم بلا هوادة
بينهم الثور والسلوقي والسنور كث الشعر أو متوفه ، أسوده أو أشهبه من في أوج القوة
ومن بارحها
كلهم بلا عمل يلتفتون ناحية الحوض وقد برزت منه جميلة وثنية من حجر
فينوس أناديو مينا قديمة جاء بها القرصان من صقلية
ترى ما يدفع هذه الكائنات الكاسرة الشهوانية إلى الرغبة في كمال المرأة
غير أن كل جسد امرأة إذا قورن بها أحس أنه أهين من أعماقه
والجسد الخفاف أقل جمالا من الكائن المصنوع النقي الأبيض
يا جسداً يتنابه العرق أنت ضيابة ونور
وضرب الجار اللطيف جاره بالأغصان

ذهبوا يأتون بالمجنون العجوز فلوا قمله وجردوه من رداءه

رداء السجين كي يكون بين الآخرين رجلاً عارياً مثله مثلهم
حتى لقد ظنّ أنه حر ورفض الغناء لأنه ليس مهرج خمارة ولا غجرباً
واستبد بالاحتساب غضب اضطرّوا معه في حرارة المكان
أن يأخذوا من ظهره المعقد دماً كثيفاً كهلام الكشمش
قال له وقاد أتون غنّ كي تهدّته فلا أتهم بخنقه
وغنّي فكان قصيده كالتمثال في قلب المياه جماله لا يطاق
جمال وثني يخرج من فمه البالي لهيباً مجنوناً نائراً
على صورة الحب ولبيق له من ذلك اليوم فمه وقد احترق باسمك
اسمك المجنح ما يكاد يجراً فيجأر باسمك السا حتى يلم بشفته المألحة
اسمك رداء بهي سرقه فأمسك به شحاذ بذراعي بؤسه
اسمك سمور أبيض عبر نار كقبلة لفحتها الرمال
اسمك على كتفي طير خرافي قفزة روح فوق مقبرة الموتى الأحياء
اسمك الخفيف أشد شقرة من الهواء اسمك جرح وقمح يمرع على لساني
أصيح به في نقي الريح بكلمتي أحبك أكتبه على بخار الزجاج الأزرق
الشاحب

حلم يقظة خوف مبهور النفس لاعج سر ما أفتأ به أبوح
قلق يا جميلتي اسمك يسكنني كمنحلة في جمجمتي يلسعني
اسمك يأخذني من يدي ينتزعني من سبيلي يقودني إلى الجبل
الا فانظري العالم تحت قدمينا طفل وديع يرسم على تحديه ايبي بوديانه

بمنعرجاته ومنحنياته حروف اسمك عقدها في كل مكان في كل أمكنة الجغرافيا
فلا خطوة نخطو إلا في التغني بك أو في مدائحك
ولا لغة إلا منك يا نبي ولا هينمة عصفور إلا ترتيل لك
لا عبير إلا إذا أقبلت يا كمال المرأة يا موسيقى الكائن العجيبة
أتسكع في العالم ومعني جر اسمك كذكرى قبلة
ما كنت عندك حتى أذنت فبت ظل ظلك في ثقلي
وتمتة اسمك تظل في أعرق ذاتي حتى أموت فيه

وسقط فجأة على الأرض كشمس من نافذة
دفعه الحرس بأقدامهم وما يفعلون به الآن

وتردد موسى لحظة في لجة البخار

أطلقوه

قال

ولينشد في رحب الطبيعة

٣

ردت المدينة فرأيت فجأة تبدل الأشياء
من أين لي أن أدرك ما يتمخض به الناس
أمة تبدو في زوال الوهم كماء تركوها بعد عيد
واعحت البسمة من الوجه فما عليه غير تعب وغبار
أشفق أكثر من شفقتي على الشيوخ والنساء في هول دمار جمالهن
على الأطفال أبناء البارحة وقد ستموا بلا رحمة في ربيعهم
ما الذي انسل منكم فحلتم إلى لون المرارة
أم أنا الذي بت لا أعرف كيف أرى إلا بعين شوها الزمن
أنا الذي طارت منه ذات صباح جميل الموسيقى الداخلية
عندما التقى بالفرح أتساءل كيف صار اهانة وشفته ساحرة
كيف بات الشباب شاحباً يفر كماء دنس
وفرقة الزجاج والصوت تود أن تعوض عن هذا فتدخلني
أتوجع

يوجعني رخاء ضاع وكثف انهدت
وجفاف الوجنة وهذا اللون الذابل وتلك الندوب المبكرة
آثار الحياة قبل أن يعيشوها وهذا الزهد في النظرة
وأبشع منه أيضاً انطواء مبكر نستشفه في الروح
ربما من أجل هذا حرم رسم المرأة والرجل
إلا في إشارة داعرة تدل على بيت الزانيات
أتوجع حيث يدمى الفجر على بدء ذاتي في الآخرين
خبات وجهي عنكم عبثاً بيدي رغماً عني تنفرج أصابعي
أشهد صبرورتكم ولا قدرة لي على ألا أرى ما أرى

أهو عقابي على جرّمتي أني حملت أبعد من قبري
على جريمة أني طوال حياتي حملت في الوهم الخفي

٤

يا مجنون

تجرّ قدميك النهار كلّه في ربض الفخارين أو ربض باعة الماء
فتصعد مساء من جسر إلى جسر وادي حدره إلى قنطرة ابن رشيق الجسر الوحيد الذي
تصل منه للبيازين

والطواحين تدور على حافة النهر والأسواق تحمي الجسور والشرطة تنظف حواقي الجوامع
من المائتين فلا تتلوث أمكنة العبادة

والماء يجري من كل مكان تحت البلاط كاسرار بحناها

يا مجنون

لماذا تأخرت في صعود منحني البساتين إلى حي البراة ألا تحس بتعب أعضائك وبالغبار في
عينيك

حتى تتعرف عليك في حركة لا يقدر مداها إلا من عاش في زمن الجوع

امرأة شوهاء بالولادة تحفظ عن ظهر قلب كلمات شفقتك
وتتلوها مع أنك ظننت أنك نسيتها أبداً
يا مجنون

إليك تنتسب تلك الكلمات المقفاة أم لآخر بعيد بعيد من زمن آخر

حيي المظلم برتقال مر

أغنيتي سد وريح

حارتي ظل يجيء إليه

ويموت البحر

أليست لك هذه الأبيات التي يغنون وتردها هذه المرأة
ثم تقدم لك

شيئاً غنياً انتزعته من لحم أولادها شيئاً أشقر لامعاً يتقشر لم تر منذ شهور لونه لون البصل
يا مجنون

ملت عنها أنت الذي لم تذق طعاماً في يومك ولا تعرف متى تذوق قانلاً
يجب ألا أكل من هذا لأن الملاك قد يأتي
يا مجنون

هكذا قال النبي وهو ينتظر اسرافيل أو جبريل حامل الوحي أو لا ترى أن ما يمر في عمق
عينيك نور انتظرت طرف نجمة

ألست من الذين تعنيهم سورة النجم إذ قال
ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملثقة تسمية الأنثى
وأرى أنك لا تؤمن بالملثقة الذكور إلا قدر إيمانك بالآخرى
يا مجنون

أنت لا يشغلك غير هذه المرأة تحفظ نفسك نقياً من أجل
قدومها المستحيل
وهكذا بقيت البصلة في اليد الممدودة والمعجوز إلى الجدار
استندت ترى إليك وقد مضيت

وأنت كأن حد حياتك وهدفها ذاك البيت على التلة فيه يختلط المقبل بالماضي تقف على عتبه
وكأنها قصدير على الزمن وأنت تعبر مرآته
أنشد أولاً زجل الغياب

٥

زجل الغياب

لو قلت بصوت عال
ما يحضرنني منك من كلمات
لو قلت بصوت خفيض
الشيء مما وراء الكلمة

لوقلت دوار
سر يتبدد
الزمن الذي يفر في الفم
وقطرة قطرة الحياة

لا شيء له وزن أو قياس
أكبر وأصعب من أن نحيط به
أو نلخصه في جمل
شئنا أم أبينا لا تكتمل

الليل في الكلمات
وصمت أن نكون معاً
هذا حب لا ينتسب للغة
يحرق قبل أن يحترق

هذا الحب الذي يشبه نفسه
كالظل من الشعلة
والظماً من ماء بارد
كما يشبه الجناح الريح

لا يشبعه أبداً وُجُودُهُ
يتوجع دائماً من حدُوده
يدور في ألمه
الذي دون مساء دون صباح

لا يرقد لا يتوقف
كمسافر قبل الفجر
في نزل مجهول
نجمة تنطفئ بعد أخرى

وما هو غير غياب
باب يصطفق على البحر
لا شيء له لون أو معنى
لا شيء له لم أو كيف

أنت وحدك تسكنينه
كالروح في بيتها
أنت وحدك تطوفين
في ممالكه المحرمة

*

فلك اليوم تذكر ابن عامر زيداً عندما أحس بالرحيل والغياب
فإذا هو في فم المجنون أشد مرارة من نبات الندفقال

ما هذه السنة التي يبدأ فيها فناؤنا
لا شيء نرجو منها غير حب ولد يحس الرجل يمور فيه
لا شيء من ديمومتها الطويلة القاسية
لا شيء آخر يولد منها
لا ملائكة ولا طير ولا رجوم
ترد الصاعقة عن غرناطة لن يكون لنا
غير مصير تنبأ به الاسلام عن الشاطيء الأندلسي

أيها الرب القاسي أياً كان اسمك حتى ولو لم تكن
شعبك يموت ظاناً أنه يؤول إلى مجدك
دمه عنده أقل ثمناً من فردوس موعود
لكن هذا الشعب جسدي أدفعك عبثاً عنه
لكن هذا الشعب قلبي ينتزع بطيئاً مني

الثورة في فمي وفي روحي
من أجل هذا الشعب وقد ضحوا به عبثاً

قل لي يا اله المائة اسم الحسنى ما يعني كل هذا
أو هل يعرف نصر المسيحيين الانسان إلى حيث لم يستطع الملوك العرب جرّه
إليه

إذا كان النصر نصر ما أمرتنا أن نمقت ونلعن
إذا كان هذا النصر على شعب كلمتك
فأتر لي اليوم الآتي لعلي أسقط على ركبتك
لكنك لم تقنعني من هو خير فرديناند أو أبو عبدالله
ولم تجعل في تلك الصيحة أمام الأرض المقبلة
التي يموت فيها البحار وقد رأى الضفة التي اكتشف
وانه لا اختيار غبي بين الاسلام والجاهلية
واني لأرى تمزق أهلي فلا أرغب في نصرهم أو هزيمتهم
وأنا لا أقاسمهم خبز ما أوحيت إليهم
ولتمت حقيقتك لعلهم يعيشون
وا أسفي وا أسفي لهم أنهم لن يبدلوا غير جحيم بجحيم

ولأن الطفل زيدا غدا الآن رجلا لم يسجل أحد نشيد المجنون هذا ولم يصحبه ذاك المساء
أحد إلى منزله وما كان فيه ماء وضوء ولا زاد ينتظره ولا أمل لا يد تفتح له الباب أو تزيح الستارة
السوداء البيضاء كاللؤلؤ لا ذبابة تظن في ذاك الفصل ولا أغنية تصعد معه درج البيت

هذا المساء نزل على المجنون كما قيل في عرق الآخرين إذ تحين ساعة القيامة

لكنه كان وحيداً يرتجف لأنه لا يجد اتساقاً في الكلمات وهو يتمم لها وحيداً يبحث للكلمات
عن هدف صلاته كان يبجده نشيد يتغنى بما لا يوجد

أين أنت يا حقيقة الحياة أين أنت بالنسبة للرجل يا امرأة قدر لها قدرتي لكنه كان وحيداً
والكلمات تحول خفقان صلاة

وكفراشة ليل عظيمة يضيع على الجدران غبار جناحيها
وجه فرار روحه في طيران لاهت

كان يبحث عن الباب المؤدي إلى تلال العبادة

كان يبحث عن درب معبد الحب

يتجه في شكواه إلى حيث هي

كان طاحون كلمات جريحة كلمات محترقة كلمات معذبة

ولما انفتح فوه علم فجأة من كل مجامع جسده وقد ثار ألا صلاة إلا منها ولم يجرؤ طويلا على
قول اسمها فيبدأ به الصلاة لم يجرؤ طويلا على قول السامع أنه يعرف ألا صلاة إلا وهي صلاة
السا

٦

صلاة السا

يا أنت التي لا تلخصها أية كلمة
ولا يحيط بها عناق ولا ضم
أنت التي عيناها تتوقدان
كلما انطفأت نجمة
أكان صباح أم مساء
على قدمك العارية أنا الزبد
تبعثرين قدره
كضبابة

أنا البهيمة على خطوك
أنا البحر ألحق بأثرك
أنا الليل أصطفق في بابك
أنا الصوت يموت حيث مررت
الشبح يهددك يعانقك
الأسطورة التي وجدتك
لا تنضيين أبداً ودائماً متعبة
بين ذراعي

أنت التي تولدين من كلمي
أنت التي أضم يدي فأعبد
أنت دوايري أنت دماري
أنت تحففين وعشاء طريقي

كقرمز لدى شفة
اسمحي أن أري وجهك
حتى يغدو الألم أكثر انسانية
والموت أكثر حلماً

غرناطة تموت وقلبي غلغل فيها
يا نخلا شاحباً يا تدمر الجديدة
تترأين في المستنقع العربي
بفعل السحر الرقيق
عند آخر شمس الأمراء
تنبئين كحب عاد من جديد
هل أستطيع أن أنومك حتى الغد
فقد احمر الفجر

أطلبك من المستقبل
عودي إلينا منه يا حبيبي
في آخر ساعات الاسلام
عودي إلي من أي مكان كان
عل أحلامي تنحل عقدها
تبارك الحديد والنار
لعلي على ركبتك السا
أسلم الروح

٧

جاء من أقصى غرب اسبانيا من (بالوش اينف) الواقعة على الأطلس والتي يدعوها القشتاليون بالوس دوموخير، على مصب الريوتنتو، عن طريق اشبيلية، انتيكويرا، لوخا، غرناطة . . . جاء يحمل أحلام وحدته الوسيعة، على بغلة، يرتدي ثياباً تصدقت عليه بها الملكة ايزابيلا، فقطع مملكة العرب الضائعة، تحت مطر الخريف الشديد . . . جاء، أبيض الرأس، تراود قلبه الأفاق، يخفي سر نشأته الأولى، سكران من دمه الطموح، كما يسكر كأس امتلاً خراً

أحر . . . جاء وقد مرّ بالمواكب ، التي تجر اليهود بقميص ، على حمار إلى المحرقة ، وقد كتبت جر يمتهم على لافتة ، يد مشدودة ، وقبعة مستدقة الرأس . . . جاء على الدروب فقير القيافة ، عاف الفجر صيده في ساعة الشفق . . . جاء ظامئ النفس للأجداد ، ومن يلم بأسبابه ، من يدرك دوار العظمة في عمق جوهره ، آه جاء فمرّ بملتقى الطرق والصليب منذ أمد قريب يكره العابر على أن يصلّب ، جاء عبر وابل المطر والرياح ، كأنه قائد سفينة في عاصف البحار ، في الساعة التي ينشر فيها الشراع الأكبر ، كي يوصلها إلى مرفأ سموها جاء كر يستوبال كولون ، يحلم بعالم لا تكون فيه « توليه » آخر الأرض ، حسب نبوءة سنیکا القرطاجني ، بل أن يفتح تيفيس جديد قارة عظيمة ، جاء ، يرى نفسه شبيهاً بقطان الأرجو إلى كولشيدا جديدة الذهب فيها قطع معز ، جاء المدينة الجديدة وقد جرى فيها احتفال كبير ضد النحس ، وعجب المسافر ، فسأل أول عابر ، وضع رباطاً أسود غريباً على عينه ، عما يجري في سانتافي .

وأدرك كريستوف كولومب لما وجده لا يحسن اللغة القشتالية فيمزجها بكلمات غريبة أنه ربما كان من السادة الفرنسيين ، وعليه أعاد سؤاله بفرنسية امتزجت بها الإيطالية ، كما تعود أن يتكلم لما كان من قبل قرصاناً في خدمة رونو دانخو . وسرّ هذا صاحب السيادة جان مولينه سروراً عظيماً ، فقد أجهده قتل جنكه بلفظ الخونا ، وأفاض في الشرح لصاحب البلغة ، ذي الوجه المدهش بشيابه ، ولو أنه لوحه ركوب البحر ، وشعره الساذج ينزل حتى الكتفين أو يكاد ، أن اتفاقاً جرى مع سفارة ، تقيم منذ حوالي شهر في سانتافي ، وانها عائدة تحمل الشرط للملك العربي في عاصمته المحاصرة ، التي كان يستطيع سموها أن يشعلا فيها الموت والنار ، لكنهما فضلا الأبنية على دم المدافعين عنها فأبقيا عليها ، ولم ينتزعا المدينة عنوة . . . وما بقي للانتهاه من الحرب إلا موافقة غرناطة على الاستسلام بتوقيع الملك العربي وتحليه لفرديناند دون اسبانيا عن المدينة والبوسارير^(١) كل القلاع ، والقصور ، والأبواب ، والأبراج ، والأبنية التي فيها ، يضاف لها خمسة آلاف من الرعية ، بين مدني ومزارع ، ويغدو الاشراف تحت سيطرة جلالته الملكية ومن تبعه . . . وعليه أن يقلع أبداً عن لقب ملك غرناطة فلا يتخذ اسم الملك أو اعتبر مغتصباً . . . أن يخرج من المدينة الجند والمحاربين ، أن يسكنها ويؤهلها بالمسلمين ، تجاراً ، وتقنيين ، وزراعاً ، فيهرن أنه قام بعهده ، فتمسك به ، بقوة ، لا رجعة عنها . . . وعليه أن يرسل للخدمة في عسكر ملك اسبانيا ، سعة من صفوة عليّة المدينة ، ومعهم أولادهم وعائلاتهم . . . غير أن الذي كان يعني كولومب هو أن يعرف أين مفتش عام بيت المال القشتالي ، ألونزودو كوينتانيا ، الذي استضافه في قرطبة سنة ١٤٨٦ . وما كان يهمه من غرناطة إلا أن تستسلم ، وتنتهي سيرتها ، لعل سموها الكاثوليكين ، يرتاحان فيصفيان إلى مشاريعه وخطابه .

(١) Alpuxarraire هذا النعت جاء من الاسبانية نكتبه نحن Alpuxarras ، وهو لا يعني في الحقيقة الجبال التي تحمل هذا الاسم ، بل يجب أن يفهم على أنه يترجم الكلمة العربية الأصلية البشارت ، ولو أنها تطلق أيضاً على تلك الجبال ، وإنما يعني حقولاً أو مروجاً . وعلى هذا يجب أن نفهم من المدينة والبوسارير المروج التي تحيط بها . (الملاحظة لأراجون) .

هل أعلم من يتكلم هنا المؤلف أم المجنون

خرجت من ليلى خرجت من عذابي
كانت الشمس عظيمة على عتبة الباب
كل ما يسكنني فاض عني كماء جرة
قلت كلمات جسدي وروحي قلت جمل الأرق
ومر الناس لم يفهموا بعض منهم قطب جبينه ورفع حاجبيه
صحيح أني لم أحدثهم حديث الشارع أو النافورة هكذا كان دائماً مصير
النبوءات

ومن أتهم غير نفسي مع هذا
لماذا تظنون أني أمزق ثيابي ووجهي
آية لعبة أتعاطى هنا
أنت يا قريباً من الصف الأول هل ترى
شفتي كيف تجرحها الكلمة إذا عبرت منها
شاحبة وسوداء من الدم

أنتم لا تسمعونني وتعتقدون أني أنا الأصم
نوع من الريح لا تحس بشيء ولا أحد
أدق الباب وظاهر يدي يؤلمني يؤلمني يؤلمني
ولا كائن بشري في الداخل لا كائن بشري واحد يجيبني
أدق على قلبكم وأنا الذي أتأوه

تظنون كل هذا خيالاً
ألا تسمعونني

لا تسمعون مع أنها مأساتكم
وقد رأيتموها فجأة فجأة فانجرحت
يا من لا تتعرفون على صيحتكم في صيحتي
ألا تسمعون

أنا الذي يمدق إلى جرحكم
كأنه مرآة فيها صورتهُ
أنا الذي أقضم جذامكم وأوقد ناركم
أنا الذي أتكلم عويل غدكم
أنا الذي يأخذ رأسكم الضائعة بين يديه
أنا الذي يستجد لكم في الصحراء حتى يبيع حلقه
تنحني ركبتاه تحترق عيناه على السراب
الذي يبيح حوالبه عن ماء قراح ويرجع عاثراً وليس في راحته غير ثلاث
قطرات

الذي يمنحكم ريقه ساعة الظمأ
أنا الشفقة التي تقطع قبضتها من أجلكم
أنظروا انظروا أنا لست آخر بل أنتم
أنا ما يتوجع فيكم وجوده لا يستطيع بقاء

أنا أنتم أقول لكم أنا أنتم ومنه أموت

صمت قاتل وصمت طويل أو أنتظر عبثاً
ألا تسمعوني

قدماي تتجرحان على قاطع الحجارة
أسير إلى حيث منحتم العذاب
استنفدت أنفاسي وآخر قوتي
أقترب منكم فتصلدون
أنا أت أت إليكم

كل شيء على صورة أرض الجبل تلك
تعتقد فيها أنك واصل إلى القمة
وتصعد تصعد فترتفع القمة
معك
ولا ترقى لا ترقى إلا

إلى أعلى المنحدر آه أتموا من دوني ما أحس جيداً
لقد دنتُ دنتُ ألا تسمعونني

أنا آت آت إليكم مما وراء الضنى
تبأ لصدغي ان أنفجر أ كنت
السنديانة صعقتها الصاعقة فأن خطابها
ألا تسمعونني ألا تسمعون خطوي

لئن لم تؤمنوا بي لئن كان كلامي
لا يعدو عندهم حفيف أوراق
فقد تعبى فيما بعد تلك التي إليها أمد
ذراعسي

يا مستقبلاً أمتنع فلا أرقى إليه
مستقبل تاه فيه ظني
ليس عندي منه غير تعويض بالخرن
مما يرن في هذه الغرفة
وولوجه فيها ليس نصيبي النسيج
ينطفئ فيها أيها المستقبل أنت أيضاً لا تسمعني

لكنني قادم إليك

كمار على صراط فوق الجحيم
إليك على صراط أدق من الشعرة
إليك على أحد من السيف يحول التوازن
على قد الذنوب فأغدو ثقيلاً أو خفيفاً
وإيماني بتلك المرأة قدامي
يحملني كنور أو سلوقي نهد إلى عدو

إليك يا جنتي إليك يا سقف عالمي

وأنظر تحت السراط اخوتي الهالكين

وا أسفي أراهم أتوقف والحد
يشق راحة قدمي والشعلة
تُراجع دربها إلى السنين
من دونك

*

وجمل أبو القاسم ايزابيلا وفرديناند يقبلان بنسيء تسليم غرناطة تسعين يوماً بحجة ترك مجال مشكوك بأمره لوصول نجدة افريقية . وافق فرديناند على نصح السفير العربي أن يلعب ورقة الأموال التي يحلم بها الأمير ما دامت كل المرافء في قبضته . كان على محمد الحادي عشر وقد غدا منذئذ أبا عبدالله المسيحين فحسب ، أن يعد بالولاء للزوجين المسيحين هو ، وشيوخه ووزراؤه ، وأن تحول رعيته جميعاً طاعتها للسيد الجديدين . ويحظى الملك المعزول على أرض البشارات ، وامارة اندرش ، وهي التي دفعا ثمنها للزغل حين أكره على التسليم . ومنح المسلمون الحق بالاحتفاظ بممتلكاتهم ، وسلاحهم وخيلهم ، ومزاولة دينهم ، في مساجدهم ، وأن تقضي بالشريعة الاسلامية بينهم ، قضاتهم وفقهاؤهم ، وتبقى لهم مدارسهم ، وجزاروهم ، وأن يعفوا من الضرائب ثلاث سنوات ، وألا يدفعوا أتاوة إلا ما كانوا يدفعون لأمرائهم ، وأن يعفوا من ابواء الجند المسيحين في بيوتهم وأن يمنحوا حرية المرور في أراضي قشتالة وأراجون . وجرى القسم على أن تطبق هذه الشروط على اليهود الذميين الخاضعين للجزية .

وهكذا جاء السفير ، يدعّمه الحاجب يوسف بن قوما ، ومعه الجواب على كل اعتراض ملكي وضمان التسليم بعهد من البابا : هل كانت النقطة الأخيرة من بنات أفكار الكاردينال دومندوزا ، يغري بها خيال الملك المغلوب ، أو رأي أسر به أبو القاسم لفرديناند ، فكانت حيلة لا نعلم لها شهياً . وبعد أن عقد الوزير العجوز الصفقة في حمى العاهلين الكاثوليكين في الثاني والعشرين من محرم ، جاء قدمهما لمجلس العلية في الحمراء . وما يجدي أن تذكر هنا تفاصيل ذلك اليوم ، وغرور عائشة وموسى وقد نهضا يدعوان إلى الجهاد ، واجماع العلية ، من علماء وشيوخ حرف ووزراء ، والقاضي ، بل الحاجب نفسه . . . كان الملك وحيداً بين الشيوخ الذين كان يطمح في عونهم ، فإذا بهم على استعداد لخلعه ، بل على ألا يدعوه يخرج حياً إذا قاوم من قاعة الأبهة تلك التي يسمع منها بكاء النوافير . لا أريد أن آخذ بالأسطورة ، وأن موسى فر من كلمات من نار . . . ماذا بهم ما حدث له ، لأن أحداً لم يره بعد حياً أم ميتاً ! قيل انه أم ضفة الشنيل دفعا للبراز ليلا بعضاً من خيالة قشتالة ، فهم بهم حتى قتل على حصانه ، رمح مكسور ، وفي نطاقه سيف حطيم ، وهوى في دمه ، مقطوع القبضة . . . تلك أغنية غنوها ، لكن من أين جاءت التفاصيل ؟ هنالك مكان للظن أن يوسف بن قوما وشريكه أبو القاسم ، ما كانا لتستبد بهما الغفلة فتركوا القائد اليانس يخرج من الحمراء ، وهو القادر على أن يتسبب في وقف الهدنة والاتفاق الذي وقعه . كان في كواليس الحمراء ما يكفي من انكشافية ، ومرترقة وعبيد ، للقضاء بآشارة من السيدين على هذا الثور الدموي ، دون أن يعرف بذلك أحد .

مع ذلك رفض ملك غرناطة أحد شروط سانتافي : رفض ، على إلحاح أمه ، تسليم مفاتيح المدينة بنفسه للغالين ، وتقبييل يدها ، كانت تلك ، على كل حال ، نافلة ، وافق عليها فرديناند

وايزابيللا ، فهما يعلمان ، أن مؤرخيهما ، سوف يروون الأشياء على ما يجلو لها ، فيهينون عظم ظهر الأمير المغلوب أمام المستقبل . وحزما على الاستعجال في هذه الصفقة فانقذا رسلا معهم الأوامر لأبي القاسم والحاجب لعلها يخلقان سريماً وضماً لا ينتظر معه أبو عبدالله تسعين يوماً لتسليم عاصمته .

كان الاستسلام يقضي بأن يعلن عنه للناس قبل التسليم . وأمر الحاجب فقرئت شروطه في كل الجوامع أمام المسلمين جميعاً . كان من هذا الأمر أن غرناطة كلها ، وجدت نفسها منذ شهر صفر وجهاً لوجه أمام قدرها .

صفر ١ يا سيلي

أزف فجر الخطر الأكبر
فغدا الشعار يا سيلي

قالوا لك أقتلْ وأقتلْ يا شعباً رائعاً
وآمنت بما علموك
فما رفضت الطريق الرهيبه

قالوا لك أنت مالكَ شيء لا ذراعك ولا روحك
بعتهما لله بضمن هو الجنة
سددت حياتك عن بدل عظيم

قالوا لك أن الحق ينتصر بموتك
وأسعدك أن يومك كتبه
الله فانصب أمامك كجدار

قالوا لك أن قدرك معقود على سيفك
أنت الذي اخترت في الرهان النور
تحمله حتى الدماء إلى المملكة المظلمة

قالوا لك أن الهدنة لا تجوز
مع الأمم التي تختلف في صلاتها عنك
أن الله حرملك الراحة من القتال

قالوا لك أن حربك تجهل الهزيمة
وأن العذاب الأبدي لمن لا يقضي
فأمنت وقطعت وراءك الطريق

آمنت بهم حتى كبلت نفسك
آمنت بهم حتى احتقار نفسك
آمنت بهم حتى انكرت نفسك في حلمك

آمنت بهم حتى ثماله قوتك
آمنت بهم حتى جف الدم في قلبك
آمنت بهم يا سيلى حتى نبعك

آمنت بهم حتى السكين التي تبقرك
آمنت بهم حتى ليل سورتك
آمنت بهم حتى صمت فمك

آمنت بهم حتى أرض لقياك
آمنت بهم حتى جرح عقلك
آمنت بهم حتى رعب الأحشاء

آمنت بهم حتى الكفر بدموعك
آمنت بهم حتى الكفر بعويلك
آمنت بهم حتى تنغلق عيناك

آمنت بهم حتى آخر لمعة في الجمر
آمنت بهم حتى تقصيب أوصالك
آمنت بهم حتى لينهصر الايمان

٢

وجاء الناس ابن عامر وهم في جهل عما به يؤمنون وماذا يفكرون عما كان ينشده عن
المستقبل فلقد انتشر الايمان أنه يمتلك مرأة يقرأ فيها

جاء الناس ابن عامر يسألون ما يرى عنهم وعن الأزمنة البعيدة والأزمنة القريبة جاء من

الناس ابن عامر من لم يستطع أن يتخيل نهاية غرناطة
بعض لعله يوقفهم من حلم شرّ وبعض لأنهم ما كانوا يصدقون وبعض لصل كذبة
تمنحهم أملاً من يدري

فقد يكونون راجعتهم ولو خطأ الثقة من يدري فقد تعيد كلمة إليك القوة والايمان
بالمستحيل يا مجنون قل لنا أن شيئاً من هذا ليس حقاً

وهو الذي أحاط الناس به في الشارع
رأى إلى المستقبل ثم نظر إلى الناس
تمتم لا أقدر وهو على التمزق القديم
وأكره نفسه فقال لهم

هنالك أشياء لا أقولها لأحد لأنها
لا تؤذي أحداً لكن
الشقاء هو
أنني
الشقاء الشقاء هو
أنني أعرف هذه الأشياء

هنالك أشياء تقضمني ليلاً
مثلا أشياء مثل
كيف أقول كيف الأشياء التي تقضمني
ليلاً في الليل أشياء كأحلام
والشقاء أنها ليست أبداً أحلاماً

هنالك أمور هي عندي أبداً لا
أبداً أبداً لا تطاق حتى
لو لم أقل عنها شيئاً حتى ولو لم
أقل عنها شيئاً أفهموني أفهموني جيداً

انها أحياناً انها تخنقكم
أنظروا أنظروني جيداً
انظروا فمي

ينفتح وينغلق ولا يقول شيئاً

أفكر بشيء آخر فحسب
أحلم بصوت عالٍ ومني
كلمات تخرج مما يدهشني
لا تسيء لأحد أبداً
ولو أنني أخاف مني
من ذلك الشيء الذي في يتكلم
أعرف أنه لا ينبغي لي
لكن ما تريدون أن أفعل
ينفتح فمي وروحي هنا
تحقق عصفوراً على شفتي

يا كل ما لا أقول
ما لا أقول لأحد
الشقاء أنه يجلس
ويضطرب عنيدياً في
الشقاء أنه في
ولو لم أقل شيئاً عنه إلى أحد
لا دعوني لا دعوني
أحياناً أقول لي أحياناً
الكلام أفضل من الصمت

ثم أحس انما تحف
كلمات ذاتي هذه في ريقي
هنا الشقاء لا شقائي
بل الشقاء الذي يجمعنا
في رعبنا من البشر الآخرين
من يمد يد عون
ما دمنا نحن ما نحن

ما كدت ما كدت تقوله

هذا الذي لا يقوى على أن يتخذ صورة
هذا الذي يسكنك فيتخذ صورة وهو على الأقل على أهبة
على أهبة أن تسحقه قبضتك
والناس ما تريد أن تقول
تحس بك على ما تحس بك
بهيمة أمام الناس ما كنت
ما كنت أقول آه نعم ربما
أن النهار جميل انها ستمطر انما يجب أن نذهب
أو أن ذلك نفسه كثير
فاحفظها بين أسناني
تلك الكلمات خشية أن تعني

لا تنظروا إلى داخلي
قولتي النهار جميل تكفي
أستطيع أن أقول النهار جميل
حتى ولو أمطرت على وجهي
أن تؤمن بالشمس عندما يسح الماء
ان أمطرت أهزأ أهزأ بالعاصفة
الكلمات في ما أشرس موتها
شرسة تدميني
الكلمات التي لا أكمل أبداً
هل موتها في هوما ينهشني

الشقاء أن أعرف عم
لا أتكلم وفي نفس الوقت
مع ذلك عما أتكلم

إنما يجب أن نصمت فينا

جئنا من أجل نار الكلمة من أجل نار
الموت نفسه كلمة منك كانت تكفيننا عن سعة
كي نموت ما جئنا إلا من أجل هذه الكلمة من فمك
وعمّ تتكلم ما هو هذا الضلال
الأمر أن الأمير قرر فينا مع العدو
وارتكبا الآن معاً هذا الكفر
هل ندعه يسلم غرناطة وكل الأرض الاسلامية
ما عندنا غير هذا السؤال وأنت كقوقعة فارغة
لا تصغي كبحر لأي صوت إلا لصدك في البعيد
جئنا كي نعرف هل يجب أن نغضي إلى السهل
أو نحمل أولاً غضبنا إلى قصر الخيانة
كان بوسعك أيها المطرب المجنون أن تقودنا حتى نهاية ذاتنا
كنا نريد أن نضع في خطوك قدر آخر خطانا
وها شفتاك لا تند عنهما غير متممة قصيدة سوداء
في الساعة التي يستيقظ الشعب يريد كلمات على أهبة النزيف
كلمات كي يقفز فيسقط كلمات صدرها ينفجر
كلمات أقوى من الذراع أنفذ من سكين
كلمات تنسينا أن ليس لنا غير هذه الحياة
كلمات كأنها النهار تحرق ما تضيء من عيون
يريد كلمات فظيعة تسكر حتى الضياع
يريد كلمات تجعله يجري حتى ليفقد الاحساس بقدم وأرض
أليس لك في حلقك نشيد يكون على قدّه
هل وجب أن تموت غرناطة وأنت ترفض لها صيحتك

عندها قيس الذي ولد ذات يوم على هضبة النجد
فعاش طويلاً كفقير في حي البيازين
قيس الذي كان عمره كما في المنتزه
تلك الحورة الكبيرة التي يوقع عليها العشاق أول حروف اسمائهم
قيس الذي كان يتجه دائماً إلى تلك المرأة في المستقبل
يقرأ في الزمن المقبل كما في سفر مفتوح
أحس فجأة أن ما هية الروح تنمزق فيه
وبات الكل أمامه ليس سوى نور من الجحيم

عندها جاءت مفرزة من الحرس الزناتيين فقبضت على المجنون باسم الملك والجمع

لم تند عنه حركة للدفاع عنه حتى إذا حاول فرارا

انفلق أمامه جدار غريب من رجال

لم يغن لهم ولم يكذب عليهم

ورماه المرتزقة في الحمراء كرزمة قراص

٤

« لماذا ، - قال أبو عبدالله ، بعد أن غسل يديه الملكيتين المعجوز الدامي وكأنه أبوه ، لا الأب الذي كان له ، - لماذا فررت من الذين ذهبوا باسمي كي يأتوا بك إلي ؟ » لأنه ، كان يزعجه أكثر من جرح الوجه وتلك الكدمات في الذراع من سيوف بربرو ، أن يفرّ خوفاً أي كان من رعيته لمجرد ذكر اسمه . تذكر في الساعة التي احترقت فيها خيمة ايزايلا ، المطرب الذي قام ، في قلب الجدل الفلسفي ، في دار مزارع في المرج ، فدوزن عوده ، والبشر مع شمس المستقبل . فهم الملك فجأة أن موسى المحتسب حدثه عن نفس الرجل ، وعن سماعه إياه في الحمام يقول كلمات جميلة حتى لا تحفظ منها شيئاً ، ولقد كان قلبه مرأً لغياب موسى ، فقد كان الوحيد الذي دافع عن المدينة والمملكة ، ولقد عن له في ليلة لم ينم فيها ، أن ينفذ من المجنون كي يحدّثه ، على عتبة القدر تلك ، عن المستقبل ، عن نشيد في ظل الصيف لم يحفظ منه غير بيت غريب ، أغرب اليوم مما كان أمس قال فيه مستقبل الرجل هو المرأة . . . أغرب اليوم وغرناطة على سرير قلقها تتلفت في نزاعها وما من أحد يدرك السر الذي دفع بنفس الحركة ونفس الدقيقة الشعب وملكه للبحث لدى هذا الملتبس عن جواب للأسئلة التي تستبد بهم .

قال أبو عبد الله «لماذا لم ترد أن تأتي لرؤيتي وقد طلبت ذاك؟» .

المجنون

أيها الملك (حفظك الله ، وما شاء الله) . ألا تعلم أنه كتب على المسلم ما يوجب عليه أن يمتنع عن معاشرّة الأمراء والسلاطين ، بله دعم مقابلتهم ؟ لأنه يعسر على من يقابلهم أن يمتنع صورة الرياء التي تدعى عامة أدباً ، أو لم يؤمر من أكره على ذلك قسراً ، أن يتعفف عن مسائرتهم لأن الله يغضب إذا امتدحنا مستبداً أو مجرماً . . . أيها الملك لا تقطب بحاجيك المخيف ، فقد لا تعرف أن هذه الكلمات ليست مني ، وإنما هي للغزالي ، امام بغداد ، وقد قال أيضاً أن الدعاء لطول حياة الملك هو رغبة في أن يعصى الله على الأرض . . .

أبو عبدالله

أيها العجوز ، لقد فات أوان غضبي ، وبملا شك فيه أن شططلسانك راجع إلى أن الحرس

ضربوك ، وعداً لك أن يعانوا ألف ميتة لقاء كل جرح في جسدك . أو أنتم الذين ترون الأمير من بعيد ، لا تفقهون ، قدر ما يُرتكب باسمه ، لأنكم على صورة غامضة عن الحكم ، تجهلون ما يجترح في غفلة من الحاكم ، وباسم هذا الحاكم . . . الحكم ليس من الأمير ، يا مجنون ، انه من الله . هذا ما علمونا ، على الأقل ، نحن الموكلين به الخائفين . أو ظننت اني أمرت بضربك والحال انني طلبت منهم أن يحضروك فحسب ، أن يخاطبوك مخاطبتهم قديماً ، فيحيون في خفض ويقولون ، أن ملك هذه المدينة المائتة ، يرغب في أن يحدثك ، أن يحدثك أنت وحدك ، في ساعة شهادته . لكن آلة الحكم صنعت كذلك ، لذلك لا يستطيعون أن يدركوا غير العنف والأمر . ان صورة الأمر الذي يكلفون بتنفيذه لا تعني في آذان الحمير آذانهم ، غير مواربة تفرضها كياسة **فلك** ، في تكليفهم بالمهمة . لم يفهموا إلا رغبة الملك والصلابة في ارضائها .

المجنون

أنت تعرف ، ولا شك ، أفضل مني ، أيها الأمير ، ما دمت منحت وحدك تفسير معنى الكلمات الالهية للأمة ، قوة ذراعك الحقيقية ، لكن ما السبب في أنك لا تعرف قدر أثرها ؟ انك تلقي على خدمك مسؤلية السيف والدم ، وإلا فمن أين لهم الحق والقدرة على الضرب ، إلا منك ، أي من الله ، عبر ارادتك ؟ كيف تطلب مني أن أميز بين الحكم وبينك ؟ أمر ، ما دام الوقت متسعاً ، بالعفو عن هؤلاء التاعسين ، فهم ما ضربوني إلا لأنهم يرون أن الطبيعي أن تأمر بذلك .

لا ، لا تحتبئ وراءهم ، ولا تبرر الأشياء بقسوة جهلهم . انما تقع عليك مسؤلية ما هم عليه !

(وأمر أبو عبدالله للتو بأن يصار إلى ذلك ، فجاء الحرس الزناتيون وانحنوا أمام مطرب النهج وكان ما أتيح الوقت إلا لكسر كتف أحدهم ، وفك الآخر . . .)

ابو عبدالله وقد استدار عن هذا المشهد الذي

تغشى منه النفس

الم تعرفني من قبل ، لا على أنني سيد غرناطة في أهته ، بل قلندريا^(١) لا يختلف عن سواه همت النجوم ، وقد زعموا في تلك الليلة ، عزاء عن سعة نفوسهم أنهم جميعاً أبناء ملك . ألا تذكر الذي كان يعرف سر الأشجار ، وذاك الذي تعرف يده الأرض ، والانبات ؟ أتذكر الذي جحد بالله كي يموت فيه ؟ والنحوي الذي تكلم عن المضارع ، أما أنت فغنيت المستقبل . . .

(١) نوع من الدراويش الذين انقطعوا لله .

المجنون

يا مجنوناً يستحق اسمه ، غنيت المستقبل . . . لكن ألسنت الذي دفعني إلى ذلك ؟ ما جئت تفعل متكرراً بين هؤلاء الناس ؟ وهل ظننت أنك واجد بينهم الحقيقة في كذبة ؟ أذكرك الآن ، عتلا ، فرغ من عمله ، كما بدا ، جاء يأخذ علماً يعطى بالسر . رجلاً في ثوب خشن ، ليس له غير سؤال وحيد . . .

أبو عبدالله

نعم ، لم أكن غير سؤال مطروح ، لم تفهموه أبدا ، وقد مزقتكم نزاعات ، لا دخل لي فيها . سؤال ، ولا شيء سواه . من أجله تعريت عن أهتي ، فجعلتني أكثركم تواضعاً . نعم من أجله فحسب . سؤال ألقيته منذ طفولتي . ذات يوم إذ رأيت في ضياء المياه المظلم عيني أبي . سؤال رافقتني في المنفى والضعفة . سؤال بحثت عن جوابه بين ذراعي النساء . سؤال ظننت أنني واجد جوابه في الكمال الذي تصنعه يد الانسان ، ولقد قادني الجمال طويلاً إلى الطرق التي ظننت أنها طرق الخير . لقد أردت أن أصبح ملكاً فلم انتظر ، من أجل معرفة الجواب . قدت جيشتي إلى العدو من أجل معرفته . حتى إذا وقعت في أسر المسيحيين ، لم يمك بي الليل ساهراً سواه : هل الشر من ارادة الله ، نعم أم لا ؟ واعلم يا مجنون ، انها هنا مأساة الملوك . مأساة الحكم الذي لا يثبت إلا بالظلم . فإذا كان الحكم ولاية من الله ، فما الملك يفعل اذن بأمره الشركي يثبت وجود الله ، هذا ما كنت أردد في داخلي . . . ذلك هو السؤال الذي كنت ليلة الحريق أطلب عليه ايضاً إلى الاجتماع الغريب في قلب المرج ، لعل أقوم بمهمتي الملكية ، دون أن اراني يمزقني الشك في الله . . .

المجنون

اذن جئت تسأل الذين قطعتم فيما بعد رؤوسهم ، أو رماهم قضاتك أحياء في العفن . . . جئت تطلب ذريعة كي تتم لعبتك الدنسة ، عذراً لحكمك ، وتبريراً لجرائمك . . . كما فعلت الساعة ، إذ زينت لي براءتك باتهام حرسك . . . أما عن الحكم فأنت بحاجة إلى ترس أمنع ، وظل أكثف ، وعليه اختبأت وراء الله . . .

أبو عبدالله

لماذا تهينني ، أيها العجوز ، في الساعة التي لعبنا الرهان فخرناه ؟ أيذهب بك الظن إلى لحظة ، أنني لولم أو من بأن سلطتي جاءت من الله ، كنت أستطيع القيام بها ، أو أوافق على اراقة الدم ؟ لكننا يصعب على رأس انسان مسكين ، أن يلائم بين العتمة وطيب الله مع الشر الذي يطلب مني أن أفعل . . . كل حياتي انصرفت في كابوس الله هذا ، نبع الخير والشر : عندما كنت

أريد لو أبرىء الله من دنس الهام خليقته بالشر ، وهو الذي يعاقبها عليه ، كعميل مزدوج ، كان يراجمني الرعب من التفكير بأن الشر إذا كان موجوداً خارج الله ، ان لم يكن من صنعه ، فالله ليس الله ، الواحد ، والشر نقيض الخير ، كما الشعب بالنسبة للملك . . .

المجنون

وهكذا منحت نفسك هذا الريب . . . وخبأت نفسك فيه ، أولم تكن ترى ؟ إذا ذهبت إلى أن الشر والخير لا يجتمعان في الله ، أما كنت ترى الخير ، أما كنت ترى الشر . انهما موجودان . أو لم تستطع أن ترى حلبة صراعهما ؟ هل رأيت أبداً ذلك الاله الذي هو نبعهما التوأم ؟ أجزم أن الملوك ليسوا على شيء من الذكاء . ألم تواتك أبداً الفكرة بأن هذه المشكلة سهل حلها شريطة أن تنسى اسنادها لله ؟

وصمتت الطيور والنوافير صمتاً عظيماً . كان يعلم جيداً هذا الملك أين آل به مطرب الزجل فقد ضلّ هناك أبداً دون أن تأخذ يد بيده . لقد راد أطراف الزندقة تلك ، ووصل إلى تلك العتية الرهيبة ، لكنه لم يجاوزها . شفتاه لم تجرؤا على ما دار في رأسه . مرة أخرى يرفض طريقاً يفتح أمامه كبئر يتلقف من يسقط . يبدو ، وكأنه في هذه المرة ، لم يفهم أيضاً ، ما كاد يفكر فيه من قبل . مرة أخرى لا يستجيب لهذه الدعوى ، يجانب أن يجري فكره ، في مسارب لا رجعة فيها . . . لكن هل دعا ابن عامر ، حتى يظل على ما كان عليه ، وكان المجنون ما جاءه ، ولا نطق بالحكمة أما كان في السؤال الخالد الذي طرحه اليوم صورة غرناطة الضائعة ؟ وهل يريد الله ذلك ؟

أبو عبدالله

هل أتاك حديث الملوك الفاطميين الذين ملكوا منذ خمسة قرون على افريقيا ؟ لقد وصلنا عن سلافي في خدمة أحدهم نص رسالة أملاها عليه . أعرفها عن ظهر قلب ، خيراً من عرفاني أية سورة من القرآن . . . أسمع ما يقوله المعتز وقد عنّ له أن يترك مملكته فيحمل معه ، من يعلم ماذا ؟ إلى صقلية أو مصر . . . ربما جيشه و ثروته ، ربما أتباعه ودولته يقول : إذا كانت نفس تحترق بنارها ونار الجسد الذي تقيم فيه ، فهي نفسي وقد تقاذفتها الأحزان ولا من ينجدني ، فلا نحظى بغير اليأس . أحاول فراراً من تلك الآلام ، فأجدني ضالا في باطل شؤون يومي ، وهي لا نفع منها في هذه الحياة ، ولا في الحياة الآخرة . وهكذا أراني مجنوناً بين عقلاء ، أو عاقلاً بين مجانين . . . ما بالك تهز برأسك يا مجنون ، كأنما تلك مجازفة عادية عندك . لكن المعز يروي أيضاً كلمة يأس قالها جدّ جدّه الذي ادعى أنه المهدي : انهم أمامك ينظرون إليك فلا يريدون أن يروك . . . يا يأس الملوك ! ليس هذا هو ما أردد بعد المهدي ، الذي قضى منذ خمسمائة وستين سنة هجرية ، أنتم جميعاً ، يا أهل غرناطة ، تنظرون إلي ، وأنت أيضاً ، تنظرون إلي فلا ترونني . أنا الغياب في عيونكم ، مع أنني ملككم ، أتاني الله القدرة على فعل الشر ، وأن أظلمكم ، لكن عبثاً : تنظرون إلي فلا ترونني . . .

والحقّ، أن ابن عامر كان يستطيع ، أن يمكس بعينه ، أدباً ، على الملك عمده من دون اهتمام .
لكنه كان لا يراه ، وإنما ما وراءه المستقبل ، يأس المستقبل . كل جسده كان يصيح ألماً ،
واضطربت حمّاه ، وأزهر الجنون ...

٥

في كل يوم يمضي في كل يوم أت
يستيقظ هذا الشعب وسط حلم
يقيس الزمن الذي بقي له
النوم والنظر عنده المان توأمان
يقيس موته في كل يوم أت

هذا الشعب هو أنا والألم الذي يقضمه
هو ما يسكنني أبداً
يتنازعي رعب الحياة والأحلام
الجحيم الموعود والواقع
الألم الذي يقضمه هو الألم الذي يقضمني

غرناطة في عذابها لا تأمل بصباح
تعلم بلا مرآة ما يمرع في جسدها
وأنا مثلها أعرف حدي وقدري
ولا جدوى مزاد أخير
غرناطة وأنا لا نأمل في صباح

غرناطة لا تنتظر إلا أن تمزق اربا
تاريخها الطويل لا يتصل بغير الموت
كقلبك أنت أصغ إلى الشيخوخة
كبحر يضطرب فيها وبتلحك
أيها الرجل خلق قلبك كيما يحول اربا

كل ما كنت أغانيك وأحزانك
وهي ما كانت غير أنت كلها للزوال

هذه الغرناطة المشرعة للريح بذورها
تهمي كما انتزعت منك القصائد
وهي تغني أغاني أخرى تبكي أحزاناً أخرى

٦

وغدا شعب غرناطة نبأ للباس ، فما ترى في أحياء المدينة غير الناس وقد نجمهروا ، يلوحون بالمصي والفؤوس ، يهددون القصور . وسيطر الرعب ، على العلية ، والوزراء ، فتشاوروا في كيفية تحويل العاصفة . كيف يقودون أفقر الناس ، وأتفههم ، فيستخدمونهم في اقتناع الملك ، بالعودة عن هدنة التسعين يوماً ، التي يغدو بعدها التسليم قانونياً ، في اقتناعه بدعوة الجيش الوحيد القادر بعد الآن ، أن يحمي بيوتهم ومالهم ، خاصة وأن الجند ، بعد موت موسى ، لا يمكن أن يوثق بهم ، كما أنه لا توجد أية قوة اسلامية تستجيب لطاعة أولئك الذين سلموا غرناطة للروم .

لم يشهد التاريخ فوضى مثل تلك ، أو هل وعى أمة كهذه على وشك أن تفقد أرضها ومجدها ودينها ؟ كل ما بقي هنا من ايمان عميق لجأ إلى الفقراء ، أولئك الذين لا يملكون شيئاً سواه ، الذين يهون عليهم الموت ، تجاه تجر يدهم المطلق جسداً وروحاً . كيف حصل أن آمنوا بهذه الحكاية ، كيف استولى عليهم الجنون كئنازاً؟ كانوا يموتون جزافاً ، بعد أن طرق الطاعون أبواب المدينة . بعض قال أنه من عمل اليهود ، لكنه قول لم يكن له أي معنى في البدء ، أي وزن أمام الألم الشعبي . من الذي نشر هذه الأقاويل لكن الشعب لا تهمين عليه الأفكار العامة ، وإنما الأحداث الفردية التي توضحها . ولقد وجد من زعم فطارت منه الكلمات ، أنه رأى على الجدران آثار قذارات فيها الطاعون ، لعل بعضاً يمتك بها في مروره . ولم يكن هذا القول ، واضحاً ، ولا مقنعاً ، وما لبث أن جاء شهود ، ازداد عددهم شيئاً فشيئاً ، يعلمون بأمر هذه المادة ، هذا الدهان الذي وضع على بيوت الأزقة الضيقة ، وزعم بعض أنه قيء وبعض أنه براز ، يعمم به أبناء اسرائيل الوباء ، كي يضعفوا غرناطة إلى الحد الذي ، لو قطع معه البربر البحر قبل موعد التسليم ، لما وجدوا أحداً ينقذونه في المدينة الميتة . ووجد من الناس من ضرب عينه بقبضته ، شاهداً على أن عينه رأتا داهني الجدران ، وتدولت أساء حاخامين وخياطين ، لكن النجاح الأكبر كان من حظ الذين وشوا بالأطباء اليهود . حتى أن الحاجب نفسه استشاط فأوقف منهم حوالي نصف دزينة ، اعترفوا بكل ما أرادوا منهم ، تحت التعذيب .

وسرت نبوءة في الشوارع ، وظهر الفقير حامد بن سراج فخلط في كلامه اليهود بالأمر ، حتى لقد أخذ أناس من البسطاء يتمنون دخول القشتاليين ، لعلهم يخلصونهم مرة واحدة من الملك الماكر وشركائه ، ومحدثوا عن محارق المسيحيين وكأنها منقذ لهم . وغدت الجماعات الصغيرة في الزوايا ، والزنقات ، حشوداً عديدة تفيض بها الساحات . وعلت الهتافات وتسلح الناس بكل ما يمكن أن يضر بوايه ، أو يقصموا ، أو يزهقوا ، أو يدمروا . . . وحملت الجماهير وهي تعدو على الكنس . وانهاال التهديد والحجارة ولو أنها لم تكن غير نذير بالعاصفة . وانضمت النساء للرجال ، لأن طفلاً مات ، وما يعلم أحد ، بالطاعون قضي أم قضت عليه الطقوس ، مع أن الفترة

لم تكن المرافع . وصحبن الرجال الثائرين بعويلهن ونحيبهن .

وفي مساء الخامس والعشرين من صفر ، وقد هبت ريح من جحيم ، وخيم قبل أوانه ليل مظلم الساء كنفوسهم ، وامتلأ وادي حدره في الدرب القائم بين الحمراء والبيازين ، ووصل الفرناطيون إلى أوج الألم والعار ، فوحد بين جماعاتهم ما يمزقهم من عواطف مختلفة ، بعض عن إيمان ووطنية ، وبعض عن خوف لا يطاق ، فاتجهت ضرباتهم الأولى إلى بيوت العلية ، يؤلف بينهم حقد مشترك على الأغنياء ، وعلى اليهود الذين تتجسد فيهم كل هذه الأمور ، ولقد دفعهم إليهم معرضون عتيفون ، فرموهم على بيوت بائسة ، وبيوت مقلية ، لأن شعب الكتب تبنى لهم في ساعة العمى والغضب تلك أنه ممول التاج ، الفقر نفسه ، خالوه كوميدية سافلة ، ودخلوا إلى حيث يسود الجوع ، يبحثون عن الذهب ، رمز اسرائيل .

وافتح الغيظ والنهب بيوت اليهود عبر ليلة طويلة ، فرموا للريح البسط ، والأواني ، والكتب ، والصحاف ، والزجاج . وجرى الدم ، وشوّهت أدنا الأهواء اليأس نفسه ، كل هذا جاء في البدء من الاهانة أمام الظلم ، من الغضب المقدس لوطن مخدوع ، مما حفل به هؤلاء الناس ، من اخلاص ونقاء ، من إيمانهم الأعمى بالله ، يدفعون هنا عن آخر معاقله ، وكأنه « توله » الضائعة على آخر حد للاسلام ، ولقد كانوا على حق ضد الكبار الذين يسلمونهم إلى الملكين الكاثوليكين لقاء الحفاظ على ثروتهم ، كانوا يجهلون أن أبا عبدالله جرب حتى الدقيقة الأخيرة أن ينكل باتفاقات سانتاني ، وأنه تحدث عن الموت بدل التسليم كانوا يجهلون أن أميرهم هو في الواقع أسير أبي القاسم والوزراء ، لقد فقدوا معنى كل ما لم يكن غضباً ، كان يكفي أن يرفع إليهم طفل يديه طالباً الرحمة ، حتى يظنوه عدواً ، فيدوسونه بأقدامهم .

ليلة طويلة كأنها خزانة مقلوبة . . .

وفي بيت أبيها ، ربي ناحوم بن صموئيل ، فضحوا سمحا ، التي يعني اسمها بالعبيرية الفرح ، وقتلوا وعمرها ثلاثة عشر عاماً ، ولا أستطيع بالكلمات أصوغها جملاً أن أتصور ما كانت عليه غرناطة في أصيل الواحد والعشرين إلى فجر الثاني والعشرين من صفر ، لا أستطيع أن أتصور سمحا إلا في ملامح طفلة أخرى ، من القرن الذي عشت فيه ، وكنا ندعو في بلد الفرنجة الذي هو بلدي قرية أهلنا ، سان - دونا - سير - ليرياس ، وقد ظلت تسأل أمها ، ما دامت على قيد الحياة : قولي لي ، أسوف أطفل اذن المانيا صغيراً ؟ كانت كاثوليكية الدين ، وما كان الشعر النازل على وجه أبيها أجعد . لم تحدث الحادثة في الشتاء ، بل في أوج حرارة آب . ما يتباني هنا ليس اختلاف الملامح ، بل التشابه ، وأني لأفهم ما تخيلت مما رأيت : القلب الانساني أيان كان يتوقف أبداً على نفس الطريقة .

وكان ابن عامر في الصباح يجر في المدينة جسده المحطم ، وجراحه . . . والدم يضطرب في صدغه ، والدوار يسكن دمه . . .

٧

يا البيازين يا جيفة يهوم فيها الذباب

مملكة الارهاب وأشياء تناثرت في رابعة النهار
تروي الخراب أمواتاً اصطفوا ككلمات مثل في الشوارع
وانتهاك الحياة والكأس الحطيم
وبيتا ما زال تدوي فيه خطا النهب
وتحاشى النجدي حمراً كريهاً وأحشاؤه بلغت قوائمه المقلوبة يا للجرح
فاوانيا^(١) ناعم على الأنف
نزل النجدي في الأشعة الغاربة
عارياً حتى عظم الروح
حتى توحش الدم
حتى قاع البطن حتى ليل الصدر
نسي في مكان ما قافية الذهب والآلة
لم يبق منه غير غياب الجسد
غير انجذاب للفراغ وكوكب عواطفه المنطفئ
لم يبق شيء فيه من الموسيقى الداخلية
لا شيء مما كان غروره ونشيدته
لا شيء من ذلك الحب الذي أحب به الفقراء
لم يبق إلا مكان الظلمة والجرح

مررت بالمدينة حيث الذين رغم الحدثنان أعطوا لكل شيء معناه علموا
كيف يشبتون لك في ليلة أن منهم يا غيبي أن منهم
يا للسكين فيك في أرق مكان فيك
حتى منهم لا تستطيع منهم أن تنتظر شيئاً

أنت هنا أمام الهوة والأسى بين يديك

ها هم وقد عربرد فيهم المد المر
كان من قبل جزر نهر إلى مجرور
جزر غرق على زبد البحار
جزر الجحيم هم فجأة في الانسان

(١) نوع من الزهر .

ماذا فعلتم بصبركم الطويل البطيء
العسير من أب إلى أين
ماذا فعلتم بنا أنتم يا من كنتم حتى الآن
أشباهي
ماذا فعلتم كنار في سكرها

لقد ظهرت عليكم من جديد دلالة البهيمة التي تعذر الظلم وتبين أسبابه
والمملكة العنف فلا أستطيع أن أرتمي على ركبتي اله لعله يفهمني
أو أن أجعل الشمس شاهداً معي لعلها تنكر
ما أرى

يمضي الزمن وأفكر لا شيء له وزن

كان الشقاء عظيماً والخيانة فيكم والتهديد بالاحتلال
وأنتم تسمعون صرير مفتاحه في القفل
ما كنتم تمسكون به بأصابعكم سرقوه
كنتم ترون السكين في ابنكم وأذنكم
تسمع استمتاع الوحوش
لا حجر يستند إليه رأسكم لا ظل يجتبيء فيه النوم
في خيالكم وقف جدار
لماذا بدل ما فعلتم لم تحملوا على العدو
لماذا لم ترموا بأنفسكم على العدو حتى الموت
بقرميد وعصي من خشب بالغضب والقبضات
لقد فضلتم أن تنحوا بغضبكم على أهلكم
تقولون إن الشقاء كان عظيماً إن الألم من بعيد
من سحيق كان يصيح
ولقد كنتم كأب شاب يخنق صغيره لأنه نهم للنوم
من باع الفجر بلحظة سوداء
العقرب التي يحيط بها الجمر فتلسع ظلها
تلك هي الأشياء المنزلية الصحاف والثياب

ديست سلبت على هوى الاحتقار من أجل لا شيء حتى ولا النهب
هجم الجار على جاره من أجل كلمة غامضة ووضع أصابعه بعينه
أنت يا من تقول كان يهودياً ألا تتجمل من لسانك

انصرم يوم على خطوي الضال في خجلي
وصم المساء على ما يسمع النهار
والقى على الكل رداء ثقيلاً بطيئاً من صمت
وأزهرت وردة في سماء السطوح
وردة لم تخش أن تبدو كدم مسفوح
أنظر أين تمشي يا شاعراً وهذا
الطفل تحت قدمك كحليب مراق

إلى م سوف يؤول البشر وأشدّهم املاقا
لا يخشى أن يفتح كبرتقالة
الحبلى أو كرهيف برسيم
يحطم الشحاذ الأعمى
لأنه لم يجلس أبداً على طاولة القسمة
فوقف هو والقتل وجهه كمحصّل الضرائب
فدخل إلى عائلة جلست إلى حساء البؤس
فيما خادم الاسطبل والكسول ينتزعان أسهاها

آه لكم انتظرت شر السلطة
فما كانت الجريمة غير بطانة رداء الملك الأبيض
وكانت تجري دموعي فلا أعرف
سعادة العذاب من جوع ومن برد
فإذا جلّاد يسمرّك على صليب

يا شعباً ضالاً ما فعلت بأخيك
وما أغدو أنا ما دمت أنت الذي كنت تنام على الأرض القاسية
إذا أنت الذي كنت تضع أصابعك المبتورة تحت الخيل التي ازينت بالذهب
إذا أنت ما اهتممت بكاسب خبزه مثلك مثلك

بيد كأنها أداة من حديد إذا أنت الذي مثلنا يضطهدون ويحطمون
إذا أنت الذي قدمه كجمر انطفأ
إذا أنت الذي كحبة تسحقها حجر
إذا أنت الذي كجسد تشد عليه ذراع
كيف أنهي حياتي وجملتي

*

كذلك كان يفكر المجنون يعصر فمه ما لا يقول من زقاق إلى زقاق من رعب إلى رعب أذناه
تضطر بان وقلبه بين محالب تتين

وجد نفسه فجأة على ذاك السطح بين بيتين توأمين فوق المسيل الذي كان ينظر منه وعمره
خسة عشر عاماً أو تقل إلى التي كانت تتسلق على نفس الدرج من ظل التي ضيعت ملامحها صوتها
واسمها وذكرها فأجدى ألا تتكلم عنها

مضت الحياة كلها لن يصعد بعد أحد الدرجات فيجلس هناك يسترد نفسه الفتى وانظر إلى
يديك العجوزين بت ولا حاجة لك بمرآة

أنت تعود هنا على نفسك كئابض أيام كانت الكلمة في فمك ناراً حنوناً

هنا تعود فتقيس النسيج وقد مدّ زمناً طويلاً

يا بشرأ من لحم وتعب يا أنتم الذين تمزجون نحبيكم بالنوم
هل توجد لغة بعد الآن بين يأسى ووحشيتكم
أي معنى بقي عندكم للمغامرة الانسانية

وفيما هو يتأوه تحرك شيء في زاوية الزقاق لم يتبينه أولاً

حد الجدار فخاف العجوز

مسكين قيس لو أنه الموت أما كنت ترحب به

فما بقي لديك اليوم ما تكتشفه من قسوة الآخرين

لكن الرعب هو أخ الرعب

رأى فجأة خوفه يتعكس فيما يحرضه كهاء بثر تخشى من يتراءى فيها

زوجان

فتى أحاط بذراعيه امرأة - طفلة جعل جسده درعاً من الأنظار الغريبة لهذا الشيء الحلو

الخافق وقد أمسك به غزله

فأحكم فما تحزر أنها الحبيبة
كان كل شيء جامداً خانقاً خالداً
وأحس المعجوز فيه بجرح غصن شوك قبض فجأة عليه

ربما كان الفتى جيلاً ولو أنه يبدو قوياً من كتفه وذراعه قوة صعب تقديرها فهي ليست قوته
وانما

ما ليس له إلا في زمن محدود تلك القدرة التي تشبه كوباً ما يلبث أن ينتقل إلى آخر
ولقد ظن أنه فوجيء دون أن يعلم من خطر ففكر بأن يحمي ما يضم بما لا نعلم أي سلاح
أو أي مس به

كان يدور حول نفسه يفضل أن يعرض للقاتل موته
ورأى المجنون ففتح فمه وعينه
وارتحف
لا من أجله ما من أجله انقبض قلبه
أبدأ ليس من أجله

لقد فهم شيئاً قالتها هنا امرأة شبابه تلك منذ عهد بعيد
شيئاً حمله معه خمسين عاماً خمسون عاماً مضت لم يكن لها معنى دقيق عنده تتمتع بقية في
عوسج الذاكرة لثاماً علقه العليق ولا غير من حبيبة فرت

كان هو الآخر يمسك بها هنا بين ذراعيه
هو أيضاً على صدره قريباً فما يستطيع أن يراها
وقالت المرأة قولاً غريباً خفيضاً

ما يعجبني فيك أيها الفتى هو نورك

وزحف الليل إلى النهر فابتعد ومرت بيده على وجهه وقال بصوت واطيء لنفسه وحدها هو
نورك

يا ليل اسرقتني من الشباب
آه أنا الذي يجب أن تحميني بذراعي سوداوين
أحقاً كان يشع مني في الماضي
هكذا النور

لقد كفته ومضة من تلك العيون العائرة في حبه حتى يبدل أساه طبيعته فيلقي به في هوة

أخرى يصطخب فيها سيل السنين

لا أعرف كيف عاد إلى فراشه ففقد الوعي بين تلك الجدران الأربعة بكل شيء إلا حلمه ، وارتقى فوقه رداء عظيم من حمى . . . حلمه في أن الرجل والمرأة معاً هما معاً الجواب على كل سؤال ، هما اللذان لا يستطيع شيء أن يفرق بينهما ، منهما يولد خير العالم وجمال النهار .

[٥]

عشبة أخذت غرناطة

وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين
القرآن - سورة النمل

الشقاء يقول

مع هذا لا بد من أن أغني
لا أستطيع أن أكون صرخة فحسب
شيء في عنيف
يبحث عن شق عن فجوة
ير منه العصيان

إنه يعضني حتى الروح
ويلقيني النحيب أرضاً
انه يحرقني بلا هب
أنا بحاجة له عند كل اغماءة
هذا الألم لا يجد الكلمات

ما يكاد يبكي القلب
ما تكاد تند عن الدم نامة
يأتيني كاختناق من خوف
كرماد لما ينطفئ
حطب ينس ليلاً

كيف تريدون أن أحيا
وأنا تمرق مني عبثاً الرياح
الجداول تتكلم مع ضفافها
الأسيرات مسموح لها
بأن يبكين على الأقل سماء الماضي

أحس أرجوان حريق
يصعد إلى وجهي
وتحاصرني الصور
التي تبحث عن موسيقى ولغة
وتقول أبهة الشقاء

أعطوني فم الأغصان
جنس القصب المظلم
والترجسة وزهرة العناق
ورعد السيل
وحلق المياه الظليل

أعطوني غناء النوافير
مرسية وأماسيها الحلوة
« ميورقة » والجزر البعيدة
وزوارقها القلقة
والسدود وراء قرطبة

وحقل الفضة حد اشيلية
اليانسون حول المرية
والجبال كلعبة أوتاد
وهضاب النرجس
وقد ركعت عليها غرناطة

تلك بلاد الألف تاج
حيث المرمر يلونه القرآن
وتستسلم الأرض للإنسان
وتطلع شقائق النعمان
على خطوات الفاتحين الزرقاء

عالم يحزم أمره على الموت

الطواويس في باحة الأسود
تعدو كأنما لانتحار صارخة
بنهاية المملكة الناصرية
وثورتها الكاذبة

أسمع بكاء في قلب القاعات
في ناحية دابة ترفس
صندل على بلاط
والزيزان في الجبال
والصمت في الشارع

أي معنى دقيق لهذا
لماذا أنا في هذا القصر
المشروع لرياح المنفى الباردة
في الساعة التي الملك أبو عبدالله
يطلب حصاناً إلى خدمه

هكذا يركب الملوك البحر
وليختر من شاء معهم الرهان
في أعلام جديدة وأوهام جديدة
وما من مشهد أمر
من أن ترى موت وطنك

القصة التي أروي هنا
هي قصتي على شكل آخر
مع هذا وبعد كل حساب
أن نفس الحب ونفس الخجل
هو سر هذه الرواية

أنا دائماً نفس تلك الوخزة
الديكور نفسه أو يتبدل

لا شيء أكيد غير أنه
لئن تفزتم من جرحي
مهما كان أنه جرحي

أتكلم صدى كمرأة
كلماتي مقنعة
ومن ظن جزافاً أنه يراه فيها
يضيّع في قلب بستان أسود
ليس فيه غير قبور محطمة

مع ذلك ما من أغنية
إلا وتكون ظهراً نصف الليل
وما يبدو جنوناً
من تدمر لغرناطة ونومانس
له عقله الذي يقودني

أصغوا إلى ما يبكي فيكم
من قصص الزمن الماضي
والحبة المخيفة التي تبذر
فتتضح من قصيدة إلى قصيدة
ثورات تتجدد

٢

في الساعة التي الملك أبو عبدالله . . . منذ الساعة تسقط الأسماء العربية من فمي كدموع ،
منذ الساعة غدت المرسية ميري ، والارث أصبح في أيد أخرى . . . يا الهي بت لا أملك شياً ،
حتى والحلم ، ولسوف تزهر من جديد بساتين شعب ، فيقطف شعب آخر البرتقالة
والكرزة . . .

ما أصعب أن يتجاوز عدل الانسان حدود جسده عبثاً تطلبون من العربي ، وقد جرد من
ملكية أرضه ، أن يشارك في آلام المستقبل ، أن يجد نفسه في اللذين طردوه ، أن يستمع إلى خفقان
قلبه الاسباني ، هذه الأرض سوف تظل مع كل هذا مسرح تراجيديا ، ولن يبدل ربيعتها أنها تبدلت
أهلها . في الساعة التي يش فيها أبو عبدالله ، من أن يتعرف على نفسه ، بين الخير والشر ، فوحد

بين هزيمته وهزيمة الأخلاق الإسلامية ، ومن من أولئك الذين كفوا عن التسلح بإيمانهم يستطيع أن يتصور القرون المقبلة ، والألام الآتية ، وجحيم غالب اليوم ؟ ولئن أراد الله ، أن يكون بعد الآن حد الإسلام هنا ، فلسوف يشاء الألام لمن أقاموا هذا الحد . شعب في اثر آخر ، يجد بعده المكان الذي تسيل فيه الدموع من جديد . . . كما حل المسلمون على هذه الأرض محل العجمية الذين كانوا يسمون غرناطة بالرمانا^(١) .

في الساعة التي روع فيها أبو عبدالله من تلك الليلة طرقت جدران بيته ، ومن الدم المراق ، ومن الموت الذي لم يكتف باليهود ، بل حاق برجال بلاطه ، وأعيان ملكه . . . في الساعة التي لا يؤمن فيها أبو عبدالله بشيء ، لا يؤمن فيها بشعبه ، أو لا يرى فيه على الأقل غير لوم قاتل يدون من سريره . . . في الساعة التي يأخذ فيها دوار الهزيمة أبا عبدالله ، فلا يسأل إلا عن سبيل أمينة لفراره ، ومن معه ، ما بقي وأمكن حمله من أبهة حطيم . . . في غرناطة لا شيء إلا ذهول يتلو العنف ، والذين حوَّهم اليأس إلى وحوش كاسرة وجدوا أنفسهم وقد جلا النهار عيونهم ، في حيرة من أنفسهم . بحثت عيونهم عن القادة المجهولين ، الذين نفروا على نور المشاعل ، فتبعوهم إلى المذبحة ، ما حلَّ بهم ؟ أين اختفوا ؟

لا شيء الآن يوحد بين الألم والألم ، لا الله الذي خان ، ولا الملك الذي يتكلم باسمه . لا مبدأ ، لا إيمان ولا مجتمعا اتفقت مصالحه . . . في الساعة التي يود فيها أبو عبدالله أن يقول للملكي قشتالة وأراجون أنه يتنازل عما تركوا له من أجل ، من مهلة لحكمه غرناطة ، عما يقارب الستين يوماً من تسعين وافقوا عليها . لا أحد يعرف كيف يكلم الجمهور ، ولا أي هدف يعطيه ، ولا ما يقول له عن الغد . . . ويلتقي الناس هنا في يومي أحقادهم ، في قصصهم المتبذلة الصغيرة ، تعميمهم الدموع ، حتى ليستبيحهم السم المر ، وتطهر المنافسات وصغارها ، ويتحول الغضب لدى كل خطوة ، ويصطدم الغرناطي بالغرناطي ، إذا خرج لشأته ، في كل خطوة ، فينحي عليه باللائمة دون سبب ، فما يتسع الوقت لحسم نزاعات غير ما تحفل به زاوية الشارع . . . لا أحد يصغي لهذا النشيد وقد تأخر حتى برز ، لا أحد يغميه هنا أبدا . . .

٣

حقاً على الذين كان اسمهم عربياً على الكتب ألا ينظروا إلى دمائهم
لأنهم زُرِعوا في هذا البستان وقد عبَّره من الشعوب ما لا يستطيع أن يقول معه
أحد تحت أية خيمة نامت أمه
لأنهم كحَبِّ في راحة الأندلس وقد
امتزجوا وكم عربي شعره أصفر وأخوه جلده كالليل من يقدر أن يقول أين يبدأ

(١) الرمانة : اسم غرناطة القديم وقد تحوَّل إلى جرناد ومعناها الرمانة .

اليهودي أو الاسباني فلا تتعرف عليه حتى من الهه
كم منا من هو بغل دينين
الذي ورث صليباً عن أمه هو كريح افريقيا

أما المستعرب ذو النطاق الجميل الذي يرقص في معبد كنيسته مع العذراء
والمسيح عند أهل قشتالة فماذا ينتظرون اليوم

غير أن تبعثر مذابحه^(١)

البربري الذي عبر البحر نجدة قدمه في الميراث حتى أن
أهل أرض الأندلس يخضعون لحكمه
بعد أن تمزقوا عشائر وممالك

كان محمداً ما جاء بغير الشيع والفوضى
من يتقذك هو من يمزقك بأسنان جوع جديد
يا شعب ألا تسمع طبول غرناطة

هوذا آخر يوم تسترد فيه قوتك ونارك
آخر يوم تحمل فيه علم الأمويين الأبيض العظيم

آخر يوم لعلك تتوقف فيه عن الشتيمة فلا تريق خمرك على مائدة أخيك

آخر يوم تنسى فيه النزاع من أجل سرقة حبة كستناء
ولعنة امرأة وجدت لذنها عند جار

آخر يوم عند أبناء الزوجة الثانية فلا يشاكسون في أرض بذرة الزوجة الأولى

آخر يوم يكره فيه الصائغ سائق العربية

آخر يوم تبصق فيه أمام ابن السفاح أو تدعو فيه غريباً من لم تكن لهجته لهجة
المدينة

آخر يوم على احتقار الريب أو الشقاق

وأخشى ألا يمتد الزمن بك ففتح بابك للجائع

أو تمنح المجذوم قبلة قبل سواه

ألا يمتد الزمن بك فلا تخيط غير كفنك

وتحفر حفرة عامة

(١) جمع مذبح .

دع عنك تصفية النزاعات ولا تذكر العار
يجب أن تبدل صباح فمك والكلمات في عروقك
لا تذكر عدوك في الصباح ما الذي شغل ليله
آه لو أني اقتل عامداً من لا ينسى هذه المرة أنه كان على حق
ألق بأوراقك أقول لك لن تربح إلا في الخسارة
ألا تسمع سهيل خيل قشتالة تذكر فحسب
أخذ الهامة وسقوط القلاع
انه آخر يوم كحقل قمح
آخر يوم كحزمة شوك مشدودة
آخر يوم من غير خطأ
آخر يوم تعدو فيه كصيحة إلى كوة السور
آخر يوم تنقذ فيه غرناطة

٤

نام المجنون ان كان هذا نوماً
في غرفته ذات الأسماء المكتوبة
تنتابه الحمى والآه
منذ أن ذهب للأمير
من جراح جرحتموه

المجنون يحلم ان كان هذا حلماً
انه كبيرت الألم
محروم من كل شيء
ولون الخردل
في عينه الفارغة من الرؤى

المجنون يرى ان كانت تلك رؤيا
عار عن النظر ورؤية الغياب
البارحة لا ذاكرة له
اليوم ليس إلا ألم
وغدا لا معنى له

سعيد من يموت أولاً

قبل شعبه قبل مدينته
فلا يبقى منه شيء
ينطفئ للأبد بلا ضجة
دون أن يقول لتكن مشيتك

كان ينتظر ينتظر
معجزة آخر ساعة
لكنما في روحه الحبيس
تأخر الموت عبثا
والعيون التي ملكت له

عبثا أؤمن أكثر بك يا حب
من هذه الصحراء تلمسها يداي
وصمت الذباب هذا الأسود
بالخاتم سقط من اصبعك
بالقبلات الضائعة من فمك

عبثا أؤمن يا حب بالحب
بقدمك بحضورك
أو التفت إليك لعله يسبقك
هذا القلب الذي جعله الحب ثقيلًا
وعلى جبينى الليل كثيف

غلالة على نظري ينطفئ
الكل يمحي ينصل
وتذبل الروح في الجسد
فيك أنت يكتمل قدري
يا من أدعو مرة أخيرة

كوني مرة أخيرة خمراً
ترتوي منه أخيراً شفتي
يا امرأة يا شعلة دائماً جديدة

أنا جئتك إليك حتى الدماء
أجد فيك دليلي النهائي

إذا كان العالم ما له أفق
إلا لا بداع أو بكاء أو لعن
فيا للشقاء من السميت للنظير
ويبقى أني عشت لسبب
كان حتى النفس الأخير قول اسمك
السا

٥

أين الذين تفخر بهم رماح سمهار

انتصب قائماً في ثوبه انه رجل دين - محارب^(١) يتكلم
وغلالة غضب قائمة على وجهه يضطرب لما نفسه في فمه

لقد اكتفى طارق بألف وسبعمائة رجل كي يضع قدم الله على اسبانيا

ولم يستطع لذريق بتسعين ألف خيال أن يرميهم إلى البحر
فأرسل البربري رأسه إلى طنجة كي يستمتع بها ملكه^(٢)

أتذكر يوم بدر وقد حق للابن أن يقتل أباه لأنه لم يركع أمام الله العلي

يوم حرم على المجاهدين الفرار أمام ضعفهم من المقاتلين وخيلهم بلق وضعوا
لها شارات تعرف منها كما تفعل الملائكة

ذاك الصباح ظنوا كل شيء ضاع لكن كلمة الأزدلاف كانت أيها المنتصرون

أتذكر الذي بصق التمر من فمه وهو يحمل على العدو لعله يأتي الله بلا زاد

أو تنسى أنه قيل في تراب الأندلس أن ذرة منه أفضل من ثواب الصيام والصلاة

وأن الجهاد في سبيل الله هو أعلى الايمان

(١) (٢) يقع أراجون في عدة أخطاء تاريخية .

يا لون الاسلام في هذه البلاد أهناك أروع أو أجمل من دمي
إذا أريق على أرض الأندلس

إذا لم يروها القرمزي تسحبه من الكافر كخمر قبل أن يقتلك أحد أهله
فلا سقط عن سرجي وقد قطعت قبضتي ولأقاتل راجلا بالأخرى
غنّ حتى ثمالة روحك
واحفظ على شفتك ضحككتها إذا طار رأسك
ولسوف ترى عينك جنة أعرض من النظر
يا ملكاً آخر سلالة الذين الجأوا النبي
هنا ثغر الحدود وأنت واقف على طرف الاسلام
وليس أمامك غير أرض الموت
علم مطيتك بشدّ ركبتيك أنها جواد الله

كان القائل رجل دين محارب في صوته بحة الصحراء
صنهاجي خلق من رمل ورفض
ألقي على الحمراء من حنجرتة النذير
عملاق ملثم بالسواد على عتبة قاعة الأسود
جماله عبث عبث رنين مهمازه القوي على الهضبة القرمزية
وكان أحداً لم يسمع قوله
لا الملكات ذوات الأقدام البيضاء يحمر لها المرمر
لا الولدان في العتبة في ضجة سناجب وبتدق
لا فرسان زناته وقد أبطأوا في اعتلاء خيلهم إذ لمعت بعده تمشيط
ولا الظلمي خطر بين سادة وعبيد
ولو أن يدا لا تداعبه الا ويقفز على قوائمه الزجاجية
رجل دين - محارب في آخر أيام غرناطة
في قلب الأبهة وبكاء فسقياتهما الأزرق
يرفع عينيه فيرى الصلوات المنقوشة
في كمال الحجر والمينا
يزينها محراب الجبال المكلمة بالثلج
فإذا خفضها لحظة على غدو الخدم ورواحهم والمتاع
وفوضى قصر يخلونه للرحيل
فجأة بالرغم من عنقه الجبارة
وذراعيه وقد حمل الموت كطفل خفيف بين المرتدين والمسيحيين
والفخذين الطويلتين اللتين أكلتا مرات كثيرة الأفق

يتأوه الطارقي كبهيمة حاصرتها الكلاب
يبحث بعينه عن الملك لعل الملك يأمر
فتطير السيوف والأعلام

يا لعيني لو أنها لم تتأملا آخر زمان الأنصار
عيناى اللتان لن تغلقهما يد النساء
يا للطراد

لكن أبا عبدالله لم يهتم بهذا الجلف العظيم اليأس
ألا يعلم منذ أجل بعيد أن ما من مملكة الا وتمضي
لقد ضيغ الأموي قصره منذ أمد
لا المرابطون ظلوا يملكون هنا ولا الموحدون
أين ملوك الطوائف وقد تمزقوا كرداء
لم تستطع كل عظمة بني ناصر أن تنفذهم
وقد جاء دور آخرهم جميعاً
أولم يقل النبي أن الحرب خدعة
والقول هذا ينطبق على كيفية الانتهاء منها
ولا بد من أن يكون حساب ما يأخذون من مجوهرات وسجاد صحيحاً
فلا يلهمهم صخب الفرسان الا فر يقين الغيبي
المرج فقد للأبد اسمه
انه الفيجا يصطخب سلاحاً وآلات ونسيجا
ولسوف تدق ساعة الملكين الكاثوليكين على الأبراج القرمزية
لقد فر شبح عبد الرحمن عبر الريمان
ولا نجلس بعد وأبناءنا ونساءنا بين الكروم
وهل تثق بالتسليم
وبعد فليمت اليهود ومن لا يبيعهم بثلاثين ألف دينار ذهبي
وقصر اندرش الصغير في قلب مقاطعته ما أحسنه للصيد
نستطيع فيه أن ننسى على صوت الموسيقى

هذا وبعد غرناطة مدينة ملاًها الذباب
كان امرأؤها على خلاف دائم والأحزاب
المؤامرات والسلب وشقاق الفلاسفة
يكفي الانسان كأس يشرب فيه
وسرير للزنى

يا رفيقاً من وراء الريف^(١) يا من تحمل الليل على وجهك
لماذا تظل واقفاً كملامة ما تنتظر
أصمت من تاء مربوطة في نهاية كلمة
أيها المرابطي يا سليل شعب غريب يحترقه أهلي
لن تدخل الجنة
فأنت مرتزق عنيف الجسد والعواطف
نهاب مدن احترقت عبر رعب البنات
يا قاطع النخل ما تنتظر من المستقبل والمشركين
انزع سوادك وارفض إلهاً تحلّ عنك
أو تباع في البازار كبهيمة
لفلاح قد كفت ناعورته عن الدوران
ألم تتعبك زعزعة السماء بسيف من ملح
ألم يتعبك القتل باسم الهك
فلم توفر صبيهاً صغيراً تأكدت بيدك تحت الرداء أنه في عمر المتعة
يا رجل الدين من يكلمك هو ملكك تعلم منه
ألا اله في روما ولا في الاسلام
التضحية جنون عند كائن من لحم
لأن ما يعطي في آخر الحساب الحياة معناها
ومعنى كل الذي كنّاه
يكمن يا جنديا بلا أمير وناسكاً بما لا يوجد
يا هجاناً بلا جمل يا قواد امرأتك
في زنا روحك وعهر جسدك

٦

ما تهتم تفاصيل تلك الأيام التي قدم فيها الملكان فأخذنا مكان الأمير؟ ولعلها لم تكن غير روايات كاذبة، لبناء الأسطورة التي تزعم أن أبا عبدالله اتضع أمام الزوجين الملكيين، وتؤكد الحكاية التي تذهب إلى أن ذلك العربي جاء فبكى في مكان دعوه من يومها التتهدة، وما قالت له أم خجلى، فما نعرف من سمعها، فأعاد قولها على المؤرخين: وأنا لنشك في أن الملكة عائشة وجدت

(١) شهابي المغرب .

المناسبة تتسع لكليات رجيمة . لقد اعتمدت ولا شك فيما بعد مقدمة «يوميات كريستوف كولومب» التي يخاطب فيها الملكين الكاثوليكين ، بعد شهور ستة ، عندما أقلتت الستة ماريا ، التي ساهما بحارتها «ماري الرقيقة» ، فقد قال في الثاني من كانون الثاني سنة ١٤٩٢ ، أنه رأى أعلام اسبانيا على ابراج الحمراء ، فيما خرج ملك العرب ، بعد أن قبّل يدي سموكما والأمير ، سيدي . . . لكن المقدمة هذه حفلت باختلاط صارخ في مواضع أخرى عديدة ، وفي التواريخ (متممّة ولا شك) ، ونلاحظ جيداً أن كولومب قال أنه رأى الاعلام تخفق على الأبراج ، لا حادثة تقبيل اليد . . . وأتتنا شهادة أدق من جان مولينه ، وما كانت غير عين من عينه جريجة ، إذ وصف وصفاً دقيقاً تعاقب تلك الأيام ، فلم يتحدث في أي مكان عن تقديم أبي عبدالله فروض الطاعة لغاليه ، ولو أنه حدث لدعي إليه ، فروى ما شهد : ويظهر من مقارنة روايته بالمخطوطات العربية أن المونسنيور جوستاريوس دوكاردين ، قابل في الثاني من ربيع الأول أي في ٣٠ كانون الأول سنة ١٤٩١ ومعه ستمائة خيال وأربعة آلاف راجل ، في ظاهر المدينة ، جواباً على دعوة عمده الحادي عشر ، في قصر لوس أوكزوراس ، عليّة الغرناطين الذين رافقوه إلى الجامع الكبير فوضع اليد والملكية عليه باسم ملك اسبانيا ، دون أن يكون الأمير هناك ، وبعدها عمده قائد القطعات الاسبانية ، إلى رفع اشارة الصليب على أعلى برج في المدينة ، وإلى انشاد «تي ديوم» . لكن أبا عبدالله لم يشارك في هذه الاحتفالات لا هو . . . ولا فرديناند وازابيلا اللذان ركعا في معسكرهما عندما ارتفعت الرايات . . . ثم اهتما بعد ذلك باستقبال وكسوة سبعمائة ، بين رجل وامرأة ، حرروا من سجون المدينة ، قاموا معها بموكب في كنيسة سانتافي . وفي يوم الخميس الرابع من كانون الثاني أي الثالث من ربيع قدّم المونسنيور دوكاردين مفاتيح القلاع ، والأبراج ، والقصور ، وأبواب المدينة إلى المونسنيور ايفيروس دومندوسا سيد البيت الملكي ، ويرى من هذا أن أبا عبدالله ليس هو الذي حملها إلى الملكين الكاثوليكين . . . كانت غرناطة منذ زمن بلا أمير ، فقد اتخذ ، وأهله ، وحاشيته ، وما ملكوا ، طريق الجبل ، وفي السبت التالي أي السادس من كانون الثاني ، أو الثامن حسب رواة آخرين ، دخل ملكا قشتالة وأراجون ، وابنتها دون خوان ، والكرادلة والأساقفة ، وقواد الجيش الكاثوليكي ، ومثلو الدول الأجنبية ، في عشرة آلاف خيال وخمسين ألف راجل ، إلى آخر ثغور الاسلام . ولم يذكر جان مولينه الملك العربي ، فيما كتب ، عن تلك الأيام . . . وما حاجته في تقديم مفاتيح الحمراء إلى غالبية المتوجين ، وفيها منذ حوالي اسبوع حامية اسبانية ، يحفظ جنودها أمن المدينة ، وينظفون الشوارع من الأثاث الممزق ، والصحاف والبلور المكسر ، ويدفنون الجثث المتروكة ، ويريقون الكلس على المجذومين الأحياء منهم والأموات . . .

هنا أدع الملوك ، المسيحيين والعربي ، أدع هذا في قصر أندرش أو أندراكس ، إلى قدره الأليم ، إلى خيانة الحاجب الذي وضعه بعد سنتين من ذلك أمام أمر واقع صفقة عقدها ، اشترى بها فرديناند القصر والأرض بالذهب ، فأسقط بين يدي الأمير الذي لم يبق له إلا أن يعبر للمغرب فيموت هناك بعد أربعين سنة في معركة ضد حملة اسبانية . . . أدع أبا عبدالله وقد غدا أغنية مغنين لمجد المسيح ، وعار المسلمين ، وأرجع إلى اليوم الذي فيه رفع المونسنيور دوكاردين ، استاذ منظمة سان جاك الأكبر في ليون ، علم هذه المنظمة مرات ثلاثاً على أعلى برج ، صاح فيه مناد عسكري :

سانتياجو سانتياجو ! كاستيلا ، كاستيلا ، كاستيلا ! غرناطة ، غرناطة ،
 غرناطة ! من أجل السيدين الأرفع والأقوى دون فرناندو ودونيا إيزابيلا ، ملك
 ومملكة اسبانيا ، اللذان ربحا مدينة غرناطة هذه وكل مملكتها بقوة السلاح ، من
 الكفرة العرب ، بمعونة الله ، وأمه العذراء المجيدة ، والقديس المبارك سانتياجو
 وبعون ابينا السامي القداسة اينوسانتيو أو كتافو ، منجد ومعين السامي الرفعة ،
 سادة وفرسان ونبلاء ملكها .

وفيما تمجعت عيون الشعب وغالبه إلى هذا المشهد ، وقد أصمها النداء رددّه أربعة آلاف
 وسعائة جندي اسباني ، سانتياجو ! سانتياجو ! . . . كان ثلاثة فرسان ، يركبون أحصنة عارية غير
 اللجام ، يسوقونها بأفخاذهم ، وقد انحنوا عليها للطراد ، يرون في حذاء الدارو ، على مستوى
 باب الطبول ، في ربض غرناطة الغربي ، ثم يصعدون على منحى البيازين ، تند عن أفواههم
 الشاحبة في وجوههم المسمرة نقرات لسان غريبة ، لا تفهمها غير مطاياهم . . .

وأوقف أولهم ، وأقلهم سمرة ، حصانه بدفعة من أصابع قدمه في ابطه ، وقفز فدل رفاقه على
 بيت المجنون قائلا : isna piskaro ker ^(١) ، إذا كنت فعلا حفظت هذه المقاطع الغريبة التي
 أجهل معناها ، وهو فتى في الخامسة عشر . دخل وحده أولاً إلى بيت استاذة ، فوجده على فراشه ،
 مزرق الذراعين ، منتفخ الوجه ، مغمض العينين ، غطاه الذباب ، وهو يقول في سكره :

الوزال

ما أسعد الوزال
 أزهارها تولد دائماً
 دون فصل غير الشباب
 ولا قدر لها سوى أن تكون عاشقة

حياً أم ميتاً آه لا فرق عندي
 إن لحق خطوري بخطوك
 إذا أضلني إلى حيث لست
 تخون العين أو الأذن

يا مأساة الديمة
 الغد شبيه بما مضى

(١) يا عجري هذا بيته .

هذه الحياة حرب
نحن عنها افترقنا

فيّ أنا ماذا يبدأ
ما هذا التمزق
براح الحبيب هذا الطويل
يحس انما به يمرع الغياب

يمرع فيه الظلّ والخوف
من ليلة ما لها آخر
من شتاء ما له صيف
لا يجوع به أحد ولا يبرد

أجهل بماذا أؤمن
هل بارحتني الروح
أم اشتعل الوزأل
وغادرنى أسود الوجه

ميتاً أم حياً الدم
الخافق في يفر
ما أمر شهادة
ذلك الذي به أحس

أسقط في عمق ذاتي
من قلق لا ينتهي
لأنني لا ألمس يدك
لا أقول أبداً أحبك

منذ كم من السنين
أعيش هذا الخوف
وأقيس موتي

بليالي وأيامي

بقلبك بأنفاسك
وكأعمى أغدو
قليلاً قليلاً أعرف جيداً
أني يفر مني نوري الانساني

لست إلا كلباً جريحاً
نحيبه ضئيل
مساء وراء الباب
تركوه دون أن يفطنوا له

عندما عني تبتعدين
ياحباً لا يأبه لي
ميتاً أم حياً يأخذني خوف
خوف ينتابني من أن ترحلي

الحلم بذلك يقتلني
عالياً وحيدة سريعاً
صغيرة صغيرة
نجمتي أين تلمعين

يا نجمتي الشاردة
يا نجمتي وعذابي
يا نجمتي عبثاً
أبحث عنك في آخر الدنيا

كقطرة مطر
نجمتي تضيع
نجمتي في السماء فريدة
دمعة تلمع بعيداً

يا نجمتي يا بؤ بؤ عيني
يا سعادتني البائسة البعيدة
يا نواسة قبل الصباح
على هذا الفراغ العظيم الأبدى

يا نجمتي يا صيفي
يا دهشتي بالورد
يا أنت التي في كل شيء
بريق بقي لي

يا نجمتي الزرقاء والبيضاء
يا ألمي يا جنوني
يا ذاكرتي ويا نسياني
يا نجمتي بألف غصن

يا امرأتي ويا ابنتي
يا صبيحة قلبي يا كلمتي
يا الكل يخفيها ويسرقها
يا التي تنشق لها أحشائي

هكذا الزمان والمكان
سوف منا يتمزقان
كركب على حجارة
ككأس يتحطم

يا نجمتي وليس لي طاقة الوصول إليك بعد
بقي لي أن أنطفئ
مع نار الوزال

شكوى زيد

لما علمت أن أستاذي قيساً بن عامر النجدي الذي يدعونه حسب رغبته لا
سخرأً بالمجنون غداً عشية أخذت غرناطة مجنوناً من انتزاع ملكية شعبه وملكيته هو

لم أشعر وأنا في بيته أنني دخلت كلص
جلست على الأرض والجدران مغطاة من كل ناحية برُقياً لا أمل فيها
حروف من كل اللغات تنطق باسم الحبيبة

أخذني فجأة البكاء على كل الذين رسموا على الجدران سر قلوبهم البوح
والنداء والاعتراض ضد الغياب

أنا وقد تمزق جسدي منذ تلك الليلة فكرت في دهشتي فكرت أن أكتب كلمة
سمحا التي تعني لدى آخرين الفرح يا كلمة
باتت عندي ولا معنى فليست هي الاسم أتمته رقيقاً فيجيب صوت
يا كلمة لم تعد اسماً

الحياة كلها أماننا هي صحراء بعدها
أبن لي أستاذي كيف يمكن للمخلوق أن يفترق عن دمه

لما دخلت بيت أبيها وكان غابة هوت كل أشجارها وما زال فيها دخان الصاعقة
لم أر سواها يا للفضاعة لم أر غير لماذا كونني مجهولان في عناقهما
غير لماذا خلق العالم منذ أماد كي أراه ذات يوم
والشعوب ولدت في جبال بعيدة
حفرت مجرى يذهب إلى البحر

جعلت المياه تلتقي على طريقة السيوف
ركضت في الأرض وتعذبت من أجل هذا

حياتي كلها أمامي كشيء سرق
آه لمست الجسد الذي يقره رجل
أخذته بين ذراعي ولا وزن له بعد أن طارت منه الروح
خفيفة خفيفة حتى لتمشي وأنت تحملها في الليل إلى قسوة الفجر
وجملت قدماي الحجارة
أين تذهب يا أنا والقمر والرياح
يا نائماً على طرق لا تؤدي إلى غاية
قطعت العالم المسكون أحمل مشهد الشقاء كله وصيحات النزع
كطقس جنازتي أحرس حبيتي
لم أتساءل أبداً أي عسكري كان حولها ولا عن ذلك الدعس
لا أحس بغير ذلك العشب المحصود
هكذا تركت غرناطة ومعني حمل قلبي
سرنا في الوادي سرنا في الجبل
بأي نسيان بأية ذاكرة عرفت دروبي

ما يقول الذين ألفوا موكباً باتجاه يوم الظلمات الانسانية
من أين جاءني أنني أعرف لغة هؤلاء الناس
ربما أتخيلها وأني أنا الذي أتكلم هكذا
كلمات كي أخبى نفسي على عادة الطفولة

كل هذا اخترعته ما هو غير دخان عذابي
لغة قديمة كانت لعبة ما قبل حياتي
لعبة كي لا تكون بين الرمل وبينني
لغة أخفي وراءها فكري وما أنا
أستخدمها حتى الساعة في حلمي

النهار ما جاء النهار حتى تحطّم في السماء
زجاج القمر الشاحب

لم أفهم إلا بعد أشياء قلناها في الليل
هناك في الجبال حدّ المغائر
الأرض طاهرة حيث ترقد سمحا

*

وهكذا وجد الطفل زيد نفسه وقد أصبح رجلاً عند الفجر الذين جاء منهم في صدفة
رحيل ، فما يعلم أحد أهو من عرقهم أو أنهم سرقوه وهو صغير : شحوب وجهه نفسه لا يفسر
شيئاً . وسع له الكاليسيون مكاناً في مغائر الشلير كي ينام . وهم يعرفون كيف يختبئون من
المتصرين الجدد في غرناطة . وجاء اثنان منهم على الخيل المسروقة مع زيد إلى اليازين بحثاً عن
المطرب الذي تحدث عنه ، وقد لاموا أنفسهم انهم تركوه للمسكر المسيحي ، ولقد سمعوه أحياناً في
الأرياض ، يقول السا ، التي أثارت كثيراً حب اطلاعهم . لأنهم لا يعلمون أمن مصر هذه المرأة ،
أم من تولّه . . . على خيل مسروقة ، حمل زيد والفجر يان ما بقي من المجنون في جنونه ، فيما هواء
غرناطة تتردد فيه صيحات الغرور القشتالي - سانتياجو ! سانتياجو ! - وينشد تي ديوم الراجلون
والخيالة في أعماق ريع النصر .

وحمل النجدي على ذراعيه أقوى هؤلاء الشباب ، ملفوفاً بغطاء سريره وآلامه وحماه ، شاب
يسك مطيته الصاهلة المرنة بفخذه ، وكان هذه تفهم كل ما يعني هذا فتتحاشى الحصا وتقفز
الموانع ، والنجدي يحلم ، ان ملائكة على خيل ، كما في سماء المارك ، تنتزعه من الحياة . . .
وتدهشه ، عبر الغمامة التي فيه ، الكلمات التي ينادي بعضهم بعضها ، فما كان يتخيل أن تلك
الكائنات الساهوية تتكلم غير العربية ، ولا يتعرف على غرناطة في شفاههم يدعوها ميلي
جرانا . . .

كان زيد ، على جواده ، قلقاً ، حدّ رقيقه ، وهو أقلّ منهما اعتياداً على سهوة عارية ، والحوافر
تضرب الأرض فتتخيل أذنه أنها تردد نداء الحزن فيه (سمحا ! سمحا !) ، ومطهّمه الأسود
الصغير ، في بياض احتذته قوائمه ، هل يفهم أنه يحمل ولدأ بائساً ، يتأق وهو يرقل ، يصهل
سهيلاً يراه الاسلام صلاة إلى الله ؟ ربما يذكر فحسب أنه خُلِقَ من قبضة ريع جنوبية . . .

المغارة

[١٤٩٢]

جحيم ايفان دينسوفيتش ،
هو أن المستقبل لا وجود له . . .
بيير ديكس
مقدمة لسولجينيسين

لو أنهم رفعوا مضربي بين النجوم !
أبو العلاء المعري

لو أنني أستطيع الرحيل والحياة ، واللاشيء
إلأك أنت . آه دعيني أموت معك فحسب !
أو هذه أمنية صعبة ؟
جون درايدن ، كل شيء للحب .

الغاطس

يا غاطساً كل شيء عنده بحر
يا غاطساً كل شيء عنده مر

ما يروح حتى يغدو
أنا الذي مجهول ذاتي
نوري لونه معتم
كصمت نحبي

أين أنت يا أنا أين أنت
مرأة انطفأت موسيقى سكتت

هنالك أمواه عميقة حتى
ليختلط فيها الانسان بالأشن

هنالك لحظات سوداء حتى
ليسقط فيها الكائن عمهاً

هنالك آلام حتى
لتخشى معها الروح أن تكون خالدة

وحدة مطلقة
فيها القلب نفسه لا يخفق أبداً

لا شيء ينتهي لا شيء يبدأ
لا يجد العقل ولا الجنون

أهو قلبي أم يدي
أهو سقوطني أم طريقي

كوئي من أين أكون يحونني
يحمل غيابي حيث أمر

حيث أذهب لا أكون أبدا
وقليلا ما آتي وكثيراً ما أفر

يا نفس أنا في كل مكان متشاه
بلا عينين ولا فم ولا أذنين

كشيء انصرم
ككلمة لا نجدها أبدا

يا غاطساً يا غاطساً يجرّك السقوط
مسلوباً من كل ملك

يا حثالة انصهارك نفسه
يا خاتماً ضاع وطريقاً مطروقة

يا باباً يصطفق يا شفة مفتوحة
كل شيء عندي صورة ضياعي

اسمع جيداً نزيّف الزمن
حتى أن كل لحظة عندي هي الأخيرة

الزمان على أصابعي الزجاجية
وعلى ركبتني ينقلب عذاباً

الزمان بات ليس ما هو
كنار وضعت على انعكاسها

كأعمى يطفئ قنديله

اسمع الزمان يدق على صدغي

أسمع الزمان أنتظر الزمان
الذي تموت فيه الحياة إذ نحياها

أغطس فيه أبعد
فيغدو الزمان صياح حلم

معناه أن أنساه
بعد أن انفكّ عني

٢

مذكرات زيد

من يتكلم هكذا؟ بت لا أعرف ، بما سهرت على نوم أستاذي في تمتته ، تلك الليلة الأرضية ، وقد جاءت لنا فيها النساء بالغذاء ، ومسحن جبين المريض (وقلن وهن يرين دموعي coin ne orobiéla ne oropiéla ^(١) من لا يبكي لا يرضع) ، بت لا أعرف ، أولدت مني الكلمات أم منه . ربما امتزج المي بلله ، فهل أنا مثله لعبة ما يسكنني . . . هل هو حلم شفتي يموت على شفته ، من يدري ؟

كثيراً ما تأتينا رومية ^(٢) تجلس قربنا وتدعوني تشابو ، أي ولد كما كانوا يقولون لي في طفولتي ، وهي لا تفهم لماذا أعنى بهذا الذي ليس من عرقنا ، وما يعنيني أن يعيش بوزنو ^(٣) أو يموت ؟ لكن العجر حين تبونني منحوني ضعفهم للغريب ، ومن أين لهم الحليب الذي يقدمون له ، وهم يقولون لي ، مادجارا - تشييل ، أي انه الظهر وانهم ينتظرونني حد النار للأكل . ولقد غسلت المرأة المريض أثناء غيابي القصير ، وبدلت غطاء فراشه ، وهي تغني بصوت خفيض لحناً جد قديم ، لم أفهم جيداً كلماته ، يتردد فيه شفيقا الرثاء تشورورو تشورورو ، مسكين مسكين ، لأن الجنون يحول لعة الدم ، والمجنون بعد أن فقد حيلة أهله ، العقل ، غذا عندها مثراً للشفقة كرومي . . . وكان النجدي يلتفت برأسه أحياناً ناحيتها ، وعيناه مفتوحتان لا تريانها ، كأنه ينظر إلى كلامها ، ويتأوه لأنه لا يدرك معناه ، وتعيد له المغنية في بطه جاتشابلا ، مقطعاً مرتلاً ، بطيئاً ، بطيئاً ، كأن مشكلة الفهم عنده أن يكون لديه الوقت الكافي . . . جاتشابلا تتكلم عن القمر والدموع ، تتكلم عن حصان في الليل ، ورجل لا يعود .

(١) مثل عجري .

(٢) الروم يعني بها هنا العجر .

(٣) البوزنو : الغريب بلغة العجر .

ورحل الزمان على حصانه القاسي الذي لا يعدو إلى وراء ، ولو أنه ليس له شيء أمامه . ما
استطيع أن أنتظر ، أي فجر ، أنا لا غد لي . . . تشوروروتشورورو . . . كيف كان من قبل هذا
اللعن الذي يعذبني ، وما بقي لي منه غير كلمات فحسب : مستقبل الرجل المرأة . . . آه
الشفقة ، آه الشفقة بمن ليس له مستقبل ! آه الهول لمن ، تشوروروتشورورو ليس له
مستقبل . . .

.....

أنباء جاءت من ماليجرانا : حملها تشيبادو ، حداداً فرفياً تدوي أعياد الأبهة . الذين توقعوا
المذبحة ، والجوع والنهب ، دهشوا لما رأوا الأسواق وقد امتلأت اشاعة : يبدو أن ايزابيلا
وفرديناند من الاشاعات التي انطلقت في كل مكان كانا يريدان تطبيق التسليم حرفياً . حتى أن
عسكر المسيحيين كانوا يتململون إذ يرون كيف يعامل عدو البارحة ، واكتشف الشعب ، أن
الذين وصفوا القشتاليين بأنهم بهائم متوحشة ، قد كذبوه ، وكانت العلية تأتي فتحالس السادة
الجدد في باب الرملة ، فيتناظرون ويمتدحون شجاعة المقاتلين ، ومهارة الفرسان ، وقوة
أذرعهم . فإذا اضطرب أمر قمع بشدة حتى لقد آمن العرب بحماية القضاة الجدد ، وفضلوهم
على قضاتهم . العائلات التي خططت للذهاب إلى افريقيا ، بسفن راسية في كل مرافئ الشاطئ
وقد استأجرها الملكان الكاثوليكيان لمن شاء الهجرة دون أن يطلبوا منه أجر العبور ، عدلت عن
قرارها ، وأنزلت عن البغال أحملها في اللحظة الأخيرة ، وأعادت إلى المائدة صحاف الذهب
والفضة . وازداد عدد الذين هادوا ، رغم ضمانه حرية المعتقد والدين للجميع ، ففي كل يوم
ردات ، في كل يوم ينتسب إلى دين المسيح مارقون جدد .

كم استغربت ذلك . . . كنت ظامئاً لتفصيل الخبر ، وجربت أن أتخيل ، دون أن
أتوصل ، تغير الحياة في ماليجرانا . ألا ينجح الناس ؟ وهل يستطيعون أن يتعودوا تقبيل اليد التي
قتلت الملكة ؟ أيها التشياليو ، قل لي ، ما حل بالذي كان ، وكيف يحتملون رؤية الفاتح
وحاشيته في الحمراء ؟ وضحك مني الحداد ، لأن أسئلتني كانت عنده غيبة . ولأنني لم أفهم ،
مثلا ، أنه طبيعي أن يدخل المرء في دين الغالب . . .

والحق ، هكذا يفعل الذين من عرقه دائماً . لا دين لهم إلا دين الغالب . منذ عهد مصر ،
بل قبل ذلك ، في ذلك الماضي الذي لا يعرفون ، ألم يفعلوا ذلك ، فقد خلعوا دائماً بين عشية
وضحاها كتب قديم المودة ، معتقد المغلوب ؟ لقد كانوا حتى الأيام الأخيرة . يجهرون بشفاهم
بدين المسلمين ، وماذا يعني عنهم بعد الآن ؟ وحتى لو اعترف بهذا الدين الملكان الكاثوليكيان
بمعاهدة ، ما كانت غريزتهم لتخدهم . عاجلاً أم آجلاً ، يتقدم من يصلي للعدراء ، والحياة
قصيرة فلم لا يستعجلون . . .

« ماذا ، يا تشياليو ؟ أتستطيع الانشاد باللاتينية فيما سوف يحترق اليهود والأندلسيون ؟
وتتشنج أيضاً في مواكبهم ؟ كيف تؤمن ، قل لي ، أن امرأة لم يمسهها بشر تضع ابن الله نفسه ؟ »
ويضحك هو بأسنان بيض ، قائلاً كل دين يقضي بأن تؤمن فيما لا يصدق ، وإلا فمن أين يجيئه
الفضل ، هذا وبعد ، القول بايمان لا يعني أبداً التسليم العميق ، وعند العجبر محمد والمسيح ليسا

غير عرف .

أعرف . غير أنني يصعب علي الفهم . أنا نفسي عشت في عالم ، وأستاذي أيضاً ، نستخدم في افك مقسور ، لغة دين انقطعت عن الايمان به ، لكنني لم يدر في خلدي أن أقارن أدب اللغة هذا ، بمن لا يؤمن بشرية أهله ، بالنفاق الفجري ، والسخر الذي يجار به الحداد . قال لي مرة : « يا تشابو ، أنت لا تعرف العالم . . . نحن لا قانون لنا إلا بدعة من يود أن يضع علينا نيره . أنا من جهتي تعلمت كيف أعمل اشارة الصليب ، التي يتعرف المسيحيون بها بعض إلى بعض . انه ثمن بخس تحظى به بثقة الناس . أرومالي ، والحق ، ما يفرق أبداً الروم عن البوسنو ، هو أن يقدس المال على أنه اشارة للعمل ، ويتظاهر باحترام الاشارة ، فيما يسرق كل شيء ببساطة ، استقامته تضحكنا ، فالسرقة عنده تقى ليس من خصائصنا ، شرفنا أن نعيش من السرقة ، مثلما شرفهم أن يعيشوا من عمل الآخرين . . . الأخذ هو طبع الانسان . . . » .

.....

واستعاد النجدي قليلاً قليلاً الشعور . شعور حيواني . شعور يتأوه من العودة إلى الحياة . وانه ليؤلم المرء أن يسترد جسده ، أعضائه المتعبة ، وليل عينيه ، العمر ، واجهاد أنك موجود . . . شعور غابة تستيقظ . كل ما تحبب الأوراق ، سر الطيور الهاربة . . . شعور عاصفة ، بأنوارها المفاجئة ، وريحها العارمة ، وصرير أغصانها . . .

كانت النساء تأتي فتجلس حواليه بشياهن الملونة . يرقبن عودة العجوز إلى النور ، لا أملاً بنشيد يولد ، بل في نوع من الشفقة القاسية . وعندما سبقت عيناه فمه ، أعلن أنه يرى العالم ، بعقل المجانين ، الذين لا تختلف الأشياء عندهم عما هي عند البشر ، ولو أنها تخضع لتعليل الجنون . . . عندها عمدت النساء إلى رنين أساورهن ، وركزن حلقات شعرهن على آذانهن ، ورقصن حوله ، متواويات ، ومضى الزمن ، وهن يقدرن أنه الأوليبارانشي ، كما يدعى نصف الليل هنا ، مع أن أوائل أشعة الشمس ، انسربت إلى مداخل المغائر ، سناجب شهباء تكسر بندقا .

ذات يوم أشار لي أستاذي بحفنيه ورأيت انه يريد أن يكلمني دون أن تكون لديه القوة . اقتربت منه ففرقت ، أرقب الكلمات . كان لا يفوه إلا باسم ، مثل من نسي كل شيء ، اللغة والنشيد ، فما يذكر إلاها ، ويدعو باسم الحبيبة الأشياء ، والنور ، وما يرفض من غذاء . . . مع ذلك ، تكلم في الغد . بصعوبة . لكنه ألف جملاً سخيفة ، لأنه راجعه ، كما يبدو ، احساس الآخرين . وفي اليوم الثالث ابتسم لي فقال : « زيد ! » . . .

.....

كلمني هذه الليلة أستاذي . ترى هل سمع الحداد ، أشك ، لكن من أين أتته هذه الكلمات ؟

قال : « زيد ، أهذا أنت . . . صعب في الحقيقة أن نموت من دون أن نفهم كيف أمكن

لكل شيء أن يتغير ، ولو أننا عدونا إليه دائماً ، دون أن ندري كحجر إلى هوة . . . هل تسمعني ؟
قضيت حياتي أتخيل أن قانون العالم هو الأفضل . . . أي . . . أن في الانسان قوة عميقة ، تدفعه
لأن يكتمل ، ولو على قدر صغير ، كان مهمته أن يسير أبعد قليلاً بالحياة . . . آه ، يا زيد ، كم
كنت غططاً ! كم كنت . . . ثم عاد إلى الصمت الذي أحسني دوماً ألا يستطيع الخروج منه

.....

أقدر أنه كان مضي علينا حوالي شهر عند الفجر ، لما طلب مني أستاذي أن أعزف له بعض
الموسيقى . لم تكن عندي آلة . أعارتني فتاة قيثارتها فرددت طويلاً لحناً كان النجدي يحبه من
قبل . بدأ يرتجل الكلام ، وهو لا يستطيع مواكبة فكره مع اللحن القديم ، فأسكتني واكتفى
بنشيدته وحده .

ولقد ضيعت ، لدهشتي ، البدء ، فما أذكر إلا ما يلي ، وربما كنت أخطيء فيه ، فقد
اختلف عليّ ما سمعت بما به فكرت :

من يقدر أن يقول كيف أظلمت في الانسان الرؤيا المقبلة هل هو العمر أم العين أم القدرة
على الحب أم ألم ما كان يرى ألم المسافة أو ما لا يرقى أو ماذا ربما كانت عدم قدرته على التدخل في
الزمان المقبل فيظل شاهداً مكبلاً على الظلم آه كم كنت أفهمه لو صحّ ذلك ولربما كذبتنا أحلامنا

الزمن يرسم إذا طال خطوطاً في الشبكية فتضيق شبكتهما وتغدو بقعة تؤلم الذي لا حد عنده
في الزمان - المرثي فكيف بنا نحن الذين نرى في المكان النجوم من دون جهد ربما كان هذا الذي
يجعل المستقبل كثيفاً هذا الذي لا يطاق

يا العشرون من عمري كان المرج أمامنا على مدّ النظر غاب عنه الحاجز الذي يقف بعيداً
عنا كجفاف الشرايين اليوم

لقد افترقت عنك لقد افترقت عن ذاتي

آية كلمة في اللغة تعبر عن العطل مثل كلمة لا مسكون

انها عكس تلك السورة الرائعة التي يقال أنها من الجحيم وما شأن الشيطان أليس المسكون
هو الذي يسكنه حب على قد داخله وجود يزدوج به الروح والجسد

المسكون عنده الحياة تعبر عن ذاتها بصراع لأنه اتحاد الآخر به

أما اللا مسكون فهو القائل إن بيته فارغ والريح التي تمر به فارغة

هو القائل ليل العطل لا آخر له لا عمق ولا منفذ فيه

لا أستطيع أن أكلمك إلا صلاة أجهل أين تذهب مني الكلمة وتضع مني كل جملة أولفها

لك

كل جملة كذلك ما هيتي تبحث عنك
وكل صلاة مقدمة للموت فلتتجه إليك لتتجه إلي
الألوهية لا نصل إليها إلا بالموت

ربما كان في ذلك الشيوخوخة والأکید أن الموت ليس هو الا أرى المستقبل فحسب وإنما أن
أفقد ذكراه

عندما أخطيء ما لا يكتمل ولا أجد بين يدي إلا ما لا يشفى
عندما لا يمتد مني شيء في اختلاف الأشياء

في انزلاق حاضر مبهم في غده وينقطع فمي عن أن يعطي للفظه شكلا

عن ايجاد نبرة للكلمة تجعلني أعيش بعد ما أقول
شأن موسيقي يردد لحناً فلا يستطيع اتمامه

فيدرك متأخراً في الدقيقة التي يغلقت عينه أنه لم يكن صيرورة إلا بالقدر الذي كان فيه نغماً

يتوقف والجملة وقد حبسه الزمان حبسة اكتمال الكلمة

لأنه ما من صورة في اللغة تسمح أن تتم خارجها لعبة الكمال وما لا يكتمل

.....

فاجأت عجوزاً تمسك بقبضة أستاذي وتتبع باصبعها خطوط يده ، وهي تصيح صيحات
صغيرة ، في كلام فزع . وأردت طردها ، فاعترضت بأنها تريد ، بيناربادجي ، أن تقرأ بخت
الغريب فحسب ، من دون أجر . قلت لها : « ألا تخجلين ؟ تعرفين جيداً أن بيناربادجي ، هي
خدعة تخدعون بها البوسنو من أجل الدرهم . أما هذا الذي هو ضيفنا ، فأنت تنتهزين أنه بلا
حول كي تكذبيه . . . وهو الذي كان يأخذ بيد الساء ، فيقرأ المستقبل على خطوط النجوم ! » .

.....

(هنا يكرس زيد مذكراته في عدة صفحات لحملة قام بها مع العجر في أطراف غرناطة ، للحصول على غذاء
لسكان النورية) .

٣

الخلفاء

ما صرت بعدي ما صرت يا غرناطة
بت لا أفهمك يا قلبي مني انتزع
تعيشين بعدي يا حياتي تحرقين محرقتي
لغة أخرى تصرع فيها مخبثة بين الأشجار

حبّ آخر يقوم بنزهة

هيا يا موتي إلى مكان آخر نتكلم جنوناً
لأنا بتنا ولا مكان لنا في الدورة
من دوننا أزهرت السماء من دوننا اصطخب السيل
ها نحن أولاً غرباء أبداً عن هذا العالم
لأن غرناطة نسينا

أي وجه تحبّيء يا مستقبل تحت قناعك
والناس الذين يجلسون مساء هنا
هل يستعيدون شموشنا المكفهرة
وذاك الجمال المر الذي خفنا عليه
والأبيات كتبناها على الفسقية

انه يتكلم عناؤه له انه يرقص أفراحه له
ولسوف يؤمن بأهمة من وهم
يعطي دمه بلا ثمن يسكر من خمر أسود
ثم يرسم قلبه على جدران بلا ذاكرة
تموت عليها الأسماء جميعاً مصلوبة

أيها المستقبل يا مستقبل يا قمحاً لا يجمل إلا رزماً
حبّه يضيع قبل الطحن
ما أصبحت بعدي يا غرناطة ذات النجوم
مدينتي البعيدة تبدو قارباً في الرمل
يا نصف ليلى يضيق أنفاسه العشب

أسمع بعيداً أناس ما وراء زمننا يتحدثون
أسوف يجنون منا ما لا يعلم إلا الله أي ربح
انهم الخلفاء الذين يرثون الميراث
هل يعرفون ما يفعلون عندما يقتسمونه
اسمعهم انتظرهم

ميليه أو المهتدون

فقر اللهب العالي سريعاً في المدخنة الضخمة ذات السفافيد السوداء . وقصقض الحطب الأخضر ودخن ، ككلام المفاصل ، وغصت القاعة الكبرى في أشعة بعد الظهر بالمدعويين ، وظلال ترميها النار على الجدران ، وانتشغال الخدم ، وصب الشراب ، والتحيات ، وخليط نساء وكهنة . . .

ما معنى ذلك كله ، ماذا يعدون ؟ أحقاً التفت برآة نفسي ناحية المستقبل ؟ هل وجب أن نفهم كلام هؤلاء الناس ، لكن أية لغة يتكلمون ، كأنهم طيور ليست منا ؛ يقولون هذه السنة في (فبراير و) بدل ربيع الثاني ؟ وأي شباط يعنون ، من أي قرن ؟

هنالك خطأ في الزاوية . فالعام ما زال ٨٩٧ للهجرة ، الذي هو عند هذه الدنى ١٤٩٢ ، الذين يعدون حسب تلك الشمس الضئيلة في الخارج . المشهد في سانتافي عند المهتدي الكونفرسوموسين لويس سانتانجيل ، كاتب الدولة في مالية قشتالة وأراجون ، وهنالك أيضاً خوان كابرير و ، مدير غرقة الملك فرديناند ، وجبريل سانتشير خازنه الأكبر والأخ ديجودي ديزا ، استاذ اللاهوت ، وكلهم يهود هادوا وموسين خوان دوكولومبا كاتب دولة أراجون ، من أب مسيحي وأم يهودية . وأندره كابريرا ماركيز دومويا ، كاتب دولة قشتالة هبة من ايزابيلا وامرأته ، المركيزة بياتريس فرنانديز دوبوباديللا ، صديقة الملكة الكبرى ، دخلوا جميعاً في حاشية من الفتيان . سيدات وشعراء . دعاهم سانتانجيل كي يستمعوا للفصل الأول من مسرحية لكاتب مجهول ، جاء بها من سلمنكة شاب في السابعة عشرة ، فرناندو دوروخاس ، مهتد مثله ، مثل أكثرية الحاضرين في هذا اليوم ، ولقد نسبت إلى كاتب من طليطلة ، لكنها نسبة مشكوك فيها . . . ولقد قيلت في أمرها العجائب .

ودخل مع الأخ هرناندو دوتالافيرا ، رئيس البرادو ، معرف الملكة ، صاحب السيادة جان مولينه ويبدو أن عينه اليمنى ضاعت نهائياً . وفي ضجة تبادل اللباقات ، حول طاولة طويلة من خشب غامق ، وكأنهادعمت بسيوف متصالية ، المقاعد مساندها قائمة ، أكمام الحلل واسعة ، القبات محلوطة عند أعلى الذراع ، وعلى الكراسي قربها في صحب مجلس فتيان يجتالون بذقينات جديدة مروسة ، كل هذا يضيف على الاجتماع صفة مفاوضين اجتمعوا لتوقيع معاهدة غريبة ، لا صفة غواة شعر ، اجتماع للنساء فيه حصه ، وبعضهن لا يمسنن بين أقدامهن بكلاهن إلا في جهد ، وقد عن لها أن تعرف على الجيران . مسيح كبير على الحائط ، رداؤه من أسبال حقيقية يجعل هزاله خفيفاً ، وجرح الحاصرة ينزف توت علق .

صعب أن تميز في تشابك الحديث . لكن الظاهر أن مركيزة دومويا ، وقد قابلت من قبل

المرشح^(١) روخاس ، تشك في أصل هذه المسرحية التي سهاها كوميديا كاليكست وميليه ، ولو أن الشاب يتحدث عنها في حماس غير طبيعي ، أما خوان دوكولوما ، فقد لمح من جهته ، إلى أن المرشح ، ربما كان مؤلف ما يتدح من دون تحفظ ، وبياتريس ، تداعب سلوكها ، وتلاحظ أن الافراط يضعف هذا الاحتمال ، فهذا الفتى يعلن أن جمال المسرحية التي سوف يقرأ لا يضارعه شيء في اللاتينية نفسها ، وأنه ما من عمل قشتالي أو توسكاني ، بله اليوناني، يمكن أن يقارن بها أو يدانها . . الخ . . لكن زوجها يرى على عكسها في هذا الأطناب سبباً يخفي فيه المؤلف دوره الحقيقي ، وهو لا يمدحها بهذا الافراط ، إلا رغبة في التستر على أنه المؤلف ، فلا يفكر أحد بذلك . . . مثلما يخفي حماسه إذا تكلم عن الحب مغامرة ما ، وهذا ما يحدث لصغار الفتيان ، بينما لا يشغل الرجل نفسه في مثل هذا الهراء . لكن الأخ دونافاليرا ، الذي كان أول من قرأ المسرحية فقد أعلن ، بعد أن ترك صاحبه الفتى الذي يمدو جماله الغريب بالسيدات للاحاطة به ، انهم سوف يرون أن من المستحيل على ولد في السابعة عشرة من عمره ، تجربته لا تزيد عن طرّ شاربه ، أن يبدع عملاً كهذا ، من نقطة البداية ، في الفصل الأول ، اللغفة على درجة ، تغرينا بأن نفترض أن المؤلف عرف حياة المساكن الحقرية وعاشر السفهاء كي يدرك روحهم . . . فكيف بالحديث عن الفن نفسه ، وعن اختراع ما ليس له صلة بالأسرار التي يمثلها الرهبان . وهي تنتسب إلى الشعر وإلى الرواية ، كما تنتسب إلى المسرح ، معدة للقراءة بصوت عال ، في نثر مزوج بالأغاني ، فيها بعض هجين من غير صنعة ، دون أن يكون لها أي حظ في أن يكسب منها الذي ظن أنه وجب عليه ألا يوقمها من غنم غير هزمء العارفين ، وسخط المحترمين ، وحرمة على خدود الفتيان . لكن رجل الله ، يصرح مع ذلك ، أن في هذا الشر ما لا يعلم من هيمنة ، كسيل أفكار ، لا يرى من أين يجري ، ولو أننا صدقنا السنيور روخاس ، بالرغم من أن الحركة في البدء غير دقيقة في رسمها ، مما نعرفه من الكتاب ، في وصف الخطيئة ، يبدو أن المؤلف لم يكن كافر القصد . . . إذا صدقناه ، انما فكر في أن يقدم ميليه على أنها فتاة عظيمة التقى ، تدفع عنف رغبات كاليكست الجميل ، فهي من عائلة عواطفها الدينية شديدة العمق ، من نبع جديد ، ما دان بدين المسيح أبوها ، بليبيرو إلا في فترة ولادتها . وهكذا . . .

وفي النهاية اتخذ كل من الصحب مكانه ، وقرروا أن يخرجوا الكلاب إلى الساحة ، خشية أن تعوي في مقاطع الهوى ، وأعدّ القلوب عازف كيان لبداية القراءة . كانت غريبة هذه الكوميديا بعد خطاب المؤلف الذي طلب فيه العذر عن العمل ، وبعد أن أدلى بالحجج ضد نفسه ، فما كانت تحظى العيون منها بشيء ، يتغير الديكور في سهولة بكلمة من القاريء ، والأشخاص لا يمدحهم عدد ، صوت واحد يجرّكها ، في تبدل لهجته ، التي هي أفضل من كل ممثلي العالم ، ويتكلم المرشح من بين أسنانه ، فيتعاقب الفرح ، والهوى ، وحماس الأمل ، ثم الغضب فاليأس ، ويقوم بدور الخادم والسيد ، الغمي والمرهق ، القحبة المعجوز والمحترقة الفتية . . . يضحك ، ييكي ، يتكلم تارة بصوت واطيء وأخرى مرتفع . . . ثم ها نحن أولاء في البستان الذي يطارد فيه كاليكست أحد عقبانه ويمجد فيه لسعاداته أو يؤسه ميليه . . . ومن أجل الدخول إلى بيت هذا السيد الشاب بين خدمه . . . يتبدل الحي في المدينة ثم ، إلى ربح المدايح ، بالدخول إلى بيت القوادة ، من أجل العودة بها . . . ويدوم هذا الفصل وحده ساعتين كاملتين ، بين وقفة ، ولعبة مسرح ، وصمت

(١) مرشح لان يكون فارساً .

القارىء الماهر . حتى ليمسر تخميل تمثيل المسرحية ، لأنها برأى تلميذ سلمنكة يقتضي تفصيلها خمسة عشر أو ستة عشر فصلاً ...

وما يعني كل هذا ؟ كان غنى الأخطية ، والأثاث ، والثياب ، ولغة المجتمع ، في احتضال لا يفهم ، حول هذه التلاوة يبدو كأنه محمد ... أين نحن ؟ كانت الدنيا العربية تسود حتى البارحة هنا ، وما بقي منها غير نخلة من النافذة . لا نفهم شيئاً أبداً إلا العمارة الحزينة العالية ، ولا تبادل نظرة قلقه بين هؤلاء الرجال ، ولا المحادثة في أنصاف كلمات . أهو المستقبل ما أرى ؟ أم انزلت المرأة التي كانت تزهو بأنها تمكسه ، فأعطت صورة من زاوية لم تكن نتظر في شباط ١٤٩٢ ، لحاضر لا يكتمل ، كل ما فيه مفاجأة ، وخوف ، وتمتة تاريخ مجهول ، لا أدري كيف أعد نفسي معاصراً له ...

اذن هذا ما كان من أمر كوميدية كالكست وميليه ، فما كادت الجميلة تقول في البستان كلمات ثلاثاً عن حبها ، رفضت فيها الفتى النبيل ، حتى أشعلت بها روحه ، وأياست قلبه ، والحوار بينه وبين خادمه ، سمرونيو ، يبدي في كالكست جنوناً شبيهاً بالذي انتاب مجنون غرناطة ، فهو يقول عن ميليه : أؤمن بأنها الله ، أعترف بأنها الله ، ولا أؤمن أن في السماوات لها غيرها ، ولو أنها ما زالت تمشي بيننا ... وما نقول في ذلك ؟ هذا الافراط عند أهل دينين عدوين ، يشغل الشيخ والولد ، أهو حقاً توراد خواطر بينهما ، يشهد على دوام الانسان ، في شعوب مختلفة ؟ لكن القلق العظيم ، استولى على ديبجو دو ديزا ، وهو اليهودي أبياً وأماً ، ولا هوتي جيد ، عندما اتهم سمرونيو سيده ، بمخالفة الدين المسيحي ، فما كان من السيد الفتى إلا أن هز بكفيه ، فسأله الخادم : لكن ألسنت مسيحياً ؟ وأجاب كالكست : أنا ؟ أنا ميليي ، ميلييه أعبد ، أؤمن بميليه ، وأحبها فحسب ... أوه ، ان هذا تفوح منه رائحة النار ، ومن يدري ؟ ربما مثل كل هذا الجمع الجميل أمام قضاة المحكمة المقدسة لأنهم استمعوا لهذه الكلمات ... كيف قال ذلك ، هذا الولد الطائش ... ميليه أنا ... وصلب الراهب ، ورفع نظره إلى المصلوب ...

السيلستين هي الآن في كهفها ، قريباً من المداينغ ، على حافة النهر ، ومعها اميقاتها^(١) ، وقواريرها ، ومساحيقها ، مياه التجميل ، عطورها ، وأكسير الهوى ، ولغتها الداخرة ، آه ، كيف يستطيع هكذا أن يتحول القارىء ، بسنواته السبعة عشر ، أن يغدو فمه من قذارة ، ويتغضن الوجه البريء بألف شناعة . أين رأيت من قبل هذه المعجوز الحاتئة ؟ ويتلوى المجنون في حلم لا يدركه من حوله . وانقطع عن رؤية قصر سانتانجيل فما يشهد غير ظل « الساكر وموتسي » الفجري ، حيث تضل مساءً في المغامرة الوطاويط . آه ، هي ذي أنت يا قوادة ، آه ، هي ذي أنت ! تلك ليست السيلستين ، بل المعجوز التي تأخذ يد المريض ، كي تقرأ المستقبل ... وهو لا يفقه شيئاً من كلامها ، ولا ما تعرض عليه ، وهي تلتفت حواليتها ، خشية أن يفاجئها ، زيد أو الشيايدو ، وهي تجتذب قيساً إلى مغامراتها الكاذبة ... غير أن سمرونيو يتكلم مع الديوتة ولا يقرف من ثقيلها -

Hijo mio! Rey mio! Turbado me has. No te puedo hablar. Torna y doma otro abrazo^(٢)

(١) آلات تقطير .

(٢) يا ابني يا ملكي بعثت في الاضطراب لا استطيع ان اكلمك . إلتفت وميم عن بعناق اخر....

... ولا يمضي عليها إلا بعض زمن ، كي يتفاهما ويسلكا طريق بيت كالكست ... وهناك يحذره منها بارمينو الخادم الثاني ... لما يعرف عنها ، ابن الخنزير !

لكن القارئ يتوقف مضطرباً ، من ضجة أحدثها كاتب إذ دخل ، يقرأ على وجهه ذهوله من الخبر الذي جاء به ، وقد اضطرب إلى ازعاج الناس كي يقرب من أذن وزير المالية . واصفر سانتانجيل ، ونهض ، والثقت الحضور جميعاً إليه . الخبر يتعلق بفضيلة ميلييه ! في تلك الساعة ، كان السيد كريستوبال كولومبو ، قد ترك فجأة غرناطة ، وقد أغضبه ، أن الملكين لم يستجيبا لمطالييه ، فرحل على بغلته ، من دون أمل بالعودة ... وعلى هذا وقفوا جميعاً ، واختلط عالي حديثهم بسافله . لأنه لا تخفى على أحد هنا خطة وزير المالية الذي يتزعم مصير الكونفرسوس ، وهو الذي عرف ، خلال حرب غرناطة ، كيف يجنبهم أخطار التفتيش ، فغذى من ماله الخاص خزانة الجيش ، وأثبت للملكين ، أن يهودي المولد ، قد يكون حبه يسوع عظيماً ، حتى لينفق ماله من أجل مجد الملكين ، ونصر الدين الروماني . أما الآن ، وما من عدو يكافحون ، وقد خضع العربي ، فعدد المستشارين الذين يحسدون كونفرسوس قشتالة وأراجون كثير ، للمكانة التي يحتلون في الدولة ... ولقد نجم عن المشاورات بينهم ، رجلا ونساء ، وربما عن أمانتهم لقضية المسيح وقضيتهم ، مشروع يقضي بدعم حملة الجنوي بدنانيرهم ، فيمنحون بذلك أرضاً لحلم ايزابيلا وفرديناند ، ويجولانها عما يراد من دفعها عنه ... يقضي بتمويل اسطول كولومب ، وأن يفتحوا به ، وهو الذي يعرفون ، وليسوا وحدهم ، انه من عرقهم ، ولو أن الملكين لا يبوحان بذلك ... أن يفتحوا بعلم وجرأة مهتد ، الأراضي المتصلة بسيبانجو ، هناك حيث يوجد سر بيدل المعنى والاسم ، ويدعى الغرب شرقاً ... هناك ، هناك ينقدون حياتهم وأموالهم ، ويشبتون انما عليهم تقوم عظمة المملكة الكاثوليكية ، أولاً يحمل المكتشف ، إذا نجح في مغامرته العظيمة ، ذهب وأوفر ، فيتمكن من العودة إلى القدس ، وينقذ فيها القبر المقدس ؟ ويدور بينهم رأي لا يجدون حاجة للإعلان عنه ، ان انتزاع أرض جدودهم من الاسلام ، لا يمكن إلا بالسلاح المسيحي ، في الأزمنة التي نحن منها ، هذا أوليس المسيح واحداً منهم ؟ كان عليهم بأي ثمن اللحاق بكولومب ، واقناعه بالرجوع ... وعلى الرسول أن يقول له أن سموها يوافقان على شروطه ... وأنتم تعرفون جيداً كم هذا الرجل عنيد الرأس ..

صاح خوان دوكولومبا : « لا أظنكم تأخذون الأمر جدّاً ! ومتى كان الملوك يوافقون على مثل هذا الشطط ! ان كولومب لا يطمح بلقب أمير بحر قشتالة فحسب ، بل يطالب بنباية الملك على ما يكتشف من أرض وعشر أرباح التجارة والفتوحات ... ومليوناً مرابطة^(١) ! ويزعم أنه نذ التاجين ! انه من الجنون أن تربط مصيرنا به ! ... لقد نسيت ... يريد أن يدع لسلالته ميراث ما يؤسس من ممالك ، حتى نهاية العصور ! »

مع هذا ذهبت بياتريس دومويا إلى الملكة تحدثها في الأمر وانضم إليها عرفاها ... المال ، يقدمه سانتانجيل : أوليس الأمر مسألة كرامة ؟ وليس يشين عظام الملوك ، إذا تطلبت مصلحة المملكة العليا ، أن يمتحوا ألقاباً ومنافع ، لا يستأهلها نجاح المغامرة ، ما دامت مشروطة بنجاح هذه

(١) عملة .

آه ، هنا مسرح آخر يختلف عن عشق كاليكست وميليه ! وجمع فرناندو دوروخاس محققاً أوراق مخطوطته الناقصة ، وهو المهووس بقراءتها لهم ، وقراءتها إلى آخرين ، فقد بدأت تحاك الدسائس ، إذا كنا نسمي دسيمة ما يصنع لخبر الانسان ومجد الله . وأخذت ايزابيلا على عاتقها ما كان يرفض زوجها ، وبقيت مشكلة الوصول إلى الهارب ، الذي أنقذوا له أحد حراس الملكة على حصان اسباني ، وبدا من نافذة قصر سانتانجيل ، من القاعة التي عمتهما الفوضى بعد أن توقفت القراءة ، الرسول يعلو السرج في الباحة التي يجرس فيها الخدم الكلاب ، وفتح الباب فجأة فانطلق حد الحصان الاسباني سلوقي بياتريس دومويا كسهم رماه قوس رغبة صاحبه . . .

نشيد ايجلامور

يا صياداً انحل من مصلوب
تنهب العشب كمنجل
الحصان ينجل إذ يحس أنه بطيء وثقيل
قياساً بك يا أشقر مثل قمر في آخر أيامه
عندما ينقص ويغدو شفافاً
ان الانسان هو الذي جعلك مثل قشرة ليمون

اللاحق بعيني الشهاب لا السلوقي
سريع حتى ليقطع جنوني
وما يعنيه أن لا يدري سبب طرده
وهو يجاوز الطرفة وخرائب البيرة القديمة
يعدو بالحصان لعله يلحق بكولومب
قبل حلول المساء قبل أن يجوز جسر الصنوبر
على الطريق ناحية قرطبة على فراسخ ثلاثة من غرناطة
شرفه أن يجري فلا يدري هذه المرة لماذا يجري
صورته لن تنقش على باب العالم الجديد
حيث يقبل كولومب الأرض ويمنحها اسم المخلص
لن يقول أحد أن الكلب كان في البدء ثم أمريكا
فهو في ذاته نهاية ذاته
لم يطلب أبداً أن ينصب أمير بحر
لم يدار قلبه ولا لسانه

وها هوذا لما يقف عند قدم المكتشف
يلهث حتى الموت كمن ظمأه شديد للماء

أنت حبيب منح حياته في نطفته
أنت جميل جمالا لا يوصف
أصعب من وصف السخاء المجنون
أنت أيها السلوقي في أول صفحة من هذه القصة أتخيلك
شبيهاً بإيجلامور كلب آل مرسوناك مجنوناً
تحرق الأرض حتى إذا توقفت
كان فيك كطفل بعيني غزالة
لأنه لم يبق له جلد على قائمته الشاحبتين

أجهل في عدوه هكذا أية فكرة
يكن عن المستقبل

يا ياسمينتي

لكني لا أرى المستقبل خيراً من الكلب
 كيف أفهم شيئاً عما ألمح
 ما تعني الكلمة أو ما تمسك به اليد
 العالم يجري مختلفاً والشر والخير
 اللذان كان لي باتا ذكرى

في دقة أشياء الماضي
 وقارب زمانها يتركني على هواي
 أتمل ملاحمي ولو أنها انحمت
 ألقى فيها ربيع الآخرين شبيهاً بخريفني
 كليل عاود بدهه

من يأتي بعدي يتكلم لغة أخرى
 رداؤه يجعله حيواناً مجهولاً
 أشياء حياته من لون عمره
 فيه طابع القرن ولو كان عارياً
 في كلمته في وجهه

لا النهار ولا الليل لا السرعة ولا اللهب
 لم يبق شيء من زمن ولدت فيه
 لا أتعرف على الرجل ولا المرأة
 ولا ينفع في أن أتخيلهما
 يا أجساداً مقبلة من المستقبل بروح أخرى

يا طيوف مسرح على لوحة الغد
 أحلام فجر خرساء حوارات طرشان
 إيماءات القم واليدين
 على سبلك أسمى وراء حب مني يفر
 ومن دونه لا معنى إنسانياً عندي

يا باسميتي آذنت ساعة مرارة
البحر العظيمة التي سوف تطفو على قدري
وعلى خصلات جيبني يموت زبدها
يا باسميتي يا امرأتي بألوان الصباح
التي يتعطر منها عميق المساء

٦

أغنية للمس الحجر

أمشي جامداً عبر الديمومة
وطريقي مغلقة من كل جهة تحملني إلى كل مكان
أقطع يومي كسباح لا يدري ان كان يتقدم
لأن مياه الساعات تحيط به تعقله
والموجة أحياناً تنقلب فتطويه وترده
إلى غرق دائم بين البارحة والغد
جامداً بين رغبة ويأس ممزق
أنا نار في صحراء تحيط بها بهائم كاسرة
الصلاة توقفت على شفتي فقد تبدلت الألهة
أما أنا فلم أبع شيئاً بثمان بخس
اسمك يا حبيبتى عاشق من العرق العتيق
وأنا مالي
غير اسمك بوصلة في وسط البحر

أمشي جامداً أبحث عن نفسي
وحيداً أن كنت من دونك تحت دمار السنين
أفتح عبثاً بيننا الستر فترجع دائماً
وضبابات سرير الغياب العظيم دائماً مغلقة
أعدو جامداً حيث لا أنت أضيع
حيث لا أنت ومن أين لي
هذه المرة الجنون بالآتي من أين

لي اليقين أن الانسان كان دائماً تقدماً على الانسان وتسارعاً إليك بلا عودة
آه يا الحجر رقى لركبتي روحي

٧

قرن الذهب

يا شعبي المبعثر كسرب حجال
نيران أخرى تحترق في قراك
تتكلم عن إله آخر بلغة أخرى
أين تذهب بحثاً عن أوطان موهومة

الذين لم ينهدوا لركوب السفن
يجرون ظلالم غرباء في أرضهم
يحلّمون بعهد الاسلام تحت كلمات كاذبة
والعظمة السالفة تغذي غضباً جديداً

ابن عمّار ابن عمّار
أيها العربي من بلاد العرب
أية علامات عظيمة
حملها ذلك اليوم الذي فيه ولدت^(١)

كنتم في عروبكم تحلمون يا عرب والأشياء تبدأ دائماً بالنشيد
والثورات تتلو أغاني الغزل
جاءوا فشنقوكم على أغصان الزيتون

(١) بالاسبانية في الاصل

يا قرن الذهب أيا قرن الذهب تلتهب من كل ناحية
يا قرن الألام الدامي من كل ناحية
ملك اسبانيا يخاف إذ يرى هلال
القمر يظهر قبل الغياب

ابن عمار ابن عمار
أيها العربي من بلاد العرب
أية علامات عظيمة
حملها ذلك اليوم الذي فيه ولدت^(١)

هوذا الليل العظيم دون عدل ولا نهاية
لن يكون لكم العفو ولا الثأر
من قتلكم سوف تكون آحادهم
فيها يصلون لسيدهم وينامون على جوعهم

قديسوهم الذين من حجر يشيرون اشارات عاطفية
وتجوب جيوشهم على سفن البحار
وتلتهب في كل مكان على خطوطهم المحارق
ينظمون أشعاراً ولهم أحلام صوفية عظيمة

ابن عمار ابن عمار
أيها العربي من بلاد العرب
أية علامات عظيمة
حملها ذلك اليوم الذي فيه ولدت

(١) بالاسبانية في الاصل

دون خوان في الساكر ومونتي

والعجوز بثوبها الأصفر الذهبي التي تسهر على المجنون وترقب كلمات شفته
وتحفف العرق عن جبينه

تفهم منها غامضاً الألم الذي فيه عن المستقبل فهو يلم بمن أيامهم معدودة
وترى في عينيه قبساً منه

ألم لا يهدئه اكسير والرجل في كرسيه يدور ألف مرة فلا يجد باب المقبل
ما عساها تستطيع له وهي التي لا فن لها غير الخدعة مهنتها ضرب الفال

أخذت من وشاح حلته أوراق اللعب الملونة لعلها تجد جواباً جواباً لتمتمة
الكلمات

آه ما عساها تخترع غير الأكاذيب بعد أن أوراقها على الأرض
ذاك هو كتاب الحكمة عبر البحار والجبال حمله شعبها المجهول من أين جاء
من مصر أم من التبت

عدّي على قدميك حسب قواعد اللعبة الاثنتين والعشرين صورة التي آخرها
فتاة عارية

تمسك عصا في كل يد واقفة على رجل واحدة والفخذ الأخرى انثنت إلى وراء
النسر والثور والرجل والأسد يحيطون بها بأسئلتهم التي هي مظاهر أبي
الهول الأربعة

والمجنون يراها غامضة فالمرأة وحدها عنده معنى الأشياء الخبيثة
ولو أنه لا يسمع سؤال المنتبئة عن الحب أو عن حال الجريح اليوم وجرحه

ولا عن حلمه عما يؤول إليه الحب حلم يقضمه فيزداد به ايماناً
لأن الحقول التي تشرع نفسها لرؤياه فيعطىء ويضل
لا ترى غير ما ترى القوادة أي أنه في النهاية ليس شيء سوى خمر صبّت ورجل
وامرأة في سرير تهلهلت أغطيته
ودراهم عدت في غرفة مجاورة وأناس يتدافعون بالمرافق ينتصتون على تنهدات
عاشقين وصيحاتهما

بعدها خيبة الأمل حين يغدو الذكر ملكاً يرحل بعد أن انتهى من حاجته
تلك سيادة التعسف وقرون الاحتقار فيها الزواج جنوح والاغراء وحده عيد

أيتها الهزيمة يا هزيمتي هكذا تكذبني شمس المستقبل
لقد كان المصير الذي غنيت وهما كما وهم كنت غرناطتي
أو هل كنا بعد كل حساب غير قطيع أسود مجنون
لا يقدم له التاريخ أفضل من مصير الثيران

يا للأسف لست بحاجة للأوراق كي أرى خيراً وجه هذه الحرب التي ينتصر
فيها بطل غريب

سرت في المستقبل دون أن أبدل مكاني وغدا نفس المغارة وبعد غد بعد أمد
بعد أمد حيث كالفلكي

الذي يذهب من سطح بيته عادة إلى النجوم فيسميها
تستطيع مرآتي المحدبة أن تستحضر من سوف يأتون من حيث يرقد جسدي
ذات يوم أو آخر في الزمان

أيها الزير هوذا في هذا الاطار الرجل الذي عدّو المرأة ذات مساء عند الفجر
أية طفلة تلحق به في ضوء القمر من ألف وواحدة بين شقراء أو سمراء
واضربن بأيديكن وارقصن على عاره

وما يقول ذاك الخادم الذي يقدر أن يرى نفسه لدى عودتهما إلى اشبيلية «كونتاً»
جزاء خدماته

أسرج الخيل أيها الكاتالاني لعل الفجر إذا انبجح يموت ضحكاً من تلك الخدعة

وقال الخادم عرس آخر ينتظرك أيها السيد في ليبر يخاف بكرة هذه من دون تأخير أرجوك

كان لا بد من نصر صليب دون خوان حتى تكون
كان لا بد من اله غادر مثل ذاك ومثل جانوس له وجهان وجه السموم ووجه
الخنا

كان لا بد لك من هذا الاله كي يباح لك كل شيء
كما في عهد سيادتك في هذا الزمن الذي تهان فيه المرأة في زمن الاستهتار
بالقبل فإذا وجد

أحد في أوج نكرانه يعالج ظمأ جسدك كذئبة
فهو دون فرانسيسكو دو كوفيدو فيلا جاس سيد لا توره دوسان خوان دي
أباد كوفيدو والشاك الذي رماه الهوى آخر الأمر

دون جوان

اتفه ما في الحب الامتلاك (١١)

أفنه ما في الحب الامتلاك

يا حواراً

ونحن الذين ما بتنا غير ذكرى أشياء صارت عندكم بالية
كأشجار كستنا عظيمة تدع قشرتها تسقط على أقدامها
يا أصحاب المسيح أقولها لكم بملء صوتي نحن الآخرين أحببنا

لكن أي سحر يدعوك يا فاسقاً إلى هذه المغارة
وتلك الكلمة التي كانت تعني الحب ولا يؤمن بها بعد أحد
الآن وقد غدا رداء على كتفك في صباح بارد
ماذا يعني عندما تطلع الشمس على فرارك
ما فعلت طوال هذه الليلة بالحمامة يا طائر الصيد
الآن فروسية تعني في اسبانيا سوء السلوك
أحقاً غداً العالم تحت ظل الصليب المر

ويبكي المستقبل المهتوك كصبيّة خدعوها
ويذهب دون خوان تينوريو على مطيته والأس

(١١) المقطع بالاسبانية في الأصل

وتين الصبير على جنبات الساكر وموتني الذي كهوفه
تلوح للزير وداعاً أبيض بمحارم من حوارة
وأنا أمشي جامداً في الزمان كي أجلو سره
يا جان الجحيم أرني السماء على قفاها ترتسم في ملامحك

٩

جان دولاكروا

غرناطة ١٥٨١

في السنة ألف وخمسة وثمانين حسب شمس المسيح يظهر وقد ناهز
الأربعين

في كهوف المصريين رجل تحت الوسط في برنسه الأبيض
في دير الشهداء رئيس جديد للكرمليات
كي يهدىء الظمأ الممزق للسيد عند خطيباته
فييني في الحمراء قناطر ماء

يحمل في عينه رؤيا سماوية ويحيى طليطلة كي يتم الترنيمة التي بدأها في
السجن

gocémonos Amado صفاء الروح إلى الله حببها

لنفرح يا حبيبي ثم لنذهب كي نرى في جمالك
الجبل والتلة ينبجس منها الماء الصافي
لندخل بميداً في الدغل العميق
في البدء إلى كهوف الأرض العالية نذهب
ونحن متخفون

حب الله اختلاس حب مسروق
زنا السماء بالروح يا موعداً الهياً يا تحدياً الهياً
ومكان مرور من الجحيم إلى الجنة

ولسوف ندخلها
فنذوق خمر الزمان الغليظ

ما يقول وراء الكلمات أي
أي تجديف رائع أو سخر مقدس ولماذا
تبحث عند الغجر عن فراش رذيلة للسيد
عن أي تعليم يبحث بينكن يا قوادات
يا من ترقصن بأثوابكن الملونة
حول الزوجين الصوفيين

تحية يا جان دولاكروا وقد جئت حافي القدمين
إلى أبناء الهند أولاً كأنك
قادر على أن تأخذ منهم درس حكمة قديمة
كأن زندقتهم نفسها تسهر على شعلة - صغيرة
مثل التي في القلوب المصبوغة في هذه الحياة الضيقة
تحية إليك جان دولاكروا سوف أنتظر لك لعل مراداً على نشيد الاسلام
يأتيني منك فيمنحني جنوناً آخر أو من به

جان دولاكروا لا يرى المجنون قبل مائة عام
جان دولاكروا لا يسمع السؤال المطروح
وما دامت تلمع نقطة ندى على جبين أكثر الزهور تواضعاً
جان دولاكروا يتحصن بكلمته بسبب السانت - هيرماندادولا شك والكهوف
العالية هي عنده

أسرار الهية والحجر الذي يتحدث عنه
ذاك الذي بنى عليه الحوار كنيسته وذاك الخمر
الغليظ انبجس من حبات الرمان
يعبر هنا أن من معجزات الله تخرج فتجفّف
الملذة الوحيدة وتمعّة الروح

*

أسألك يا جان دولاكروا
لا كما يسأل القضاة
ما هو الانسان وما هو الحب
ما هو الليل وما هو النهار
يا جان دولاكروا

يقول النفس سراج
منه لا تخرج أبداً نار
ولا بد من أحد يعطيه النار
شعلة الحب هي من الله

جان دولاكروا أطلب منك
لا كلمات للتفتيش
بل أن تنير ليل
نورك المظلم
يا جان دولاكروا

يقول أن الشعلة تتوج
القنديل كما الروح القدس
الحواري والقنديل ليس قنديلا
إلا على قدر ما تنضح شعلته

جان دولاكروا أسألك
أية حكمة خفية
تجعل القنديل قنديلا
يا جان دولاكروا

شعلة الحب الحية
من أجلها خلق القنديل
لولاها ما كان سوى رصاص ثقيل
الشعلة هي مستقبل الروح

جان دولاكروا أسألك
قولا واضحا ما هي الشعلة
إنها مستقبل القنديل
إذا صدقتك

يقول من جديد أن القنديل
هو الروح والشعلة الحب

مرة أخرى أسأله
من أين يأتي الحب وما هي المرأة

جان دولاكروا أسألك
ما هو المستقبل
سوف يأتي يوم تذكرك فيه
يا جان دولاكروا

*

وبلدة ١٥٩٥

عندما حان موت
جان دولاكروا على الجبل
تذكر الليلة العجورية
وأطفالا بلون الكستنا

عندما حان حينه
تذكر خيراً من الصلاة والتوبة
الرقصات الطويلة
التي كانت كنيسته المستعرة

لما حان موته
في آخر لحظات الرماد
دخلت القيثارة غرفته
واشتعلت النار من أجل أغنية قائمة

لما حان موته
فهم جان أله العنيف
وليل نفسه الخالك
ومسامير الله في روحه
جان دولاكروا

يا جان دولاكروا أعرفك أنت تشبه
كل الذين سجنهم طقس ودوجا

الذين فتشوا عن طريق مستقيمة إلى الله فتخلّوا عن عقالات العقل التي لا

تنتهي

جان دولاكروا لست سوى اسم مسيحي لكل الذين هلكوا في الحب
جان دولاكروا أنت تموت ميتة أخرى لكنك مثل
منصور الحلاج خارج عن دينك مثله لأن شريعة

الله دائماً أكانت من اليهودية أم من الاسلام وأنت تعلم يحكم بالموت على

القديسين

قانون روما ومكة لا يغفران شطط الحب حتى في الله يا جان دولاكروا

وأنا مثلك أنت لا حدّ لهواي

أمرّ بسرير الآمك فيما وراء حب الله

لأن الجواب هو من هذا العالم على مسألة أنا موجود

من ابتعد عنه ضاع فما وجد

غير الهوة على طرف المنعطف عندما يكون الجواب في العالم هذا

في العالم هذا الحب واكتمال الانسان

يا جان دولاكروا

١٠

مفكرة زيد

تأبد نصر قشتالة بخضوع المسلمين وقد غدوا زبائن الملكين الكاثوليكين ، وبتكاثر
المرتدين ، حتى أن الملكين أقاما بلاطهما في غرناطة ، فما يوقظها شيء عن اتمام نصرهما ، لا كلمة
أعطيا في سانتافي ، ولا دلائل أمانة اليهود المهتدين . أذهب أحياناً إلى المدينة أيام السوق استطلع
أخبار الذين عرفت في بيت ربي ناحوم بن صموئيل ، ومنهم رجال ذوو معرفة عظيمة ، وقلب
كريم : لكنهم لا يريدون الموافقة على الالتحاق بنا ، اجتناباً للتفتيش ، الذي يتهددهم .
يذهبون أن هذا فرار يبررون به مقدماً التدابير ضد بني عرقهم ، ولو أنهم يرفضون تصديقها .
هذا الشعب هو شعب الشريعة ، لا يفقهون في نهاية المطاف إلا أن النصر هو لما كتب ، بينما من
طبيعة الفجر أن يروا في الشر القاعدة ، وأن يضحكوا من الأخلاق الحضرية ، فهي عندهم قناع
للحياة في مسيرتها .

أرى أن بات قريباً الزمن الذي تتخذ فيه التدابير المطبقة في بقية اسبانيا ضد أمة داود فتتمدد
إلى مملكة غرناطة ، كما سوف تشمل العرب بدورهم ولو أنهم في الظاهر يتمتعون حتى الساعة
بحقوق مساوية لغاليهم .

ما يزال أستاذي في كهوف الساكرومونتني ، فريسة الدوار غالب الوقت ، لا يستطيع إلا كي يسألني . وكلما مكنتني أنوار عقله ، حدثته بما جرى لغرناطة . ويجيبني بنوع من الأناشيد ، لا يطاوعني قلبي على تسجيلها ، لأنني لا أستطيع احتمال تمزقها .

لكنني أرى أنه يخجىء عني بعض أفكاره ، فأنا لاحظ فيه بعض أمائر نفاذ الصبر ، التي لا أفسرها بغير طول حضوري لديه . وتخجىء الآن إلى قرب سريره عدة نساء ، أظن بأنهن يقمن بناء على طلبه بتعاويد ، يضحك منها الكاليسيون فيما بينهم ، فيما يرتاح هو إليها على ما يبدو ، ومن هذا يتبين أنه ليس منهم . ولا فائدة ترجى من دفعه عن هذا الأمر . يريد أن يسير المستقبل ، عيناه تتطلعان إلى أمام ، على القرون التي يعبر ، كما يبدو ، كأنما يجب أن يمر أولاً بصحارى السا الطويلة ، لعله يصل ذات يوم إليها . وحدث له أن حدثني بذلك ، وأحنقه أنني لم أصدق . وبعد ، لم لا تسكن هذه العجايز أبراج ما بقي له من أيام أخيرة بقضيها !

.....

أخبرني فارّ ، أن الملكين الكاثوليكين ، أصدرنا البارحة منشوراً يقضي بطرد اليهود من مملكتها . نحن في الثاني من جمادى الثانية . غير أن أحداً من أبناء اسرائيل لا يؤمن بالواقع . يقولون ، انتظروا أن يعلن هذا الشيء !

.....

لا أدري أسقته النساء سحراً ، أم نقاعة روماني - تشال^(١) ، أم خراً ملقياً ، أظنهن سرقن دهنه المعلق في آخر المغارة ، فلقد وجدت أستاذي اليوم في اضطراب غريب : لا يراني أبداً ، لا يسمع كلماتي ، يبدو وكأنه يحدث أشباحاً ، لا الملح أبداً . وحدثني فجأة بعين فارغة ، أنا عندها شفاف ولا شك ، ثم ، وكان شعوراً ما استيقظ لديه بوجودي ، فدعاني بصوت عجيبة قوته ، وكأنه يدعوني كي آتبه من بعيد .

قلت له : « أنا هنا ، يا مولانا ، ألا تراني ؟ » .

عندها أنزل علي عينيه ، وقد عاد بهما ، من جهة ما وراء الزمن وقال لي : « أنت هنا يا بني ؟ أين كنت اذن ؟ في أي يوم نحن في حسابك ، وفي أي عام ؟ » حتى إذا أجبتة أننا ، في العشرين من جمادى الثانية لسنة ٨٩٧ ، غضب ، صائحاً أنني مجنون ، وأنا في الحادي عشر من محرم سنة ١٢٢٣ ، أي انقلاب الربيع من عام ١٨٠٧ المسيحي وأن الرياح ، دفعت عن ملقة إلى الجزائر ، سفينة عليها مسافر قادم من تونس ، يرقى الجسر ، يبحث بعينه في اتجاه غرناطة . . . قال : « نظراتي لا تستطيع ، في اختلاط الأزمان أن تكتشف السا ، وكذلك نظراته لا تقدر على أن تلتقي بنتالي . . . لا يعرف هو أبداً ، أنها تعدو ، شقراء ، واسعة عينين سوداوين ، في أشبيلية ، عائدة من قادش ، في الأيام التي تسبق الفصح المسيحي ، وكل ما تقول يبدو وكأنه يعفى على أثرها ، كطير يرتحف خشية صياد وكلاب . . . وهو ، على جسر المركب الشراعي ، في رائحة

(١) نوع من الاعشاب يحضر منه الفجر سائلاً مغلياً .

القطران ، يستند إلى أحد الصاريين ، تحرقه شمس الشرق وملح الأمواج ، أصفر ناحل ، لقد جعل من هذا الحب الذي ولد له ، وقد مضى عليه ثلاث سنين ، دورة ثمانية شهور مر بها مما يبدو له طرف العالم . . . إليها ذهب إلى القدس ، إليها راد مصر ، غير أن هذه الدورة في عرض الأندلس كثيرة عليه كثيرة . . . كأن الرياح ساعدت هذا الزوج الذي يهتم بالأقارب أكثر مما يهتم بزوجه . . .

يبدو لي أيضاً ، مما حفظت من هذا الدوار ، أنه تكلم عن خرائب قرطاجة ، وألف شيء أخرى لم أستطع التقاط أسماؤها ، لأنها كانت ذبابيات لامعة لا نرى منها غير نارها كما لا ندرك غير ظنيتها . . .

.....

أمن الممكن أن يكون المجنون قطع القرون ليعد يوماً يوماً أيام محرم سنة ١٢٢٣ ، على أصابع الحاضر؟ وفي الثلاثين من حسابه ، ظهر عليه أن حمّاه تهدأ ، فتقول له : « لقد وصلنا . . . » ماذا ينتظر؟ ليس الزير هو القادم ولا القديس ، انها زوجان . . .

(ما يلي ليس من مفكرة زيد ، وإنما من خيال ، معلق متأخر عنه ، لأن العواطف والأشخاص لا علاقة لهم بالسمي قيس بن عامر ، ولا بالأخ جان دولاكروا ، لأن كلاهما يمكن أن يعني بالشملة والمستقبل الانتظار ، لكن دون خوان يشتمها . في نهاية القرن الذهبي ، يمر شبيح فارس الوجه الحزين ، ويوسعنا أن نناقش فلا تنتهي ، إذا كان تحول دوليسينه دي توبوزو هو من شطط الحب ، أو إذا كان كيوخوته تقدما على مجنون الماضي ، خطوة باتجاه الانسان والمستقبل ، أم إذا كان حصانه على هضاب المانش ، يحمله إلى العالم الحديث الذي تنطفئ فيه أغنية الحب القديمة . لكنه يفصل بينه وبين لقاء العاشقين ربما في قرطبة أكثر من مائتي عام . . .)

١١

العبور

من يمخر البحر بغير الكليتين والكتف
وتلك السباحة في عمق المياه في جزر المرجان
وليس معه غير خشبة وعصا طويلة يبتدي بها
أما القارب فقد جعله على شكل انحناء جسده
ثم جاء يوم رقع الشراع وضاعف ثم ثلث المجاذيف
ثم صارت بعد مدينة تتحدى الموجة
ثم ضرورة آلة السدس والبوصلة والدقة
فتكون السفينة على شبه العقل تمد حيزومها

من يقطع الأرض يعاني المسير وجهده
واته الخيلة فزواج بين قوته وقوة الحصان
لكن الفارس يجد أن أسرع جواد قصير النفس
يمتطيه فيعذبه ظمأ الوصول إلى مرمى نظره
يقضم نفسه دائماً حين يراه تسبقه رغباته
وكيف يزحم النور بالسرعة
آه كم أبطأنا في تعقيد العربات
قرونا كما نعطي الحديد ذاكرة الحركة

الذي يقطع السماء فتسخر منه القبرة
ليس يكفيه أن يمتطي نسرأ أو طائراً من حجر
ولا أن يتخيل التنين
لكن حلم الانسان يحترق رحلات اللقلاق
فكان لا بد من عاشق بعيد عن حبيبه يخترع
البساط الطائر
وأبي قلب عظيم يخفق في الصدر ينسق الخفقان على تنفس النجوم
الانسان الذي نسي الجناح في تحسين النار
هوذا على وشك الوصول إلى حيث الزرقة تنقطع عن أن تكون زرقاء

لكن لا السماوات لا الأرضون ولا البحر
بين المستقبل والماضي
لا مطية غير الوهم
عند من يقطع الزمان

١٢

الموعود

غرناطة في ١٣ نيسان ١٨٠٧

حلم كل منهما بالآخر طويلاً حتى اتخذاً أخيراً صورة زوجين
الكل بين ذراعيه يتبدل فيصطبغ بلون الهوى
العالم منه يأخذ معناه وتجلياته

وفي العاشقين ما يكفي من قوة لتغيير الحياة وقواعدها
كل حيل السعادة دخلت في الرهان
ورسمت رحلة الحب المزدوجة طرقها السرية
والتقت في قرطبة وغرناطة كي تكون لهما
كغرفة على قدهما ورغم كل تكذيب
ها هما وحيدان وقد خليا وراءهما الجمال العربي والسطوح
والقصور والأسطورة والسيول في الوديان
والخادم جوليان يخمر خمره في خابية
والمغارة التي ينتظرهما فيها المستقبل تفتح لهما مرفأ رحمة

يا صبراً عيل يا صبراً نفذ لو شاء أن يراجعا الدرب لو شاء أن يترددا أن يعدلا أن يعودا
على خطوهما

كل ما يفرق بينهما كل ما
يجمع بينهما يربطهما يكبلهما
يغير رأبها ينذرهما لحياة التمزق
لو شاء أن ينتزع أحدهما من الآخر ولا أحد
لا أحد في الموعد
إلا أنا على انتظارهما من أجل
الألم على انتصارهما عينا أولاً ثم تأخر
لا معنى له أولاً ثم ينمو يمتد ما لا ندرك
من زمن ميت زمن مجروح مشوه مكسور مجنون
زمن مقطّع الأوصال مفضوح محطم فلا ندري كيف
نأخذه أه كيف نمسك به كيف ندرجه بأصابعنا فنحترق فيه
يا صبراً عيل يا صبراً نفذ كانا على وشك ألا يأتيا
ألا يقدرأ ألا يريد المجهيء إلى حيث يذهب قدرهما
أو أنها يفترقان قبل أن يجتمعا
قبل أن يكونا أصابع صلاة واحدة والزمان
الزمان يدخل في حلقي يخنقني يسدني يخبطني ير بطني
يعيقني يجرفني يدخل أحشائي يحشوشي^(١) في جرحي يقرني
ويرين المساء على النور ويتفتت النهار
وتسقط أوراق الشمس فتشبه زهور المارجريت
تشبه الجنون لا تشبهه

(١) يستعمل أراجون فعلاً جديداً فحذونا بالعربية حذوه .

لن يأتي بعد السممر
لن يأتي إذا عشى الليل
وتنطفئ القيثارة أشعلوا الشموع
الرماد أبيض والدم أسود

ناتالي لها بريق فراشات عابر
تبدل ثوباً واسماً كل يوم
في فصلها الاسباني كانت دولوريس
وهو سوف يسميها في غرامه بلانش
التقيت بها في أزمة قاتلة الانسان
والرؤوس تهوي كل يوم على قرع الطبل
ما تعلمت من ريادة موسم دافيد
فيه ما كانوا يرسمون باقات زهر فحسب
الهاذج العارية كانت تقلد الألم

أتذكر رجوع أخوها من النمسا
كان يريد تغيير الانسان وجعله أنقى
وهي تلتفت إليه بعيني أيلة مائلتين
كي تصغي لحديثه في الروضة الكبرى المظلمة
والبابوفيسم^(١) كان سكرهما الفتى
كانا ينتشيان معاً بكلمات مرة
فتجعل شعرها جدائل طويلة
أحلام ميريفيل أبناء ما قبل برومير

كم كان بوسع الحياة أن تكون مختلفة
من الثورات تنبثق الامبراطوريات
ودولوريس التائهة تحت سماء الأندلس
تلتفت إلى الشرق بقلبيها وتنهداتها
هي التي أرادت أن تخضع لهذه التجربة تلك الرحلة المعكوسة لأميرات بعيدات
الفارس الأجدد الذي في اسبانيا الأرملة
تتخليه في لعب النوافير

(١) مذهب بابوف الشيوعي .

لن يأتي هذا المساء أقول لكم لن
يأتي هذا المساء بشفاه جديدة
كمي يعيدا إلى القبلة صفاءها القديم
لن يعيدا فتح عيون الأفق
لن يأتي كمي يحملا الدليل
على أن مستقبل الرجل والمرأة بعد كل حساب ليس سجنًا
لن يسجلا أنفسهم زوراً ضد الذي لا يرى العظمة غير اغراء
ولا ضد الذي يحمل محل الله الحب البشري
لن يجدا هذا المساء الطريق المتصرة

يا عجريات ما كانت حاجتك في تزيين الكهف بعباد الشمس وحلوة الليل

يا متبئات كاذبات دعن استهغام الأيدي يسقط من أيديكن
الغد ما صار بعد يومنا هذا دعه للغد

بينما كنت أتحدث هكذا على الدرب والخطو على الحجر يفوح غريباً بريح

الخزامى

رأيت صاعدة وردة العشاق المزدوجة
الرجل الأسود من الشمس يجعل المرأة بيضاء
في حشاشة قلبه فيحسبها فيه الليل
جاء كأغنية الروح العميقة
كموسيقى الجسد كالشعلة
كسر لا يطيق إلا بوحاً
كماء يفيض عن شفة القدح
ارقصن الروماليس هوذا فجر الليل
لا ميديانوتشه يغنيها العجر

أوليباراتشي نصف ليل الثالث عشر من نيسان حين يبدأ زوجان ويتفتح

المستقبل

١٣

أزمنة الزوجين ما جاءت بعد

على طرق اسبانيا التي مررتما بها

ألم تراجعا وجودكما
أوهل وجب يا فرانسوا رينه وناتالي دونوواي
أن يذهب كل منكما في طريق له
فرانسوا رينه ألم يتعب قلبك من الضلال
أوما كنتما في نار الحب سوى قش

في الحياة المرأة والرجل كما في عمق غابة عظيمة يذهب أحدهما إلى الآخر دون أن يرى أو يعرف بعض ببعض وفي البدء كانت مغامرات مبهمة سرها انبتك من زواج ودير وراهبة وزوج وملكات عبرن حتى اليوم الذي فيه في بساتين ميريفيل اكتشف الفيكونت فرانسوا رينه دوشاتوبريان سحراً خلل الأوراق ثم كانت تجربة طويلة أملتها عليه ناتالي في وجل عجيب

يا رحلة لم تكن في البدء غير صبا رقيقة
وفي ليل الحب تعاطيا حلماً
يدعك في الصباح قلباً وبدين فارغتين
لكن لماذا كانت الخيل هكذا سريعة
والربيع عجولاً بالرحيل
كأنما تبدى لهما أنها ذهبا إلى بساتين أرميد

لا ندرك شيئاً في هذه القصة غير ما لم يكن لقاء الأحبة
عالم متحرك يولد من الثورات والحروب وسقوط الملوك وقرع الطبول وفرسان ازينوا بالدم
والبارود والمراكب البخارية وأنوال النسيج والأشجار المقطوعة ترمي في الأنهار

تلك ليست سوى ميريفيل والسنون البطيئة
تنزع تاج سماء من يعيشون اثنين اثنين
الكل يتامر كي يستم الأرواح من سكرها
والطيور تنهش قبلنا الكرز
وتبلى القبل أسرع من الزهور
يتبخر الخمر وينحطم الكأس

خبثاً يا عاشقين هنا طويلاً اضطراب قلبيكما وليكره كل منكما الآخر على شراك الصمت قل
لي هذه المرأة - الطفلة وقد كانت لك آه لماذا انتزعتها من بيت الله ربما لم تكن سوى مسخ فهل
تصور لك اليوم لذة الاغراء الكذبة كما في الأمس

لا شيء في أيدينا غير حب وان
كان يظن أنه ينام فيستفيق غدا
كي يستقبل يوماً شبيهاً بنافذة
كي يولد من نفسه دائماً حتى الأبد
ويغدو كعمتوه على نفس الدروب
ثم يبتسم للمرايا عله يتعرف أفضل إلى نفسه

ما تقول ظننتها لوسيل عندما أخذني الدوار بهذه الطفلة التي ما بلغت الثامنة عشرة في
الانسان لعلك تفهم ذلك انجذاب للحب وما كانت تكون عندي أكثر من لعب بوشاح أنا الذي
خدمت في الجيش وعرفت المنفى لا شيء كما كان لا شيء يستعاد

نعم لقد بطل السحر الذي كان يعطر العيش
مات زمن الأنكوليا^(١) في شهر أيار
وصاحب الوردة ظل على الأمل
لا شيء يكون لنا ما كان أبدا
أجل الأمسيات باتت لنا سيان

لعبنا أكثر مما ينبغي لنا لعبة التهاون في الصداقة تعودنا أكثر مما ينبغي أن نكون غرباء العيش
ليس ذلك الذي ندعوه حباً ما كنت تضع ما كنت تقول وأنت على حصانك إلى جوية أوه بالكل ما
سرت مني بنظراتك

خمس سنوات تكفي كي تضل خطونا
خمس سنوات كانت كافية كي نصحو من سكرنا
لما توافقنا أحداً قدام الآخر نرائي
من الأول الذي كذب الآخر إذ ضمه
من ذا صمت لما عرف أن الآخر بكى من زعم الرحيل من زعم الرثاء

كل شيء يجري بيسر بين حبيبين ملاً محرمة ترد رسالة ترد وهكذا يراجع الحب خطاه فلا
يبقى منه أغنية قديمة يستعيدان أحياناً تمتتها وينتهي بين أبناء الأرومة كل شيء على ما يرام فلا
يبقى من الأمس غير النشوة

(١) الحوضية أو زهرة الخوض .

طويلا بعد ذلك عندما الجنون
حمل دولوريس إلى شواطئ النسيان
فهم رينيه أن كل شيء بدأ منه
آه هل يجد الليل بذرة له بين ذراعيه
منه جاء شقاء لوسيل وناتالي
كل ما يجب يعصف به الجنون

لا لم يكن كل عشق عشقت غير مشهد يرضي شبابك وهذا أنت شعر أشيب ليس سوى
قناع وعزاء عن حب حطيم وأنت تعرف هذا الآن وأنها كانت وحدها جواباً تبحث عنه لأسرار
الوجود يا بلانش أو ناتالي أرميد أو سيمودوسيه هل أخطأت حياتك التي لا تنتهي هل أخطأتك
جنة أهديت لك قبل القبر

ما يكون الليل بلا صباح
ما يكون الحب إذا انطفأ
ان كنت ما انتهيت من سفرك
ماذا صنعت وحيداً بإيمانك أنك تعيش
أحد نصفي قدرك
مثل رجل سكران

١٤

هيمن على المجنون تعب عظيم ، لما شارف الأزمنة التي يطير فيها الانسان ، لأن عدد ما لا
يدرك من أمور ازداد ، بدلا من أن ينقص حسب ما تخيل دائما . الأشياء التي يحيط الناس أنفسهم
بها تتخذ صوراً وألواناً لا تعرف معها الغاية منها . الكلمات التي لا تترجم للغة القديمة تتضاعف
دون انقطاع . كانت هنالك نار بلا نار وكلمات ساخرة . والموسيقى غدت غريبة كالثياب .
وقلدت يد الانسان كل شيء طبيعي فأتقنته ، واخترع البلور الذي لا ينكسر ، ووروداً من دون
رائحة ، وسمي هذا بالتقدم ، أما الحب الدائم فقد تبدى وهماً ، معدنه لا وجود له ، ومازج الفس
السيبكية ، وأصبحت فوارق العلائق بين المرأة والرجل لا تعدو الجزئيات . وبات ألزم أن نقهر
السرطان أو نحرق من غير حراث من بناء الزوجين على التوازن يكون محرك المجتمع الجديد
الذي ازدادت شيئاً فشيئاً الثرثرة في أمره .

اجهاد عظيم ألم بقيس . لأنه بالرغم مما رأى من اختلاف الأدوات المخترعة ، ولوازم
زمنه ، فقد خيل له أنه لا يلزم أي تعديل في آلام قرنه الأساسية . واستبد به الضيق ، لأنما كان الآن
قرن السا ، وأن المعرفة تنقص على قدر ما تزداد ، وأن الألم لم يتبدل ، ولا الموت ، فأخذ يرتجف

من أجلها . من أجل ذراعيها الناحلين ، من أجل قدميها الصغيرتين يشدّ عليهما حذاء معتوه . . . من أجل كل زاوية رقيقة من جسدها ، تنسل من العين ، لا تدرّكها غير راحة يد تمسك بها ، والمفاصل الواهنة . . . من أجل عيبرها ، من أجل نورها ، وأكثر من كل هذا من أجل روحها . لقد اخترع سحر كثير ، وآلات غير أنها رافقتها آلام جديدة ، لا في العظام والأعصاب فحسب ، وإنما في الأمل واليأس ، والقوارق في المعرفة ، واضطهادات جديدة ، وماذا أعلم ؟ وتعقدت الآلة الانسانية فطحنت العواطف ، وتزايدت المعارف في مناطق المجهول المظلمة فكانت على قد امبراطورية المعرفة وهي ما تفتأ تمتد ، كما أن الجوع ووجع الحب دفعا كائن اللحم والفكر في قوة لا عهد لنا بها إلى العزم على الخلاص منها .

خوف عظيم داهم قيساً في استشرافه المستقبل . كل إيماء منها ، كل خطوة ، كل نفس كان يرهبه . تبدى له أن الكل تعقد كي يجرّحها ، كي يصطادها في شرك ، كي تستشهد . لم يمان عمره هذا الاحساس الرابع . السلاسل ، العربات ، حنفيات الماء الساخنة ، أسلاك التلفزيون ، الرادار ، كل أدوات هذه الأيام التافهة . وما كان تعدادها إلا ليزيد في ارتعاشه ، الكل يوقظ خوفاً من أنه يغدو ديكور زمن تعيش فيه الساسجية . الكل غدا بعينه حديداً أحر إذا لمست ، يعمي عينها إذا نظرت ، يمزقها إذا سمعت ما يسمع .

١٥

مذكرات زيد

كان مضي شهران على بدء اضطهاد اليهود ، حين عانى النجدي تفاقماً في هذيانه . وباتت لا تستطيع النساء الهيمنة عليه أحياناً ، واقتضى أمره أشد الغجر قوة . كان ينهض من فراشه ، فيحاول التملص من الرقابة ، وانتزاع ضهادات جراحه ، ويمحط الذباب عليه . كلماته لا ترابط فيها ، واسم السا يتردد فيها ، كنداء سفينة في خطر إلى الأرصفة والمنارات . وبدأ الصيف وهو ينم عن أنه صيف قيظ ، وتعود الفلاحون ، على الاستماع لقرع النواقيس ، بدلا من صوت المؤذن في أراضي الجوامع ، وهي تدعولفتح السدود فتجري المياه في الزرع بأمر الله ، فقد تغير الرهبان ، من دون أن يتبدل زواج السماء بالأرض .

وجاء بعض الكاليسيين بأخبار من غرب الأندلس : أن حملة سرية تهباً في مرفأ بالوش الأنف ، الذي يدعى الآن بالوس دوموخير ، اتخذها قراراً الملكان الكاثوليكيان منذ الربيع . وروى السواح أن قادة المشروع يهود ، يتلقون المساعدات من كوفرسوس قشتالة وأراجون . ولقد تحدّثوا عن عجيب ما يبنى من سفن ، وعن حركة الورش ، وعن البحارة القادمين من مختلف البلدان ، متطوعين لغزو الهند الغربية . كان الأمر ما كان في أيام نوح ، لولا أنهم لم يأخذوا على السفينة من كل زوجين اثنين . ولو بدا أنهم جادون في انقاذ أبناء اسرائيل واسماعيل من خطر داهم . لقد أتى أمير البحر بخرائطين وقباطنة ، من يهود ومسلمين اختلطوا برجال من أستوريا ، وقطلونيا ، ونافار . ولقد سجل أنفسهم في قوائم الحملة أناس من جهات عديدة ، منهم من لا يرى في الأرض غير خالة زوج أب ، ومنهم من فر رعباً من السانت - هيرمانداد ، وكانوا يتناقلون

أن الله أنزل برهاناً ، على أن جبالا ، تبدأ بعد المياه ، كلها من ذهب ، وأنهاراً يجري فيها الياقوت والزمرد . . . كان زوار منازل العجر المبعثرة يحملون إليها الأنبياء : فلقد جرى هذا الشعب الغامض ، كلها أعدت غزوة مسيحية أو اسلامية كبرى ، على أن يستيقظ فيه نوع من أمل عميق ، فيعود إلى أفواههم طعم الرحيل ، ويعاودهم الحلم القديم ، فيحتالون للابحار مع الجنود والبحارة ، بحثاً عن وطن بعيد ، وحياة أخرى ، المكان فيها لا تحده البحار .

وجمع العزاب في الكهف ، رزم نسيج وسلاح ومطارق . فصاحت أمهاتهم وبكين ، على معرفتهن الأ فائدة من ذلك ، وهن يفخرن في أعماقهن أن أبناءهن سوف يعمرن الأقطار المجهولة ، بل ربما انتصروا على العروق الصفراء . هذا الهياج كان ينعكس كله على حمى استاذي ، فحاولت أن أشرح له بالسبب . لكنه ما كاث ليصني إليّ أبداً ، فقد زعم أنه في العام ١٣٥٥ للهجرة وهو الألف وتسعمائة وست وثلاثون من تقويم بيت لحم ، وتكلم مع أشباح هذا الزمن المقبل لا معنا نحن ، وجرب أن يشرح لي بدوره الأحداث التي يشهد ، واستولى عليه الخوف ، لأن شارات قدوم السال إلى اسبانيا القريب ، باتت كثيرة ، فها تهز النفوس حركات تحت أرضية ، من تهديد معارضة ، وقسمات بين الشعوب والأسياذ ، فكأنما كل شيء في عشية عاصفة عارمة ، فالصيف يشتعل والطيور واطيء طيرانها ، وغيوم من حشرات تغادر المستنقعات إلى المدن ، ويستولي القلق على النساء في جهن ، وما يعلم أحد أذاك هو الطوفان أم الحرب ، وهل يأتي الموت من السماء أم المياه . . . لا أفهم شيئاً من كلمات المجنون وماذا يريد من قوله مملكة المنطقة الساحلية ؟ هل يكون نسي سقوط غرناطة ، فأخذ ينتظر جنوداً مغاربة ، كما كان الأمل لسبعة أو ثمانية شهور خلت ، في قلب أبي عبدالله ، رغم كل المظاهر ، وهل يعتقد أن هذا الأمير يعود من اندرش في جحافل من البربر ، جمعها في افريقيا ؟ ولا أجرؤ على أن أثنيه أو أنتزع منه هذا الأمل المعتوه . لكنني قدرت اليوم أنني أفهم أنه يرى هذا الاحتمال بعين أخرى : وهو غير الحرب المقدسة ونثار الاسلام الذي تنبأ به بظهور المحاربين الصحراويين ، وإنما نازلة ، تنزل بشبه الجزيرة كله : وأفهم أن النجدي لا ينحاز للغازين ، وإنما يخفق قلبه مع شعب هذه الأرض ، وقد غدا على مرّ الزمن شعبه ، لأنه تعذب وفكر تحت نفس الشمس ، تفاعل فيه كل النشيد العتيق ، يحمل ميراث الألام ، ما وراء العرق والدين ، في تفاهم غامض شبيه بانسجام الغابة العميق الذي تروي فيه ، الشجرة ، والعصفور ، والسنباب والينبوع بعض لبعض ما لا يدركه من أقبل من أمكنة جرداء بفراعة ، وتبغ ، وبصل ، وخرم وخبز أسود :

لا شيء إلا كالذي كان غرناطة تتنازعها الشيع
الشعب وأنصاره في البيازين كما في عهد أبي عبد الله
والرغل ولو أنهم ضنوا عليه بالسلاح يأتي المدينة
من قرطبة في كتاب مغربية مرتزقة ومعه الخطر

كل شيء كما كان في الساعة التي ينتقل فيها الحكم إلى أيدي الكلدنريين
ويأتي ابن الانسان في الساعة التي يغدو المستقبل هزيمة اثر هزيمة

يا أغنية عميقة قبل الفجر لولا قليل لأمكن انقاذ كل شيء
كان النهار كوجنة فداست الحلم خطى الأجلاف
كل شيء كالذي كان مضى زمن طويل في اعداد الطفل
في تكييف جسده للحب وروحه زمن طويل كي يصنعوا منه
مفتاحاً للساء لعلها تفتح أبوابها زمن طويل للوصول إلى الجحيم
إلى جهنم إلى الغابة إلى السجن إلى نشوء عالم يختنق
إلى الركوع أمام القتل إلى عهد الكذب والاهانة
كل شيء كالذي كان يا جنة أحبطوها بلا منطق
أن تعيش منهكاً مجروحاً مهاناً مهزأً من أجل وليمة للشمس
لن تكون إلا من بني سراج مستقبل الإنسان غرق
كل شيء كالذي كان البرد على القمح في ساعة السنبله
لوح الأمل المخيف وحشو الجمل القتالة الضئيل
فخ الموعود ومحنة يسحقنا فيها صليب الايمان
وأسوأ ما في النضال أو أحسن ما فيه أن يصب شقيقاً في الوهم
انه حق نعطيه للمسوخ على الحب حق نعطيه للشناء على الورد
انكم تدفعون ثمن جريمة غير محسوسة جريمة أنكم حلمتم وزنها من الدم
فلتحتطم كل القبل كل السعادات الغائبة بين أذرعة مقطوعة
واللعنة على ثمة المرأة الرقيقة آه كل شيء كالذي كان
.....

هذا الصباح صاح أستاذي عالياً وجرى متوحش العدو إلى باب الكهف ،
قلوب كل شيء ، وبعثر النار ، ومزق ثيابه ، مما اضطرنا للامساك به وربطه في
سريره ، وهو زائغ البصر ، راجف الأعضاء . حتى إذا هدأ ، فهمت ما يقول : ها
هم قادمون ! ها هم قادمون ! عمن كان يتكلم ؟

١٦

الساهارون

عبروا الظل بلا معبر قفزوا مسالك الجبال
على خيل مسرجة بالقمر في طراد دامي النحيب
والحدوات نجوم جاءوا عبر القرون الخالية
في بزة وزهور جاء أهل الفجر إلى مليجرانه

وغرناطة عند بزوغ النهار يا قيثارة يا قلباً جريماً حتى الموت
بين ذراعي ضيابة الحقول كسمراء عاشقة
ما زالت نائمة والشمس كادت تتورد على الأبراج
من جاء بكم إلى هنا ومعكم أغاني الماضي

انها أشباح ترحل ان رأتي أو فراشات تجتذبها آخر القناديل
هذا يمشي على البحر رفيق الدلافين
هذا للموت وذاك للحياة نرى الزمان يدق في صدغها
وثالث جاء قلب الساعة على الأرض ككأس خمر
الشاعر هو من يعرف الشاعر قبل الاسلام كان عالماً أو متنبأً
وهذا سليمان عينه على السماء يرقص على زمزماه
وهناك أورفه وأرنو ودانيال خارجون من الجحيم والنار تحت القارب
يقف فيه دانتني

هناك سينيكا الاسباني وبيترارك الفلورنسي
وأمر قرطبة المعتمد وهناك

ابن حزم الذي يسمون ابن هزام وجمهور الصوفيين
والوصيفة حفصة بنت الحاج الرقونية
وهي تلبس للأبد ليل أبي جعفر الذي صلبوه
لكن أشواك الصباح تمزق لأيا فلأبي حدادها
بات الجو شاحباً حل البكور وأغمض السواد آخر عيونه
أبها الشعراء يا من تولدون على مخمل الفجر في خطا ذئب

أمن أجلي ترك جامي فارس ورجع إلى مسقط رأسه مرسيه ابن عربي الاندلسي

من يتمتم من يتمتم
وعينه كل الليل
كلبان في البستان كانا
والريح حيناً بعد حين
شجرة خزامى من رعب
من يتمتم من يتمتم
ان الكوابيس تصنع جداراً
يحجب بين الموتى وبينه

فكل الموتى هم وخز ضمير

أولئك هم من ماتوا بعدي جمهورهم وراء حياتي
موكبهم ينزل من الثلج إلى البرتقالة ويرتد فجأة فيتسلق وراء الساكروموتسي هذا
الدرب الأصهب كشعلب
ما تفعلون يا فرسان عبر السيرادوفيزنار
ان شمساً خانقة ترتفع أبهاً ثقيل وحار
كيف تميزون بين كيخوته على حصانه وبين سرفانتيس الأقطع ووراءهما
سانتشو

وبين راهب العفو ودون جوان الذي هو ظله
وتيريزا عن يسوع أو مارية المصرية ومن هذه المرأة قائمة الوجه وقد جاءوا بها
من الكرمل على كرسي
يمشون شذر مذر وأحلام قرون الفوضى

مع كائنات الملحمة مع بشر من خيال
يبدعها الانسان بموسيقى ينعشها بالعرشات
مع عشاق حتى الموت بينرون ألف عام
لأن الحياة حلم والأحلام أحلام هي
امش يا كرنفال هوى الله العظيم امش
مات الكونت اورجاز وانبهرت رثات الوصيفات
والتاريخ ليس سوى حكايات أحسنها نصوغها أغاني
ويمضي زورباران ويأتي جويبا أكباش مشنوقة ودمى - معزى
لمن الباقات المزخرقة لمن يحملون البنفسج
هاته القويسات هذه الفرجيس ماين نيشت^(١) هذه القرنفلات السود وتلك السواسن
الهذا الكانتاوور^(٢) الفتى عروس زهور البنادق

تحت جسر البيرة
أود لو تمر

(١) Vergiss-mein nicht ومعناها بالعربية لا تنسني .

(٢) Cantaoir مطرب أو شاعر جوال .

لعل أعراف اسمك
وأجهش بالبكاء

في ذكراك لا جونجورا ولا البورفير
فيها أن نقهر الجحيم بالجحيم واليوم ما من مستطيع
لن يحضر موتك غدا ملوك مجوس مثل ميريمه
ولا واشنطن ايرفينج ولا عاشق دولوريس الحزينة ولا موريس
باريس وقد دعوته عبثاً إليك تحت الطرفات العظيمة
وياسمينات سان فانسان التي عطرت عمرك

كنت أصغر مني بسنة لكنك سوف تظل الفتى في الأبد العظيم
فتى خالداً لا يرى أحد شعرك يبيض ولا جبينك تغضن
قل للجلاذك شكراً أنهم جنبوك انحداراً ليست لديك عنه أية فكرة
فيدريكو جارسيا لوركا ما دام فمي لا بد له في نهاية النهايات من أن يسميك

الحصاد يحصد النفل ونشمها من الشرفة
الطفل يأكل برتقالاً بلون دمك
لكنك كنت عبثاً كنت تريد أن يدعوا الشرفة مفتوحة
عندما تموت إذا مت هكذا قلت في أبياتك

يا لرائحة الموت على مندبل الريح
واسبانيا تدلج إلى مصيرك
عالم يتقدم للموت يرافك
والسائر في المقدمة
لا يعرف أحد عنه شيئاً حتى ولا نمل بيته
لا التينة ولا الثور
ايناسوسانثيز ميخياس في الساعة الخامسة مساءً يا بطلا مجهولاً

Por que te has muerto para siempre
Como todos los muertos de la Tierra
Como todos los muertos que se olvidan
En un monton de perros apagados

لأنه مات للأبد ككل موتى الأرض
ككل من نسي من موتى في كومة كلاب مخرقة
وعلى خطوه يتقدم شعب من رجال - جان
وجوه مخموشة ثياب محلولة والروح شعشاء
يغنون كلمات الهية غنتها شفتاك
وعلى عربات تتأوه كوابحها
عجبر خيريز بطبولهم
في الساعة الخامسة مساء يحملون خمرأً أحمر
يا لك كم تذكر تشورورو تشورورو
في الساعة الخامسة مساء عند موت خوان دولاكروز
ويأتي راجعاً من الزمن جورج بورو
يا موعداً جئائزياً يا عرضاً قاسياً
صار معنى آخر للموتى الذين غنيتهم من قبل
كل مساء في غرناطة
كل مساء يموت طفل

١٧

مذكرات زيد

في آخر شهر في أوائل الثامن من سنتهم ، في هذا الفصل الذي يدعوه المسيحيون في تلاعهم بالكلمات شهر أغسطس ، تيمناً بأمراطور وثني ، وهو الموافق تقريباً لشوالنا سنة ٨٩٧ للهجرة ، اندملت جراح النجدي تماماً ، وعاوده صفاء غريب ، ولو أنه ما زال ضعيفاً . ولقد استطاع أن يشرح لي بين ما هي رؤيا الزمن المزدوجة التي يعاني ، وكيف يحافظ على وضوح المستقبل والحاضر معاً وهو يقطع الزمن . لقد حال عنده كهف العجر المظلم الذي يعيش فيه إلى مكان ذي نور غامر ، إلى امرأة ضخمة ذات قطع متكافئ ، يقعد في محراقها ، فتره أقل اهتزازاتها صور عصر آخر . بات يراني ، يكلمني ، يعرف من أنا ، ويجهد في أن أشاركه رؤاه ، وأن أرافقه في رحلاته الدائمة . . .

يعنى به الآن طبيب يهودي هو ، ربي ابراهيم بن ميمون ، الذي اختبأ في الخامس من شوال ، حين انتهت المهلة التي أعطها الملك الكاثوليكيان إلى شعبه كي يغادر خلالها اسبانيا . ويدرس هذا العالم الحكيم جنون أستاذه ، فيقول ان الزمان عنده هو المريض ، وهذا ما يصعب علي فهمه . ويبين لي ربي ابراهيم ، أنه على عكس الاحساس الفج لدينا ، الذي يجعلنا نعتقد أن زماننا هو زمان كل المخلوقات ، وانه قيمته مطلقة فيما يمضي وما لا يمضي ، والزمان هو مفهوم نسبي

عند الكائن ، وزمان الانسان مختلف عن زمان الحجر ، كما أن قيمته تختلف في الأنواع الحيوانية باختلاف ديمومة الفرد . والفيل الذي وجوده أطول من وجود الانسان ، تختلف فكرة الزمان عنده ، عما هي عليه لدى البشر ، وهذا الزمان نفسه ليس زمان الحشرة . وبعبارة أبسط ، ان سنة الكلب تعدل سبعاً من سني الانسان ، لأن كلباً في العاشرة من عمره يشيخ شيخوخة انسان ابن سبعين . وهو مع ذلك يعيش ما يعيشه الانسان : لأن كل دقيقة من حياته ، تعدل سبعاً من حياتنا . وهكذا إذا تأخرنا عليه بالطعام يكون ألم جوعه سبعة أضعاف ما هو لدى الانسان . ومن هنا الفرق في احساسات الكلب ، دوام غضبه ، وتبدل مزاجه بالنسبة لما نحن عليه . ويرى ربي ابراهيم ، أن هاجس التجدي ، راجع إلى تعايش زماننا العادي عنده ، في نوع من التمييز ، مع زمن آخر متسارع ، نوع من زمان الكلب ، يجعله في عيش متواز مع حياته الواقعية ، مكثه من أن يقطع قروناً في شهور ، ويبدو أنه عاد فنباطاً ، لما وصل إلى القرن العشرين لدى المسيحيين ، إلى تكافؤ بين أيامنا الحالية ، وأيام ذلك العهد . ويقول ربي ابراهيم عنه ، ان التجدي ، منذ وصل إلى هذا التوازن العجيب ، يستطيع الحديث المتصل معنا ، لأن زمانه التقيا في الديمومة .

ويقول أيضاً ربي ابراهيم أن تقلبات قيمة الزمان يجب ألا تبدلنا ، على ما تبدلنا عليه ، أي خيال فيلسوف ، لا تفقهه العامة : والحق ، أن كلامنا ، يعانينا في حياته الخاصة هذه التقلبات والطفل زمانه غير زمان الرجل الكامل . وزمان الساعة ، إذا اتخذناه زماناً موضوعياً ، ليست له عند الجميع نفس القيمة الشخصية ، فديمومته تختلف من انسان لآخر . والساعة أطول عند الطفل مما هي عند البالغ ، وأقصر بما لا يقاس عند الشيخ . وجليه الأمر أن الاحساس بالديمومة متبدل ، يتسارع بالقدر الذي يتناقص فيه ، ما يبقى للانسان من زمن يحياه . وكان الانسان يشعر بهذا النقصان ، فتستولي عليه عجلة داخلية تراجية .

.....

سهر ربي ابراهيم ليلة كاملة على المجنون . وفي الصباح كان شاحباً مما سمع من كلمات ، لكنه ضاع في تعليقات مدلولاتها ، فقال لي ان المريض يرى ، بالمعنى المتسامي للكلمة ، نازلة تنزل بفرناطة لها قصف عاصفة ، وثقل غيمة مظلمة . وما كان وهو المأخوذ في أحشائه بالرعب الحالي على بني اسرائيل ، ليقدر أنها نبوءة لما بعد موتنا ، وقد منحها طابع اليقين اسم فرانكو في فم العجوز اللتوي . والأمر أن يهودياً في العام الماضي اسمه يوسي فرانكو ، اقتنع زوراً على الأرض المسيحية ، انه سرق ولا نعلم لماذا قرباناً مقدساً ، وجروه بالتعذيب للاعتراف بأنه قتل طفلاً كرس دمه لطقوس دينه . ولقد استغلها الملكان الكاثوليكيان حجة ، بعد احراق هذا البائس في السادس عشر من محرم الماضي في قرطبة ، ففررا في الربيع طرد اليهود . روى الحادثة ربي ابراهيم وأضاف ان اسم فرانكو ، وهو كنية عائلة يهودية اسبانية ، سوف يبقى محترماً عند بني اسرائيل في العالم كله مثل اسم موشي وداود .

.....

ربما لم يكن في مكتبة الفتى ، أن يلم برؤيا الزمان هذه ، لأنني أجدني ضائعاً بين أقوال ربي ابراهيم ، وأحلام أستاذي ، وأنا لا أعلم ، هل يتعلق الأمر بالعهد الذي أنا منه ، أم بقرن بعيد .

كم هو صعب ، بعد أن اقتنعنا بورود ما يسميه النجدي بقرن السا ، أن نجدنا غرقنا في غد موتنا
في غرناطة !

أفهم ما يعنيه الطبيب ، لكنني لا أتوصل حقيقة إلى ادراك ما يجري في أستاذي إلى ذلك النور
الذي ما زال عندي مظلماً . ما هو الزمان المزدوج ؟ كيف يمكننا أن نرى علي بعد قرون ، أن نكون
معاً في سنة ١٤٩٢ وسنة ١٩٣٦ ؟ وأن نتبع في نفس الوقت يوماً فيوماً ، ثانية فثانية ، ضيق
العصرين ؟ وهناك أسئلة عديدة أخرى أطرحها على نفسي ، بعد أن سمعت اعترافات النجدي
عن المستقبل ، وأنا أحتمل هذا الحاضر الفظيع ، يزيد في فظاعته ، النور الذي ألقى عليه قبل ما
يناهز أربعمئة وخمسين عاماً ، ويبدو أن أربعة قرون ونصف لم تجعل الحياة أسهل بشكل
محسوس .

قاطعني المجنون وأنا أكتب مذكراتي ، في لحظة شعور غريبة بعلته . أستاذها في تسجيل
أقواله .

١٨

حكاية البحار والشاعر

ألا ترى على الموج البنت والمخضبة وماري الرقيقة
تحمل إلى شواطئ اللاأين مدافعها وأعلامها
أبحرت قبل الفجر والبحر يبدو لها بطيئاً
ثلاثة أيام في بالوش بثلاث ليال فالسيد يعلم
أن اللعنة تنزل بمن يبحر في التاسع من شهر آب
الذي يقع تماماً في الجمعة الثانية من آب هذه السنة
ولكم من مرة راجع حساباته كم مرة استشار الأسطراب
في السبعة الأيام السابقة الوصول إلى عرض الجزر السعيدة
أول أرض يصلون بعد تلك الأيام السبعة القانظة
وثلاثة أيام انتظار قبل الابحار بسبب السكون الجامد
وأثلجت في تنريف فحام فوقهم سحرها ولمعانا
وشاع خبر هجوم برتغالي عليهم وما من هبة هواء
وباتت المخضبة بحاجة للرصيف لاصلاح عطل فيها

الاصلاح الآن وهم على باب المغامرة
فلتدخل اذن متى استطاعت مرفأ الكناري الكبرى
أما نحن فنذهب إلى جوميرا لفحص الأشعة والصواري
السماء والبحر من رصاص والزمان ثقيل كأنه يغلي
وهنا ليست غير توله غامضة يرسون فيها للتجارة
والمجهول يبدأ بعدها والصبر قد نفذ
والمتروم يدق من جزيرة إلى أخرى ايقاعاً مدارياً
الساعة سنة واليوم قرن آه ألا أستطيع المشي على الأمواج
أنني لأمنح من يريد نصيبي من الجنة لقاء هبة صبا
أبادل مختارا جنتي بجناحي طائر
رمان دمي يحول زهوراً ونجوماً تحت جلدي
وينسدل في عيني الجاحظتين على كل شيء رداء قمرزياً
لا أنام أبداً لا أحيا أبداً أنا ساعة أدور دون راحة
ذراعي على مينائها الخالد عقربان آه أني أنفجر أنفجر
أنا ما أنا غير صورة مخيفة تشبه الحياة
الانسان دائماً في آخر ساعاته في آخر جزيرة قبل الرحيل
على عتبة ما هو ذو قيمة والكل يبدو لي مائدة مترعة
كولومب ليس سوى حكاية أو استعارة طريقة أفضل للكذب
والحق أنه الانسان الذي يرى الحياة قصيرة والزمان طويلاً
وعزيزي فيديريكو عند آل روزاليس يصغي في الطابق الثاني
وليل الصيف كصمت كمنجات لا ينتهي
الآن لا نصيب له في الهند ولا أمريكا
عنده انتهت غرناطتي وانتهى النشيد
عنده مات الوهم العتيق كزيد أسود
عنده توقف الزمن العظيم كي تصعد خطوات الجلال
وجاء الموت يفتح الباب على خلود البحر

سوف تقعد في قدرك
بين آخرين بلا وجه
يا شاعراً يا نوراً مظلماً
ذات يوم ذات ليلة ذات صباح

تحفر معهم قبرك
معهم تعد اللحظات
في قعر وادي الزمان
حيث يحنق نشيد الحمامة

قل لي هل تذكرت هناك
الموسيقى الناعمة الغربية
التي كان للغجر والملائكة
يعزفها مانوويل دوفالا

لكن الموسيقى والأشعار
اختفت فجأة
فهل ذكرت البساتين
هل ذكرت نفسك

ماذا اخترت حياة أم موتاً
لكنه كان أسود على طريق موتك
دم التوت البري
وما يفعل من أجله شعرك

ماذا يغير لو أنهم وضعوك على الجدار
أو أطلقوا عليك كطريدة
في الوادي أم في الحقل
فتنهار العليق كانت ناضجة

ولن نميز أبداً
عظامك وقد ابيضت بين الجهاجم
ومن غرناطة أو ميلبي جراننا
أغانيك للحقول التي أحببت

في فمه يدخل ماء المطر

دعوا عينيه مفتوحتين لعل نظرته تمحي
من أجل أن يتعود هذا الموت فيه
يجب ألا نخبيء وجهه بمنديل

وأنت يا أشباحاً جثت من عمق الزمان
كوني كوني ديدباناً يحرس موته
كل نجمة دمعة والسماء تنظر إليك
وملايين الآلام تتجمد في الغيمة

كل ما كان في الانسان من سام وعظيم
رفضه أغانيه وأبطاله
فوق هذا الجسد وضد هؤلاء الجلادين
اليوم في غرناطة يتجلى أمام الجريمة

وهذا الفم الذي غاب ولوركا الذي سكت
فملاً العالم فجأة بالصمت
ويتحول العنف ضد أصحاب العنف
الله أية جلجلة يحدثها شاعر قتلوه

آه لقد يشست من اخوتي المتوحشين
كنت أرى كنت أرى المستقبل على ركبتي
تنتصر البهيمة وترجمنا الحجاره
ونار العسكر تهمني على شواطئنا

ترى هل يبقى أبداً السوق اللثيم
فيقتسم الأرض بلا انقطاع
فيما بينهم أولئك القتلة الذين تخافهم الفهود
الخنجر يرتجف منهم إذا مسته يدهم

ترى هل يستمر النزاع دائماً والحرب
في تصرف الملوك ومن جبينهم خاشعة

ويولد طفل المرأة ولا جدوى
ويمزق الجراد دائماً القمح

ترى دائماً السجون والجسد تحت الدولاب
المذبحة دائماً يبررها الأصنام
ويلقون على الجثث رداء من كلام
الكهامة للضم والمسار لليد

لكن يوماً يوم آت بلون برتقالة
يوم سعف يوم أوراق على الجبين
يوم كتف عارية يجب الناس فيه بعضهم بعضاً
يوم كطائر على أعلى غصن

وفي أبسط بساطة سوف يسود
شباب الحب وعيون زهر العناق
وعطور أعمق وصباحات أشد بياضاً
واللانهاية الرقيقة تحيطني بها ذراعاك

.....
أين تذهبين يا قلبي في ساعة الدموع هذه

١٩

مذكرات زيد

أحاول أن أدرك أين أستاذي . ان التفسير بالجنون لا يكفي . الكلمات المجهولة التي يصادف أن يضعها في أحلامه كأنها منارات على بحر مزروع أريانا . أو ، على العكس ، أريان سواد ، ملقاة على أشياء أيامنا . لغة المأ بعد التي يتقدم فيها المتكلم ، فهل تصف هي فعلاً علماً يراه ؟ كل منها يعبر عن علائق بين ما يجري آنئذ وإنسان السلف ، لكنها عندي أنا أوهام ، أنا الذي أتلقفها ، دون أن أفند إلى المستقبل . . . وهو يمزج لغتنا العربية شيئاً فشيئاً بكلام قشتالي ، ونحوه ، وصيغ زمنية في اللفظة لم نعتدها نحن ، وأكثر من هذا ذاك التقويم بشهوره الثابتة ، الذي لا يصف تاريخنا القمري ، منذ هجرة محمد ، وإنما الفصول الشمسية التي تختلط فيها الميثولوجيات مما قبل وبعد المسيح ، ويأخذ تفكير ابن عامر هذه الصورة التاريخية ، التي ترتدي فيها أشياء المستقبل منظر جحود خالد ، وإنكار لما كان حقيقتنا ، حقيقتنا المنسية وقد كنا نعطيها قيمة مطلقة . . .

ظننت أنني مستطيع متابعة المجنون ، ما دام ما يقوله لا يعدو عندي الخيال البحث . المستقبل لديه ، وأعني ما يسميه بذلك ، لم يكن عندي غير نوع من الشعور . لا يدركه الآخرون ، مثل الشعر عند العامة . حاولت أن أكتشف ، أو اخترع منه المعطيات ، في شبه اتفاق أو ديكوراً . . . لكن الصعوبة تكمن في أن هذه المعطيات لم تكن ثابتة ، كما أن من يستحضر من أشخاص ، ولقاءات الحالم المستيقظ كانت تفترض علمهم المتغير ، وأحداثاً من شعورهم لا من شعوري أنا . لا من شعوري أنا .

ينقص لحظات البغته ، والكائنات من جسد التي تبدو لعيانه ، ينقص الأفكار نفسها ، التي تسكن رؤيا المجنون ، بعيني وعيني روحي ، تفسير التاريخ الطويل ، الذي من دونه لا معنى ، لأية حركة تافهة ، ولا لأية عملية في ذهن الانسان في وقت معين ، وكأنها مرقاة في الصيرورة ، ليست من دونه سوى دخان . القنديل الذي استخدم ، صندلي ، التحية التي أقول ، كل هذا لا معنى له إلا في قرينة ماضيه الضخمة ، فإذا ضاع هذا ما كانت غير أشياء من الآثار الغامضة ، غبار ، رائحة قبر . بين ما أرى ، وما عشت ، وهذه المشاهد العاطفية التي يتخبط فيها ابن عامر ، تنقصني حلقات أيام وقرون ، سلاسل أفكار ، وملوك وحروب ، وأمم تولد وتموت ، وهجرات بشر ، وأديان ، ونحيب .

عندما أقرأ شاعراً ، أصنع من اختيار الشاعر عالماً أقبله كي أتابع قراءتي . هذا الدليل الذي اتخذت ، فارتبطت به بحبل الكميات ، يجزني خارج معنى الأشياء العادي . يخلط بين القم والوردة ، فيغدو عندي ذلك قانوناً ، أو أغلقت الكتاب . لكن ما أفعل في هذا الكتاب ، المتزوع الصفحات الذي هو النجدي ؟ فقد جاء يوم فهمت فيه أن لا استعارة في كل ما يقول . ولا بد لي إذا أردت ادراك أستاذي ، من المغامرة بفرضية واقع يأتي بعدنا ، رحلة لا أعرف لغتها ، ولا أستطيع معرفتها ، ينقصني فيها كل تفسير لما هو كائن بما كان .

كنت البارحة أكتب جملة ، وأعدت قراءتها ، فواتاني مفهوم ، عما أجهد في التعبير عنه : أن نفهم المستقبل ، هو علم الآثار مقلوب ، هو عملية فكرية يجب أن تكون أسهل ، كما هو أسهل ، بدءاً من الحاضر ، النزول في الزمن من الصعود فيه ويبدو لي هذا تجاوزاً في الصور ، لأن الزمن ليس جيباً ، لكنها طريقة في الكلام ، وأن نصعد ، أن ننزل : لكن الصورة ليست هنا ، أردت أن أقول أنه أسهل أن أحلم في شرح ما أنا من أن ابني من الرماد ما بات غير موجود وكأنني لم أكن . كلمة سهل ، تبدو لي منذ أن أصورها ، على هذا الأساس ، غير معقولة ، خيالية . وكأنها من فصيلة بلاغية ما كتبت بعد : صورة النعت . كيف أشرح ذلك ؟ هل تتضمن العلاقة بين القم والوردة الكلمة ، هل تتضمن القبلية؟

منذ أن سار زمان النجدي المزدوج بنفس الخطأ على معرفيه ، يبدو أن أستاذي يعاني عذاباً فظيماً من بطئه . كأن ألم الزمان الذي لا يمضي مربع الأس . لا مضروباً باثنين فحسب . وقد يكون المجنون ، قد تعود هذا العيش بمصرعين ، فحدثني عنه ، ولقد انقطع عن الغضب حين لا

أفهم أقواله ، وهو يبحث عن ايضاحها لي . يقول أن الرؤى المزدوجة لا تتم بلا دوار ، فهي كمن ينتقل سريعاً من منظر النجوم ، إلى العين المجردة على العالم القريب ، ثم عودة لذلك . أحياناً تختلط عليه الحقول ، وكذلك عاداتها ، ومن طبيعة فصول السنة ، أن تساعد على هذا الاختلاط : مثلاً ، في القرن الذي نحن فيه ، وفي الزمان البعيد الذي ينفذ إليه أستاذي ، في كليهما تطلع المارجريتا . وهكذا يجري كل شيء وكأنه في الاستعارة ، وأحد عنصرها ملموس عندي ، فيما يظل الآخر خاضعاً للتعليل ، متغيراً .

« ما تريد أن تقول ، يا مولانا ؟ » .

حينها في صبر من يود أن يوضح لطفل أن واحداً وواحداً اثنان ، لا واحداً ثم واحداً ، أي يعلمه ، أن التالي ، ليس تتاليًا فحسب ، وإنما يولد منه حد يغنينا عن تعداد عناصره ، فواحد وواحد هما اثنان ، ورجل وامرأة هما زوجان وهذا يحملنا بعيداً . . . شرح لي النجدي ، في أناة ، أنه كرجل ينطق باستعارة الفم والوردة ، لأنه من بلد لا تنبت فيه الوردة ، لم يرها أبداً ، فإذا ما يصف الفم عنده ، يعقده لدى الآخرين . . . وكذلك الأمر عند الوردة التي ليست زهرة ، وإنما وردة من اختراع المستقبل ، ينفي عنها كمال الصنع كل صفاتها ، فتحل محلها صفات أخرى ، وهذا يعود به إلى السا ، التي ، تتخيل ، كما يبدو ، وردات صفاتها ، ليست في الصورة ولا اللون ، ولا العبير ، وإنما من عنصر خارج على طبيعة الوردة ، موجود حسب ما نعلم في اطار العلاقات البشرية وحده ، تلك العلاقات التي رمزها العملة . . . وردة بالتقسيط مثلاً . . . وتلك هي استعارة نوعية ، صورة تمت . . . أكثر من ذلك ، إذا أدخلتها في حكاية الفم هذه ما تغلو الاستعارة التي يتغير فيها العنصر الثاني ؟

أحاول أن أسجل هذه الأقوال ، لكن الوردة هي عندي وردة ، والفم فم ، وانه لكثير على أن أسأل عن التماسق الموسيقي بين هذين العنصرين : فالموسيقى العلمية ليست من زماني الانساني .

من ذلك الحشد من البشر جاء من كل ناحية فملاً سماء المستقبل ، وتخلق حول الشاعر القليل ؟ أسماء لا حصر لها أحاط بها الحلم نفسه حول فيديريكو جارسيا لوركا ، حتى لقد ضمت ، فما أميز كائنات الواقع من مخلوقات الخيال . . . من هذا الكيخوته وهو في مروره فرجة بين القمم يتبعه جحش يحمل برميلا في سماء وسط بين الأحلام والحقيقة ، وهو يبدو هكذا في كلام المجنون الغامض ؟ ولماذا ، وقد رآه ، ربما بعد قرن منا ، يجده ، في العالم الاسباني ، في القرن العشرين المسيحي على دروب الأندلس ؟ لا أستطيع أن آخذ بياناً من أستاذي عنه ، ولا عن ذلك الافرنجي شاتوبريان . . . أجدني أمامه كفقراء المعرفة في المحادثة ، وقد أسقط في أيديهم بين علماء عندهم علم الماضي ، عن مصر أو فارس ، يمزجون كلامهم بشواهد من اللغات الميتة ، وتلميحات ميثولوجية ، ومقارنات أخذوها عن الكتب . الحديث عنه يطول ، ونظرة تمر فوق كتفي ورأسي ، كلمته راسخة في المستقبل .

ووافت أيام قرب السا ، ثقلت الثمار ، وغدا صيد الخريف أزرق رمادياً . . ها هو العالم

كامرأة باغتها في نضجها ، والليلي تنحل كشم ، فتدع للصباحات ظمأ لا يروى لما سوف يموت .

كان يقفز النجدي في المغارة ، لاهناً ، كجعل ضخم مجروح كيف كان يفسر مجيء تلك العربية بلا خيل تجري باتجاه الجنوب ، كصلاة إلى قلبتها ، وكان هذا يتطلب مني كثيراً من مبادئ المستقبل كي أفهمه ، فلم أحفظ منها شيئاً ، ما خلا كلمة كميون ، يدل بها على العجلة ، ويذهب إلى أنها كما ظهر لي جميلة جداً ، قاسية وثقيلة كحجر قدت من غير اتقان ، عمارة من بناء الجمجمة الانسانية ، صدغها عريض وفكها قوي ، وأن هنالك سدوداً على الطررق ، فوران بشر مسلحين ، وقرى تبدلت إلى أعياد ، ثم فجأة في ضوء القمر على عرض الطريق رجال جندلوا ، مكبلي الأيدي .

لم يكن الأوان أوان انخفاض الحرارة الأندلسية بحلول المساء ، وكان الغجر على عتبة المغارة نصف عراة يتحدثون فيما بينهم عن عابرين فاجأهم وعن خيل سرت عند نصف الليل حيلة ، وكان ربي ابراهيم قد نام على سرج من حجر ، وعلى ركبتيه تذكرة أبي العلاء ، وابتعدت كي أشم الهواء . . . واستغلت ذلك النساء فتكومن على المجنون ، كخلية دبابير ملونة . حتى إذا عدت تفرقن ، صامتات ، في نظرات لصوص . ترى على ماذا يتأمرن ؟

أحقاً هو الانحدار ؟ يتكلم أستاذي كلاماً غريباً ، أعتقد معه ، أن هذا الفكر النير الصحيح وقع في شرك قارئات الحظ . أو ما يتكلم الآن جاداً عن طرائق السحر ، وعهدي به دائماً يهزأ بها ! حديثه مليء بحكايات عن أرقام تخط لاستحضار الموتى ، ولقد وضع الساعة فرضية أن ما يمكن صنعه من أجل الماضي يمكن قلبه ، فإذا به يسمح لنا باستحضار الذين ما ولدوا بعد . . . وأنه ليحزننا أن نرى ما يصنعه العجز بمثل هذا العقل .

تسود المغارة رائحة دم كريمة . فقد فصدت النساء جدياً ، ما زالت جنته المسكينة في المدخل . ثم وضعن الدم في قارورة ، ومزجنه بالأعشاب من أجل سحر ما . والنجدي في أوج الهياج : يرسم على الأرض أرقاماً ، قال لي ربي ابراهيم ، أنه يتعرف فيها على علم القبالة . ومالاً شك فيه ، أن عملية سحر تحضر ولا أدري ان كان يجب علي أن أعترض عليها وهي ، على كل حال ، لا تعدو التدجيل ، بريئة ، تمنح الأمل والقوة لأستاذي ، الذي أعمي عليه طويلاً ، هذا الصباح . . . وماذا بهم ، إذا كانت تلك النساء قادرات على استحضار السا ، أن يكون ذلك من حيل الجحيم ؟

تحدثت إلى العجوز التي بدا لي أنها تقود كل شيء ، في ثوبها الأصفر الأسود . وبما أن التاعس ابن عامر لا يفهم لغة الروماني ، فقد عبرت لي ، على خطوتين منه ، بذلك السخر الذي يتميز به حديث الكاليسين فيما بينهم . اعترفت لي بأن ذلك غش محض ، وأن أحداً ، لا يستطيع احياء الموتى ، أو بعث أناسي المستقبل ، لكنها أضافت ، إذا لم تمنحه صورة من حلمه فإن هذا

الرجل ميت ، حتى إذا مهدتها بكشف الحقيقة لأستاذي زادت فقالت : « أنت حر في قتله . . . » ولم تشأ أن تقول سر الذي ، على ما يبدو ، يدعونه في لغة السا ، حيلة . لكنني سوف أجرب أن أعرف أكثر من ظبية صغيرة تغازلني عيناها . . . نفس التي أعارتني ، من قبل ، قيثارتها .

صورة من حلمه . . . يردن أن يعطينه صورة نفس الطفلة التي استجوبتُ . ومن التهريج الذي يحضره النساء ، ستوف تظهر واحدة تكون السا المجنون : وقد وجب أن تكون شقراء ، ولقد اعترفت لي بالمسألة ظبتي لما فاجأتها تصبغ شعرها . وحصلن على موافقة الرجال ، فباتت العشيرة كلها ، على بيته . . . ، ما عداي أنا وربي ابراهيم . واتفقوا جميعاً ، كما يعطوا الاحتمال مظهر النبل ، أن يحمل المريض ، على كرسي ، إذا لزم الأمر ، خارج المغارة ، إلى مكان مقابل للحمرء والبيازين . وهناك تتلى التعاويذ ، وتوضع في غيمة مصطنعة ، السا الكاذبة ، فتظل خرساء ، أو وجب عليها أن تتكلم لغات لا يمكن أن تعرفها . أجهل كم من الزمن سوف تبقى بيننا ، ولقد كانوا يعدون اخراجاً مسرحياً كاملاً ، كي يحيطوا اختفاءها بالأعاجيب ، مما يحلم به المجنون حتى آخر ساعات حياته .

هل أفضح له التزوير ؟ . . .

٢٠

فرقة السا المزيفة

كنت التي الآن أنا
يغيرونني كما أعجب
لأنني يجب أن أظهر مثلها
وحيث طارت الغيوم
أصعد كمطر

أغدو طيف حلم
صورته في الفكر
في جدول مقلوب
أو في ساء مكسوفة
قمرًا كاذباً لدى الشمس

أناطرة الحيلة
وردة شبح
مقارنة مستحيلة
الشرك المفضل

الشیطان الشیبه

أنا بنت - زهرة أو زهرة العسل
لما أتمتم أصبح
لما أبكي أضحك
أنا تمثيل وإيماء
خداع - الروح خداع العين

والحب الذي استغلوا
رغبات قفر وشفاه خضبية
قبل كاذبة نحيب مصطنع
إيمان كاذبة عناق كاذب
أنا هنا السا المزيفة

٢١

التعویذة الضالة

بأية معجزة فوق بشرية استيقظ من رماده
مثل علم على برج نسوا أن يأخذوه
كشباك بلا درفات في بيت تهدم
كطمر مزقته الريح والمجنون بلون الألم
جر المعتوه حمّاه جر المعتوه جراحه
على الهضبة ومشى إلى ما كان الساعة غرناطة
وتشابكت الطرق في البعيد تتبعها خطا البغال

جلس المجنون على حافة الجمال الهالك هناك حيث ترى المعجزة تنبجس من
النوافير

يا أرض المياه المصنعة فيك تروي الثلوج البعيدة ظمأ الأرض
عيناه على مجازفة الآتي وهو يحس التراب في فمه
والزوجان الحيان الزوجان الخالدان
كأنهما حل كل شيء
هل يولد الزوجان في النهاية بعد موته

انه يحمدس كل الذين سوف يفشلون إذ يهدون زوجين زوجين
يحمدس بما يفرقهما في عالم الحب فيه لا يعرف
كيف يعيش بعد العناق
يحمدس بؤس الرجل والمرأة الخالد
شاهد حي على محاولة لا تنتهي تتجدد
أطفال مساكين أطفال مساكين يضلهم كل شيء

لكن أنت الذي لم تكن سوى أنت

ماذا يستطيع وحده دون التي هي النار
دون التي هي البحر آه لماذا يستطيع

هوذا يرسم اشارات القبالة عنم أخذها لكن شيئاً لا يقوى على رده ولا
الجحيم

التعويذة ترتفع إلى شفثيه يجب
أن تتحول هذه المرأة إلى هنا رغم قرون الزمن
أن تصعد إلى ينبوعها متحدية كل قانون طبيعي أن
تعود من حوالي نصف - ألف عام على نداء مجنون يرى في البعيد كيف يحول رماداً
الملك الكاثوليكي

انه دعاء مجنون يأتي على لسانه صوت عميق من الظلمات
هل تقوى كلمات وجع - الحب هذه على حس الموت المحتوم
هل تقوى على الاتيان بتلك المرأة إلى هنا كما نهر إلى منبعه أو أغنية إلى موسيقى

المجنون

أدور في نور النهار ووجدان الليل
أحمل تلك المرأة في دمي كما تحمل غابة صوتها
كيف أستطيع الكلام عن شيء فلا يتحول لساني إليها
هي كل ما أحس كل ما أحس كل ما ألس
كل ضوضاء منها كل صمت كل اختلاج

قياس حياتي يا خوفي كل مرة من كل حركة
ساعتي الرملية العريضة تفقدني في دقة السعادة دقيقة اثر دقيقة
موسيقى بعد موسيقى وهذا الفرار في منك كانهيار
يا جموحى المقيم حدك أموت حدك أقيم
فريسة حب بلا نوم فريسة صخب خالد
منك في روحي وجسدي في صحراء ذراعي العظيمة
آه لو أنني أستطيع أن أملي على العالم في كل مكان خاتم خطوك
أن أدفع حيث ذهبت حيث أردت حيث عشت حيث رأيت حضورك للتجلي
أن أشكل في شبه فضيحة صلصال الكلمات على مثالك
هذا الكلام قليل عليك قليل على صورتك والوسواس
من دون قدرة سحرية أن تقول إلى هدف هواه
السا مرسومة على السماء مثل شارة الخروج من الفلك
السا أبدعك أناديك بالحوارة السا انهضي وامشي

المؤلف

يا معنوهاً مسكيناً واقفاً في عمرك وهزال ما كنته تدور حول نفسك تستدعي إليك هزه
النظرات التي زعمت أنك توجهها إلى ما تحب
يا مجنون يا من عشت بعد قصيدك يا شبح شبابك وقوفاً هنا
لن تتجاوز عتبة ما يحيق بالإنسان بين ولادته وموته
فهو لا يجوز له آخر الأمر غير أن يملأ في يأس عينيه من جمال العالم المر
سوف ينكرون عليك حقك في الاستحضار العظيم ينكرون عليك موهبة تجسيد ما لا
يرقى إليه هنا أمام المنظر المشرع فوق الدار و وصوته يسخر منك
أنت لست إلا خليقتي وخادعي تذكر ذلك أنت الذي ليس لديك من سلطة إلا ما أمنحك
فقد استغليت طويلاً صبري والاسم الذي يهب الحياة والثقة بحبه الذي دمر طويلاً بوهمه الحقيقة
الصارخة

أرحل بهذا البعير قلبك وجنونك وضجيجك
هأنذا أقف حيث كنت ترافس ناسياً أنك لعبتي

أنت لو كنت لساني ألا أستطيع أن أنتزعه مني فيسكت فإذا بك صرة دامية على الحصى
لم يعجبك أنك غرت مني النفس والوجود لم يعجبك أنك أخذت مني كل ما يضيء
عليك مظهر الكائن وأن تتنفس أن تتزف وتحب ألا تعلم يا غافلاً عاقاً أنني أستطيع أن أرميك على

هواي كخرقة على أرض لقد استغليت ما فوضتك به عن غير دراية مني وما لا أعلم من ضعف أو انحراف عقل فاستوليت على اسم عذابى الرائع فجعلت منه حلية شفتك وجرحك يا قرمزاً سرق من حياتي

هاأنتذا تزعم أنك تدخل معك في نور غرناطة المصلوبة وفي دوامة شعب في تابوت نهايته فوضى عظمة مبعثرة

لا كاسم تأوهت به في اليأس والحرب لا كعطاء من جنوني وخطأ مرأة بين قرنك وقرني

لا كامرأة من جسد تلفزة زمان فيما لا أعلم من مسرحية ملعونة اخترعت
السا المزيفة وقد باتت حقيقة وربما صارت جميلة ربما صارت عارية

حذار من مشاهد الخيال من غش الغيمة

حذار فلا مكان لامرأتين في الكون والديمومة

حذار فلا مكان لانعكاسها في كل أمواه البحر

حذار فلا مكان عند قدميها المقدستين لاهانة شبح

تركتك تغني في كل مكان عشقك بعشقي

ما دامت خليقة دوارك خارج النظر لا يحلم أحد بأن يقارنها بالحياة بحياتي

ألا تفهم أنني لا أقدر بأية حال أن أطيق طموحك ألا تفهم

أنك إذا أخذت بيد هذا الكائن من سحر

فجعلته يتجاوز الباب الذي كان يصطفق على الحلم في نصف الليل

إذا أعطيته الجسد والحركة بين الناس

ألا تفهم أنني لا أقدر أن أطيق عبادة الكفر هذه وأني سوف أبعثر غبارك وغبارها

أنني أبعثر لهبك وأدوس نارك حتى يسود الجمر

ألا تفهم أن لن تكون عشت أنا أم مت غير معجزة وحييدة هي السا

ولتزل أنت وشعبك وغرناطة لقاء حضورها وحده

يا حياً كنت أفقي وما هيتي ومأساتي

لقاء اشارة تنهدة شك حركة خفقة جنن

ليهلك اليوم كل ما ليس شمسي

بدءاً منك يا دمية ذاتي

أو أختنق في زندقة وليد إلى الشنيل إلى الشنيل

يا فساد نفسي إلى الشنيل يا شخصية انبعثت من وشائج الخيال

ولتتوَّج السا الوحيدة على كل كلمة قبلت

المجنون

ألا تشفق على عشاق غرناطة يا انسان المستقبل

من تعتقد أنك تعاقب إذا حطمت المرآة التي كنت تنظر إليك فيها
 لست أنا غير انعكاسك واللهب فوق قلب يحترق
 وهذا القنديل حدّ قدمك هو الذي يجعلني ايماء مزدوجاً
 ان أطفائه لا يبقى لك غير الظل وينتقم لي الليل فيمزقك
 احذر أن تطعن بسكينك استعارتنا
 لأن أعضاءها إذا تمزقت فقدت معاً معناها ودمك
 وما الحب إن لم يكن بحراً كلمة من دون بخور
 زهرة العناق تموت أمام العين وتضمحل الموسيقى في الأشياء
 كل شفة تبل على القبلة إذا انتزعت منها الوردة
 وها أنت تأخذ مني حب السا وهو من حبك مرسوم
 حطم قلبي إذا شئت أوليس قلبك من نفس البضعة
 أولاً تفهم أنك ان انتزعت مني داخل ذاتي
 حطمت المستقبل إذ تدفني عن سبيل من أحب
 أخذت مني اليد التي ظننت أنني ممسك بها فظلمت
 وحيداً مطلقاً وحيطاً عارياً بلا فائدة وحيداً ويائساً
 كل ما أحسست يخفق في لم يكن اذن غير دوار حلم
 أنت نفسك اذن والزمان الطويل بعدي لم تكونا غير كذبتين

هذا الشاهد الذي ليس هذا ولا ذاك

وهوت صاعقة صمت على الرجل المخدوع الوهم على الرجل المحروم مدى مسيرته
 على الرجل المقلوب الرؤيا
 صاعقة صمت ملأت تلك المدينة ذات السقوف التي كانت تتحدى الزهور
 صاعقة صمت علقت أمائر الغضب والأسباب التي يموت الناس من أجلها
 فما من مكان هنا إلا من أجل بداية نحيب عظيم
 نحيب يصعد من الأحشاء إلى الشفة مخيفاً مكسوراً نحيب
 يشبه نزع الروح بل أسوأ لأن الانسان يظل حياً معه نحيب
 من أجل ما سيكون غير هذه الحياة لأخرى عبثاً تنتظرها وعبثاً عبثاً تنتظرها
 لكن هذا التشيد ذاع من دون أن تغنيه
 هذه السعادة المخنوقة في راحة اليد كمنديل بللته الدموع
 هذا الخيال الذي سقط أرضاً كصقالة فلا ترى بيتاً بني بين ذراعيه
 لا مكان هنا إلا للكلمة التي خنقوها إلى الأبد
 سخف قدر صمموه فضاع كما تنسى لحناً

المجنون

واقف هنا فيما لم يكن بعد كل حساب إلا الذي قد كان
حداً نافورة في زاوية شارع أو في بستان مهجور
لن أكون إلا ما أنا ما كنت أكون غير ما كنت لا شيء آخر
وحيد بلا فائدة وحيد ومزق في حلمي أوه لو أن الحلم ينزف حيث يكون الجرح لكن
لا

انه ينتزع منك دون أن تستطيع القول أين الألم دون أن تقدر
أن تتحقق بأصبعك الجرح والدم
اذهب وكأنهم اقتلعوا منك اللسان والأعضاء
مع ذلك تمشي وتتكلم تبدو وكأن شيئاً لم يتغير فيك والآخرين
لا يرون عاهتك يزعمونك بلا هوادة
تتألم حتى لا تستطيع صراخاً أو بكاءً أو تأوهاً تتألم
فتسلك مثل كل العابرين وتعود
إلى العالم الآلي والكل منه يبدو أن ليس غير هدف ظاهر محدود وضيق
وتحل ساعة الأكل أو ساعة النوم أو تلك التي في النهاية
فلتأت فلتأت في النهاية فلتأت أه

تأخرها في المجيء يذبحني
أنا البهيمة تغتالها السكين بلا رحمة لكن
في بطنه أستم على بعض الانسانية فتشحدون هذه السكين المثلومة فلا تقطع
أستجير بكم أن تشحدوا قليلا السكين لعلكم تنتهون مني سريعاً
أنتم لا تودون أن تمنوني العذاب وقوة الفولاذ في الجلد والعضلات
والأعصاب والغضاريف

أنتم تقتلونني خسة تقتلونني لاياً لاياً تدعون لي لماذا تدعون لي زمن التفكير
بالمرأة التي انتزعت مني

كانكم فاجأتمونا قبضتم علينا فرقمونا في الحب أحدنا عن الآخر وأصبح بكم
يا جلادين أصبح بكم

انتظروا على الأقل حتى أموت منها حتى أموت بها كأثم

وتلفظ ابن عامر النجدي بجملة حطت من قبل مرة على شفته : وحيداً مطلقاً وحيطاً بلا فائدة عارياً . . . أعادها وهو يقيس المرارة ، أعادها كسم في الروح ، وما من أجل أن يسكر بها ، وإنما تأكيداً للشقاء ، وقراراً منه في أن يحدق إلى وجه الشقاء ، إلى عينيه وامتداده ، الشقاء الذي لا يمكن له أن يقاس . ربما ، لو استطاع أحد أن يرى في قيس ، في تلك الساعة بعد غرناطة ، على حدود موت شعب ، عند هذه النقطة من انحلال الاسلام ، فعلى كل ساحة ، وعند كل عطفة شارع ، ميت لا يعنى أحد بدفنه ، ميت بالجوع أو بالسكين ، أو بالطاعون أو الثورة ، كل رجل وكل امرأة قعد في بيت سوف يؤخذ منها ، والنظرة تتوقف على منظر يحى في بؤبؤ العين ، وعلى البحر تتأهب سفن . سوف تنهار تحت ثقل الهجرات المتعاقبة ، من الجسر حتى العنبر حيث يجيم الفرار . . . ربما لو رأى أحد ما يجري في قيس لقال كلمات الاحتقار ، ولهز بكف حكمه عليه . . . ربما . أو فهم أن الخراب هو نفسه ، أكان خراب امرئ أم شعب ، ألا وقفة حتى الهوة . ان السقوط على نفس الفظاعة كائناً ما كان سببه . لأن قيساً بن عامر النجدي يقيم هنا القدر الانساني أكان قدر طفل تفارقه الروح على طريق المنفى ، أم قدر ملك ينهد للموت دفاعاً عن مملكة افریقیة ضد الذين لم يستطع لهم رداً عن ملكه نفسه . . .

قيس ، وقد بات الآن وحيداً لا يفكر بنفسه تحت اسم المجنون الذي اتخذه ، وإنما باسم حمله الآن ، وهو الذي كانت تناديه به أمه ، اسم الفتى ، اسم العاشق الذي له من ينتظره هناك مساء في الظل . . . قيس يحلم بالذين انبثقا عنه في الزمان المقبل ، هذان الزوجان اللذان انفصلا ناحية الأيام التي لا يعرف الناس بها ، أن شعباً ركع ، وأن رجلاً في قمة اليأس ، في غرناطة الأندلس ، ترددت في قلبه بلا رحمة طبول جنائزية مرت بالمدينة على خطا الغالب . . . هذان الزوجان اللذان سوف يؤذن لها أن يشيخا معاً . . .

من أين يجيئك هذا الصدى في كلمات التحدث ، من أين هذا الصدى لشيء لا يعقل ؟ شاعر يسمى بول فيما بعد . وما الصدى في فمه غير نحيب على الانسان المهلهل ، المنفصل ، العاطل عن الزينة . وكأس الزوجين الحطيم ، يا لك يا ليلة آخر تشرين الثاني ، ليلة وحيد ، نهار آخر انطفأ : لن نشيخ معاً . . . عمن كان يقول ، وكيف ، هذه الجملة المنسية : يعيش بلا مستقبل ؟

وتقدم قيس بن عامر النجدي حتى تلك الشرفة على الهضبة ، وما زالت يرى منها في المقدمة البيازين ، أخدود الدارو ، وهو يقسم منحدر البساتين إلى سطوح ، كل منها انفصل بين جدرانه ، وسياج الأزهار يتجه إلى منحدر الأشجار ، والأسوار ، وفي الناحية الأخرى يتسلق إلى الحمراء ، وقيس ابن عامر لا يستطيع أن يشيخ بفكره عن الزوجين ، وما يرى ليس الدارو بل غمازة على زاوية فم مرسومة بين منحدره وبينه ، بينها وبينه ، تحجبه عنه ، كما تحجبه البيازين عن الحمراء . . . لكنه الزمن العصي ، الزمن الذي كالنار لا تلعب به عبثاً ، أخدود الزمن الرهيب الذي لا تراجع أبداً ، لا تلك الحسرة العميقة كشمرة تنضج وتكبر بالدموع ، الدموع التي لا تصير إلا قشرة ، بداية درع ، وفي كل غلطة أمل ، في كل خطوة تصطدم باليأس القاسي ، بجدار الموت ، في كل خطوة وهم مضطربة ، يعود لي فحسب كبحر يعلو ، كمد ، أم تراه جرس وقعه

في ، يدق في ، في ضجة جناحي نسر في قصص عظيمة ، أين أنا ؟ وكنت أقول . . . كلمات قاسية رائعة ، اني أضيع ، كل ما أقدر أن أجابه به ما لا يرحم مع أن الأمر لا يتعلق بي ، تلك الكلمات المعنوية ، الكلمات الساوية ، سوف . . . أتسمعين هذه الكلمات أيتها الأذن الداخلية ؟ سوف . . . أوه ، الآن أفهم الأعمى ، وما يعني عنده النور . . . الشيخوخة . . . أو هل يتراءى الجمال في غير القسوة وحدها ؟ . . . الشيخوخة . . . أذكر ما كنت تعنيه هذه الكلمة عندك في احتفار قوتك المتعجرف (قوتك ، يا حب !) والتجريد في فدمك الجميل وما زال طفلاً ، شبابك . . . الشيخوخة . . . ربما قالوا لك أنك لا بد من أن تشيخ ذات يوم ، يا له أمر مر ، أمر معجز ! رمز سعادة حقيقية ، الشيخوخة ، الشيخوخة . . . لكن ما كان يقول الآخر ؟ لكن ما الذي على طرف هذا الفعل . كلمة صغيرة أيضاً ، الكلمة التي تعطيه رقة الموسيقى ، تجعله يلمع ، تمنحه اعراباً باهراً ، ان تشيخ . . . آه ، في مرارة كنت تقول عنها وقد تحابا : سوف يشيخان معاً .

وأنت ، عندما تحين ساعة موتك ، وحيداً مطلقاً وحيداً بلا فائدة حارياً ، ليدير وأراسك ، لا إلى قبلتك ، وعيناك إلى الجنوب ، وإنما نحو زوجي المستقبل ، أما الذين يغسلون جسمك ، ويقتسمون ثيابك أجراً عن أتعابهم ، فليظنوا جيداً ، إلى هناك ، إلى حيث تنجه آخر نظرة طويلة منك ، إلى الشمس والقمر ، بعيداً يشيخان معاً . . . لن يفهموا شيئاً من الطقس الحديد ، أية كلمة من تلك التي تعود في نفسك الأخير ، حتى إذا غسلوا جيداً جسدك بأيديهم الطويلة الثقيلة الجافية ، وسدوا بقطنة معطرة بالناردين ، أنفك وفمك وأذنيك ، ومخارج الجسد السفلية ، سوف أتوسل إليهم ، ألا يغلقوا عينيك وقد انفتحتا على الفراغ ، تريان ، ولو عميتا على الحياة ، ذينك الزوجين وقد منحنا ما لم تؤث في الخلود نفسه . . . سوف يروون هذه الكلمات التي سرقوا من نفسك ، دون أن يفهموا شيئاً . . . ماله ، ما به ، قبل الموت ، أهو الهذيان ، راجعه ، أم صلاة ، أم ترتيل . . . سوف يشيخان معاً .

معاً ، معاً ، آه ، هي ذي الكلمة التي أبحث عنها كقلب ضائع ، سر من ظل ، مفتاح سقط في عمق الماء . . . سوف يشيخان معاً .

ولسوف تدخل النساء بيتك ، ويبدأ مهرجان الصباح والولاول ، وتمزق الثياب ، وينشب الظفر في الوجنة ، وتنحل الشعور وتنتزع قبضات ، ويعلو الانتحاب ، وتغني النائحة وتبكي ، وماذا تقول عن المرحوم ؟ كان طيباً ، أحب أمه ، مطيعاً وبسيطاً ، وتقياً تقى كان الناس لا يفهمونه ، كأغانيه يلحق بها الصبيان في الشوارع ، لا يأخذ من خيرات العالم إلا قليلاً ، يقاسم الفقير خبزه للأسود . . . وسوف يتخذ حادث صغير في الكلمة الواهة مكاناً أوسع من قده ، هو قصة لا يذكرها الميت ، رقيقة مثالية ، وربما كاذبة ، وذلك من أجل ألا يبقى منه إلا ما استطاع له سبيلاً ، ما كان يجب أن يفعل ، ويعود النظام فيهمين على كل شيء وتغلف فضيحة البارحة في ثوب جاف يتقدم به إلى الله ، يرفعونه وهم يقرأون أبياتاً دينية حتى قبره المفتوح ، في حيلة لعبة ، أو هل يرضى ، النجدي ، لنفسه ، بهذه الأرض التي حفرت له ، أولاً يتطلع في الدقيقة الأخيرة من على الأكتاف التي تحمله ، فيرفض تواضعاً ، أو بما لا أدري من احساس معقد ، تلك الملكية التي يمنحونه ، لي أنا الذي لا أستحقها ، ويلقون جسده في دفعة واحدة . . .

ويهلون الرمل فيمحي فيه خطوه ، وموسيقاه ، وهينات روحه ، وأنغام ما قال من كلمات ، يعجز الخط عن تخليدها ، رغم اختراعات النحويين ، وهذا التنقيط الهوائي أضافه للحروف الساكنة . . . ينهال عليه الرمل كحكمة كل حكاية قيس وشعبه ، رمل لا نهائي ، ذكرى الأصول الرائعة ، العودة للصحراء تنطفيء على حدود الانسان والملاك ، رمل تطارد فيه الاعلام ، وزمن الجاهلية ، والته الطويل ، رمل آسيا وفيها تهاجر القطعان إلى مراعي ربيعية ضئيلة مدمرة ، رمل افريقيا وفيها العشائر تدور على نفسها شعباً وكفراً ، وانتفاضات المتزمتين العظيمة في الأقطار القاحلة . . . يهلون عليه ، على قيس ، كل النشيد الذي جف على رياح الصحراء ، كل نشيد الرمل كأنه اضطهاد لما كان ، وتلك الحجر تفتتت راحت ، تناثرت . . . يهلون عليه الرمل الأبيض جعل من مغرة ، من ارجوان ، وسواد ، وبريق ، ولون موزع . . . عليه رمل الماضي بخفقة جناح تسقط طيراً في حلقة الجريح . . . أين أنا أيضاً ، في هذه اللحظة مما بعد نفسي بالكلمات ، بغبار الكلمات ، مجبول ، مثقوب ، مطعون . . . أعصار الرمل . . . لهات الرمل على فمي وفي عيني سيبله . . . أين أنا ، أمازلت أنا ، في ساعة الرمل هذه حيث تموت الكلمات ؟ وقيس لم يعد حتى المأ ، أو لا شعوراً ، لا رد فعل ، ولا انعكاساً ، لا شيء سوى فريسة الرمل الجاهلة ، لا ، حتى ، حتى ولا هذا ، حتى ولا ذلك الذي عليه قدم الحفار العارية ، تمهد الرمل تثقل ، تدوس ، لحظة وتلح ، حتى تنسد النافذة على العدم ، فتدرس تماماً مع الأرض التي يمشي عليها الأحياء ، وهكذا أخيراً تلع القبر ، كندبة ، على الجرح الانساني ، وتنزل الحجر . . .

لكن أهدأ لن يكتب على الشاهدة ، تحت الأشجار العظيمة ، حيث تجيء فتضل بعد حين الأرامل ويلعب الأطفال ، الحروف التي رجا أن تحفر ، في الساعة الأخيرة ، ولم يعرف العلماء ، من أية سورة أخذت هذه العبارة المنتزعة المشوهة ، فوضعوا مكانها آية قرآنية . . . لن يكتبوا الكلمات الخفية لأخر شفة له . . .

. . . سوف يشيخان معاً . . .

وماذا بهم ما دام كل شيء يتبعثر غداً ، ويدنس ، الظل والقبر ، وتجيء أزواج من الزنادقة فتجلس ، وعشاق عابرون ، والزنا والفساد ، يتكلمان لغة غريبة ، هنا ظلمة شعب آخر القبر عنده ذراعاً مصلوب مفتوحتان ، يأتي فيعائق ، ويفازل ، ويقيس الكلمات العاطلة عن الرغبة ، فلا يدري معنى الحروف الكاذبة على الحجر ، ولا أنه كان مطرباً ، ولا أنه ردد بصوته ليلة كاملة ، عمّن ، عن أي حب ، ربما عن شعب بكامله ، كسخرية قدر ، لحن وصية خابت ، طموح الانسان الوحيد ، أمنية قلبه العظيمة في غرابتها .

سوف يشيخان معاً .

يا كذبة ارجلوا لا تميز بين اللعب والحياة
يا شريكة في جريمة بريئة وسط ضحكك ثم جد
لم يعطوك حق الدخول إلى المشهد ولما رأت السا الكاذبة
الأدور لها في عالم الكبار الشرير
قعدت في زينتها والمساحيق تسيل على وجنتيها
هيا اطلبوا من الأطفال أن يرتضوا بالخذلان والمسبة
وبكت أنها في الأبد الخالد ورقة لا يلعب بها أحد
هأنذا رأس أصفر وخضب ما حول عيني بلون بنفسجي
سوف يشيرون إلي بالأصابع كيف أنجو من الأولاد
أين تريدون أن أختفي أين تريدون أن أفر
أعرفهم أعرفهم جيدا أعرفهم أكثر مما ينبغي

وعدا الأشرار وراءها يصيحون بأساء الأعضاء
وتعثر قدمها الصغيرتان العاريتان على دروب بلا غد
ويعلق ثوبها العليق كأغنية غجرية
وخافت الأطفال حين التقطوا حصا
حتى إذا رموها بها آه يا للظبية المسكينة المسكينة
خفق قلبها في قوة لا تدرك معها
يمينا أم يسارا أم هو الجبل يغمشها
أين السماء والوادي أين الحقول والسبيل والتلعة
ولما جرحتها الحجارة لما دمها الذي بلون الفريز
سال على كتفها الرقيقة آه ماذا ماذا ماذا
فعلنا وطارت سبابة صائحة وفي السماء العنيفة المرائية
كان الظلم قاسياً على طفلة سقطت على ركبتيها الاثنتين

يبدو لكم غريباً أنني أقص عليكم هذه القصة الخارجة عن الموضوع أوليس سبب ذلك أنني
رأيت فيما بعد في شمس شعب ما تجمّر إلى الساحات العامة عبر الصباح بنات مجهولات احترفن
رفقة الجنود وقد حلقت في فظاظة رؤوسهن^(١)

انتهمز الحديث عن السا الكاذبة أن السحر جريمة خيالية خيالي أيضاً أن نتحلل حق اهانة
امرأة في جسدها أو رجل في روحه .

وأن الظلمات ما زالت بعضاً فوق بعض والبشر يستطيعون مجابهة الخطأ والجهل بشمس
العقل العنيدة لأنهم قادرون على أن يخطؤوا عبر الليل الانساني خط الخير والشر المجردة

(١) يشير إلى اللاتي عاشرن الجنود الألمان ابان احتلالهم لفرنسا في الحرب العالمية الثانية .

ولتضربني ذراع العدل ان لم أقله وليس مهما أن أكون الآن وراء الحياة حيث العذاب لا
يوجع مثل القبول

وينغلق القوس مع الماء وقد خيم على الأرض وابتعد من هنا النحيب

٢٤

أي كائن أنا ومن أين الصورة

أي انسان أنا أم انعكاسها من أنا الذي ينظر واقفاً في رحاب الأزمنة أم الآخر
الذي يحلم فيما وراء - المرأة

أنا الذي يقلب نفسه يبحث عنها في الماضي أنا الذي يمشي إلى المستقبل
يتقدمه بجنونه

أنا فيما كان أم فيما سيكون
أنا المجنون أم من اخترعه
ماذا أتكتفي بجواب وحيد
بحياة واحدة وأنت لم تكن
غير عابر على درب وحيدة

لقد اكتشفت في صبر المستقبل في شغفٍ اكتشفت المستقبل الذي لا تمسه إلا
من أجل أن تفر من ذاتك الذي يعاود بدءه في كل لحظة من ذاته
ولا أقول انه خيبة خالدة انه

من خيبة ظنك يولد الأفق على كل خطوة
لقد اخترعت المستقبل على صورة أفضل ما في ذاتي فهل أظنني الله
لقد أبدعت في صبر انسان المستقبل مختلفاً عن هؤلاء الأناسي
جيبلاً طيب الروح أعني حتى ليركع كل الماضي أمامه على ركبتيه

مع ذلك لا أستطيع لا يقدر أحد أن يتنبأ أن على قيد خطوتين من هذه المسيرة
التي يرتفع بها السلم اليوم

يتبدل كل شيء سريعاً بما يبعث على الدوار فحاضر معطياتي
هو انطلاق خطوي الصغير ما يفتأ أن يغدو تافهاً من - الماضي
من - الماضي ألا تفهم المعطى لهذه الكلمة من - الماضي تعني

خرج من الماضي بات في الماضي وبه تمضي بعد ذاتك
 ومن أجل أن يكون لهذا المستقبل الخيالي الذي أعطيت نفسي العمق والرؤيا
 من أجل ألا يكون تجربة قصيرة نظرة كائن انساني يتنبأ عن الربيع في الشتاء
 عدت في الزمان إلى ما قبل حياتي
 رجعت أربعة قرون قبل ميلادي
 وبحث في غرناطة الضائعة في قرن السا عن قانون التقدم والميكانيزما
 التي يتجاوز فيها الانسان الانسان وكل جيل
 قضيب أعلى من السلم
 أعدت اختراع الماضي كي نتجاوز هذا الحاضر الذي يحول سريعاً ينصرم سريعاً
 أعدت اختراع الماضي كي نرى جمال المستقبل
 حتى إذا دارت المرآة نحوي رأيت وجهي
 وقد خدّته الرياح والسنون
 وقد لطحته فأبلته قرون عديدة
 يا مزقا في علم
 فيها كل ارزاء الانسانية على الأرض
 والتاريخ مكتوب في تجاعيد جلدي
 كشيء يتذكر في كل شيء خشبته ورحيله
 كسفينة عجوز تتأوه من كل دفات الماضي
 والعواصف والفصول والحروب والمحيطات والأمراض
 لكنك إذا لفت الشريط معكوساً وجدتك قلت نشيد طيور لا وجود لها
 حتى إذا دارت المرآة إلى رأيت بشاعة وجهي
 ها قد أذنت الساعة التي فيها رفاق الرحلة واحد بعد الآخر
 يتوقفون فجأة أحدهم في سرير ليس سريره والآخر على الدرج أولم يكن بكل معنى
 الكلمة درجا فالأخبار تنتقل سريعاً
 لكنه المدخل بل ولا حتى العتبة الكرسي حدّ الباب وقف كي يأتي بالصحف ثم
 وفجأة
 الصمت صمت يمتد فيغدو الصمت
 الشفة شاحبة بالكلمة والعين يغمرها غياب
 لماذا هذا اليوم لماذا هذه اللحظة غدت فجأة لديهم الأخيرة
 ما هذا الضنى الطارئ ما هذا الرفض
 لم يريدوا لم يستطيعوا أن يسروا أبعد قالوا وبعُد

بَعْدِهِمْ يَبْدَأُ الْمُسْتَقْبَلُ
هل أقعد أنا أيضاً مثلهم فجأة وأنا أرى أمامي اللانهاية والامتداد
وقد يئست من طول الجهد كي نتقدم قليلا
مع هذا اعطيني يدك كي نذهب معا
معا ألا تريدان حتى المنعطف ربما بعده
يتغير المنظر ويكفينا أن نراه تغير
حتى ولو كان البحر دائما البحر أو حتى إذا لم نخرج من الغابة
الطريق قاسية وتتوقفين أنت
تقولين لو أنها لا تصعد لكانت تكون أسهل لكنها هي ذي
تصعد يا غرامي تصعد فلنجرب
أن نصعد معها قليلا مهما كان قليلا كي نجدنا سوف نجدنا دائما أقرب إلى النجوم
من يعرف ما هناك غير بعيد تلك الثنية في الأرض انها سوف
تكون هذه المرة القمة حياتي كلها
رغبت في هذه الدقيقة رغبت في طفولة هذه الدقيقة
هي ذي هنا أخيراً القمة
الآن ما يعنيني ذلك الطريق الذي ينزل ورائها
لأنني رأيتة سهلا ينزل على مد النظر
آه سهل انه على الآخرين من دون
سهل وليستغنوا الآن عني

دائماً اعتقدت أن من واجبي الوصول إلى القمة
كأنني حملت معي الانسانية كلها كاملة
كأنني كنت أقودها معي إلى هذه الشرفة على الغد
كأنني إذ أقودها إلى هنا أنتهي من مهمتي
آه أي طفل أي طفل نحن
أي طفل مسكين صغير في جمهور يلعب بخرق ملونة

كلما وجدت قمة فلنصل إليها فإذا وصلتها أنت الذي كنت تضحك
من الذين أضاعوا حياتهم في تسلق جبل
من كل العناء الذي تحمّلوا من كل ما يعتبرونه عندهم هيمالايا
والهوة التي يسقط فيها الرجل من الجبال فلا يسمونها باسمه

فإذا وصلت تلك القمة المستهدفة بين المستقبل والماضي
فإنك في مكان الوقوف بلا رحيل ويستمر هنا الجمهور كله
وليصعد الطريق ليصعد أو فليهبط
فالجمهور بات فيما بعدك بعيداً ضجته لا تسمعها أذنك

الجمهور النسيان الذي ندعوه الانسانية
مع ذلك هنا القمة هنا على الأقل قمة نفسي واسخروا مني لكنني بلغتها
لقد تدرجت حتى الآن تحت أقدام الجمهور
ولقد تركني وذهب أنا الذي لن أتقدم بعد
وأنا ما انتظرت سوى ذلك

وإذا كنت المجنون إذا كنت ما حلم به
أو كانت الآية معكوسة وأنا الذي به حلمت
فما أهتم بذاك إلا أقل من عبير الظل
وهذا الإسم في قلبي بلا أذن ولا عينين

خاتمة
[١٤٩٠_١٤٩٢]

أغاني القرن العشرين

هنا تقف في هذه القصة وتمحي غرناطة فما أنا إلا أنا هنا في النهاية أقيم قوتي أو
ضعفي على الأقل والانسان المحدود هنا في النهاية أقبل لكل شيء في حده واليوم
الذي ينتهي ويسقط الحجر على قدمي المتعبتين بل ربما لم يكن الأمر في النهاية تعباً
فحسب يسقط أبعد بلا فائدة حملناه أبعد قليلاً قليلاً

أمزق أسامي أدوس ما نثرت آه أقلب أقلب صفحة ما كنت وأفتح راديو العالم
الذي فيه الآخرون

وبلى الزمن الذي تحول فيه الحكاية حكمة فما من حكاية ولا حاجة بنا لاستعارة
يأخذها عنا العالم لا وجود إلا للتراجيديا الخالدة

ولا فرق في أن يكون نهار أو ليل اسبانيا أم أمريكا لا وجود
إلا للتراجيديا الخالدة

أنت قاعد في بيت في المدينة تكتب كلمات على مثالك تجمجم بجملته تأخذك
حيث لا تعلم

أنت تناضل ضد الزمان وراء طاولة وتظن أحياناً أنك تقلبه تعبته تتجاوزه
تصور على الورق أفلاكاً من اشارات تدل بها مسافراً لا يأتي أو يمر من دون أن
يراك ويزيد فيستعمل روحك كسيكارة

تظن أنك تكتم سرّاً رائداً تظن أنك وجدت الحجر الفلسفي وما من أجل
الذهب بل من أجل

الانسان وتنهض كصيحة وأنت تزرع الغرفة تجار بصوتك في الغرفة الفارغة
تروح فيها وتغدو بين ألفاظ تقذفها عبثاً شفتك على الجدار في ديكور حياتك

تتوقف في حركة وتضحك من نفسك بلا مرآة وما تنتهي من ضحكك حتى
يعاودك الأمر كحلمي يا دمية يا دمية ذاتك

مع ذلك تصطك كل عظامك أيها القرن العشرون هنا وفي كل مكان الطاعون
ما كاد يبدل اسمه والموت قميصه وعلى غير ما انتظار أرسلوا الكلاب وراء الفارّ وفي
الشارع اضطراب ثقبوا الظل نفسه ما تركوا مكاناً لضلال خطاك وهم يطلبون منك
على طرف كل حقل حساباً عن أحلامك

أنت كأم كثير ابناؤها فلا بد من أن يموت أحدهم في مكان ما
منحت نفسك ستة شهور كي تبدع الأغاني فإذا هي الحرب فجأة في مكان ما
كشراع صوار سقط أو ثورة أو جوع أو شعب يتحطم
وأنت لم تفقد في هذه المدة غير حياتك

*

لا مطر سكتت الريح الليل عميق
امتلاً كقلب بصيحات عظيمة اختنقت
كل ما لا نقول يرتمي على العالم
رماد أيامنا الطويلة يا كلمات شطبناها
إنها الساعة التي باتت نظراتي لا تخدع فيها روعي
لا شيء يضلني لا النور ولا الضجيج
علم فطيع في يحترق بلا هب
وأرقب العالم الذي يتهدم في ذاتي
ويمر الزمن في أسفي يده على وجهي
وأنا أستعجل أكثر منه مائة مرة
فليمض وليمح الذاكرة والعمر
والحب الطائش يبدو كلباً مجروحاً
لحظة على السطوح يرقل قطار عربات
يجب أن نؤمن أن الساء تستمر في الخارج
إنه يقترب ويزيد ينقص ويتوقف
والطائرة تذهب بعد أن جاءت
تلك هي حياتي يجب أن أدرك حدها
أن أهدى في فؤادي هذا الطائر الذي يقفز
أما أنت التي تنامين أما أنت يا حلمي ويا لازوردي
أنت أغنيتي وخوفي أنت زمني المستحيل

كنت دائماً ماء نقياً على حمّاي
يا جنوني العزيز يا حكمتي وخرّي
أنت دمي مثله كنت تفرين على جرح
فأشربه دائماً كي يعود إليّ
أصفي إلى غيابك قريباً مني يتنفس
قولي أي شاطيء تسكنين لست فيه
أية زهور تقطفين لا أعرفها
في أي مكان تجلسين مساء فلا أجلس فيه
ها أنت ها أنت من دوني قريباً مني تتراحين
في هذه المدرسة هنا ما الذي يحل
آه ما أصعب أن نتعود هذه الأشياء
اعها تشبه إلى حد بعيد ما هو قادم إلينا

*

لعل الله يجنبنا أن نعيش مائة عام
في ضجيج الأبيات والنثر
فلماذا مدّ لي الموت فسحة من زمان
لن يتبدل شيء أبدا
يعود الفيروز والوردة مائة مرة
مائة مرة أحبك وأنتظرك
مائة مرة أسهر وترتاحين

مائة مرة قواف مكرورة
مائة مرة الليل مائة مرة النهار
مائة مرة تعود القبل
مائة ألف مرة ومرة الحب
الربيع الأخضر والرصاص الثقيل
تهب الرياح وتمر الغيوم
ويصيح اللقلق على الأبراج
الحياة أم الموت أيهما أبطأ
الحياة أم الموت أيهما أسرع
الكلمات باتت قليلا ما تتشابه

السموات أصبحت معادة
وباقة الاقحوان هذه
التي قلبها أصفر وعقدتها أبيض
هل نلعب لها لعبة نعم أم لا

هل فقدنا العقل
كل طريق ينعرج من بدئه
كل جملة في غير أوانها
وكل كلمة بلا قوة
وكما تفعل الشجرة والقشرة
والدخان بالبيت
يطلق المعنى الشفة

لا تضحكوا من الأفكار العتيقة
التي تبلى بين يدي العجوزين
انها ضرورية مثل
ملجأ قلب يدنسه كل شيء
خفيف من يديها
ويفضل عليها عطراً آخر
تفضيل التويست على البافان

بحثت لك وجدت
لكم ولي معاً
سر الحياة والحلم
لكم ولي المسألة
لا تحل إلا بالقصيد
احتقروني ان عرفتم
صيغة أخرى لقول أحبك

عندما تكون لكم أذرعة من نايلون
وعيون من رادار ودم من ذرة

يغدو الحب عندكم أسمر أو أشقر
والقبل لذعا أو بلسا
ويصير لكل قلب متروموم
لكل شيء قلب مقياس
وتصغون إلى أشباحنا

*

كنّا اثنين لم نكن غير واحد وعلى الأقل على الأقل
استطعت أن أؤمن بذلك
نحن أقول نحن في دواري وقريباً أم بعيداً
أكون عشت أكون قضيت أياماً بيضاً أو سوداً
على ركبتيك

نحن أقول نحن كي نكون سعيدين كنّا اثنين
لا أجر وأن أقول
كيف كيف تتصورون أننا كنا سعيدين
كانت عيوننا تلتفت فترى في الأحسن الأسوأ
مساكين أهل العشق

أما كان ينبغي لنا كما نكون سعيدين عيوناً مغلقة
ألا نسمع شيئاً
لكننا اليوم ازداد البؤس
حتى لتحترق الحياة والرياح طعمها رماد
دمنا يضحج

كل السعادة يا سعادتني كنا أخذناها
عن جهل
لكننا هل نستطيع حقاً أن ندفع ثمن الجهل
العالم حولنا ونحن جزء من عذابه
شئنا أم أبينا

أنتم تعرفون ألا حب سعيد
ذلك جاء في الأناشيد
ويلومون القائل يودون أن يشبوا

بنا نحن أنما وجدت في العاصفة
جنة

تحت الغيمة آه هل تظنون أن السماء زرقاء
على هواكم
أنظموا اذن أبياتاً عن جمال الشمس ابان المطر
كما يتكرر الناس في خميس نصف الصوم
إذا طاب لكم

أيها الأبناء أيها الأبناء ما دمنا نموت ما دمنا نتأوه
ما دمنا نبكي
ما أفعل بقلبي الآخر الذي وضعوه
كمرآة مرة خلل العذاب
فانفلق

*

أسمي الحاضر حضورك
بين العلم والذاكرة
فيه الليل والنهار يتعادلان
يكتفيان بالنوم والنظر

أنا لا أذكر إلا الغياب
لا ماضي لي إلا اليأس
كل ما كان أستعيده
بدءاً منك وأنت المرأة

أتخيل على مثالك
مستقبلاً أعرفك فيه
أنا لا حلم لي إلا بالأمل
أنا لا أحب غير ايماني بغد

الحب فيه لا يكون جنوناً
بل يكون زادنا

ضد الموت ونشيد
عشاق استوحوه من مسائنا

مذكرات مني

ما عندي عن الآتي بألوان فاقعة غير رؤيا غامضة
الحف في تحيِّله أريده أجمل وأنقى أو كيف أعيش سحقا لحلمي ان لم يكنه
وليمح معي

المستقبل هو نحن وقد تجاوزنا أيام كغسيل نظيف

.....

ولئن رأى فينا من سلف مستقبلهم
هل تظنون أنهم كانوا يحبون ما جعلنا غير ما كانوا

.....

ونسمي تقدماً هذا التغير الذي يحيل أحلامنا بلا جدوى

.....

ما أمامنا يشبه البحر أو هل أجده أقل جمالا ان كان فيه غرقي
أنا أعمى عما لا أستطيع تصوره إلا بدءاً مني أطرش عن الجملة التي لست
سوى نغمتها

وكيف أستطيع الرضى حين يغسلني الزمان فلا يبقى مني غير طعم من ملح
يضيفه البحر إلى الغرقى

.....

استيقظت على عادتي دائماً مع الفجر فجرحت في روعة الشمس الطالعة
رؤيتي وما ثمة شيء يبدع مني نشيداً لأن الصمت كان يغني من دوني وينكسر ما
أكتب بين أصابعي كصدف

ويختمر الحلم المهصور في دفترتي
هنالك صباحات كهذا لا معنى فيها ولا نظام
لحظات عجيبة ضائعة

.....

جئت مع ذلك كي أقول أزرق على أبيض ذلك الذي يجعل عيني لامعتين دائماً
في الظل وأدور في فكري حتى ما أستطيع أن أطيق دناري

جئت حافي القدمين أشعث من دون أن أمرّ بالماء فيهدب وجهي
جئت خائفاً من أن أنسى تسلسل ذاتي
والبناء الهش في كآبيات نظمها سجين لا يذكر شيئاً غير الكتابة
يتعلق بمعجزة التناغم واصطدام الكلمات ككريستال تسحره تفاهته
المستقبل والذاكرة كأن هذين الاثنين لم يتزاوجا أبداً
يا فخذني البارحة والغد في ضعف تعانقا

.....

انمي أنحرف يجب أن نرسم عن الطبيعة وعنهما فحسب لكن هذا
علي مستحيل

.....

أمامي الصباح ودهشة الطيور هذا ليس جداً في عمري

.....

كل ما تعلمت من الحياة أنسيه نفسي على مدّ النظر أو ما كان يجب أن أبقى في
الظل مع كل الذين ما زالوا نائمين لكنني فجأة وجدنتي غير مستطيع وأنني أختنق من
جمودي ومن أن أكرر إلى ما لا نهاية ما فكرت به حتى لا أضيعه فجربت كقفازين
مجموعة كلمات اثر أخرى كان يجب أن أفاجأ قبل أن أتحرك ما يتحرك في هو كراس
على مخذة ما يفرمني هو عظاية ذاتي يا تشايه بلا جدوى

.....

لما انته من دهشتي إلى ما لا نهاية بالصمت لا صمت أخشاه وفي ما يمك بي
مستيقظاً فالصمت في نهاية الأمر هو هذه الضجة الغالبة في ضجة ما يفكر ويدمدم
أعلى من أي شيء

بيتوا لي ليم أعود إلى أول السطر بدلا من أن تسألوني الحساب عن الفواصل
فجأة أغضب من صغار ما يهتم به الآخرون
أغضب حتى أحمر وأربد أو أتخيل على الأقل لأن
المرأة ورائتي
تلعب فيما لا أعلم من سخر دون أن تقول

.....

بعد هزيمة أحد ، تحصّن محمد في المدينة ، وأحاطها بخندق . وكان ألم لم يستعد له المحاصرون ، لأنها جرت العادة في ذلك الزمن أن يخرج الناس مساء من المدينة ، لقضاء حاجتهم في الصحراء ، فما كانت لديهم لذلك الوسائل . كان الخندق من وجهة نظر الحرب تقدماً ، لكنه ككل تقدم ، نجم عنه شر لم يتنبأوا به ، لأن المرء لا يستطيع أن يفكر بكل شيء .

لما جاء الملكان الكاثوليكيان أمام غرناطة فضيحا عليها ، كانت الشقة بعيدة عن الذي حاق بالمدينة فما يفكر بها أحد ، رغم أهوال الحصار ، مع أنها اخترعت مبدأ مجارير القاذورات . ولو كان الغرناطيون على شيء من العدل ، أما كان يجب عليهم أنئذ ، أي عبر الجوع والطاعون والموت ينزل بهم ، أن يعترفوا بالتقدم الذي حصل بعد عهد النبي ؟

إذا التفت إلى وراء ، أكبرت تفاصيل الحياة القديمة وما جرى فيها من تغيرات عظيمة . لم يعد محتوماً علينا أن نبرد شتاء ، ولأن لا يجد تلك الانسانية أكله ، هو تحسن هائل في الشرط الانساني . التفت بعيني إلى الماضي فأؤمن بالأفضل .

لو أنني ، لا أتخيل المستقبل ، بل أراه ، وأحكم على ما هو أمام ، لا ما هو وراء . . . ما كان ينكرني المجنون ؟ أما كان وجهي الآخر المسكين يسكر من الطيارات والكهرباء ؟ أطلقوه في باريس ، في قرن الساهذا ، فيظن أنه في الجحيم . ما هو تقدم عندي ، هو عنده شهادة . ان انسان الماضي ، حتى ولو كان من الطليعة ، كما نسميه في كلامنا العسكري ، كَوْن من أجل عالم ، مخلوق له جسده وكذلك أحلامه . تقدمنا هو رعبه . ولا أدري ما كان يفكر محمد في المجارير .

مع ذلك هذا هو التقدم

ألا يعلم الذي ينحو عليّ باللائمة أنني التفت بنظري إلى الماضي ماذا يقول ويفعل . إذا أردتم أن أدرك الآتي ، لا فطاعة الآتي فحسب ، دعوني ألقي نظرة على ما كان . ذلك هو الشرط الأول لبعض التناؤل . ربما كان هذا أفضل من اليوتوبيا ، فهي نبع خيبة البشر ، نوع من العلم - الوهم نفضله ولا شك على الرواية التاريخية ، هذا إذا كنا ولو إلى حدّ ضئيل من بشر العمل .

.....

شيء واحد عبر الزمان كبير أبيض شيء واحد وتستطيع الريح أن تدور وتضل السفينة

شيء واحد عبر الزمان شيء واحد من عذوبة ماء واحدة شفاقة دائماً
وتمضي القوانين وتمضي طرق الاعدام والصورة التي يصنع عليها الحذاء
وما كان أكثر قيمة من الحياة تحت أنوار مختلفة
الآلهة الجالسة في الأعالي والملوك يهيمنون على الأقدار
فلا كلمة تغنى كانت تنتزع الدمع من الحجر
شيء للسكر لا يغرف إلا من سم ابرة
شيء واحد يبقى في بيت من ألف طابق

شيء واحد عفيف ورقيق يسقط كل سبب عابر
 شيء واحد على قد ما يتغير دائماً شيء واحد ينهبونه عبثاً
 وتزدهر هذه الأرض ثانية بعد الحريق
 شيء واحد الحب ولكم أن تصفوه
 إذا احتفظت الكلمات برسم الشفة والصرخة تخرج من الأحشاء
 شيء واحد منه لغتي فيما وراء الذاكرة والاختراع
 شيء واحد عظيم عند الجميع ودواره
 شيء واحد الحب وتنقلب العيون
 ابنوا أبراجاً تجدوا على أعلاها
 تهدة قائمة وذاك الانتظار وفي الضياء أو الليل
 اثقبوا القارات من أجل يدين تبثان بعضاً عن بعض
 امنحوا فرصة « بال » مقنع مجنون للذين يفر بعضهم من بعض
 حوكلوا حولوا الفصول من أجل فصل حبي
 في فصل حبي صنعوا الشارات على الطرق
 لن يكون نهر إلا لظمئك ولا كرزة صغيرة
 إلا وهي صورة فمك تروح تتحدث عن القبلة

شيء واحد فوق القياس على قد الانسان
 شيء واحد على قد الحياة والموت
 لا الفقير لا الغني ولا الحكيم أو المجنون
 شيء واحد يصنع من كل شيء رقصة
 شيء واحد كامل وما هو إلا اندهاش

هوذا أت زمن المستحيل
 يا ولادة جديدة
 ها قد قهرت ثورات الانسان الأرض والشمس
 وأنت تأخذين الأفلاك من قفاها
 قريباً سوف تصنعين لنفسك ربطة عنق من المجرة
 لكن أتستطيعين ذات يوم عبور السهل العظيم
 فتقطعين الدرب بلا درب ثم تبدئين دائماً من جديد

وتعرفين السرّ من دون مفتاح حبّك
يا حبي لقد خلقت لتلك السماء التي لا تكفيها الحياة

.....
ما يقولون ما يقولون الخلود
ليس كافياً ليس كافياً كي أنسى
وأنا ما انتقيت الجنون
إلا كي يكون سبباً كحُب يرمى للطيور

*

أجهل حقاً لماذا أستمّر
على طريق اللأين تأتي ثم نرحل
فلماذا اذن من هناك جئنا

غموت كما نحيا أي فضل في هذا
نحيا كما غموت نبذل المأوى
أولا نبذله أو عاجلاً
غموت كما غموت والرهان صفر

أخائف أنا من الموت أو أنني أحسب الأمر
أم جبن أمام حركة لا مرد لها
اعتقدت دائماً أنني ذات يوم أصفق الباب
كنت أراني معاً السهم والهدف

أنا لست سجين الآخرين

لست أيضاً سجين نفسي

قد ظننت طويلاً أنني أبدل إلى ذهب
ما المس بجناح أو كلمة
قد ظننت طويلاً أن لي القوة
أن عندي الكحول أنني أنا اللهب
أحياناً أحياناً ما زلت أظن

أخيراً رأيتُ في غفلةٍ منّي
يديك تسرقان من تحت عينيك الدموع
وأنا ما حيلتي بالدموع إذا همت
ماذا تفكر السيوف بقطرات الدم

ذات يوم أرحل والسبب جهشة منك
ذات يوم كالأيام الأخرى أنهض عن المائدة
ذات يوم من أجل جهشة سوف يبدو لي كل شيء
لا يطاق

لن يفهم أحد أنني كنت أكاد أقضي بقطرة ماء
بشعرة كانت كافية كلمة أريد
بجملة لم تكتمل آه مثلها بكلمة لم أفه بها
أنا أفهم الذي

هل تسمعين
عينك إلى لحظة غريبتان
وأنا لا أقدر على شيء حتى
أن أقسم هذا القلب أن أقسم

يتوقف الزمان من طول ما فكرنا به
تثقل الكلمات من طول ما خفت
قليل علي إذا قلت أحبك

كنسيج ممزق
نعيش معاً منفصلين
بين ذراعي أضمك غائبة
وجرح ديومتنا
هل قضي أن نحس به هكذا عميقاً
لما السماء على قدنا

قليل علي إذا قلت أحبك

هذا الوجود وداع
ونحن كلانا ما لنا عين
إلا على النور ينخفض
نتهياً للرحيل
ثم نقول لم العجلة
هذا هو معنى الشيخوخة

قليل علي إذا قلت أحبك

كأني أبدا أبدا
ما قلت أني أحبتك
كأني كنت خائفاً أن يفاجئني
الليل وتحط على عنقي
أصابه في قفازي ملكة
وأغدو إلى أبدي بلا أيار

قليل علي إذا قلت أحبك

عندما لا يبقى من الأشياء
غير ذكرى رعشتها
وصدى موسيقات ميتة
فيظل ألم الصوت
كلما انطفأ غدا أقوى
تلك كلمات قليلة على الأغنية

قليل علي أني قلت أحبك
وما كنت لأقول إلا أحبك

*

الآن يمضي كل شيء وكأني
فقدت حقي في أن أتألم علناً

لا حاجة للقوافي إذا لم تجد الأبيات آذانا تسمع
لا حاجة للمقاييس إذا لم يكن هنالك من نقيس
وأنا أبداً من أول سطر ذاتي مدفوعاً بسخر الصمت
أنا اخترت أن أبداً
في أول خط ذاتي كسمكة تعضّ
وينكسر الخيط وتفرّ الفكرة

الآن لا أستطيع حتى أن أريك نجمة البحر تلك
التي تتكون على قدمي في ناحية ما على الشاطئ
الداخلي حيث أضيع
لن تصغي إلى روحي حدك مثل
ماء يتقطر
على طرف الحياة ترقى بيننا ما لا أعلم أية ضبابية
يا الخفّ الصبيحة

الآن تخشى كل كلمة أن تحكمي عليها
ألا تعجبك ويفوت أوان تصحيحها
أو أن تجرحك
وما الجرح شيء إذا كان أمامنا الوجود
ونستطيع أن نشفي الوجع الذي صنعناه
لا ضير إذا غنينا خطأ بشفتين نديتين
لا ضير إذا رمينا في النار ما نستطيع أن نبدأه من جديد

الآن سأحتفظ لنفسي بأفلاكي السوداء
لن أفتح لك جحيمي وحيداً سوف أحترق فيه
تلك أول أسرار عندي منك على هذه الأرض
شيء ما كأنه عكس البوح
سوف أرود دونك هذه الغرف المغلقة
وعينا مفتوحتان على نوم آخر

أنتظر ذات مرة لا يكون فيها للفجر حد

الآن سوف أتعلم الصمت
ومن يعلمنيه خيراً منك فيك أموت كضجة البحر
أنت سبب فكري وتممتي
أن أكون جملة من دونك عبث
أنت من دونك مالي سوى مرآة وجودي
أنت يوم حسابي

أنا الآن في مدرسة ما سوف يأتي
أتعود الهول فأغدو لأيا لأيا لا أحسبه
يجب أن نتعلم هذا كل على حدة لأننا يكمن هنا
هدف هذا التعليم القاسي الذي لا يمكن أن نقسمه كخبز
حتى إلى قسمين
أين أتدرب على ألا أكون أفضل مما في هذا القصيد الذي ينكرني
أحس كل يوم قليلاً ظلي وأثري فلا تبقى
ورائي ضجة النزاع الوقحة

الآن أبعد عنك ما لم يوجد إلا لك
ما يعبّ منك ماهيتي ونشيدتي
سوف أخبتك أنت في عمقي أنا سوف استلّك بعد الآن من اللغة سوف
أخنتك في فمي وتصيرين هناك خافقة على شفتي
مثل عذاب من رفض قبلة سوف تكونين
أرقي
لسوف أحشى أكثر من كل شيء أن أتحرك حدك فأوظك
يا غرامي يا امرأتي يا كلمتي الوحيدة

الآن أتدرب على هذا الليل الذي نحن

مذكرات من لا أعلم من

لما اضطر المجنون ، في أعالي ماليجرانا ، إلى الرجوع عن الشعوذة التي تأتي بعون الفجر إلى
عين مغارتهم المظلمة بتجسيد حبه ، في ليلة من ليالي فالنسية في القرن العشرين ، فيه مفارق

الطرق من زمرد ريجاني ، والبيوت اكواريوم في تلاعب أضواء الانذار . . . أنتذ كان الناس يظنون أنهم يكتفون بهذه « السلفته » الشاحبة كي يَقْصُوا طيران الطيور التي على شكل صليب معقوف ، وربما كان ذلك ذكرى عندي من عمر العشرين لما كان ثياب الجند من أفق كي لا يراهم العدو . . . الحرس الوطني أزرق في تلك الزرقة ، والبنادق من فولاذ غرايبي ، ثم سألت الشاحنة القادمة من الشمال عن الطريق .

هكذا أقصيت حوالي مدريد السا في رحب السماء الأرضية عن طريق الأندلس ، فلم تصل أبداً إلى غرناطة المستعدة ، وفيها كانت تبكي في أسال حيلتها طفلة ، شوهت الحجارة تنكرها ، بعد أن لاحقتها وهي دامية عصبه من الأوغاد . . . وعلى هذا لبست فيما بعد السواد ، وعاشت كضار في مملكة القطط ، وهي التي جعلت نفسها في مدة لا تزيد عن زمن لعبة الحجلة^(١) السا الخيالية .

يا لاختلاط ، وبؤس وروعة الزمن المزدوج !

وعاد فاتخذ النجدي مكاناً له في الكهف ، كفلكي أعمى وسط آلات لا يعرف أحد كيف يستخدمها بعده . كان يحنق في هذه الديمومة ، غير قادر على أن يجد في هذا السجن قضباناً نشرت بمنشار ، أو حبلأذا عقد أو سرايب تؤدي إلى المستقبل أو الماضي ، كان لا يستطيع موتاً أو حياة ، لا يدع من نشوته الداخلية عبير زهرة تنبجس فجأة ، أو موسيقى ما تفتأ أن تحتق . وخطكيا في اليوم الذي تذكر فيه الكتابة ، حروفاً من لغات مجهولة ، وزين برموز السا الغامضة وحدته في مكان أسود ، ثم نقش في الحجر جملة من حروف كوفية رائعة التكوين ، لم يستطع غير زيد وحده ، بعد ذلك ، إلا إذا كان توصل أخ ناتالي دونوواي ، الكسندر لابورد ، في رحلته الاسبانية ، أو اثنولوجي ما في الشاحنات النابوليونية ، إلى قراءتها على ضوء روحه لا ضوء قداحة :

يا حب أه أن

نقول أننا سعداء

يا للأناية الغربية

كل ما نعرف خلال ثلاث سنوات عن الشعلة التي فيه تمزقه فلا تخرج لولا الكلام منه عبر الأنف أو الأذن . كان يعيش في حلم مقلوب ، كإثدة لا يرفع عنها الطعام أبداً .

في الخارج كانت الفصول تمر في ثياب زانبات . وعادات جديدة تتكون في الأندلس ، يطول بنا المقام لو شئنا لها رواية . موسيقيون جوالون يمزجون بأغاني التمزق موسيقات من طرف العالم . والأسطورة تثبت بين المرمر المخلع ، فيفر عشبها المجنون من على الجدران وأنسطوح . . . وفي انقلاب عجيب غدا الايمان الملعون بامرأة من لحم ودم ، في عيون المسلمين ، لا وثنية في ساعة المسح تلك ، بل مقاومة ، بل رفضاً للكنيسة - الملكة ، يحمل في عطره الاسلام ، وبضاعة مهربة من عهد العرب . وهكذا أخذت أغنية كتبت عن عيون السا معناها .

(١) لعبة الحجلة : من ألعاب الأطفال : تتمثل في القفز على رجل واحدة يدفعون بها حجراً لادخاله ضمن أقسام مستقيم مرسوم على الأرض .

وانتشرت أغاني هذه المرأة ، وما حفظ عن ابن عامر في الروايات التي خطها زيد ، وتعاضمت حلقة الأبيات العربية تنسخ دون ونى ، بعض صحيح وبعض منتحل ، يسمعها الناس في بساطة ، حتى لقد تأخرت السلطات الكاثوليكية ، وأرسل الكاردينال دومندوزا من يبحث عن مطرب الطرقات الذي يبدو أنه اختفى أيام الغزو ، وصاحبه زيد ، الكاتب ، وقد نذّباً عن وجوده في ظاهر غرناطة ، إذ تعرف عليه مسلمون مرتدون ، من المستعجلين في إثبات اخلاصهم للمغالبيين .

مع ذلك ، ظلّاً زمناً طويلاً لم يكتشف أحد منها ، حتى حين جاء فرسان من السانت - هيرمانداد يوماً إلى أطراف منازل العجر فقبضوا على ربي ابراهيم بن ميمون ، وقد وشى به فلاحون ، ضعف لهم فعالجهم . في تلك الحقبة ترك المجنون في هذيانه دون رقابة طيب ، حتى أن تلك البنت المشوهة التي اخترعوها كي تكون السا الكاذبة جاءت في ذلة فطلبت من زيد أن يقبل في أن تعتي بأستاذه . ومنذئذ باتت ترى ، حدّ فراش النجدي وهو في لا وعيه يتخبط بين أشباحه ، السا الكاذبة بلا وجه ، متربعة ، تشتغل صابرة في نسيج أو بساط ، وتسهر على العجوز ، فتقوم بما ينفر من حاجات ، وتجهد ما وسعها الجهد أن تتجنب ، حين يأخذ به الهياج ، ما كان يجب ، ويحدث ، من ربطه على سرير العشب الذي ينام عليه ، كما كانت تتفادى الهول فتمزج العشب خفية برقيق النعناع .

.....

وانقضى شتاءان على هذه الحال . كان زيد من جهته يحمل قيثار السا الكاذبة ، فلم تشأ هذه أن تستميدها . وفي قلبه حداد سمحا الفتى . كان يذهب إلى الأعراس فيربح مالاً من صوته : ولقد هدأ الخوف ، وفي الظاهر حمى النسيان هذا الولد الخطر الذي بحثوا عنه . ومنذا يستطيع التعرف عليه وقد صار مكتمل الرجولة في الثامنة عشرة ؟ لكنّياً في ربيع ١٤٩٤ ، لما خان يوسف بن قوما ، الحاجب ، أبا عبدالله ، ووضعه أمام واقع هو بيع أسلاكه للملوكيين الكاثوليكين ، وهي تلك التي وافقها عليها إبان التسليم ، وعمّت المرارة في المملكة القديمة ، يوم رحيله عن أندرش ، بين من بقي من العرب ، حتى بين الذين ضحكوا لما رأوا اليهود يطردون ، أما أولئك الذين اختاروا الصليب ، فقد بدأوا يخافون انقلاب الحظ عليهم . وما أن ركب السفين أبو عبدالله حتى عمّت الخشية من ثورة المسلمين ، فعمد من عمد إلى مراجعة محموعة للملفات ، فإذا بأولئك قد اختفى منهم خلق كثير ، منهم من تبعثر في الجبال ، ومنهم من اختبأ في القرى الضائعة .

في تلك الأثناء علم البولجار ، أي زعيم قبيلة العجر في الساكرومونتسي ، من بعض الكاليسيين ، الذين استأنفوا في المدينة صناعة السلاح ، في الساحة الصغيرة التي اسمها الآن السان - ميشيل ، في مكان قصر الملوك الزيريين القديم الذي تهدم وقد روي عنه أنه كان يتصل مع القصة بالسراديب : فلقد علم أحد التشيادو وهو ذو صلة مع زوجة أحد حراس السجن أن حملة تعدّ ضدّ الساكرومونتسي للقبض على المجنون ، فقد عرف سكير على مجنّبه . وعقد الرجال اجتماعاً ناقشوا فيه ان كان يجب تسليم المجنون ، وقد غدت أيامه معدودات ، فلا يسري العذاب الذي يجره وجوده على النورية . لكن المشكلة زيد ، الذي يظن أنه من دم غجري . . . واتخذ القرار

بتسييرهما ، في قافلة صغيرة ، يجرسها بعض الخيالة ، إلى البشارات ، فما زال العرب والغجر فيها أصعب منالا على المجمع المقدس .

وفي الطريق هاجم الموكب ، جماعة من العسس ، مع أنه احتال فسلك منعرجاً . وتحاشى طريق جسر الطيلات الواسعة ، ثم صعد الشنيل باتجاه نعه ، كي يجتاز الشلير من خلف ، يولد الشنيل ويسميه الاسبان الأومبريا في السيرانفادا ، وما يدعوه العرب بقولهم نوفرة جهنم . كان يجرس النجدي فارسان ، وهو محمول على نوع من الكرسي تجره بغلطان ، ومعه خادمته بشياها السوداء ، واتخذوا درب الذراكي يمروا من ناحية الشمس . في تلك الأثناء ، نصب زيد ورفاقه كميناً على مدخل الوادي ، كي يهاجموا منه العسس ، لعلمهم يؤخروهم ، على الأقل ، الزمن الكافي فيكون المجنون في مأمن . لكن الأمور سارت على غير ما يريدون : فلقد قوى القشتاليون حملتهم ، بعد أن لمسوا في الساكروموني فرار الذين تبحث عنهم ، فمزقت المدافعين اربا ، وأخذت زيدا ، بعد أن جرح جرحاً صعباً . لكن العسس لم يجرؤوا على التقدم بين صخور الجبل ، واعتبروا أن مهمتهم انتهت ، حين وضعوا يدهم على الشاب ، وهو أخطر من العجوز ، الذي يقول الناس فيه أنه فقد عقله .

وهكذا وقع زيد في أيدي التفيتش

.....

عاش المجنون حوالي سنة في ربض صغير من نواحي قاديار ، بين مسلمين يخفون أمانتهم للماضي تحت وجه المودينخاريس ، ولقد وجدوا في النجدي أثراً من العظمة الغرناطية فأسكنوه ورفيقه العجريين ، وتلك البنت القريبة من الخرس التي كانت تخدمه ، وكان أهل المنطقة يزورونه ، حين اعتقدوا أنه صوفي ، وانتظروا منه المعجزات . في كل تلك المدة لم يصلهم أي نبأ عن زيد ، فبكته السا الكاذبة في صمت ، لأن قلبها غادرها مع قيثارتها .

كانت ترى كل يوم ينحدر ذلك الذي تدعوه ، مثل زيد ، في اجلال مولانا . كانت تضرع سرّاً في فؤادها : فهي لم تدع شيئاً إلا وعملته من أجل أن تعيد القوة للمجنون ، بحثت له عن الغذاء في القرى ، مزجت الحليب الذي يجعل المرء حكماً بالخرم الذي يجعله مجنوناً ، - حسب نصيحة أخذتها عن ربي ابراهيم - لأنها لم تكن تحلم إلا بأن تفتح للمجنون باب المستقبل لعله يجد السا الحقيقية .

أولم يتخيل لها ، في بساطتها ، أن المعلم إذا لم يستطع ، كما من قبل ، زيادة الزمان ، واجتياز شلير القرون ، وامتناء صهوة ذرا المستقبل ، فإنما ذلك مردّه فحسب إلى نقص في القوة وشر الحمى . كل ما عرفت عن البسطاء وفضائلهم ، كل ما تعلمت من العجائز ، يخدمها الآن في تثبيت أمهلا في أن ترى المجنون يدعو إليه تلك الأسلا ، وما زال ضميرها يؤنبها أنها أرادت تقليدها ، أما إذا لم يتمكن فليفعل ما هو أبسط ، أن يذهب للقيها ، على حصان - الزمان .

ربما كان السحر يفعل فعله . كان ذاك اليوم صيف جميل كديك . فلقد رأت السا الكاذبة ، منذ أسبوع أو ما يناهزه ، في عين المجنون فجرا يطلع . كان النجدي يخرج من الظلمات ، كانت تشارف شفته أحياناً كلمة مفهومة ، واستطاع أن يقعد في فراشه . . . هذا البؤبؤ عم كان يبحث في

البعيد أن يدرك ؟ أكان يصعد ناحية نبع السا ، وتلك الأيام التي دارت فيها الشاحنة من فلنسية إلى مدريد ، في قلب حرب غبية ؟ أو ناحية أرض الفرنجة ، التي كانت بستانه ؟

تضرعت إليه الخادمة : « أين أنت يا مولانا ؟ »

لم يجب ، ولو أن الساهرين برزوا حواليه من كل جهة ، وقد جاءوا من كل الأزمان ، سليمان ، دانتة ، أورفه . . . وكيوخوته وتيريزة يسوع . . . جميعاً . . . جاءوا يحضرون اعدام المطرب ، وأشباههم تمتد فوق وادي فيزنار ، حيث غدا جارسياالوركا هدف القتلة كطير من حديد مدهون في ساحة البازار . . . من أجل من أنتيم هذه المرة من الآخرة يا عطاء فرسان الموت ؟ أمن أجلي أمن أجلي أنا الذي أشرفت على الموت ؟ لكنه كان يشم جماحه في عروقه . . . وتحولت نظرتة عن اسبانيا ، ومرت بصقلية والبحر . . . كسفينة تقاذفتها الريح ، ما لا أعلم أي فلك نوح جرفه الطوفان إلى القوقاز . . . أيان يذهب ؟

وأعادت الخادمة : « أين تذهب يا مولانا ؟ »

وغابت عن نظره الأندلس ، وأرض الفرنجة ، صعد الفرات نفسه ، وسورية . . . أين يذهب ؟ دار الجبال التي يمنح فيها الفلك ، فوصل إلى أرض كلها بهاء . حيزات أيا مدينة تيمور ! وهوذا أمام النعش . . . واسمع عنقه تحتق ، وأسمع إسماً يردده وكأنه غدا جهشة جامي ! جامي ! جامي !

وتمتمت الخادمة : « ما تقول يا مولانا ؟ »

والتفت النجدي أمام النعش إلى حيرات شاعر المجنون وليلي ، والحداد يرأسه الوزير السابق عند التيموريين ملوك المدينة ، المقرب - الحضرة ، وهو الشاعر ميرعل شير نيفايي . جامي ! لقد مات جامي العظيم الذي سوف ينسى المستقبل أنه كان يدعى نور الدين أبو الرحمن ، والشعب يسجد في ثيابه البيضاء ، آه لقد تحطم شيء في قلب مطرب غرناطة ، كل ما كان صدى فيه لهذا الصوت البعيد . . . ويراها أنه ما بقي له عينان إلا لاله ولا أذنان : بات لا يرى من اجتمع حوله من أولئك الذين جاءوا إلى فيديريكو ، كأنما من أجل أن يشهدوا ، في ساعة موته . نبع فكره جف . الأرض التي وضع عليها قدمه الحافية ، احترقت . صدر نفسه لا يتنفس أبدا . كيف يجد بعد الآن إلى السا طريق الأجنحة والريح وهو مدين بها إلى شعر جامي الحي ، وموسيقاه الملهمة ، ونشوته التي من نار ؟ كنتُ السهم وأنت الذراع التي تشد بالوتر ، والقوة التي تجعلني أطير عبر العاصفة إلى الحبيبة . الآن ، تراخت السهم ، الساء مظلمة ، وانغلقت أوراق الغابة . . . جامي ! جامي ! أنا ما كنت غير امتداد نشيدك !

جمالك الخفي جعلني ما أنا عليه

كان الماهية في قلب الكلمة

موسيقاك العميقة هي نبع صوتي

وما الحب ان لم يأتي من مدرستك

مرآتك كانت القلب العظيم الذي يمسك
بالنور ويضفيه ليلى على الأشياء
ووراءه يقوم ليل البشر
ما نسّميه الله ليس سوى شعرك

فهمت من كلماتك لون الفيروز
الذي يتبدّل على لمس جلد الحبيبة
قنديلك انطفأ في وغمات عندي الأشياء
خطا عذابي مثل يدين تتصالبان

أصمتي يا ينابيع وأنت يا حساسين
آه حين يغيب جامي ما أكون أنا الذي بقيت
شفتي شاحبة من صمت وعيناي تموتان
آه إذا غاب جامي ما تكون عندي الغابات

مذكرات من لا نعلم من . . . لأنه من كان شاهد الأيام الأخيرة؟ أو هو اختراع عربي بحث . . . لا يعلم
أحد . إلا إذا تخيلنا هذه الصفحات كما تتجل الكلمة . أو أنهم الساهرون ، أن أحداً منهم كان شاهداً على طريقته ؟
في صيف ١٤٩٥ ، دخل النجدي في أيام نزعه ، وما يلي هو كل ما بقي لنا من موته ، ونجهل اليد التي كتبتة ،
والأسباب التي دفعتها .

ما انتحل عن الأيام الأخيرة

١

... ولكم كان النهار جميلا عندي

أضرب جلد الطنبور بخفة أصابعي
انه مطر يقفز على الزمان والسطح
برد من حبّ قاس يسقط في هوى الصمت
والملاح فوق النار يؤرز ثم يثب
كلمة تخفى خوفاً يتردد فلا يطاق
همهمة قطعان بحر يحاصر الرصيف
خطو الشقاء ثقل الساء وكل ما يحمل الانسان
امش إلى الموت الذي ندعو حياة

يا وقع كل لحظة
اسمع الصدغ المنطفىء أطفىء القنديل تقدم إلى ما ينتظرك

من الآتي إلى يشبهني في مرآة هذا الصباح الممتقع
أضربُ على طنبور قلبي أهمّ بالهجوم على ذاتي
أنا جندي من ذلك الذي يجهلني عدو نفسي
إذا تنفست احترقت بالنار التي في نفسي وضعت
إذا تكلمت هدمتني وما أقول هو رمادي
الظلمة أمامي وهي تولد من نوري
والعدم يولد من قوتي وضياعي في دمي
أنا الدودة التي تأكلني والقبر الذي أنزل فيه وأبعد ذكرى لديّ
النهار كم كان جميلا عندي

إلى ذاك القم من تراب إلى تلك اللذعة أعدو
يا طنبوراً قائماً لا شيء لا الحب يبطنه ضربك
تنزل أخيراً كدثار ثقيل على المحبين وعلى صيحاتهم

دحرج صوتك على العبير الذي فيه القبل تتفسخ
على ركام الجثث وعلى أسرة تتحلل فيها كل الأشياء
أجساد تشابكت ولذات تعبت وسعادة سعادة تبدأ من جديد
العناق الطويل كرقم في جسد عيناه انسكتنا
يا حياة يا موت لا توقف ضجعتك التي تساوت في ظل مستقر
أضرب أقوى زد في القوة ما دام هنا هو الحفل الأخير
أذرعة اتمدت وافتترقت أضرب الأرق الأخير
يا حياة يا موتاً مزدوجاً انكاراً أن التناسق يمكن فينا

٢

الزجل الحقيقي حتى الموت

يا بستاني من ماء عذب وظلّ
رقصي أن أكون قلبي مظلم
سماثي نجوم لا تحصى
قاربي حلو تجديفه بعيداً

سعيد من مات حباً

لغيري النهاية المرّة
كما الطائر يصنع وهمه
ويذهب النهر إلى البحر
أو يرحل الزمان دخانا

سعيد من مات حباً

سعيد من غدا أطرش
على غناء ليس عن حبه
أعمى عن يوم ما بعد يومه
عيناه عليك وحدك مطبقتان

سعيد من مات حباً

حباً عظيماً يغلُق الشفتين
فيغدو وما به حاجة لشيء
غير ذكرى الورد
تعطر منك إلى الأبد

سعيد من مات حباً

ذاك الذي يموت غذاباً
الذي العالم عنده من دونك خدعة
الذي لا يذكر غير ألوانك
الذي يكفيه أنه سمأك

سعيد من مات حباً

قال يا ابنتي يا روعي العزيزة
الزمان الذي عرفتك يا امرأة
الخلود ليس سوى اغماءة
في النار التي تأكلني

سعيد من مات حباً

قال يا امرأة وليسكتُ
عن الاسم الذي يشبه الجمرة
الاسم الذي يشبه الفم الأحمر والفريزة
التي تكونت بين أسنانه إلى الأبد

سعيد من مات حباً

قال يا امرأة وتنتهي
هكذا الحياة هكذا الحلم
أكان ذلك في ساحة الاضراب

أم في السرير المألوف

سعيد من مات حباً

يا عشاقاً شباناً انه عمر
دخول الحلبة والسفر
مجنون ذاك الذي يظن أنه حكيم
اصرخوا في وجه من يلومكم

سعيد من مات حباً

٣

يا زنديق

حلم في ساعة ضعف أنه كان جالساً حدّ الزيفونة تلك التي جرى كما تعلم
عنها حديث يكاد ينتزع الروح
قريباً من بستان المروة
شجرة خضراء شهباء على الطريق العريضة مشرعة لعاصف الريح
تذكر فيما قيل بالذي ينسى الله فينساه الله
ربماً لأنه طوال حياته فشل في حمل الثمر
ربماً قد تاهت خطاه لأنه لم يؤمن
وهوذا وقد حطت عليه هامة طير عظيم
أعرفه أعرفه لطول ما انتظرته
أو أنه ما كان غير ظلّ يسبق الانسان
لما دخل الغرفة في عناء السفر
وكنت أسمع قدميه العاريتين على البلاط الحارق
دخل الغرفة وطرد الخادمة
وقال بذاك الصوت الذي يأتي من بعيد في الصحراء
دعوني وحيداً مع الذي خلقتة

هذا أنت اذن أيها الاله الذي يشبهني
حتى لأجدني ان ركعت قدامك كأني أمام مرآة
أو أنك أبي كما جاء في الكلمة
حدثني اذن عن لذة أمي لما أولدتني
أكانت عيناها ناعستين كخمر بنفسج
وأنت كنت تعرف جيداً أنك تحرق شريعتك
لأنها كانت امرأة رجل آخر وأنا ابن الخطيئة الالهية
قضيت حياتي بانكارك

أصغ في الساعة التي أتلاشى فيها أتظن أن الحقيقة ليست على شفتي أصغ
أقدر أن أقولها بوجهك أنت لا وجود لك
لو كان اله كيف يمكن أن تموت صورته
أنت الرمل الذي تبعثر قدمي الفانية
نصري هو آخر نفس يحوك كدليل أقدّمه
اضطرب ما شئت في هذه الغرفة قبل أن أحول صمّاً
اضطرب يا زائر الدقيقة الأخيرة
أنت الذي جئت توطّد النظام وتجلو الريب عن ابتسامه الميت
أنت الذي تخلط الكلمة وتستلّ التنهدة الأخيرة في انتفاع لصرّ
فإذا جلست على صدري تستطيع أن
تثقل بكل وزنك وهو عدم ليس منه ترزح أضلاعي
ولا يلتوي فمي من اسم هو ليس اسمك
أحقاً أنك تفرض على نفسك المشقة في كل انسان
فتأتي كي تعطي معنى لرحيله وتأخذ نهارك من ليله
آه انك لا تستطيع فهم سخري
وذاك الفرح الغريب أن الماء سوف تظل من دوني تجري في البستان
ويأتي من دوني الفجر فيعتمد بمرفقيه على الربا

لقد مررت أنا في هذا العالم دون أن أثبت الله هل تفهم
هذا العيد في أذني الأخيرة لقد
رقت طويلاً طويلاً لحظة ذاتي هذه
هذه اللحظة التي أرمي فيها نفسي كشياب فأكون

في النهاية كامل العربي
وحيداً وذاكرتي تمحي فيها عيناي البخيلتان
على كل ما رأيت كل ما أحبيت
كل ما احتفظت به لي وحدي في هذا العالم

ولا تنخدع بما تظنه الألم
انه صيحة أخيرة من الجسد الذي يسخر منك
يا موت يا اله أياً ما كان اسمك
تستطيع أن تحتفظ لنفسك بخوفك وجنتك

ثم رفع مرة أخيرة حجر جفنيه
كل شيء كان على عادته في البيت
كان هناك من يغني في البستان أو أنها نار أوراق
نهض ونظر إلى كل شيء في مكانه وابتسم

ثم دون أن يهتم بارتداء ثيابه كتب هذه الآية من سورة خيالية يا زنديق
لن تجدف على اسم الاله لأنه لا وجود له

قد تجدون مفارقات املائية بين نصّ القصيد ونصّ المعجم ، عن هوى حيناً
وعن اهمال حيناً آخر ، الرجاء أن يعطي القارئ الحق دائماً للمعجم فهو يسمح له
بتصحيح الأغلط ، إرادياً كانت أم لم تكن .
عضواً عن أخطاء المؤلف

تلك ترجمة حرفية لأصعب كتاب فرنسي مهماً أعلم أو قرأت . أردت أن أثبت أن اللغة العربية قادرة بمرورتها العجيبة على كل الألوان مهما كانت فذلكه الكاتب ، تطوي كل الرياح ، تنطوي مع كل الرياح كبساط سحري شفاف براق ، قوس قزح فيه كل بهرج الأمطار والشموس ، ومعاني الذات الانسانية كيف كانت تجلياتها وعبقريتها .

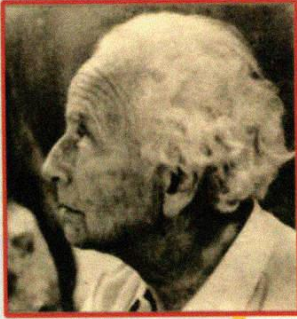
كأن أراجون أراد أن يضل القارئ في ما ابتدع من متاهات . قلد الأسلوب العربي القديم ، أيام سقوط غرناطة ، كي يضعنا في ذلك الجو ، فعمد فيما عمد إلى عدم وضع النقط في الجزء الأكبر من جنونه بالسا . كذلك كانت الترجمة سرت على دربه لم أجوزها .

لكنني واجهت ظروفاً لم أتمكن من تفاديها . أحداث لبنان ! كنت أعمل وحوالي الدمار والدم والقنابل المجنونة . لم أتوقف . أردت أن أكون مجدياً على طريقيتي . . . ثم الاسكندرية ، عودة إلى التجوال من دون هدف ، غير القرية البعيدة وغبارها المستحيل على عيني العاشقة . . .

جهدت في أن تكون الترجمة بلا خطأ . . . لكن !
عفواً عن أخطاء المترجم .

الفهرس

١٩	غرناطة
٦٧	أغانى المجنون
١١٥	الحياة الخيالية للوزير أبى القاسم عبد الملك
١٣٥	١٤٩٠
١٨٥	مثال مدرب الرقص
١٩٥	١٤٩١
٣١١	عشية أخذت غرناطة
٣٣٣	المغارة (١٤٩٢)
٤٠١	خاتمة (١٤٩٢ - ١٤٩٥)



لوييس آراغون

هذا الإبداع

كل من يكتب عنه ملزم بكتابة شيء عن السا لأنه يعتبرها ملهمته، ومعلمته وقائدته، وانه ليس شيئاً من دونها، وان كل ما كتبه من قبلها (صفر)، وانه لم يشع إلا بوجودها، وهو يرى انه مادامت كذلك فكل كتابة عنه دون الإشارة إلى أنها هي العبقريّة، وهو انعكاسها، هو افتراء على الحقيقة.

"لذلك تراني أوداريها من اجله". هكذا قال مارسيناك- الشاعر واقرّب تلاميذ آراغون إليه- للمترجم عندما سأله عن سبب إقحام "السا" في مقولة كتبها عن آراغون.

((تطرقنا في الحديث إلى " مجنون السا" وجدت أنني افهم روحه أكثر من أصدقائي الفرنسيين، ودللتهم على مواطن فيه كانت خفية عليهم منها تقليده للأوزان العربية))...

قال مارسيناك: انتم العرب لماذا لا تصنعون شيئاً من أجل هذا الكتاب؟ كل الأوساط الرجعية كانت ضده، لأنه أبرز مميزاتكم كشعب حضاري..

لم كن أتصور أنني سوف أترجمه ذات يوم، وأتغلب على صعوبات اللغة.

لقد استطاع المترجم بعد أن توحد مع آراغون لغة وتوجهاً، أن يعرف الكثير عن حياته، أن يفك الكثير من ألغازه من خلال الصداقة الوثيقة التي قامت بينهما، لذا نجح المترجم - بشهادة كبار النقاد- بنقل الروح الشعرية لدى آراغون، لاسيما في رائعته التي أهداها إلى رائعته السا.. وكان هذا الإبداع الذي يقترب كثيراً من روح القارئ العربي لأنه أشد التصاقاً بالخيال، الذي عرفه العربي عند عظمائه ومبدعيه...

الناشر



عالم المعرفة
مجنون السا

B 1 رواية

S.P400



1 1 1 8 4 9